الطبعة الأولى

سيزيرين

Caesarean

رواية

خالد ذهني

تقديم د. محمد المخزنجي

سيزيريّن

قصة د. كريم رأفت طبيب أمراض النساء والتوليد

خالد ذهني

دار المصري للنشر والتوزيع

سيزيريّن (قصة د. كريم رأفت طبيب أمراض النساء والتوليد)
خالد ذهني

تصميم الغلاف:
مي مجدي

المراجعة اللغوية:
حنان الشافعي

الطبعة الثالثة مايو ٢٠١٤

رقم الإيداع: 2013/19497
ISBN: 978-977-6378-73-5

المصري للنشر والتوزيع

المدير العام: يوسف ناصف

عمارات العرائس
المعادي الجديدة – القاهرة
+2 01064378376
+2 01146335098
info@elmasrypublishing.com
www.elmasrypublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إليكترونية أو في وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

مقدمة الطبعة الثالثة
بقلم الدكتور محمد المخزنجي

هذه الرواية أسرتني على امتداد أربعة أسابيع، كان يمكنني قراءة صفحاتها الخمسمائة وستين في ثلاثة أيام أو أربعة ، لكنني ما أن اكتشفت مفاجأتها المبهجة وعميقة البساطة، حتى قررت أن يمتد استمتاعي بها أطول وقت ممكن، فكنت أقرأ منها مساءً قِسطًا محدودًا لا أتجاوزه، يجعلني أقهقه بصوتٍ مرتفع، فأُثير غَيْرة من حولي، يريدون أن يضحكوا معي، ولم يكن ذلك ممكنًا، فمتعة قراءة الأدب، كما تأليفه، تظل عملًا فرديًا، وفتونها وشجونها تظل فرديةً أيضا، لكنها فردية مشعة كما الضوء في النهاية، تُنير ويمتد نورها إلى أبعد كثيرًا من مصدرها، لقد كانت متعةً نفسيةً ومعرفيةً وجمالية، آثرتُ أن أستبقيها معي أطول وقت ممكن، لكنها كما كل شيء في عالمنا البشري، لابد له من نهاية، والنهايات تنطوي حتمًا على شجن، لكن الشجن هذه المرة كان يُضحك، ضحكًا مجلجلًا كريح منفعلةٍ تُطيِّر هشاش الأرض، لتعيدها للإنسان عفية نقية كما وليدٍ غضٍ، خرج بإبداع مشرطِ جرّاحٍ فنانٍ لعوبٍ وماهر، من قرارة الرحم والجرح إلى وجود جديد، بعملية قيصرية: سيزيرين!

في هذه الرواية الساخرة بجد، وبلطف بديع، لَعِبٌ من يُتقنون فن الكاريكاتير، في الرسم كما النثر، فبمجرد لمسة تغيير للنسب بها مبالغة حميدة، تتحول الصورة إلى فخ للمرسومة أو المنثورة ملامحه، تُضحك منه خلق الله، وتفضح المعووج من سرائره وخبايا أفاعيله، هذه هي معجزة السخرية، وقد عرَّت في هذه الرواية عشوائية وهمجية ما نعرفه في أكثر من موقع مما ندرك خباياه نحن الأطباء، وغير الأطباء، وفضحت فجاجة الاستبداد في كثير من أركان الدراسات العليا بجامعتنا، كما ربتت بأسى وأسف على كتف الجهالة والبؤس الشائعين في ملح الأرض. وبرغم سخريتها عالية العبث بالمهازل والهازلين، إلا أنها حَشَدت في بناءٍ روائيٍّ مُقنع، زخمًا معرفيًا في إطار التخصص الطبي الذي تدور على أرضه اشتباكاتها، وبطريقة سلسلة ومُيسرة على غير الأطباء، كما أنني بُهرت بالدعم المعلوماتي الزاخر من تاريخ الطب وخاصة تاريخ منجزات تخصص أمراض النساء والولادة، واللطيف أن ذلك الخيط عميق الجدية الثقافية، لم يُثقل خفة دم كتابة الرواية، بل حلَّاها.

هذا كله، وبرغم ضيق حيز الكلام، يجعلني أراهن على الفنان الدكتور خالد ذهني كفارس من فرسان الكتابة العربية الساخرة بجد، والكتابة الجادة بلا مُعاظلة، فهو ليس فنانًا فقط، بل مشتغلٌ بالعلم والطب في مدارج رفيعة الصعود، وهذه مُعادلة ليست جديدة في الأدب، لكنني أتصور أنها ستكون معادلة كاسحة، ولا أنكر فيها فرحي وانحيازي لأبناء مهنتي الأصلية، لكنني أظن أنه فرح مشروع، وانحياز مُبرَّر.

محمد المخزنجي

القاهرة في ٢ مايو ٢٠١٤

إهداء

إلى قيثارة الوجدِ

..... وإطلالة السَّعدِ

إليكِ يا ترنيمة الطفولةِ

..... وواحة سنوات العمرِ

تنويه

هذه القصة من نسج خيالي، أي من قبيل الخيال الأدبي للمؤلف.

جميع الشخصيات التي ظهرت في حكايات هذه القصة هي شخصيات تخيلية، أي يستحيل تواجدها على أرض الواقع، كما أن جميع الأسماء مستعارة وأي تشابه بين شخوص الحكايات وأشخاص حقيقيين في أي موقع هو صدفة غير مقصودة ولا متعمدة، وأساسًا لا يوجد فرع في الطب اسمه أمراض النساء والتوليد، ولا يوجد بين بني البشر جنس اسمه النساء.

«كانت ضرباتُ قلبه خافتةً ضعيفةً..
على الشاشةِ أدركتُ أن الحبلَ السُرّيَ يلتف حول عنقِه كأنشوطةٍ..
خُيّل إليّ أنه يشير بيده بوهنٍ ويأسٍ.. شعرتُ به يختنق في العتمةِ وحده..
فحصتُ سبيل الخروجِ فوجدته تام الإيصادِ..
صكَّ سمعي صوت ضحكاتٍ وقهقهاتٍ حولي..
صحتُ بكل ما في صدري من حياةٍ:
«سيزيريّن بسرعة يا ولاد الكلب».....

خالد ذهني

تمهيد

أنا الدكتور كريم رأفت، الطبيب المقيم بقسم أمراض النساء والتوليد بأحد المستشفيات الجامعية في مدينة مصرية وهذا العمل هو قصتي.

ورغم أن هيئتي ورسمي لا أهمية لها لأنني من نسج خيال المؤلف، إلا أني أقدم نفسي على أني شاب عشريني، متوسط الطول، عريض المنكبين نحيل الخصر، ذو شعر غزير شديد السواد وعينين واسعتين شديدتي السواد أيضًا، قمحي البشرة، تشي ملامحي بأنني عربي من تراب هذه البلاد العريقة، ولن يصعب عليك أن تدرك أني أعبث بخيال الفاتنات لأني أصف الممثل العالمي عمر الشريف.

تحديد المدينة التي يقع بها المستشفى أيضًا لا أهمية له، ذلك أن قصتي تتكرر في كل مستشفيات بلادنا.. فلك إذًا حرية اختيار مدينتك المفضلة، في دلتا نهر أو في صعيده، في صحراء شرقية أو غربية، على ساحل بحر أبيض أو أحمر، على قمة جبل شامخ أو في أحضان وادٍ حنون، في مصر أو في أي مدينة من مدن عالمنا العربي الكبير، ولو تُرك لي الاختيار، لاخترت مستشفىً جامعياً بمدينة ساحلية جميلة ذات إطلالة بديعة، على بحر فيروزي رائق، يغشاه موج هادئٌ حينًا وهادرٌ أحيانًا أخرى، يعابث سفنًا

تمتلئ بها صفحة الماء، فتتراقص كأنها عرائس البحر الأسطورية، تتوق لشاطئ رماله كأنها حبات من ذهب تلمع تحت أشعة شمس وهاجة، تصهرها فتزداد بريقًا وألقًا.

ماذا تعني سيزيريّن؟

هب أنك في حجرة الولادة، وأمامك جنينًا قد انغرز في مجرى الولادة لكنه فشل في اجتيازه فتعثر في الخروج إلى الحياة، واضطرب نبض قلبه حتى صارت حياته هو وأمه في خطر، فصاحت فيك أمه "إلحقني بموت يا دكتور"، ثم بالضرورة استطردت قائلةً "شج بطني بسرعة أبوس إيدك"، ببساطة ما تقصده هذه المرأة هو "سيزيريّن" أو ولادة القيصرية، الحل الضروري لإنقاذ حياة جنين امرأة من كل أربعة حوامل حاليًا في العالم (في مصر ٢٨٪ من الولادات تنتهي بقيصرية)[١]، متى استحال ولادته بالطرق الطبيعية، وأوشك الأصل والفرع على الهلاك، وصار الحاضر والمستقبل مهددين.

يسود اعتقاد أن الاسم "سيزيريّن" مرتبط بولادة يوليوس قيصر Julius Caesar، وهذا غير دقيق. ففي زمن الرومان، كان ميلاد طفل بشق بطن الأم لا يتم إلا في حالة وفاتها أو احتضارها، لأنها كانت جراحة تنهي حياتها، بينما المعروف أن أم يوليوس قيصر "أوريليا كوتا Aurelia Cotta" ماتت وعمره ٤٤ عامًا. ورغم الاختلاف على مصدر التسمية، يعتقد أغلب علماء التاريخ أن الاسم سيزيريّن أتى من القانون الذي فرضه القيصر والذي ينص على منع دفن أي امرأة وجنينها في بطنها، مما حتم شق بطن المرأة وإخراج الجنين قبل الدفن[٢]. وعلى كل حال،

طيب الله ثرى من بدأ هذه الجراحة الخالدة التي تنقذ كل يوم آلاف الأرواح حول العالم، وتنقذ مئات أطباء أمراض النساء والتوليد من الفقر والحاجة.

في وقت ما قبل البداية..

انتهت سنواتي بكلية الطب وأنا منكب على دراستي مداوم على تفوقي فتهيأ لي الالتحاق بأحد أقسام الكلية لأتدرب بها. احترت في اختيار الفرع الذي أهواه كي أتخصص فيه، فلما بدأت سنة التدريب العام في أفرع الطب المختلفة والمعروفة بسنة الامتياز، كان ما كان، وتحدد مصيري..

تشاء الأقدار أن أبدأ التدريب العام في سنة الامتياز في قسم أمراض النساء والتوليد بالمستشفى الجامعي المطل على كورنيش البحر. شُيِّدَ المستشفى في وقت ما من القرن المنصرم على مساحة شاسعة وبإطلالة متميزة على كورنيش المدينة العتيقة منافسًا في ذلك أجمل فنادق المدينة، ومن اليسير أن نلحظ أن تصميم المستشفى ـ وهو شرف لم يدعه أي معماري ـ قد اكتفى بإطلالة المستشفى على البحر وتوسطها لدغل من الأشجار المتنوعة والنخيل الباسق، كعناصر وحيدة للجمال في البناء، فجاءت واجهة المستشفى قبيحة كواجهة السجون بنوافذها الضيقة وحوائطها الصماء الرمادية المفتقرة لأي زخرف أو نقش، على أنه يحمد له ـ أي للتصميم ـ ارتفاع سقف حجراتها مقاربًا للثلاثة أمتار واتساعها،

وزيادة عرض طرقاتها عن بعض شوارع المدينة حاليًا.

ويضم المستشفى عشر وحدات، يرأس كل وحدة منها أحد الأساتذة، يقبع على سدرتها حتى يبلغ سن الستين، يعاونه مجموعة متدرجة في الأقدمية من أعضاء هيئة التدريس من أساتذة وأساتذة مساعدين ومدرسين يحملون جميعهم درجة الدكتوراة، ثم مدرسين مساعدين يحملون درجة الماجستير، وأخيرًا أطباء مقيمين (نواب) يطمحون في التخصص في الفرع والحصول على درجة الماجستير.

ويقضي نظام المستشفى بأن يوزع أطباء الامتياز عشوائيًا على وحدات المستشفى العشرة، على أن صديقي إسماعيل توفيق النائب المسئول عن الوحدة الرابعة استطاع اتخاذ التدابير اللازمة لأستلم عملي في وحدته كي يقف بنفسه على جودة تدريبي ويدفع عني سخافة النواب وشرورهم كما قال لي، وكي أكون وكيلًا عنه و"ستر وغطاء" كما أراد التزويغ كما أثبتت التجربة العملية فيما بعد، وفي اليوم الأول وجدت أني قد كلفت بمسئولية مناوبة أو"نوباتجية" الليل في قسم الاستقبال بالمستشفى، فانكفأت بحماس أسترجع من دفتري تعليمات صديقي النائب إسماعيل التي تلاها علينا في محاضرة الصباح عن حالات الولادة وفحص عنق الرحم وسماع نبض الجنين وكتابة تذكرة (ملف) المريضة استعدادًا للمساء.

كانت ليلة الأول من مارس ذلك العام ليلة عاصفة عطرة، جثمت فيها نوة "الشمس الصغيرة" التي جاءت متأخرة هذا العام، على سماء مدينتنا الساحلية، فألزمت سكان المدينة بيوتهم وخلت الطرقات من المارة والسيارات إلا من بعض تعساء الحظ الذين اضطرتهم أعمالهم للخروج فخاضوا مترجلين أو بسياراتهم طرقاتنا الغارقة في مياه المطر والتي تعجز بلاعات الصرف المسدودة دائمًا عن تصريفها. بدأت

نوباتجيتي في الثامنة مساءً ومضى الوقت بهدوء حتى انتصف الليل ولف السكون جنبات المستشفى، فاستأذنتني ممرضة الاستقبال المناوبة معي في الذهاب للنوم بدعوى الإرهاق. ران الصمت من حولي وتثاقلت جفوني وكادت أن تتلاقى، لولا أن شق سكون الليل جلبة أحدثها وصول خمسة رجال بجلاليب وعمائم وعصي، برفقة امرأتين متشحتين بالسواد قد غطى الوشم الأخضر وجهيهما، وبصحبتهم حسناء فاتنة ذات قامة فارعة رشيقة، تُضيء محياها بشرة عاجية وعينان سوداوان يجري السحر في حورهما والأهداب، عمرها بين الـ ٢٤ و٢٨ عامًا، ترتدي "تايراً" سماوياً أنيقاً بالكاد لامست حافة تنورته السفلى ركبتيها، وفشل الوشاح الأزرق الذي غطت به كتفيها في إخفاء صدرها المكتنز، ويفوح منها عطر جذاب ينشر السحر والوهج..

ولج الرجال إلى غرفة الاستقبال وتبعتهم المرأتان وأخيرًا الفتاة التي تهادت على استحياء وقد امتلأت عيناها بنظرة انكسار!

أحد الرجال وكان عملاقًا عظيم البنيان، أبيض الوجه مشربًا بالحمرة، بخطوط غائرة تملأ جبينه ووجنتيه، وعينين غائرتين تختفيان أسفل حاجبين كثيفين أشعثين، ويشبه طائر الرخ العملاق المنقرض، سعل سعلة عالية وكأنه يوشك أن يبصق رئتيه، ثم قال وهو يرفع يده بالتحية:

- سلام عليكم

- .....

فلما رأى تجاهلي له وعيناي التي تعلقت بالمليحة الفاتنة، ضرب الأرض بعصا كان يتكئ عليها ونظر إلي شزرًا وعاد يقول:

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob

- سلام عليكم، يا دكتور..... خليك معاي إحيات أبوك شوية.

أجبته ولم تزل عيناي ترتويان من سحر وجه نبية الجمال الوافدة إليَّ برسالة الحسن، التي أطرقت خجلًا من نظراتي:

- خير، ألف سلامة عليك يا حاج.

- الله يسلم.. سلامتي كيف؟ يا دكتور.. خليك معايا.. بدنا تكشفلنا عل البت دي!

تحرك الرجل الرخ حتى حال بين عيني والمليحة، فانتابني الضيق وأطلقت عيني تبحث عنها من جديد وأنا أقول له:

- تؤمرني يا حاج أكشفلك عليها، بس خير مالها؟ ما هي زي الورد أهه!

فضرب الرخ الأرض من جديد بعصاه وقال بغضب وهو يشير للفاتنة:

- وهو لو خير يا دكتور كلاتنا جاينلك وساحين التلات بجرات دول ليه يعني؟ جايين نلعب معاك دور "وأي بلاتيشن" إياك؟... بدنا نتوكد إهي بت بنوت ولا.

"بنت"؟ هل احتاج القمر "لنيل أرمسترونج" كي يشهد له أنه قمر؟ هل نطالب الورود بمن يشهد على سحر أريجها؟ إن لم تكن هذه الفاتنة بنتًا فلا عرفت البشرية "بناتًا" من قبل! بنت بنوت؟ ألم يقطع الرجال قلف قضبانهم في الأزمنة السحيقة ويجمعوها عقدًا يزينون به أجياد تماثيل الآلهة الأنثى في المعابد، فتكون دليلًا على طهارتهم بالدم واستحقاقهم

لشرف مضاجعة الأنثى التي هي صورة الربة على الأرض؟ كل الرجال في بلادي طاهرون، فكيف يلام على طامح فضه الغشاء عن أيقونة الجمال لينهل من حبها؟ ألم تخلق آلهة الجمال حتى يرفع العباد أكفهم إليهن بالرجاء لينهلوا من نبع جمالهن؟ عدت أتفحص سفيرة الحسن والجمال، فجرى بصري على الجيد، فالمنكب فالثدي الناهد ثم الخاصرة الخميصة وأخيرًا الفخذ اللفاء، وقفز لذهني قول فاروق جويدة(*):

ولو أن إبليس يومًا رآك

لقبل عينيك ثم اهتدى

ران الصمت حولنا حتى قطعه خوار الرخ:

- عاتبحلج للبت وما تردش ليه يا دكتور...صعبة دي؟؟

أفقت من شرودي على هول ما يطلب مني هذا العتل، "كشف عذرية"؟ بدى لي الأمر أنه من خارج المقرر الدراسي كما لم يرد له ذكر في محاضرة صديقي النائب إسماعيل توفيق هذا الصباح.

تصنعت الوقار اللازم للتخلص من المرضى وقلت للرخ وأنا أحدجه بنظرة عميقة:

- الحقيقة يا حاج كشف العذرية اختصاص الطب الشرعي أو العيادة الخارجية، بكرة الصبح إن شاء الله.

زفر الرخ فشعرت بلفحة هواء ساخنة تلفح وجهي تكاد تحرقه

(*) فاروق جويدة ـ شاعر مصري.

فأغلقت عيني، واقترب مني فرأيت شدقه الفاغر الشاغر، ككهف رحل عنه سكانه من الأسنان تأففًا، وشممت رائحة فحل البصل الذي يبدو أنه غذاء هذا الفصيل من الكائنات وقال:

- ما فيش بكره يا دكتووورر هي ما هيطلعش عليها نهار! أني هنطخها إهنيه!

شرع الرجل يتحسس جيب جلبابه وبدا لي أنه عازم على تنفيذ جريمته فاستمهلته، وانطلقت أبحث عن مغيث. هرعت إلى صديقي إسماعيل توفيق النائب النوبانجي أبلغه عن مأساة المليحة - وإسماعيل حين يتكلم تذكرك طريقته بالراحل العظيم توفيق الذقن - فقال لي:

- لالالا يا كيمو، إحنا مالناش في كلام الشرف والعار ده، وزعهم على العيادة بكرة الله لا يسيئك، مش طالبة بوليس وقلق ودم وطرطشة، أه ده البالطو لسه مغسول يا كيمو.

يئست من صديقي النائب فتركته ومررت على من وجدته من النواب أستنجد به لكن رفض جميعهم بأدب أو بدون أدب..

عدت إلى غرفة الاستقبال أجر أذيال الخيبة، فوجدت الرجل يداعب بحنان ودعة طبنجة سوداء براقة لها مقبض من الفضة منقوش عليه رسم أزهار وأوراق أشجار، كان قد وضعها أمامه على المكتب، فخفق قلبي وقلت للجمع وعيناي معلقتان بالفتاة:

- بكرة يا حاج إن شاء الله!

التقط الرجل قرة عينه الطبنجة ووجهها نحو الفتاة وهو يقول:

- يبجى نجتلها على سبيل الإستحراص!

- أفندم؟

- كيف ما سمعت، ما هيطلعش عليها النهاررر يا دكتتووورر، وخر يا بوي، فوتي يا بت جدامي.

تذكرت لحظتها قسم أبقراط الذي أقسمناه منذ شهور، وشعرت بغصة في حلقي لرؤية هذا الجمال الفاتن وهو يساق للموت كما الخرفان، وهالتني نظرات الرعب على وجه المليحة وقد تعلقت عيناها الزائغتان بي مستغيثةً، فاستجمعت شجاعتي وقلت للرخ وأنا أزدرد ريقي بصعوبة:

- استنى يا حاج، أنا، أنا، أنا هأكشف عليها.

تنفست الفتاة الصعداء وعادت الحياة لوجهها، فاستدركت قائلًا:

- بس من غير تقرير.

أعاد العتل الطبنجة إلى جلبابه وقال بحزم:

- مالوش عوزه التحرير يا دكتوور، هي كلمة واحدة، بت ولا.. ندفنها جبل الفجر

ممرضة الاستقبال كانت تغط في نوم عميق، فطلبت من المرأتين المرافقتين للفتاة أن تتبعاني والفتاة إلى حجرة الكشف.

خطت الفتاة بتردد داخل الحجرة وشرعت تنزع ثيابها استعدادًا للكشف فتورد وجهي حياءً وأسرعت أدير لها ظهري حتى إذا ما استلقت على سرير كشف أمراض النساء المعدني، قالت بصوت رخيم يعابث الغرائز:

- اتفضل يا دُكتر.

دنوت منها ووضعت مصباح الكشف بين ساقيها وأنا أتعثر في خجلي..

وفجأة، اكتشفت أني لا أعرف كيف يبدو غشاء البكارة ولا كيف أجده.. تصببت عرقًا وحاولت جاهدًا أن أتذكر الوصف التشريحي من كتاب تشريح السنة الأولى، أو كتاب أمراض النساء في السنة الخامسة في كلية الطب، لعلي أستنبط طريقة الكشف دون جدوى..

من خلف باب الحجرة جائني صوت الرخ هادرًا:

- ما شايفش حاجة ولا إيه يا داكتوور، يبجى حُصل وبت يونس جابت روسنا في الوحل، وخر يا دكتوور لما أطخها وندفنها جبل صلاة الفجر ورانا مصالح عاد.

تماسكت وتجاهلت الرخ الهادر بالباب وقلت لها بوجوم:

- افتحي رجليكي شوية يا شاطرة.

فرفعت رأسها - وقد كشفت جهلي - وحدجتني بنظرة ماكرة وجريئة، وقالت ببراءة بعد أن باعدت ما بين ساقيها:

- كده كويس؟

فقلت متلعثمًا:

- أيوه آه تمام.. برافو عليكي...

أستغفر الله العظيم.....

إيه الظلم ده.....

بتك زي الجنيه الذهب ياحاج يونس.....

إخزي الشيطان وخد بنتك يا راجل.....

لاحول ولا قوة إلا بالله.....

انطلقت الزغاريد من المرأتين وقالتا في نفس واحد:

- الحمد لله، الدكتوورر عيجول البت بت بنوت يا عبواحد.

تملكتني الدهشة لسماع اسم الرخ فسألت:

- هو مش الحاج اسمه يونس؟

من خلف الباب جاءني صوت الرخ قائلًا باستهانة:

- يونس ده جاري ودي بته يا بوي، أني عبواحد وجيت أطخها خدمة يعني!

مازلت أذكر مشهد النفق بين ساقي الفتاة والذي يماثل نفق العروبة في اتساعه، والابتسامة الخبيثة على وجهها وهي تنهض وترتدي ثيابها بدلال ثم تخطو واثقة بعد إعلان براءتها، وتشد شاكرةً على يد الطبيب المغفل حديث التخرج الذي أنقذها من الموت المحقق، فكتب لها بمداد جهله وبتخاذل إسماعيل توفيق النائب النوبانجي عمرًا جديدًا.

ومرت على تلك الليلة سنوات وسنوات، كشفت خلالها على متهمات كثيرات، لكنني لم أنس أبدًا تلك الابتسامة وتلك الليلة.

ففي تلك الليلة، وقعت أسير عالم السحر والجمال والغموض، والأسرار والحكايات التي لا تروى ولا تحكى، وفي هذه الليلة قررت أن أكون طبيبًا لأمراض النساء والتوليد.

الفصل الأول

البداية

وانتهت سنة الامتياز وبدأت سنوات النيابة، وحملت لقب طبيب مقيم، أو ما يعرف بالنائب، ذلك أن لكل وحدة ثلاث أطباء مقيمين أو ما يعرف بالنواب المقيمين، وهو مصطلح جامع واصف لمهمة هؤلاء في المستشفى، فهم "نواب" لأنهم ينوبون عن أي شخص من الأستاذ إلى الممرضين إلى العمال، و"مقيمون" لأنهم متواجدون بصفة دائمة في المستشفى، يتعاقبون عليها كالليل والنهار، بحيث لا يخلوا منهم المكان أبدًا.

وينتمي الثلاث نواب إلى ثلاث دفعات متعاقبة، أحدثهم النائب الجونيور Junior مثلي أو النائب في عامه الأول، ويكبره النائب الميد ـ سينيور Mid Senior الذي أمضى عامًا كاملًا في المستشفى وصار الآن في عامه الثاني، وأخيرًا النائب الأقدم ويلقب السينيور Senior الذي أمضى عامين، وصار الآن في عامه الثالث والأخير، والذي إذا ما قضاه، غادر المستشفى وصُعِّد الميد سينيور مكانه، والجونيور إلى ميد سينيور وانضم إليهم نائب جونيور جديد حديث التخرج.

يقضي النائب عامًا كاملًا ـ تسمى شيفت ـ في إحدى الوحدات

العشرة مع اثنين من النواب، ثم يعاد توزيعه على وحدة أخرى مع نواب آخرين، وهكذا حتى ينتهي من سنوات نيابته الثلاث وقد مر على ثلاث وحدات وثلاث مجموعات من الأساتذة.

وعلاوة على العمل في العيادة الخارجية للمستشفى وفي الوحدة، في مباشرة وتشخيص وعلاج المريضات الشاكيات من أمراض نسائية مثل النزيف المهبلي أو الأورام أو خلافه، يكلف النائب بشكل دوري بمناوبات مسائية بعد مواقيت العمل تسمى نوبانجيات للقيام بمهام محددة، وربما يكون من المفيد هنا المرور سريعًا على نوعيات هذه النوبانجيات حتى نفهم طبيعة العمل:

- **نوبانجية الحوادث:** هي نوبانجية من ٢٤ إلى ٧٢ ساعة حسب ظروف العمل، يكلف فيها النواب الثلاث لوحدة ما من الوحدات العشر بأعمال عنبر الولادة والاستقبال وكل الحالات الطارئة من حمل خارج رحم والنزيف المهبلي وخلافه.
- **نوبانجية الإجهاض:** يكلف فيها النائب الجونيور بعلاج حالات الإجهاض، فيبذل المذكور كل غال ورخيص لمنع الإجهاض إن كان الحمل لا يزال سليمًا، أو يفرغ محتويات الرحم إن كان الحمل قد فسد.
- **نوبانجية التبليغات:** يستدعى فيها نائب أمراض النساء والتوليد لمناظرة الحوامل أو المريضات اللاتي يشكين من أعراض نسائية أثناء تواجدهن في أقسام خلاف قسم الأمراض النسائية، كأن تكون امرأة حامل ومحجوزة في قسم العظام بعد حادث سير، أو مريضة في قسم الأمراض الباطنية وتشكو من نزيف رحمي،

وتصنف أهمية الاستدعاء (أو كما نسميه التبليغة) وبالتالي سرعة الاستجابة له حسب وضع المريضة، ويبدأ بـ"عاجل جدًا" وتعني ببساطة "لو ماعندكش حاجة تعملها تعال اشرب الشاي عندنا واسمعلك من تمريضنا نكتتين على ضحكتين مايصين، وبالمرة بصلنا على الولية دي" ويتصاعد حتى الـ"عاجل مليون" ومعناها" سيب اللي في إيدك وتعال لنا حالًا وإلا فيها تحقيق وسين وجيم يا روح أمك"، ذلك أن المريضة في هذه الحالة تكون غالبًا قد اشترت بالحياة الموت وبقي فقط أن تشهد أنت على الصفقة.

وإضافة إلى نعت النائب في عامه الأول بـ"الجونيور"، فكثيرًا ما يلحق به نعوت أخرى مثل: "جونيور الهنا" وأحيانًا الغبرة، أو "المنيل أو المخفي أو الموكوس أو الخيبة اللي بالويبة أو المصيبة".

وأول ما يتعلمه الجونيور أن يخاطب كل من هو أكبر منه بلفظ "بك"، بما فيهم النواب الأكبر، كما يتعلم كيف يتجاهل التهكم المرير والسخرية اللاذعة التي يُقابل بها أينما حل. عمليًا يتدرب النائب الجونيور في هذا العام على قواعد الولادة الطبيعية ومعالجة حالات الإجهاض وحالات العيادة الخارجية، وبكثير من الجهد والمكر والمهادنة، وأحيانًا الرشاوي على هيئة هدايا عينية أو دعوات للعشاء، يتعلم كيف يجري الولادة القيصرية، أو بالأحرى تذكرة العبور للحياة الرغدة مستقبلًا.

كنت إذًا جونيور الوحدة، وكانت نائبتي السينيور الدكتورة ليلى راجح، ونائبتي الميد سينيور الدكتورة وفاء مخلص. ليلى راجح كانت فتاة هادئة الجمال، تميل إلى البساطة في زينتها، وهي رغم قدها الممشوق وشعرها شديد السواد ونعومة تفاصيل وجهها وثناياها، كانت تعرض

عن الزج بجمالها وأنوثتها في العمل، بل وتميل أحيانًا للمبالغة الشديدة في صيغ مظهر خشن على ملبسها وزينتها. وعلى النقيض كانت وفاء مخلص، التي لم تحظ بنصيب شاف من الجمال، فاستعاضت عنه بالكثير من المساحيق والملابس اللافتة التي تبرز أنوثتها وتسهل عليها الإفلات من اللوم والتوبيخ عند من يقدس أي كائن بتاء مربوطة من السادة المسئولين.

كنا ثلاثتنا فريق النواب الخاص بوحدة الأستاذ الدكتور سامي عبد الرزاق، وهو رجل قصير بدين أكرش، جلد رأسه لامع بعد أن خاصم الشعر رأسه منذ ميلاده، رحب الجبهة واسع الشدق كبير العينين بأذنين طويلتين منتصبتين، صبغت أصوله النوبية بشرته بسمرة خفيفة، أعطته مع وجهه الصابح وكرشه المتدلي البيضاوي، شكلًا طريفًا أضاف إلى روحه المرحة وسرعة بديهته اللتين عُرف بهما، ثم هو معروف بمطّه لحروف كلماته وتأكيده على مخارجها كالراحل العظيم عماد حمدي في فيلم الخطايا وهو يقول "حسين يا إبنيي، أنت موووش إبنيي"!

في أول لقاء لي مع الأستاذ الدكتور سامي وضع يده الغليظة على كتفي وقال لي بمنتهى الجدية وهو يمط حروف كلماته:

- خلي بالك يا كريم يا إبني، أنت استلمت مع نائبتين كبار.. هه؟ نايبتين كبار، يعني مصيبتين كبار.. إنت متجوز؟

ازداد اضطرابي، وسرت اختلاجة يسيرة في صدغي أخفيتها بالضغط على أسناني، وأجبته:

- أيوه يا بك

- مبروك بقى عندك تلات مصايب!

ثم عاد يسأل:

- حماتك عايشة؟

فلما أجبت أن نعم قال:

- أربع مصايب، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وأثبتت الأيام صدق كلام الأستاذ، فاليد سنيور الدكتورة "وفاء" كانت مستهترة بشكل فج، ساعدها على ذلك نفوذها نظرًا لارتباطها بصلة ما بأحد كبار رجال السياسة والمال في المدينة، على النقيض من الدكتورة "ليلى" السنيور التي كانت مثالًا للتفاني والإخلاص في العمل، لكن وفاء أذهبت عقلها كما سنرى، ذلك أنه كلما كلفنا بنوباتجية الحوادث، تبادر وفاء بالإبلاغ بمرض ابنها، وتعتذر عن النوباتجية ونحمل نحن عنها أعباء العمل.

تكررت القصة أكثر من مرة، فقررت النائبة السنيور ليلى أن تشتكي للأستاذ الدكتور سامي رئيس الوحدة الذي دعانا للاجتماع به بعد انتهاء نوباتجية الحوادث وعودة وفاء. اجتمعنا في مكتب دكتور سامي، فرمقتنا وفاء باستهانة وقد حدست سبب الاجتماع، ثم تشاغلت عنا بالعبث في سلسلة مفاتيحها، بينما رمقتها ليلى بنظرات متحفزة، فلما رأت السكون والهدوء على وجهها، توترت وصارت تضغط على طرف شحمة أذنها السفلى كعادتها كلما انتابها قلق أو توتر. بعد قليل انضم لنا الدكتور سامي، وجلس إلى مكتبه وقد عقد حاجبيه ثم حدج وفاء بنظرة عميقة وقال بحدة وبدون مقدمات:

- ايييه الحكاااية يا ست وفاء، كل شوية تغيبي عن الشغل وزمايلك يلبسوا الشغل لوحدهم، ده ما اسموش شغل ولا دي أصول.

فرسمت وفاء نظرة الانكسار على وجهها وانسابت دموعها على وجنتيها فجأة وأجابت بكل انكسار:

- اعمل إيه بس يا بك، ابني الوحيد بيسخن والله.

فلاح الإنكار في وجه الدكتور سامي وقال مؤنبًا:

- ما كل العيال بتسخن، الناس كلها هتبطل شغل؟ إيه المياصة دي.

فعادت دموع وفاء للانسياب من جديد بعد أن كانت قد توقفت، وخطر لي أن أسألها لاحقًا كيف تضبط إيقاع الدموع، وارتعش جسدها من أثر النحيب خاصة ثدييها المحشورين حشرًا في الثوب الأحمر الناري المطل من تحت البالطو الأبيض، وبمزيد من الانكسار قالت:

- يا دكتور سامي حضرتك عارف قلب الأم، مستحيل أقدر أسيبه وآجي الشغل، لأني عاطفية وحساسة، ويمكن أعمل مصيبة في الشغل وأجيب للمستشفى وحضرتك مصيبة، وبعدين ده لما بيسخن بيقطع الأكل وأبقى لازم أرضعه.

نظر الدكتور سامي إلى النهدين المكتنزين وقال متسائلًا:

- يرضع ده إيه ده عنده بتاع خمس سنين؟

فرسمت وفاء على وجهها الخجل وهي تقول:

- هي عيلة جوزي كده يا بيه لما يسخنوا يرضعوا.

لم يرفع الدكتور سامي عينيه عن نهدي وفاء، وبدا لي أنه قد شرد في

تخيل أمر هذه الأسرة الغريبة، وانضممت إليه في النظر لنهديها وخيالاته الماجنة، وتساؤلنا المشروع إن كان هذا حال زوجها أيضًا حين تصيبه الحمى، فهل تلقمه ثديًا دافئًا طريًا حنونًا هو الآخر..

أفقنا على صوت ليلى تصيح بحنق:

- يا بك دي مش بتغيب غير بس في نوبتجية الحوادث.

فضحك الأستاذ ملء شدقيه وقال لها:

- وابنك ده مايسخنش صحيح إلا في نوبتجية الحوادث؟ ليه مركبة له ثرموستات؟

* * *

قدمت لكم الأستاذ الدكتور سامي عبد الرازق رئيس وحدتي، وزميلتي الدكتورة ليلى والدكتورة وفاء، ويطيب لي أن أقدم لكم الآن البروفيسور عرابي.

الزائر لمستشفانا يلمح على يمين البوابة، وبمعزل عن المستشفى، مبنىً قديماً من طابق واحد على شكل كشك صغير متواضع البنيان، سقفه مائل مغطى برقائق من القراميد، مكون من حجرة واسعة ملحق بها دورة مياه، وأمامه منظرة صغيرة وُضِعَ فيها طاولة وكرسيان خشبيان بسيطان من النوع المستخدم في المقاهي. وعلى النقيض من شكل الكشك الخارجي المتواضع، فالكشك من الداخل يشي بالفخامة والترف، بأرضيته التي غُطت بالقيشاني الأخضر المزينة أطرافه بنقوش وأطرٍ من وحي أفرع الأشجار، ثم الحوائط وقد دهنت بعناية بالأخضر الفاتح، تتوسطها نوافذ من زجاج غامق مؤطر بالألومنيوم تغطيها ستائر سميكة من

القطيفة الحمراء القانية. وبركن الغرفة الشمالي وضع مكتب من خشب الأرو، زُينت أرجله بحلى من النحاس على هيئة تماثيل لغلمان وجنان، وعليه لوح من زجاج مغبش، ثم طقم مكتبي بني من الجلد يتصدره لافتة من الخشب نقش عليها "الأستاذ سعيد عرابي - كاتب الاستقبال".

والبروفيسير عرابي كما يطلق عليه النواب، رجل في العقد الرابع من العمر طبقًا لتقديرات البعض، وإن بدا أكبر من ذلك بقده النحيل الهزيل وعينيه العسليتين الغائرتين، وشعيرات رأسه البيضاء التي زاحمت تلك السوداء، والوشاح المزركش الذي يربطه حول عنقه كرباطة العنق دائمًا صيفًا شتاءً، فيذكرك بالفنان الراحل استيفان روستي.

يعمل البروفيسير عرابي في المناوبة المسائية للمستشفى، كل ليلة، كل أيام الأسبوع عدا الأربعاء الذي يشارك فيه في "حضرة صوفية" في مقام سيدي البسطويسي. وطوال سنوات عمله التي بدأت مع افتتاح المستشفى، لم يُعرف عنه أنه قد تغيب ليلة واحدة، ولا تأخر عن الثامنة مساءً ميعاد بدء المناوبة أبدًا. وللرجل طقوس لا تتغير، فما أن يصل حتى يتفقد دفاتر تسجيل دخول المرضى التي تتراص على الطاولة في المنظرة، ثم يخرج مسطرته الحديدية من حقيبته فيخط خطًا تحت آخر اسم سجله من كان قبله من زملائه، ثم يكتب بخط كوفي بديع:

"من هنا يبدأ البروفيسير سعيد عرابي تأريخه لهذا الصرح"

ثم ينهمك في كتابة أسماء وبيانات المريضات اللاتي دخلن المستشفى بخطه المنمق.

أما السر وراء هذا الكشك الأنيق فيكمن في ليلة الخميس.

ففي ليلة الخميس، يُغلق المستشفى قسم الاستقبال به، فلا نستقبل

حالات الولادة ونحولها إلى المستشفيات الأخرى بدعوى تعقيم غرف الولادة، ولا يبقى في المستشفى إلا المريضات اللاتي حُجزن خلال الأسبوع لأسباب غير الولادة، وكذلك الحالات العاجلة التي لن تستطيع بلوغ المستشفيات الأخرى. وكل ليلة خميس، يقيم عرابي للسادة النواب حفل عشاء ساهر، يقدم فيه لهم مقابل جنيهات معدودة، مائدة شهية من أطباق الكباب والكفتة والدواجن المشوية وطواجن البامية والملوخية والأرز المعمر، التي يجيد البروفيسير طهوها.. وبعد القضاء على المائدة العامرة، يتحولق النواب حول عرابي الذي يرص الأرجيلة، بالحشيش لمن يهواه، وبدون حشيش لمن يرغب عنه، ويصاحب الأرجيلة أكواب من الشاي الثقيل بالنعناع الأخضر الذي يزرعه عرابي في حديقة المستشفى.. حتى إذا ما امتلأ فضاء الكشك بالدخان أزرقه وأبيضه، بادر عرابي بتقديم البيرة المثلجة، بكحول أو بدون، ثم يقف بيننا لينشد فينا موال ابتدعه من معولات ابن عربي(*) (أقوال ابن عربي في ما لا يُعَوَّلُ عليه) يبدؤها بالقول:

وكل مكان لا يؤنث لا يُعَوَّلُ عليه
وكل حب يكون معه طلب لا يُعَوَّلُ عليه
وكل شوق يسكن باللقاء لا يُعَوَّلُ عليه
وكل فن لا يفيد علمًا لا يُعَوَّلُ عليه
وكل صدق يُسأل عنه لا يُعَوَّلُ عليه

(*) محي الدين بن علي بن عربي الحاتمي الطائي الاندلسي أحد أقطاب الصوفية (١١٦٤ - ١٢٤٠ م).

وكل توبة من بعض الذنوب لا يُعَوِّلُ عليها!

قبل أن يلتقط عوده ويبدأ في الشدو بموشحات الأندلس وأشعار الحلاج وابن عربي وجلال الدين الرومي، ثم يعرج على أم كلثوم وفريد وأسمهان.. وتمتد السهرة إلى ساعات الصباح الأولى وسط الموسيقى الأصيلة وسحب الدخان الحالم.

وعلى مدار عقود وعقود، وعلى خلفية الألحان والأنغام والأدوار والموشحات، ووسط سحب الدخان الأبيض المزرق، سمع سعيد عرابي خلاصة تجارب الأطباء المقيمين، وعلم كل أسرار المهنة وخبر كل خباياها.. عُرضت أمامه كل العجائب والغرائب، وعرف الكثير عن تفاصيل الجراحات، بل قيل أنه قدم تعديلات هامة، حتى صار مرجعًا لا يستهان به.. أقواله التي يصوغها في لغة عربية تميل حينًا للفصحى وحينًا للعامية ولا تخلو من نغم، لا تجدها في الكتب ولا المراجع، فهي خبرات حياتية، ممزوجة بروح صوفية بديعة.

وفي أول لقاء لي مع الدخان والبروفيسور عرابي احتضن عوده وسألني وهو يدندن على أوتاره:

- كريم بك يا بن الأصول والكرم، أنت وقعت في ليلى الجميلة ووفاء الخسيسة، يا ترى يا هل ترى، هنشوفك بصحيح ولد، ولا يا ميت خسارة، عتريس جديد اتولد؟

ثم أنشد يقول(*):

يا عيني على الولد، يا عيني على الولد

(*) عبد الرحمن الابنودي من أشهر شعراء العامية المصريين (١٩٣٩ م).

الواد أبو قلب لين أصبح غير الولد.. ضاع منه قلبه الأبيض وسط صريخ البلد

الحلم اللي حلمته ف الصبح ذنب البلد يصبح هم البلد

والضحك اللي ضحكته أهو دمعة للبلد صرخة حزن ونكد صرخة بنت وولد

ووسط سحب الدخان الأزرق، رأيت المشاعل محمولة بيد عشرات المرضى بثياب بيضاء قد خرجوا بقضبهم وقضيضهم وتحولقوا حولي وهم يحملقون فيّ، فجلعت أنظر إليهم فزعًا فرحًا، حتى تقدم مني فارس بثوب أسود يلثم وجهه بوشاح أبيض، فشق صدري وانتزع قلبي من بين ضلوعي، ثم أخرج من صندوق خشبي بحوزته قلوب ذئب وصقر وأرنب وعصفور، فمد يده ليلتقط قلب.. لم أعرف أبدًا أي قلب قد وضعه في صدري، فقد فُتح باب حجرة البروفيسور عرابي فجأة وأطل منه أحد العمال، وطار الدخان الأزرق..

* * *

أخيرًا، وقبل أن نبدأ الحكاية، اسمحوا لي أن أقدم لكم معتز بك منصور، وكيل النيابة الذي يقع مستشفانا في نطاق دائرة عمله والمختص بكل شئونها. معتز بك يبائلني تقريبًا في العمر، وجهه الصافي له ملامح دقيقة متناسقة بعينين واسعتين عسليتين، وبشرة في لون القمح الطازج، وشعر أملس بني، ثم عود رمحي فارع، تبرز منه عضلات صدر مفتولة وبطن خمصاء.

تسلم معتز منصور شئون دائرة نيابة مستشفانا بالتزامن مع استلامي العمل في المستشفى، فتلاقت مساراتنا، وعلى مدار ثلاث سنوات، ارتحلنا

سويًا في دنيا أمراض النساء والتوليد، نسبر أغوار النفس البشرية في أدق تفاصيلها، فنمت بيننا صداقة قوية، عهادها احترامه لطبيعة مهنتنا المليئة بعجائب نفوس وأسرار خطايا بعض مرضانا، والتي نرتدي فيها في كثير من الأحيان ثوب قس الاعتراف في الكنائس، الذي يصحب الأسرار معه إلى قبره دون أن ينبس بكلمة.

عمر ومريم

وسط زخم الأطباء والمرضى والعاملين في المستشفى، تتكاثر كائنات ذات معاطف بيضاء عديمة النفع عادةً، مضرة غالبًا، ميتة أحيانًا.. تجوب المستشفى على مدار الساعة دون هدى أو ضرورة.. ولا تظهر لها أهمية إلا عند الاحتياج لنقل دم، فتهرع إلى بنوك الدم سعيًا للفوز بأكياس الدم المطلوبة، متحملة في سبيل ذلك سماجة فني بنوك الدم.. كما يجيد البعض منها قياس ضغط الدم، وقلة منها تجيد "ضرب" الحقن، واكْتُشِفَ منها حتى اليوم فصيلين؛ فصيلة الذكور وهؤلاء عديمي النفع دائمًا، ثم فصيلة الأناث، وهؤلاء هن بستان الزهور للنواب والمعيدين الراغبين في الزواج، ليختاروا منهن من أفلحت في الحفاظ على بعض الأنوثة بعد مشوار الطب الشاق، والاسم العلمي لهذه الكائنات هو "الميزو" أو أطباء الامتياز أو الأطباء حديثي التخرج في سنة التدريب، والتي يقضي فيها هؤلاء اثني عشر شهرًا يمرون فيها على أقسام الجراحة والأمراض الباطنية وطب الأطفال وأمراض النساء والتوليد. ومع هؤلاء الأطباء كانت حكاية عمر ومريم.

١- صلاح المعاون

قال عمران بن قحطان(*):

أسد على وفي الحروب نعامة
فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى
بل كان قلبك في جناحي طائر

قالها في فرار الحجاج بن يوسف الثقفي والمشهور ببأسه مع أعدائه، حين دعى لمبارزة امرأة من الخوارج تدعى غزالة، كانت زوجة لشبيب بن يزيد، وقد بلغ من بأسها وشجاعتها أن نذرت لتصلي ركعتين تتلو فيهما سورة البقرة وآل عمران في مسجد الكوفة، معقل الحجاج، ولم تزل تحارب حتى أوفت بنذرها، ويقيني أن السيدة غزالة بطلة قصتنا هذه، تنتهي جذورها بشكل ما إلى تلك الغزالة، حرم شبيب بن يزيد.

(*) عمران بن قحطان ـ من شعراء الخوارج في العصر الأموي توفي عام ٨٤ هجريًا.

وظيفة معاون المستشفى هي اختراع مصري صرف، مثله مثل السايس في شوارعنا، والمعاون هورتيس العمال في المستشفى، يتم اختياره من بين أكثرهم قدرة على بسط نفوذه وسيطرته على العمال والسائقين، وعادة ما ينهج المعاون نهج فتوات الحارات المصرية القديمة، فيفرض الإتاوات على أقارب المرضى للسماح لهم بمخالفة مواعيد الزيارة، وعلى العاملين في مقابل تكليفهم بمهام تدر عليهم دخل إضافي من البقشيش أوالرشوة، كما يتميز بعض المعاونين بقدرتهم على قضاء بعض المصالح خارج المستشفى من تجديد رخص المرور أو استخراج البطاقات الشخصية وجوازات السفر، وهؤلاء يخطب السادة الأساتذة ودهم، فيزيدونهم نفوذًا وطغيانًا.

كان قد مر شهر على بداية فترة نيابتي وأصبح عنبر الولادة هو بيتي الذي أقضي فيه أيامًا ولياليَ متواصلة أقوم فيها فقط بالولادات الطبيعية تحت إشراف ممرضات الولادة المتمرسات أو من يعرفن في الغرب بالقابلات.

وكان أن ضمت إدارة المستشفى معاونًا جديدًا: صلاح، أوالجربوع كما أُطلِقَ عليه للتشابه الكبير بينه وبين هذا الحيوان الصحراوي، ببشرته رمادية اللون وجحوظ عينيه السوداوين وصعود شعيرات حاجبيه إلى أعلى، هذا إلى جانب شحوب وجهه وشعره الأسود المجعد وقصر قامته وقوامه النحيل.

وفي ظهيرة أحد الأيام استوقفني صلاح المعاون وقال لي:

ـ والنبي يا بك أختي صفاء هتولد وكنت طمعان إن سعاتك تولدها بنفسك ما تسيبهاش للحكيمات، دي بت يتيمة ومقطوعة

من شجرة يا بيه، والبركة في سعادتك..

وأمام نشوة الزهو بأن في العالم من يطلبني بالاسم لكي أساعد في ولادة قريبة له.. بل.. وأنقذها من الحكيمات اللاتي هن بالقطع أكثر خبرة وحنكة في الولادة الطبيعية التي قضين عمرهن يقمن بها فقط منذ تخرجهن من مدرسة التمريض، بعكس النائب الغر ـ أنا ـ عديم الخبرة والذي حقيقةً مازال يتعلم من هؤلاء الحكيمات.. أعمتني النشوة عن التساؤل كيف تكون المريضة مقطوعة من شجرة وأخت صلاح في نفس الوقت.

تملكني الغرور وابتسمت قائلًا بثقة وأنا أربت على كتفه:

- تؤمرني يا بو صلاح، أنا هأقول للبنات (التمريض) ينقلوها من عنبر الولادة للأوضة المخصوصة الصغيرة، وأنا اللي هأولدها لك حاضر.

مر الوقت ودنت ساعة ولادة صفاء أخت صلاح المعاون فتأهبت لها، وإذا باستدعاء من النائبة السينيور الدكتورة ليلى للانضمام إليها في العمليات. في الطريق قابلت صلاح مع سيدة ضخمة ذات تضاريس غريبة، عجزت ملابيتها السوداء التي تلف جسدها عن إخفائها، فبرز من أمامها مخروطان عظيمان علويان ومن خلفها كرتان عظيمتان سفليتان، وبينهم كتل من اللحم والدهن المترهل يخفي خاصرتها تمامًا حتى بدت كبرميل طرشي، ولم أميز لها ما يعرف عندنا نحن بالرقبة، ومن أعلى البرميل برز ذراعان أو ربما فخذان ممتلئان ينتهيان بكفين أو خفين، وقفت أنثى وحيد القرن وإلى جوارها رجل نحيف، فلما رآني صلاح أشار لهم ناحيتي وهو يقول لهم:

- البك اللي هيولد صفاء أهه.

ابتسمت وقلت له:

- اطمن قربت خالص، هشأر عليهم في العمليات وأنزلها على طول.

في حجرة العمليات وجدت الدكتورة ليلى تتميز من الغيظ لغياب الدكتورة وفاء المعتاد عن النوبتجية، وأفردت وأسهبت في التهديد والوعيد بعقاب يقضي على مستقبل هذه النائبة المستهترة، ومراعاة لصحة ليلى العقلية، امتنعت عن إبلاغها بما أسرت إليّ به هذا الصباح سكرتيرة القسم من أن النائبة وفاء قد تقدمت بإجازة مرضية مدتها عشرة أيام وسافرت بالفعل مع زوجها إلى تركيا لقضاء عيد الحب "الڤالنتين داي".

طلبت مني الدكتورة ليلى أن أساعدها في ولادة قيصرية، فبدأنا العمل على الفور ومضى الوقت وقد نسيت تمامًا صفاء أخت صلاح.

انتهينا فعدت إلى عنبر الولادة، لكن ما أن دنوت من بابه حتى وجدت أنثى وحيد القرن ممسكة بتلابيب صلاح المعاون وهي تهوي على جسده النحيل بفردة "شبشب" أزرق له وردة بلاستيكية حراء كبيرة والمشهور بالشبشب الزنوبة:

- هومش قال هيولدها، سابها وراح فين؟

وبصعوبة استطاع صلاح أن يجيب:

- لا ما كانش الدكتور ده، دوكها واحد تاني وهو اللي ولدها.

فصاحت مدام وحيد القرن:

- كداب في أصل وشك، بتي ولدت مع الحكيمة، وأخدت أتعابها يبقى ترجع اللي أنت خدته.

كنت قد اقتربت منها، فلما شاهدتني السيدة، تحركت نحوي وهي قابضة على صلاح المعاون بيد تجره خلفها وتلوح بـ"الشبشب" باليد الأخرى وقالت لي:

- جرى إيه يا دكتور، أنا ندرت صفاء بتي ما تولد إلا على إيد دكتور ببالطو أبيض، وأنت بلا أفيه يا خويا وافقت تولدها خصوصي وقبضت المعلوم، سيبتها وجريت ليه بقى؟

فأجبتها وعيناي معلقتان بصلاح الذي بدا لي ككتكوت نزع عنه زغبه:

- صفاء مين حضرتك؟ معلوم إيه يا مدام؟

أطلقت السيدة شهقة رفيعة وهي تميل برأسها يمينًا ويسارًا وقالت لي بتهكم:

- لا يا خويا حاسب، أني مش حضرتك ومودام، أني الست غزالة العالمة، وصفاء بتي يا حيلتها، وآه المعلوم، أنت هتلاوع ولا إيه يا أخينا؟

تأملت السيدة غزالة، فلم أجد أي تشابه بينها وبين الغزالة برقتها ورشاقتها وقوامها الممشوق، وأنكرت بشدة انتماء مثلها إلى جماعة العوالم والراقصات، ومع ارتفاع لهجة الحوار، وحركات الحواجب والأصابع، والشبشب الذي يهوي على جسد صلاح فيما بدا استعراضًا لمهارات الراقصة غزالة في اللسع بالشبشب، ازدردت ريقي بصعوبة وقلت

ونظري لا يزال معلقًا بسلاحها:

- على مهلك بس يا ست غزالة لجل ما أفهمك، حضرتك بتتكلمي عن صفاء، البنت اليتيمة اللي مقطوعة من شجرة؟

ضربت الراقصة غزالة صدرها بالشبشب ـ لانشغال يدها الأخرى بتلابيب صلاح:

- تف من بقك يا الأفندي، يتيمة ده إيه ما أني أمها.. وأشارت للرجل الدحداح الضئيل الذي يقف إلى جوارها كما يقف طائر أم الزقزوق بين فكي التمساح لتنظيف أسنانه، وقالت:

- والمقطف ده أبوها أهه.

لم يبد المقطف أي اعتراض على كنيته وازداد الموقف غموضًا فقلت لها:

- صفاء أخت صلاح؟

فاستشاطت الراقصة غزالة غضبًا وألقت بالشبشب على الأرض وأمسكت بتلابيب صلاح بكلتي يديها وقالت وهي تؤرجحه يسارًا ويمينًا كالبندول:

- صلاح مين؟ أنتو هتعملوهم عليا ولا إيه؟ صفاء بتي وبالأمارة بعتلك ١٨٠ جني مع الراجل اللي تبعك ده، ده حتى الـ٢٠ جني حلاوته دفعتها ومقدم، وأنت سبتها تولد مع الحكيمة!

شعرت بضربة تهوي على أم رأس كرامتي والسيدة غزالة العالمة تنهمي، فأضمرت لصلاح الاستياء واللوم واللعن، وقلت وأنا أتميز من الغيظ والحنق:

- الموضوع فيه سوء فهم يا ست غزالة، أنا لا طلبت فلوس ولا ينفع أصلًا تدفعي فلوس، لا لصلاح ولا لغيره، دي مستشفى حكومي مجاني يا ماما.

برز من كفي يد الراقصة غزالة أصبعيها الوسطيين وقربتها من وجهها وهي تقول لي:

- ماما؟ لا يا عين أمك أني مش ماما، أني الست غزالة وما حدش هيأكلونا الأونطة! وإيه حكومي ما طول عمرنا بندفع في الحكومي، شي الله يا حكومي يا مجاني، أنت هتعملي فيها خواجة ولا إيه يا سي الداكتور، ولا أنت لسه مستجد يا عينيا؟ بكرة تتعلم يا حيلتها، وتشغل الأشكال الوسخة دي تلم لك المعلوم، وسلامات يا حكومي.

قالتها وهي تكور قبضتيها وتطلقها إلى عيني صلاح.

فتمتمت وأنا أبتعد:

- طيب عن إذنك بقى، أسيبك تتفاهمي مع صلاح، أنتم معارف مع بعض، ومش هوصيكي عليه، مش خسارة في طيبة قلبه.

وأمام السيد ضابط شرطة النجدة، وقف صلاح وقد صار وجهه كوجه حيوان الراكون من الهالات السوداء حول عينيه، وقف يدلي بوصف تفصيلي للجاني الأزرق ذي الوردة الحمراء البلاستيكية، قبل أن يعود فينكر أمام وكيل النيابة معتز بك منصور، أن الراقصة غزالة هي من تسببت في كسر ذراعه وفكه وعظمة الترقوة، وأرجع الإصابات التي لحقت به إلى سقوطه من سلم المستشفى، ولا أدري أكانت شهادته هذه

بعد ترضية وإصلاح بينه وبين الشبشب، أم بعد تهديد ووعيد بجولات أخرى بعيدة عن أعين الشرطة، لكن ظلت صورة الراقصة "غزالة" منطبعة في ذهني كمثال لقوى البطش النسوية التي تنطلق متى تجرأ مغامر على العبث بها، وهو لا يدري أنه يطلق هذه القوى الوحشية من عقالها لتنتزع حقها ولو بالقوة، قوة الشبشب الزنوبة.

عندما حكيت للبروفيسر عرابي في سهرتنا يوم الخميس وأنا أنفث دخان الأرجيلة الأبيض، تنهد ثم اعتدل في مجلسه ونفث دخان أرجيلته الأزرق وهو يقول: أولًا، حكومي ومجاني ليسا مترادفين، ثانيًا، لا تعبثن بذات الملاية المجنونة، فتذوقن طعم شبشبها الزنوبة.

والتقط عوده وأنشد يقول:

ظالم يا غزال حبك قتّال وأنا صرت بحال بحال

لا تعذبني

دمعي سيّال والجسم خيال ما يهدى البال البال

ليل ولا نهار

ويلي من حبك دوبني حبك غدار

قلبك يا حبيبي في المية وقلبيي في النار

وعلى العكس من السيدة غزالة العالمة..... كانت مدام زبيدة

عمر ومريم

بداية شهر جديد، جاء وجاءت معه مجموعة جديدة من أطباء الامتياز لتسلم العمل في الوحدة. مررت بعيني على بيان أسماء الأطباء فوقعت عيني على اسم عرفته على الفور"مريم إبراهيم محمود السوهاجي".. هتفت في نفسي هي ولا ريب ابنة الأستاذ الدكتور إبراهيم السوهاجي أستاذ الأمراض الباطنية بجامعتنا وحفيدة محمود باشا السوهاجي وزير المعارف في حكومة الملك فؤاد الأول.. حققت النظر في وجوه الطبيبات ولم يكن من الصعب التعرف على الدكتورة مريم التي أخذت خصائص ملامحها عن أمها الانجليزية التي تزوجها الدكتور إبراهيم وقت بعثته للدراسة في إنجلترا.. فكانت لطيفة التكوين بيضاء الوجه المشرب بحمرة، صهباء بشعر قصير لا يبلغ كتفيها، عيونها خضراء وشفتاها دقيقتان وأنفها صغير مستوية أرنبته، ممشوقة القد خمصاء البطن.. استكملت فحص باقي أسماء الطبيبات والوجوه فلم أجد من يستحق التوقف عندها.. ثم ألقيت نظرة عجلى على أسماء الذكور من الأطباء ولم ألق إليهم بالًا لما وجدتهم من الرعاع.. عدت أتفحص الدكتورة مريم وأنا أرتب في ذهني من أقراني ما زال

على عهد العزوبية حتى أُهديه تلك الحلوى الإنجليزية.

أيام ولفت نظري أحد أطباء الامتياز الذكور من فصيلة "ابن آوى" يحوم حول الدكتورة مريم إبراهيم محمود السوهاجي. تحريت الأمر فعلمت أنه يدعى عمر سعيد، فتى من الأقاليم رقيق الحال وضيع الحسب أهله من أرفاغ القوم وإن كان من المتفوقين النابهين المبشرين بوظيفة في سلك هيئة التدريس بكليتنا ليصبح أحد السادة الأساتذة في يوم ما.

٢- زبيدة

حلم الأمومة يولد مع المرأة ويستحوذ عليها تمامًا، حتى تلك التي تحمل طموحًا جامحًا وتطلعًا لنجاحات عملية، سرعان ما تضحي بكل هذا حين تخير بين الأمومة وبين سواها، وقد تساوم المرأة على أي شيء وكل شيء، إلا على أمومتها. وعلى مدار سنوات عملي، استقر في يقيني أن المرأة التي حرمت نعمة الأمومة إذا وهبت إياها على يد طبيب، فإنها تحمل له من مشاعر العرفان ما ينيء بمشاكل جمة.

كان اليوم هو يوم العيادة الخارجية لوحدتنا، وفيه زارتنا "زبيدة"، شابة في العشرين من عمرها، ذات عيون زرقاء زرقة الفيروز، جاءتنا ترفل في ثوب من الكتان الأبيض بلا أكمام مطرز بخرز أزرق، جعلها مع قوامها الممشوق وشعرها الأثيث الفاحم وما يحدثه تجاوب سواده مع بياض بشرتها، جعلها تبدو لي كإحدى الكاريانات أو إلهات الحسن عند الإغريق. نشطت في استقبالها طربًا مغتبطًا من حسنها، واستمعت إلى شكواها من العقم بشغف النائب الجديد، وتعاطف الإنسان الذي لم يتبلد حسه بعد من تكرار ما سمع من شكاوى وأنات المريضات. انتهت الحسناء من حديثها وأطلعتني على بعض ما كان في جعبتها من

صور الأشعات ونتائج التحاليل وعلاجات بعض الأطباء، فلم أجد فيما عرضته على سببًا لعقمها هي وزوجها، فقررت أن أصف لها الدواء الوحيد الذي كانت النائبة السنيور الدكتورة ليلى تسمح لي بكتابته لتنشيط التبويض، مع بعض التعليمات الأولية عن أوضاع الجماع المثلى مما تراكم عندي من خبرات جمعتها من حكايات خبراء الجماع من النواب، وودعتها بابتسامة أمل كبيرة.

مرت عدة شهور وكنت قد نسيت تمامًا قصة مدام "زبيدة"، حتى جاءتني إحدى الممرضات وأنا أجري ولادة قيصرية وهي تغمز لي بعينها وتقول:

- فيه مزّة بتدور عليك من الصبح، ومستناك برة يا دكتور كيمو!

يقول البروفسورعرابي: أن بحث المريضة عنك في المستشفى خاصة الجميلات منهن نذير سوء وقد يكون له تبعات وخيمة، لأنه يشبه عملية عرض المشتبه بهم على الضحية في أقسام الشرطة، فما أن تتعرف عليك الضحية حتى ينهال أهلها عليك ويوسعوك ضربًا وسبًا.

توجهت لمقابلة الحسناء بعد انتهاء الجراحة، فوجدتها مدام "زبيدة"، في فستان أحمر أنيق يكشف عن جسم لدن ناضج ينشر سحرًا ووهجًا، وقد تهدلت خصلات شعرها الأسود على أكتافها ونزلت بعض الخصلات على وجهها وعينيها الزرقاوتين، وما أن رأتني حتى هشت لي وأقبلت علي وهي تقول:

- فاكرني يا دكتور؟

البروفسورعرابي في مستهل مجلس دخان قال لا تخدعك براءة النساء حين يسألنك إن كنت تذكرهن، انكر دائمًا، وتذكر زميلنا الذي سقط

في شرك الجمال الطاغي، فما كان من المريضة إلا أن اتهمته بقتل وليدها بجهله وإهماله، وانهالت عليه هي وأهلها باللكمات والركلات فانتهى بمخ مرتج وعظام فك محطمة وضلوع مهشمة.

تذكرت الدخان الأزرق فقلت بعدم اكتراث:

- مش واخد بالي والله، تؤمريني....

فقالت بخيبة أمل:

- أنا جتلك العيادة من ٣ شهور وبفضلك أنا حامل وعايزاك تتابع حملي.

فلما اطمأنت نفسي نفضت عني كلمات الحيوان عرابي الذي كاد يضيع مني هذه المليحة، وابتسمت لها وقلت:

- آه افتكرت، حالتك كانت معقدة بعض الشيء، بس ماتقوليش فضلي، هو صحيح التوفيق على إيدي طبعًا بس ده من عند ربنا.

وتكررت زيارات مدام "زبيدة" لنا لأتابع حملها. وذات يوم بعد ما انتهيت من فحصها، فوجئت بها تخرج دمية من إنتاج "فيشر برايس" على شكل دبة وتقدمها لي وهي تقول بدلال وغنج:

- ده لحضرتك...

كنا في مستشفانا معتادين على "حمادة" و"نسرين"، الدمى الصينية البلاستيكية المصنوعة على شكل صبي أو صبية، إلى جوار صواني بسبوسة "معاطي" وبيتي-فور "أبو سامية" وكعك "العتيل" وشوكولاتة "الكابتن رؤوف" وملبس "أولاد الفكش"، وفي ما ندر جاتوه "زيزو الحلو"، علاوة على شهادات التقدير الممهورة من عمدة الكفر أو شيخ

المسجد أو عضو مجلس الشعب عن الدائرة والمحاطة بإطار مذهب فج، فكانت صدمتي من دببوب "فيشر برايس" قاسية.

عقدت الدهشة لساني فأشرت للدببوب مستفهمًا:

- دا علشان "الڤالنتين" يا دكتور كريم، مني أنا والبيبي.

أمسكت بالدببوب فأخرجت هي كاميرا من حقيبتها والتقطت صورتي مع الدببوب، لكنني أسرعت أعتذر عن التصوير معها عملًا بنصائح البروفسور عرابي بالامتناع عن التصوير مع المرضى تمامًا حتى لا تفاجأ بصورتك على الصفحة الأولى في جريدة أخبار الحوادث وقد كتب تحتها بالبنط العريض: "الطبيب الوغد مع ضحيته المخدوعة"، وانصرفت وأنا أتعثر في خجلي.

يستحب للحمل الذي جاء بعد فترة عقم أن ينتهي بولادة قيصرية وعدم المخاطرة بالطفل في رحلة الولادة الطبيعية، فما نطلق عليه "طفل ثمين". جاء يوم الولادة القيصرية للمدام زبيدة، حتى إذا ما بدأ طبيب التخدير في حقنها بالمادة المخدرة التقت أعيننا، فنظرت إلي وقالت برقة وعذوبة:

- أنا اشترطت على سمير جوزي نسمي البيبي كريم.

ثم راحت في سبات عميق...

في تلك الليلة وأثناء مروري التقليدي على مريضات العنبر، قصدت حجرة مدام زبيدة للاطمئنان عليها هي ووليدها، والتي ما أن رأتني حتى تهلل وجهها وأشرق محياها واعتدلت جالسة في سريرها وأسرعت تمرر أصابعها تصلح خصلات شعرها، فلما اطمأنت على هيئتها قالت لي:

- دكتور كريم، ممكن تيجي تتصور مع البيبي؟

ومدت يدها بطفلها إلي، فحملته وجلست به على حافة السرير، فلما انتهت من التقاط الصور، دنت مني لتأخذ طفلها، وفجأة توقف الزمن فيما بدا لي أنه دهر طويل عقدت خلالها الدهشة لساني، وشلت المفاجأة حركتي فجلست ساكنًا، لا يختلج لي طرف ولا يرف لي هدب وأنا أرى مدام "زبيدة" تسبل جفنيها وتلقم شفتاي بشفتيها حتى رطبتا برضابها، فلما أطلقت شفتاي قالت وهي تتلعثم من الخجل:

- أنا متشكرة ليك قوي يا كريم، أنا بحبك قوي.

يقيني أن المرأة هي أصل كل المشاعر النبيلة في هذا العالم، هي الأنثى المقدسة في أول الدهر "عشتار وإيزيس وأنانا وننخرساج واللات والعزى ومناة"، ويقيني أنها رغم الأصفاد التي يكبلها بها المجتمع، بداخلها شمس حب متوهجة، ضوؤها لا نراه إلا في لحظات نادرة، لحظات تكسر فيها المرأة كل القيود والأعراف والتقاليد وتطلق مشاعرها التي تجيش في صدرها من عقالها، فتأتي تصرفاتها على سجيتها معبرة عن بركان الحب الذي يثور في قلبها. لم تكن قطعًا قبلة ذات دلالات ساقطة أو ماجنة، ولا كانت قبلة حبيب ملتاع ولا زوجة خائنة، فقط كانت قبلة حب متدفق لمن آمنت هذة المرأة أنه أهداها حلم الأمومة، ولو كان صنمًا من آلهة الجاهلية لأهدته ذات القبلة.

ولم يحدث أن التقيت مدام "زبيدة" من بعد تلك القبلة أبدًا، فقد كانت أم سمير حماتها تقف بباب الحجرة عندما كانت زوجة ابنها تُلقمني القبلة على شفتي!

يقول البروفيسير عرابي معددًا مخاطر المهنة في مجال أمراض النساء

والتوليد: ضرب، وعض، وقرص، وسب واستحمام بسوائل ملوثة، تلك إذًا خمس مخاطر، لكنني تيقنت ليلتها وأنا مستلقي على الأريكة في منزلي أمام التلفاز وأحكي لزوجتي عن مدام زبيدة، أن القبلات قد تكون أيضًا من أخطار مهنتنا، وترسبت عندي عقدة من الحسناوات اللاتي تطبعن القبلات على شفاه الأطباء، وسرعان ما أضيف لها عقدة "الأنضرات" خضراء اللون ذات الخطوط البيضاء كقشر البطيخ.

عمر ومريم

سمعت في العنبر اليوم همسات أطباء الامتياز يتغامزون على عمر ومريم. اخترت أحد الأطباء يبدو عليه اللؤم والنذالة والخسة وانفردت به لأتحرى الأمر، ولم يخيب ظني.. فقد انطلق يحكي كل ما سمعه عن اضطراب عمر وارتباكه كلما تحدثت إليه مريم ولو بأمر من أمور العمل.. وعن ابتسامات مريم التي تهبها لعمر كلما أمسكت بعينيه وهو ينظر إليها من طرف خفي.. أضمرت السوء لهذا الصعلوك عمر وقررت أن أتدخل على الفور.. كان قد استقر رأيي على أن أهب مريم لصديقي المهندس فاروق الضبع، حفيد الضبع باشا حكمدار المدينة في القرن المنصرم وابن أحد أغنى أغنياء مدينتنا، وأنسب أصدقائي لها.. فهو ـ رغم مسيرته التعليمية التي تعثرت في نهاية المرحلة الثانوية التي فشل تمامًا في اجتياز اختبارها النهائي ـ قد استطاع بجهده ومثابرته أن يصبح مهندسًا بعد أن سافر إلى دولة بارباروس التي حصل منها على بكالوريوس الهندسة، علاوة على الماجستير والدكتوراة في أربع سنوات فقط وهي معجزة بكل المقاييس، والأهم أنه عظيم الحسب والنسب والثروة.

٣- في ظلمات القنوط

"..... كم كان مؤلمًا أن تدرك أن كتل الدم التي تنفلت منها الآن ما هي إلا ذلك الحلم الذي كانت تحيك له الجوارب المنمنة....."(*)

ثم كان أن كلفت بنوباتجية عنبر الإجهاض أو "السقاطة". عنبر الإجهاض هو أقذر عنبر في المستشفى وعادةً ما يُعهد التمريض فيه إلى الممرضات المهملات المُبعدات إليه من عنابر المستشفى للتهذيب والإصلاح. وبما أنه عنبر ذو نهايات غير سعيدة، فهو يغط في بحور النسيان في المستشفى، فعاملات النظافة لا يعرنه أي اهتمام أو رعاية، خاصة مع عدم وجود الإكرامية أو ما يُطلق عليه "الرضعة"، وأخيرًا بما أن المسئول عنه هو النائب الجونيور فهو ـ أي النائب ـ دائمًا مرتبك.

ولغير المتخصص أشرح خصائص هذا العنبر القذر بأنه عبارة عن أربع أو خمس غرف كل منها مئران في مترين وقد تراصت في كل منها أربعة أسرة من أردأ أسرة المستشفى، فُرشت بغطاء من القنيل أو المشمع برتقالي اللون قبيح والمعروف في مصر بالقنال تكس، يغطيه بطانية كانت

(*) سماح صادق ـ شاعرة وكاتبة مصرية معاصرة.

سوداء ثم استحالت بفعل الزمن وتكرار الغسيل بالكلور إلى لون يشبه لون وجوه مريضات هذا العنبر الكئيب، خشنة الملمس كتلك المستخدمة في السجون، تنام عليها المريضة دون "الملاية" وتتغطى ببطانية مشابهة، أما السؤال لماذا تنام المريضة على بطانية؟ فذلك لأن "الملايات" البيضاء ستمتلئ بالبقع من بقايا الإجهاض والدم، لكن البطانية السوداء الشاحبة، لن تظهر عليها البقع.

وفي أول عهدي بنوباتجية الإجهاض كان لزامًا على النائبة وفاء أن تمكث معي طوال النوباتجية لتشرح لي قواعد العمل وتطمئن إلى إلمامي بأصول علاج هذه الحالات، فلما سمعت وفاء بهذا الأمر، أرسلت لابنها فتلاعب بالثرموستات وأصابته الحمى، وأبلغت إدارة المستشفى بقيامها بإجازة مرضية للازمته وإرضاعه، فلما أدركت النائبة ليلى أنها هي التي ستبقى معي في نوباتجية الإجهاض أُصيبت بانهيار عصبي سارت على أثره في طرقات المستشفى تكلم نفسها وتقول:

- لا ده كتير ده أوفر ده حرام.. حراااااام.. أنا سنيور أنا مش جونيور، أنا سنيور أنا مش جونيور، أنا سنيور أنا مش جونيور...

وحلنا في آخر لحظة بينها وبين تمزيق ملابسها والانطلاق منكوشة الشعر في طرقات المستشفى، وإكرامًا للزمالة، استدعينا زوجها بدلًا من إبلاغ الخانكة، فحضر واصطحبها للمنزل ثم علمنا أنها قد حولت إلى لجنة قومسيون طبي انتهت إلى عدم صلاحيتها للعودة للعمل، وأوصت بإحالتها للإستيداع لحين نهاية خدمتها.

وظللت أنا وحدي: رَبِكًا مضطربًا.

في النهاية رق لحالي قلب الدكتورة "نرجس عبده"، النائبة السنيور

السمراء ذات القلب الكبير.. أو نرجس الطويل كما كنا نسميها؛ فقوامها طويل يناطح السحاب، وذراعها طويل يجيد اللكمات والصفعات، وساقها طويلة تجيد الركلات، ولسانها طويل يجيد التوبيخ.. جذبتني نرجس من معطفي الأبيض وأنا أقرأ في ملخصات البروفسور عرابي "كشف الألغاز واللبس في طب النساء والجنس" وقالت لي:

- واد أنت مالك عامل زي اللي تاه من أمه في السوق كده ليه يا خيتها؟ تعال يا منيل هوريك الشغل نظامه إيه، ما تتجوزني ياض خلي عيالي يطلعوا بيض زيك..

فقلت بجزع:

- بس أنا قمحي مش أبيض، وكمان متجوز.

مصمصت نرجس شفتيها وقالت بقرف:

- ما هو مثنى وثلاث ورباع يعني تسعة يا ضايع، نهايته.

ثم انطلقت تشرح لي نظام العمل في العنبر:

- بص كله هنا جاي بنزيف، ولية حامل في تلات شهور وأقل تكشف عليها، عنق الرحم مفتوح يبقى على العمليات تنظيف وكحت، عنق الرحم مقفول يبقى إجهاض منذر: تتلقح تاخد علاج، الولية الحامل في أكتر من ثلاث شهور مافيش لها عمليات، هتقطع قلب أمها بمحلول سينتوسينون لغاية لما تنزل العيل على السرير، فهمت؟ مالك متنح ليه؟ تعال أوريك الله يحرقك.

دخلنا العنبر للشرح العملي فوجدنا مريضة تبكي بحرقة، فرمقتها نرجس شزرًا وهي تقلب في صفحات ملفها وأخيرًا قالت بازدراء:

- يا دين أمي، متجوزة من أربع سنين ومسقطة خمس مرات ومعكيش عيال يا هدى؟ ياخيبتك.. اتلقحي نامي يا ماما وافتحي رجليكي، ثم التفتت إلي واستطردت قائلة:

- بص يا سي كريم، حامل في شهرين وعنق الرحم مقفول، يبقى إيه؟

فلما لم أنطق لكزتني في كتفي وهمت بركلي بركبتها بين ساقي وهي تقول:

- ما تنطق ياض.

فقلت برعب:

- تبقى إجهاض منذر.

فتراجعت عن ركلي وهي تقول:

- أيوه يا حيلتها، يبقى علاج ولما يوقف الدم تغور على بيتهم، فهمت؟

حاولت أن أستعيد بعضًا من هيبتي أمام المرضى، فرُحت أقلب صفحات ملف المريضة ثم هتفت في الدكتورة نرجس:

- بس دي عاملة كل التحاليل بتاعتها وكله طبيعي، الهرمونات وأشعة الصبغة على الرحم وعوامل التجلط وكمان دراسات الميكروبات وتحاليل الوراثة، بس مافيش حاجة عن جوزها، يبقى ممكن العيب يكون من الزوج، أطلب له تحاليل عوامل وراثية؟

رمقتني الدكتورة نرجس بدهشة، وتبادلت النظرات مع هدى التي

كفت فجأة عن البكاء والنحيب، وقبل أن تنطق لتوبخني قالت هدى بسخرية:

- معلهش يا دكتورة، يعني هو لو كان ربنا خلقك عبيطة كنت هتحبي حد يتريق عليكي؟

تجاهلت سخرية المريضة وقلت مدافعًا عن رأيي:

- يا دكتورة نرجس ٥٪ من حالات الإجهاض المتكرر بيكون الزوج شفرته الوراثية فيها خلل ولازم الزوجين يعملوا إخصاب مساعد.

فتدخلت إحدى المريضات المستلقيات على سرير مجاور في النقاش قائلة:

- يا دكتور ده راجل، يعني العيب مستحيل يكون منه، حرام عليك هتخرب بيت البت خليها مستورة.

قلبت الأمر بيني وبين نفسي، فكرهت أن أقيض بيت هذه المسكينة فقلت متراجعًا:

- عموما هو ٦٠٪ من الأزواج في الآخر هيبقى عندهم عيال مع تكرار المحاولة.

مصمصمت نرجس شفتيها وقالت وهي تهم بالانصراف:

- خيبة بالوبية.

تكلفتُ الإغضاء وللمت أشلاء هيبتي وقلت للمريضات مدعيًا المرح:

- عارفين أن الوبية دي كلمة قبطي معناها الكيلة التي بيوزنوا بيها الحبوب بس بتبقى ضعف الكيلة العادية!

ساد الصمت لحظات، وقد تركزت فيّ الأعين وحدقت بي الموجودات في الحجرة، قبل أن ينفجرن في الضحك.

انصرفت الدكتورة نرجس وشرعت أنا أفحص باقي الحالات، فسمعت "هدى" تبكي بحرقة، ورق قلبي لحالتها رغم سخريتها مني، فجلست إلى جوارها على الفراش وقلت لها مشجعًا:

- وحدى الله أُومَال؛ ده إجهاض منذر وإن شاء الله يثبت وتكملي الحمل.

علا نحيب المريضة أكثر، ثم تماسكت وقالت بأسى:

- أنا نصيبي كده، مافيش فايدة، خلاص، دي سادس مرة، كل مرة أقول هأشوفه، وأسمع صوته وألمسه، ويروح وعمره ما يجي.. دمي بيسمممه، رحمي بيموته.. أنا عارفة إن ده عقاب ربنا، أنا نزلت أول حمل علشان كان فيه ظروف، ومن بعدها ربنا بيعاقبني، أنا عارفة، ومستحيل هيسامحني، أنا كرهته، وكرهت نفسي، وكرهت الدنيا دي كلها.

ثم التفتت إلي وقالت:

- ما تنعبش نفسك يا دكتور كريم، خلاص الحمل خلاص.

بَلِجَ صدري رغم كل شيء من سماع اسمي مقرونًا بـ "دكتور" بدلًا من "ياض" وقلت لها بعطف:

- متقوليش كده وخلي أملك في ربنا كبير، ربنا غفور رحيم والدليل

أهه في الحمل ده.. ما سمعتيش الدكتورة نرجس وهي بتقول عنق الرحم مقفول؟

فدفنت وجهها بين كفيها وقالت:

- يا دكتور خلاص الحمل خلاص، أنا ما استهلش، أنا ما استهلش.

كبر علي أن تماري المريضة في حقيقة حالتها وازداد إصراري على الشد من أزرها فقلت بثقة:

- لا لا.. هيكمل وهتفرحي بيه ولو ولد هتسميه على اسمي ويبقى لي عندك فطيرة بالسكر! يلا فين الضحكه الحلوة؟

قلتها وقد رسمت على وجهي ابتسامة بلهاء جداً...

أزلقتني "هدي" ببصرها وتنهدت، ثم دفنت يدها تحت الوسادة وأخرجت لفافة قماش خضراء بخطوط بيضاء كقشر البطيخ ملطخة ببقع حمراء داكنة وضعتها بين يدي والتزمت الصمت... نظرت للفافة ولا تزال على وجهي بقايا الابتسامة البلهاء وقلت لها مستفسرًا:

- إيه ده؟

فقالت بسخرية:

- "الأنضر"، افتحه هتلاقي كريم الصغير وفطيرتك اللي بالسكر جواه.

في اللحظة التي انقبضت فيها أمعائي بشدة من فطيرتي التي ألقيت بين يدي.. فوجئت بقرص شديد في كل جسمي، ذلك أن بطاطين العنبر هي الموطن الطبيعي لجحافل البراغيث.

حتى في لحظات ضعفها الأشد، تستطيع المرأة أن تبقى صافية الذهن لتفحم غبائك الذكوري وغرورك الطبي بأفعالها الساخرة المتهكمة. في المساء قصصت على البروفيسور عرابي ما كان من هدى وخمود الحياة فيها وهبوط ظلمات القنوط عليها وهي تنتظر طفلًا لا يأتي أبدًا.. فالتقط عوده، ووقف في وسط الحجرة، وسرعان ما بدأ يدور كما يفعل الدرويش في الحضرة الصوفية وهو يضرب على أوتار آلته وأنشد يقول(*)

عرفت الهوى مذ عرفت هواك وأغلقت قلبي عمن سواك
وقمت أناجيك يا من ترى خفايا القلوب ولسنا نراك
أحبك حبين حب الهوى وحبًا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وترسخت عندي "عقدة" من الأنضرات الخضراء ذات الخطوط البيضاء كقشر البطيخ تسبب لي حكة جلدية كلما رأيتها ولو في واجهة أي حانوت، لكنني تعلمت أن أحترم ذكاء المرأة ولا أستخف بلحظات ضعفها أبدًا، وألا أستعين بالدكتورة نرجس أبدًا حرصًا على ما بين ساقي.

(*) رابعة العدوية عابدة ومتصوفة إسلامية من البصرة (١٠٠ ـ ١٨٠ هجريًا).

عمر ومريم

يبدو لي أن مريم تشجع عمر على التقرب إليها.. هل يمكن أن تلتفت من كانت في جمالها ونسبها وحسبها لمثل هذا الصعلوك الوضيع؟ أتراها تتسلى به؟.. هو وإن كان يغري بالتسلية لسذاجته وقلة خبرته الظاهرة بالتعامل مع الفتيات خاصة الفاتنات منهن، إلا أن مريم لم يعرف عنها ميلها للعبث مع الشبان.. أتراه اهتمامًا حقيقيًا؟. قررت أن أضعهما تحت عيني.. فجمعت بينهما في نوباتجية السهر المقبلة معي في عنبر الولادة، حتى يتسنى لي مراقبتهما لأستطلع حدود هذه العلاقة.. هاتفني اليوم صديقي المهندس فاروق الضبع ليسألني عن ترتيبات لقائه مع مريم، فاعتذرت له بفتور بحجة انشغالي بعد غياب الدكتورة ليل.. بدت على صوته الدهشة من فتور حماسي الذي طاردته به منذ أيام وأنا أحدثه عن إلهة الجمال التي هبطت علينا.. لم أحر جوابًا ووعدته بالرد عليه في القريب العاجل.

٤- هكذا تحدث كونفوشيوس(*)

تم إحالة النائبة السينيور الدكتورة ليلى إلى الاستيداع وانتهت علاقتها بنا تمامًا.. وتولت الميد سينيور الدكتورة وفاء مهام النائب السينيور في الوحدة، ولم تمضِ إلا أيام قليلة حتى قامت وفاء بإجازة مرضية بدعوى أن المحروس ابنها مصاب بالحمى، وسافرت للاحتفال بشم النسيم في الغردقة مع العائلة، فصرت أنا القائم بكل الأعمال.

على استحياء ذهبت للأستاذ الدكتور سامي وقلت له:

- ياييه وفاء بترضع وأنا لوحدي بس عندي حالات نسا للعمليات، أحضرهم ولا نلغي العمليات الأسبوع ده؟

فَشَنَّفَ إليَّ وقال لي وهو يمدد مخارج كلماته:

- تلغيها ليه يا أفندي بترضع الجحش أنت راخر؟ أنت مش عندك إيدين ورجلين وعنين ومخ، ولا أنت أكتع وأهبل وأعور وبريالة؟

(*) كونفوشيوس - فيلسوف صيني وضع أساس الديانة الكونفوشيوسية (٥٥١ ق.م - ٤٧٩ ق.م).

أنت هنا دكتور ولا بياع بليلة وترمس وفول نابت؟ جراح ولا بتسرح بفجل وبقدونس على العيانين؟ دخل اللستة.

جمعت المريضات وشرعت في عرضهن على الأستاذ حتى جاء الدور على شابة صغيرة لم تنجب ومصابة بتليفات في الرحم (أورام حميدة تنبت من نسيج الرحم) ورفض كل الأساتذة إجراء استئصال للتليفات خوفًا من فشل الجراحة وإصابة المريضة بنزيف مميت يحتم استئصال الرحم فورًا فيصبح عقمها نهائيًا مما يستجلب اللعنات والدعوات والشكاوى في أقسام الشرطة، وكان قد أهداني إياها أحد النواب اللئام مستغلًا جهلي وسذاجتي بعد أن أقنعني أنها ستبهر الأستاذ، وتنازلت له عن وجبتي للغذاء في سكن الأطباء ردًا للجميل.

فحص الأستاذ المريضة ثم نظر لي وقال:

- برافو عليك، لا جدع يا كريم، لقيت الحالة الهباب دي فين؟

عملية استئصال التليفات من الرحم تشبه استئصال البذور السوداء من نسيج البطيخة الأحمر دون استئصال أي نسيج من البطيخ الأحمر ما أمكن، وبالطبع دون استئصال البطيخة. ولهذه الجراحة قصة، فأول من اقترح هذه الجراحة كان الأخوان واشنطون وجون أتلي[٣] عام ١٨٤٥، لكنها وصفت آنذاك بالجراحة الخطرة لأن نسبة الوفاة من النزيف كانت تتعدى الـ ٤٠٪، في الوقت الذي كانت فيه عملية استئصال الرحم كاملًا تؤدي إلى وفاة ٧٪ فقط من المرضى، ثم جاء الجراح العالمي ڤيكتور بوني[٤] وأدخل تعديلًا هامًا. كان بوني جراحًا في مستشفى شيلسي في إنجلترا حيث قابل هناك آني أبليارد، وهي راهبة أسترالية تعمل بالتمريض وتزوجها بعد قصة حب عنيفة، لكن بعد الزواج بستين أصيبت آني

بنزيف شخص آنذاك بأنه تليف رحمي، ولم يكن هناك بد من استئصال الرحم مما حولها إلى عاقر دون أن تهب بوني الطفل الذي يأمله. أحس بوني بأنه قد خذل زوجته التي يهيم بها عشقًا فعكف على تطوير الجراحة حتى استطاع أن يخترع آلة جراحية تساهم في تقليل النزيف تعرف باسمه إلى اليوم، وصارت من بعدها عملية استئصال التليفات من الرحم ثالث أكثر عملية جراحية تجرى في أقسام النساء والتوليد. اللطيف أن بوني ظل مخلصًا لزوجته ولم ينفصل عنها بل وظلا يعيشان سويًا حتى وفاته في لندن بعد أن خلدت قصة حبهما بالآلة التي اخترعها وحكايات لا تنتهي عن كيف كان يتناول مع زوجته الطعام كل ليلة وهما بكامل هندامهما وأناقتهما وكأنهما في حفل زفافهما قبل أن يراقصها على أنغام الموسيقى الحالمة وفي ضوء الشموع.

في الليلة التي سبقت الجراحة، جاءتني المريضة في المكتب لتوقع على إقرار الموافقة على العملية، لكنها توقفت عند بند الموافقة على استئصال الرحم في حالة الضرورة وانهمرت دموعها وقالت لي:

- نفسي يا دكتور أحل وأخلف، نفسي آخد ابني في حضني وأحس بيه وهو بيرضع مني، أمانة عليك يا دكتور، ما تشيلوا الرحم، حتى لو مافيش منه رجا، سيبوني أعيش الحلم ده، سيبوني أشوف دورتي كل شهر وأمني نفسي أن الشهر اللي بعده هأحس برفسة عيل في بطني ونبض قلبه جوايا، وحياة أغلى حاجة عندك ما تشيله.

رق قلبي لكلماتها، وكرهت أن أري ضياع أمل هذه المرأة في الحمل الذي تشتاق اليه شوق رحم الارض لمجامحة المطر وإنجاب الكلأ،

فشددت من أزرها وطمأنتها لمهارة أستاذنا وتميزه منذ نعومة أظافره في استئصال بذر البطيخ دون استئصال كل البطيخة.

ولأن أستاذنا الأستاذ الدكتور سامي عبد الرازق رئيس الوحدة، له تقنية مختلفة في هذه الجراحة عن الدكتور ڤيكتور بوني، الذي يراه أستاذنا آفاقًا مجادعًا لأن آلته ليست إلا "ملقاط شعر حواجب أمه بس بمحبس" كما يقول الأستاذ، فقد تهرب كل أساتذة الوحدة من مساعدته في العملية ولم يبق سوى الدكتور أحمد الصالح الأستاذ المساعد بالقسم وأنا..

بدأنا الجراحة، وأعمل الأستاذ الدكتور سامي مشرطه في الرحم والدكتور أحمد الصالح يصرخ:

- يا بك، الحتة دي نسيج رحم يا بك مش تليف.
- لا تليف يا أحمد.
- طب الحتة دي رحم يا بك وكتاب الله.
- بس يا أحمد، ده تليف برضك.
- ورحمة أبويا رحم يا بك.
- تليف.
- وربنا المعبود رحم يا بك. ثم أشار إلي وهو يقول:
- حتى اسأل الواد ده، رحم ولا تليف يا زفت يا كريم؟

هالني أن أكون حكمًا بين أساتذتي وتذكرت نصيحة البروفيسير عرابي بعدم التورط في نزاع بين اثنين من الأساتذة مهما كانت الأسباب، ورغم قناعتي أن القطعة كانت من الرحم فعلًا وليس التليف، فقد آثرت

السلامة وقلت بصوت خفيض:

- مش شايف من هنا يا بك.

فلكزني الدكتور صالح بكوعه وقال:

- أهه يا بك حتى الحمار الحصاوي ده بيقول رحم.

فنهره الدكتور سامي قائلًا:

- الحمار الحصاوي قال مش شايف يا أحمد.

وسارت الأمور على هذا المنوال حتى استأصل الأستاذ أغلب الرحم، فلما أتم عمله ابتسم وقال:

- الحمد لله، كله تمام، ما شلناش الرحم.

فنظر الدكتور أحمد للبطيخة التي أصبحت في حجم الليمونة وقال:

- تسلم إيديك يا بك والله، إحنا بنتعلم من سيادتك فنون الجراحة الحقيقة.

ثم التفت إلي وقال بصوت لم يسمعه الأستاذ:

- مش شايف يا روح أمك؟ دم الوليه دي في رقبتك أنت والحيوان الأستاذ بتاعك الله يحرقكم..

فلاح الإنكار في وجهي وقلت مؤنبًا:

- لكن على الأقل البك حافظ على البطيخة.. قصدي الرحم والست هتعيش تحلم بيوم تحمل وتولد وترضع فيه.

لم يلق الدكتور صالح بالًا للرومانسية التي حفلت بها عبارتي هذه

واستدرك هامسًا:

- بطيخة؟ البطيخة دي قرعة سبي الأستاذ بتاعك، وكمان الولية تحبل وترضع؟ ابقى تعال إعمل "بى بي" على قبري لو جالها حتى الدورة مش حملت.

في مساء ذلك اليوم سألتني المريضة عن فرصها في الإنجاب فتذكرت الـ"بى بي" الذي سأضطر لبذله للدكتور صالح، فتصنعت الحكمة وقلت لها:

- الأستاذ حف جامد في البطيخة واللي فاضل منه قد اللمونة، ربنا كبير بس أعتقد أن فرصتك الحقيقية هتكون في التبني، وأهو تدخلي الجنة في يتيم زي ما رسولنا صلى الله عليه وسلم قال: أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة.

ومرت شهور كثيرة، وفي عصر أحد الأيام وجدت نفس المريضة تبحث عني لتضع حملها وكان توأمًا، فأسمتهما سامي وعبد الرزاق وحين سمع الدكتور سامي بأسماء المواليد ضحك وقال لها:

- ولادك؟

فلما أجابت المريضة بالإيجاب قال لها ضاحكًا:

- منين؟

فأجابت المريضة:

- والله يا دكتور كنا خلاص هنتبنى عيل من الملجأ زي ما نصحنا الدكتور كريم.. بس ربنا أراد بقى.

فاختفت الابتسامة من على وجه الدكتور سامي وأزْبَدَّ وجهه من الغضب والتفت إلي وهو يقول لها:

- الأفندى قالك تتبني عيل بعد ما أنا عملت لك العملية؟

فاستكملت المريضة لعب دور "ست نبتي" قاتل أزوريس وإله الشر عند الفراعنة وهي تقول:

- أه، ما هو قال إن سيادتك حفيت في البطيخة لما بقت قد اللمونة، بس ربنا أراد وحبلت في اللمونة دي.

أُسقط في يدي وانقبض قلبي وتحجرت الكلمات على طرف لساني.. وساد الصمت لحظات تمنيت فيها أن تنشق الأرض لتبتلعني أنا ومن في الحجرة جميعًا.. لكن فجأة، انفجر الدكتور سامي في الضحك وقال:

- والله برافو عليكي.. ولو أني مش عارف أنتي شلتي العيال دول فين، بطيخة إيه ولمونة إيه اللي الحمار ده بيقول عليها.. أنا شلتك الرحم كله يا ست.

في المساء قصصت للبروفيسير عرابي ما كان من مريضة البطيخة، فعدل من وشاح رقبته ثم تنحنح وقال:

"الصمت هو الصديق الوحيد الذي لن يخونك يا عزيزي"(*)

ثم التقط عوده وأنشد موال محمد طه(**):

(*) كونفوشيوس - فيلسوف صيني وضع أساس الديانة الكونفوشيوسية (٥٥١ ق.م - ٤٧٩ ق.م).

(**) محمد طه - فنان شعبي مصري (١٩٢٢ - ١٩٩٦).

لسانك حصانك أن صنته تعيش منصان، وإن هنته هانك ما تعرفش الطريق منصان

صاحب أصيل لو فقير لفظه عسل ينصان، أما الخسيس لو غني زي البصل ينصان

نقشت كلمات البروفيسير عرابي في ذهني، وكرهت البطيخ تمامًا

عمر ومريم

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، هدأت الأمور قليلًا في عنبر الولادة، فرأيت عمر ينتحي جانبًا ويخط بعض الكلمات في مفكرته الصغيرة التي لا تفارقه. تملكني الفضول، هل من الممكن أن أجد إجابة على أسئلتي بين طيات هذه المفكرة؟ كانت النوباتجية تمر دون أن ألحظ سوى ارتباكه البادي كلما اقتربت منه مريم، وفي المقابل، بات لدي يقين أن مريم تهتم بأمر هذا الفتى البسيط.

بلهجة آمرة أشرت لعمر:

- عمر، من فضلك إديني النوتة بتاعتك دي أسند عليها بس علشان عايز أكتب تقرير العيانة دي.

بدا عليه التردد، لكنه استسلم وأعطاني المفكرة، فسألته وأنا أعلم الإجابة:

- فحصت الأربع حالات اللي في الأوضة الصغيرة؟

نظر لي بذعر وقال:

- حضرتك ما قولتش لي أفحصهم.

فتصنعت اللوم وقلت له مؤنبًا:

- ودي عايزه حد يقول لك يا دكتور؟ اتفضل افحصهم وادينى تقرير كامل عنهم.

استدار عمر وهرول ينفذ ما طلبته منه، وقد بدا أنه نسي تمامًا أمر المفكرة، فلما اطمأننت إلى أنه قد انصرف، فتحت غلافها وبدأت أقرأ خلسةً ما خط فيها.

انتهيت من قراءة صفحاتها، فدسست المفكرة في جيبي، وبدت مني التفاتة إلى مريم التي كانت منهمكة في قراءة قصة أجنبية، فأغمضت عيني ورأسي يدور كحجر الرحى الطاحن.

٥- الإسباكيولم

استمرت الدكتورة وفاء في استهتارها حتى ساد التذمر بين أساتذة الوحدة من تغيبها المستمر، فهمس أحد المخلصين في أذنها بأن وجودها كسينيور بالإنابة عن بعد يتطلب تدريب نائبها الجونيور الموكوس ـ أنا ـ حتى تستطيع الاستمتاع بحريتها دون تقريع من السيد رئيس الوحدة، فلما تململت، نصحها أحد الخبثاء أن تمضي معي بضعة أيام في العيادة الخارجية بالمستشفى حتى يشهد الجميع لصالحها وقت الضرورة على أنها قد دربتني لكن غبائي وعتهي هما سبب كل المشاكل. وعلى هذا، قبلت وفاء على مضض أن تصحبني إلى العيادة الخارجية، على أنها ـ كعادتها ـ ملت من الجلوس بجواري ولم تختفي بدور المُعلم الذي قبلته وهي كارهةٌ.

وفي أحد هذه الأيام زارتنا شابة صغيرة السن ضئيلة الجسم حبلى في الشهر الرابع، جاءتنا تشكو من تدفق زخات متكررة من سائل حدسنا أنه ماء الجنين. أبلغت النائبة وفاء فلقنتني متأففةً التعليمات المتبعة ومنها الكشف على المريضة مهبليًا باستخدام ما يعرف بالإسباكيولم أو المنظار المهبلي.

تشريحيًا المهبل يماثل الإسطوانة التي ينتهي طرف منها على سطح جسم المرأة والطرف الآخر يحيط بعنق الرحم. ولفحص هذه الإسطوانة نستخدم المنظار المهبلي أو الإسباكيولم، والذي يتكون من إسطوانةٍ معدنية قد شقت طوليًا حتى صارت كنصفي إسطوانة بينهما مفصل حتى إذا ما دخل نصفها داخل المهبل تباعد بين النصفين مما يتيح لنا رؤية عنق الرحم وتجويف المهبل. تدل بعض النصوص التاريخية عن أن الإسباكيولم كان له شبيه منذ أيام الرومان، إلا أن الإسباكيولم الحديث اخترعه عالم أمريكي يدعى جيمس ماريون سيمز، وقد أسماه إسباكيولم سيمز كعادة المخترعين في تخليد أسمائهم[٥]. ولد جيمس سيمز بجنوب كارولينا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨١٣ واشتهر بوضع أسس جراحات مهبلية كثيرة، وتثير سيرته غصة في الضمير الإنساني لأنه أجرى تجاربه للوصول إلى أسس جراحاته على ثلاثة نسوة من عبيده يدعين أناركا، بيتسي ولوسي، دون حاجتهن للجراحة ودون تحذير، حتى أنه أجرى ثلاثين جراحة على أناركا وحدها ليتقن جراحته لإصلاح العجان وعلاج الناسور، ثم أجراها عدة مرات على بيتسي ولوسي قبل أن يبدأ في إجرائها على النساء الأمريكيات.

استعدت المريضة للكشف المهبلي، وبدأت أنا في وضع المنظار لكنني فوجئت بضيق مدخل المهبل بشكل غريب. طلبت من الممرضة منظارًا أصغر فأتتني بأصغر وأرفع منظار، ومع ذلك فشلت في إدخاله بالسلاسة المطلوبة وبدا لي الأمر غريبًا، فتوجهت إلى الدكتورة وفاء، وقلت لها رأي في الحالة فقالت لي بازدراء وسخرية:

ـ إيه العبط ده، البت حامل في الرابع وأنت تقولي عذراء؟ ليه الآنسة ماما؟ أنت شارب حاجة؟

خالجني بعض الشك، لكنني كنت متأكدًا أن الفتاة عذراء على الرغم من حملها، لكن وفاء قالت لي بتهكم وسخرية:

- والآنسة ماما دي حملت من بقها ولا إيه؟ الكلام ده في الأفلام بس يا سي كريم، ربنا يرحمنا من هطل النواب الچناير، روح يا بني حط الإسباكيولم العادي وانشف ما تبقاش خرع.

فقلت لها وأنا أتجاهل السخرية اللاذعة في كلماتها:

- يا وفاء صدقيني الست مش..

فقاطعتني بضجر:

- عيب بقى أنا مش عايزة أقولك أدام التمريض استرجل وخلص.

عندما شقت صرخة الفتاة محيط العيادة، هرعت وفاء فزعةً إلى غرفة الكشف تستطلع سبب صراخ المريضة، فوجدتني واقفًا بين ساقي العذراء ممسكًا بالإسباكيولم الملوث بدمها، فسألتني وهي فاغرة الفم وقد ابيض وجهها بعد أن فر الدم من عروقه من الفزع:

- عملت إيه؟

فكدت أتقمص دور "توشكى" أو عمرو عبد الجليل وهو يمسك بالمنديل الملطخ بدماء عذرية العروسة وهو يقول:

- كنت متأكد متأكد مع أني كنت شاكك.

والكورس من ورائه ينشدون:

دم حمام.... دم يمام..... دم البت الحرة بان

قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشا

دم العروسة سال وملا الفرشة

لكنني اكتفيت بأن قلت لها بتهكم:

- مبروك، الحمد لله "الإسباكيولم" رفع راسنا.

فسألتني وشفتاها ترتعشان:

- عملت إيه يا مجنون الله يخرب بيتك؟

فأجبتها بشماتة:

- مش قلت لك البنت دي عذراء، قلتي لي استرجل وخلص؟

في حجرة النواب في ظهيرة ذلك اليوم، جلس إلى مكتبي كهل قد تجاوز السبعين وقد ملأت الدموع مقلتيه وهو يقول:

- عروستي فعلًا بت بنوت، أنا العجوزتها تخليص ديون أبوها، بس البت جامدة عليا، وبتقعد تلعب وتتشاقى لما تهد حيلي، أنا مع نسواني التانين سبع، لكن آجي مع دي ونفسي ينقطع وما لحقش نفسي، لا برشام ولا دهان ولا حجاب نفعوا، كنت خلاص هطلقها بعد ما عرفت إنها بتحب الواد اللي عندي في المحل، بس حبلت مني.

بذكائها الأنثوي الفطري، نسجت هذه الفتاة خيوط خطتها للخلاص من هذا الكهل الذي زُفت إليه مكرهةً.. فقررت أن تستنفذ قواه في اللعب والمناوشة حتى إذا ما هم بقطف عذريتها، خذلته سنون عمره الطويل، وألقى ماؤه خارجها، لتحافظ هي على عذريتها وتهبها لاحقًا لشباب حبيبها المنشود.. على أن القدر عاندها فأراد لها أن تسقط في براثن الحمل من ماء اللعب والمناغشة فقط.

وتعلمت أن أصدق حدسي وأثق في حكمي.. وتعلمت أن اللعب والمناغشة أيضًا قد تنتهي بالحمل.. ثم كان أن تعرفت على أسطورة تتناقلها النساء في صحارينا المترامية، أسطورة الطفل الكامن الراقد.

عمر ومريم

كتب عمر في مفكرته:

" كلما بدت منها التفاتة إلي سمعت طبولًا تقرع في صدري، وسرت في جسدي رجفة، ربي سبحان ما أبدعت وما صورت، صورتها لا تغادر خيالي، أراها في منامي وفي يقظتي، أحلم بأني آخذ يدها بين يدي وأسمعها كل ما يجيش في صدري من كلام الحب، لكن ما أن أراها، حتى أنسى الكلمات والمعاني.. أشعر أنها تشعر بحبي هذا دون أن أنبس بكلمة.. أشعر أن عينيَّ تفضحاني.. وأشعر أن عينيها تقولان لي الكثير.. أتراني واهمًا قد أعياه العشق عن إدراك من تكون.. ومن أكون.. حبيبتي، ما بيني وما بينك مثل ما بين النجوم والأرض، ما بين أميرة القلوب، وصعلوك الحواري والطرقات، لن تكوني لي أبدًا".

٦- فِلْوة

يحكى أن جحا كانت له زوجة جديدة، فلما مر على زواجهما ثلاثة أشهر جاءتها آلام المخاض، فغضب جحا وسألها:

- في بلادنا تلد المرأة بعد تسعة أشهر، فكيف بك تلدين بعد ثلاثة أشهر؟

فتصنعت المرأة الغضب وقالت:

- ألم يمض على زواجنا ثلاثة أشهر؟

قال: بلى.

قالت:

- وقد مضى عليك متزوجًا بي ثلاثة أشهر، فصاروا ستة أشهر؟

قال: بلى.

قالت:

- وقد مضى على حملي ثلاثة أشهر فصاروا تسعة ففيمَ العجب؟

ففكر جحا مليًا وقال:

- الحق معك، لا تؤاخذيني يا عزيزتي فأنا أجهل الحساب.

من عجائب الطبيعة أن أنثى بعض فصائل الصرصور لها حويصلة تخزن فيها ماء الذكر لسنوات عديدة، فإذا ما اضطرتها الظروف للتواجد وحدها دون ذكور تستطيع أن تتكاثر، وعلى هذا يستحيل أن تتهم أنثى الصرصور بالحمل السفاح، وتشاء حكمة الخالق ألا تمنح أنثى الإنسان مثل هذه الميزة لتظل النساء عرضة للطعن في شرفهن على مر العصور، على أن بعضهن استطعن التغلب على هذه الإشكالية بذكائهن الفطري واتحادهن على خدعة عركنها منذ القدم.

في يوم كنت نوبتجيًا بعنبر الولادة وجاءتني سيدة بدوية تدعى فِلْوة (المهرة إذا فطمت)، عيناها مكحولتان واسعتان، على رأسها عصبة ملونة ومزركشة، بشرتها في لون النحاس القاني وعلى ذقنها خطوط ودوائر رسمت بالوشم الأخضر. كانت فِلْوة على وشك الولادة، وتُصدر صوتًا يشبه نخير البغال وتتخذ أوضاعًا غريبة، وفشلت كل محاولات نقلها لغرفة الولادة أو حتى إقناعها بالاستلقاء على السرير في العنبر، وفي النهاية وبحركة بهلوانية تضارع حركات حارس مرمى متنخب إيطاليا المخضرم دينو زيف، التقطت المولود عندما لفظته فِلْوة من بين ساقيها بعد أن كاد أن يرتطم بالأرض، وبدا لي وكأني أساعد حيوان "كنجارو" على الولادة!

انتهت الولادة ووضعت المريضة مولودًا ذكرًا علمت أنه جاء بعد ثلاث إناث. حان وقت صرف المريضة من المستشفى، وبعد الكشف عليها شرعت في إجراءات الخروج حتى إذا ما حان وقت كتابة إخطار

الولادة، سألتها:

- فين يا ستي أبو الولد؟

تنهدت والدة فِلْوة وزفرت زفرة طويلة أخرجت بها كل الهواء الذي في جسدها حتى ظننت أنها فارقت الحياة وقالت بكل أسى:

- ديه مات يا دكتور.

انقبض صدري ألمًا لهذا البريء الذي ولد يتيمًا منذ اللحظة الأولى، وغشيتني سحابة من الحزن والكآبة، فنظرت له بشفقة ولوعة وودت لو ضممته إلى صدري بعد أن حُرم حضن أبيه، وتمنيت لو صرت له أبًا يعوضه عن ضياع السند والمعين، أبًا يقيه شرور الدنيا ويكفيه ذل الحاجة، أبًا يكون له نبع حنان وعطف.. لكن طافت بي ذكرى دينو زيف و"الكنجارو" أمه وهي تلده، فصرفت نظر عن قصة التبني هذه وقلت بأسى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، البركة فيكي يا أمي، ربنا يعوض عليكم، طيب مافيش حد من أهل المرحوم؟

تنهدت الحاجة من جديد وقالت:

- من وجت ما مات من إربع سنين ومحديش عاد يسأل علينا...

لم أفهم فسألتها مستوضحًا:

- مين ده اللي مات من أربع سنين؟

قالت بغير اكتراث:

- أبو الواد.

- واد مين؟

- الواد ده.

ازداد الأمر غموضًا فأعدت عليها السؤال:

- أبو الواد ده مات من أربع سنين؟

تنهدت الحاجة من جديد وعقدت يديها وقالت:

- إيوه وأهل أبوه خدوا الجمل بما حمل وجالوا خلفته بنات! وعام أول ربنا رزجنا بعيل طلع بت برضيك، لكن الحمد لله ده واد والحين أنرجع ورث الولد.

ما يتحرق الواد بالجمل بالمرحوم.. هكذا حدثتني نفسي.. اقتربت من الحاجة أم فِلْوة وقلت لها:

- ثانية واحدة، ركزي معايا يا حاجة الله لا يسيئك، المرحوم مات من أربع سنين..؟

فقاطعتني وهي تهز رأسها بأسى:

- الله يرحمه..

- يا ستي ألف رحمة ونور عليه، خليكي معايا، إزاي المرحوم خلف السنة اللي فاتت بنت والنهاردة الواد ده وهو ميت وشبع موت بقاله أربع سنين؟

فأجابت بتلقائية:

- طفل كامن يا دكتور.

- كامن إزاي يعني؟

- يعنى خامد.

بدأت في شد شعر حاجبي الأيسر بأناملي كعادتي كلما استغلق على فهم شيء، وسألتها مقطبًا:

- أيوه إزاي خامد؟

فقالت وقد نفذ صبرها من غبائي:

- يعنى راجد.

- لا أنا فاهم العربي يا حاجة بس مش فاهم إزاي؟ يعني هو قاعد في بطن بنتك أربع سنين؟

إستشفت في قولي سخرية لم أقصدها فقالت بإستنكار:

- كيف يمجد إربع سنين في بطن البت؟ خربان أنت؟ طبعًا لا.. ماء زوجها هو اللي جاعد السنين ديه لحاد ما ربنا ما يأذن ويجي العيل.. حكيم وما تدري عن الطفل الكامن؟؟

فقلت مستفهمًا:

- طب إيه اللي برقده ولا يحمده يا حاجة؟

فقالت بثقة العالمة بخفايا الخلق:

- شوف يا حكيم، السحر والأعمال يرجدوا العيل وكيان الهم والزعل، لكن لو مَرَه زوجها سافر وطال غيابه وطلع عيّلها الراجد وبدها تبجيه راجد لحين ما يعود، عليها وعلى وصفة

السيوطي، إتدق الكمون والعرعار وتفطر عليهم ثلاثة أيام، يكمل رجاد بإذن الله.

- طب وإيه اللي يقومه من الرقاد ده يا حاجة؟

فأجابت بتنهيدة وقد أشرق وجهها، ربما زهوًا بحبكة قصتها:

- ربك كبير يا حكيم، قول الله أكبر يا ولدي..

من خلفي سمعت المريضات في العنبر يرفعن عقيرتهن بالتكبير والتهليل وقالت إحداهن:

- الله أكبر، معجزة يا دكتور، أصل ربنا كبير وحليم ستار وما يجيش على الولايا ولا يبارك للي يجي عليهم أبدًا.

فقلت:

- مش ده حمل سفاح؟

امتعضت أم فِلْوة ولزمت الصمت، لكن مريضة مستلقية على سرير خلفي قالت:

- داهية توديك الآمندي يا بعيد (*)، بنقول ربك حليم ستار!

فطنت لما ترمي إليه كلمات المرأة فقلت:

- آه، طفل كامن خامد راجد، متخزن في أوضة الكرار يعني.

ففضحكت أم فِلْوة لأول مرة وقالت:

(*) الآمندي أصلها amente وهي كلمة قبطية تعني الجحيم وأصلها فرعوني بمعنى البر الغربي وهو مكان جبانات الفراعنة، والدعاء هنا بالموت.

- الله ينور عليك، هو الكرار ده.

فبادلتها الضحك وقلت لها:

- تؤمريني يا حاجة والله، مبروك ما جالك يا شيخة العرب، سؤال معلهش يعني ما تآخذنيش، هو لسه فيه مية من المرحوم في بتك ولا خلاص كده علشان أعمل حسابكم بس في الولادة اللي جاية؟

قهقه البروفيسير سعيد عرابي عندما انتهيت من حكايتي، ثم أخرج من حقيبة يده الجلدية المتهالكة كراسة ضخمة جمعت أوراقها بحلقات بلاستيكية بيضاء، وعلى صفحتها الأولى كتب بخط كوفي بديع "كشف الألغاز والتلبس في شئون النسوان والجنس"، وبلل إبهامه بلعابه وراح يقلب الصفحات حتى وجد ما ينشده، وانطلق يقرأ: مسألة الطفل المستكين أو الراقد فيها صدام بين العقل والقانون والمنقول من الدين فاحذرها. سيقول لك العلم أن الحيوان المنوي لا يستطيع البقاء في بطانة رحم الأنثى أكثر من سبعة أيام على الأكثر، وسيقول لك أن مدة الحمل هي ٢٨٠ يومًا، ولم يعرف أن حملًا استمر أكثر من ٣٣٠ يومًا، وستقول لك قوانين الأحوال الشخصية أن أقصى فترة للحمل هي عام كامل، فالمادة ١٥ من القانون المصري رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ المعدل بالقانون ١٠٠ لسنة ١٩٨٥[٦] تنص على أنه لا تسمع عند الانكار دعوى النسب لولد زوجة ثبت عدم التلاقي بينها وبين زوجها من حين العقد، ولا لولد زوجة أتت به بعد سنة من غيبة الزوج عنها، ولا لولد المطلقة أو المتوفي عنها زوجها إذا أتت به لأكثر من سنة من وقت الطلاق أو الوفاة. وفي صحيح الدين يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: اتفق العلماء على أن أقصر

مده للحمل هي ستة أشهر، أما أكثر أمد للحمل فلم يرد في تحديده شيء من الكتاب ولا السنة، والعلماء مختلفون فيه وكلهم يقول بحسب ما ظهر لهم من أحوال النساء، فذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن أقصى أمد للحمل سنتين، والإمامان أحمد والشافعي قالا أربع سنين، والإمام مالك قال خمس سنين، لكن علماء السنة عادوا وأجمعوا على أن أقصى أمد للحمل هو سنة واحدة فقط [٧]. توقف قليلًا البرو فيسير عرابي، وراح يقلب بعض الصفحات الأخرى ثم استطرد يقرأ من فقرة أخرى: والنصيحة للنائب الهمام بأن الأمر متروك له ولذوقه وتسليح أهل المريضة.

بحسب الباحث في خصائص جنس الإناث دليلًا على ذكاء المرأة أن يبحث كيف أقنعت ملايين النسوة بعولتهن بأسطورة الطفل الكامن الراقد هذه عبر التاريخ، وكيف تحدت الزوجة وحماتها في هذه المجتمعات على نفس الخدعة، فعلى يقين الأم أن ابنها مخدوع وأن الزوجة خائنة، إلا أنها تتآمر مع الزوجة في خداعه، فمن يدري، ربما كان الابن نفسه طفل كامن.

ولأني لا أؤمن بالمعجزات، ولأن الحاجة أم فِلْوة لم تكن مسلحة، فقد كتبت على ملف أم الكامن: حمل سفاح ويبلغ البوليس. ولا تنتهي العادات الغريبة عند الطفل الكامن، فهناك في أقصى الجنوب، تزخم الحياة بالمزيد من المفاجآت للفتى ـ أنا ـ نائب أمراض النساء والتوليد الذي اشتد عوده بعض الشيء وصار فطامه قريبًا.

عمر ومريم

ليلة عصيبة، ازدحمت أروقة المستشفى فيها بحالات الولادة بعد أن ترددت أنباء عن إغلاق مستشفى الولادة الأخرى في مدينتنا بدعوى وجود عدوى خطيرة. استدعينا كل يد عون في المستشفى للمساعدة في رعاية سيل المرضى الذي لم ينقطع، وطلبت من عمر ومريم أن يلازماني مثل ظلي لمساعدتي، فأعارني عمر أذنًا صاغية وتلقى تعليماتي بنفس طيبة، وخف لقضاء كل ما كلفته به بهمة وتفاني وإتقان محمود. كان شديد العزم، واسع الصدر مع المريضات، لا ييأس من إعادة التعليمات عليهن ولا يكل من إفهامهن كيف يساعدن أنفسهن في أثناء الولادة، ولم أستطع إلا أن أعجب به وبعمله، كما تيقنت أن مريم قد أشرب قلبها حبه فهامت به، لما رأيت من إشفاقها عليه كلما رأته جهدًا أو متعبًا، ومن عينيها اللتين لا تغادرانه أبدًا. شردت في أمره، ربما كان الفتى نكرة من النكرات نسبًا وحسبًا وصلمعة بن قلمعة، لكنه وبلا شك سيكون له شأن عظيم في يوم ما، فهل يصمد الحب أمام هذا الاختبار؟

٧- الطهارة سوداني

ثم كان يوم فطامي من عنبر الولادة!

عندما يتسلم النائب عمله، يقضي كل وقته في عنبر الولادة الطبيعية، كي يتعلم من حكيمات الولادة تقنيات الولادة الطبيعية ومشاكلها. هؤلاء الحكيمات حصلن على دبلوم تمريض ثم التحقن بوحدة الولادة الطبيعية لتصبحن حكيمات ولادة أو ما يطلق عليهن في الغرب "القابلة". في البداية يكون النائب لطيفًا معهن ليتعلم منهن، ويقمن هن بالتستر على أخطائه ويصلحن ما يفسده بجهله، وتستمر العلاقة الحميمة بين النائب وحكيمات الولادة حتى يُقدر للنائب أن يجري أول عملية قيصرية، وهنا يتملكه الغرور والكبر، ويكسبه المشرط شعورًا سلطويًا يخيل إليه أنه الإله آبولو الذي استخرج اسكالبيوس من بطن أمه[٦]، أو أنه السويسرى جاكوب نو فير[٧]، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبشبش الطوبة التي تحت رأسه، فإليه يرجع الفضل في ثراء أجيال من أطباء النساء والتوليد، بعد أن قام بإجراء أول عملية ولادة قيصرية ناجحة ينجو منها الأم والوليد. فبخلاف شق البطن الذي عرف من قديم الأزل لاستخراج المواليد أحياءً أو أمواتًا من بطون أمهاتهن الموتى،

قام الزميل جاكوب نو فير بأول ولادة قيصرية لزوجته عام ١٥٠٠ في سويسرا، فوهبها الحياة هي وابنها، بل ويحكى أنها عاشت لتنجب خمسة أطفال من بعدها بولادات طبيعية، ولولا العظيم جاكوب نو فير، ما ذقنا نحن معشر أطباء النساء والتوليد طعم الشهد من إجراء هذه الجراحة السعيدة، التي بات الكل يطلبها حتى صار طفل من كل أربعة يولد بها في العالم، ولصار حالنا مثل البؤساء أطباء الأمراض الباطنية أو الجلدية، ففضل جاكوب علينا من البطر الشرير التنكر له.

يُجري النائب الجونيور أول ولادة قيصرية له، فيتيه فخرًا ويتمكله الغرور.. على أنه ـ أي النائب ـ تؤرقه بداياته وكوارثها، فينقلب على شهود جهله وخطاياه، ويتمنى التخلص منهم، فيبدأ في معاملة حكيمات الولادة بتحفظ ثم باستكبار ثم بازدراء، ومايلبث أن ينقلب بالكامل عليهن فيوبخهن بدون سبب ويحيلهن للتحقيق الإداري على أتفه الأسباب وينكل بهن ولسان حاله يقول "دانا دكتور يابت".

والوضع أصعب للنائبات.. فالنائبة تبدأ بعقد الصداقات بينها وبين الحكيمات ولسان حالها يقول "إحنا بنات زى بعضينا"، وما أن ينتهي شهر العسل وتجري النائبة أول عملية قيصرية، حتى تتحول الأمور إلى "أنتي فاكراني حكيمه زيك يا روح أمك؟ فوقي يابت، أنا دكتورة وأديكي بالجزمة".

جدير بالذكر أن المستوى المهني للنائب وقت الفطام يكون لا يزال متواضعًا، لكن عند فطامه يكون في وسعه أن يخفي جهله بأن يضع يديه على خصره ويقول بجدية العالم ببواطن الأمور:

- الحاله دي مش مريحاني، طلعوها لي العمليات أحاول أولدها طبيعي أو أفتحها قيصرية، مش ناقصة بلاوي.

والسر في هذا أن حكيمات التمريض بغرف العمليات يجهلن تمامًا أصول الولادة الطبيعية، فمهما أخطأ النائب فهو جاهل وسط جهلة!

وفي يوم فطامي أبلغتني صفاء حكيمة الولادة عن وجود حالة في عنبر الولادة بحاجة لتدخل من سيادة النائب، وكنت لتوي قد أحلت إلى التحقيق "أنوار" شقيقة "صفاء" ومعلمتي التي سهرت على تعليمي قواعد الولادة الطبيعية ونقلت لي كثيرًا من خبرتها، بعد أن رأيتها في عنبر الولادة وقد فتحت زر قميصها العلوي كاشفةً عن خندق يمتد ما بين نهديها المكتظين المزينين بإطار من الدانتيل الأزرق المنقوش بقلوب حمراء صغيرة وكتابات بالإنجليزية تقول "أحبك"، مما اعتبرته إخلالًا جسيمًا بمظهرها يسيئ لسمعة المستشفى، وكنت في الليلة السابقة قد أجريت أول جراحة قيصرية لي بعد أن قمت برشوة الدكتورعزيز الليثي المدرس المساعد النوبانجي بدعوته الي وليمة من الكباب والكفتة حتى ييسر لي هذه الخطوة العظيمة. هرعت لعنبر الولادة فوجدت "صفاء" تنتظرني بين ساقي مريضة قد استلقت على سرير الولادة وساقاها منفرجتان استعدادًا لميلاد وليدها، وقد تجمع حولها جمع من أطباء الامتياز وطلبة كلية الطب. صحت في الجمع وأنا أشق طريقي وسطهم وأتصنع الوقار قائلًا:

- عن إذنكم شوية يا دكاترة لما نشوف الوضع إيه، وركزوا في كل حاجة بعملها علشان هاسألكم فيها بعدين، خير يا "صفاء"، أوعي تكوني عكيتي الدنيا.

تجاهلت صفاء غطرستي ولم تنبس ببنت شفة واكتفت بالإشارة إلى المريضة وعلى وجهها ابتسامة مكر ودهاء ألقت القلق في روعي.

نظرت للمريضة فوجدتها سيدة إفريقية فارعة الطول شديدة سواد البشرة، شديدة بياض العين، تلمع اسنانها الشهباء من بين شفتيها،

ووجدتها تزوم وتزأر ففهمت أن لحظة مخاضها قد أوشكت، فربت على كتفها وطمأنتها فقالت لي بلهفة:

- ألهجني يا دكتور هيجع منى إررررررررر.

فقلت بثقة وأنا أربت من جديد على كتفها:

- ما تقلقيش خالص يا ستي، خلاص أنا جيت، أوعي تخافي هه، أنا جيت يا ماما.

فنظرت لي السيدة ببلاهة وقالت:

- طب ما تعمل هاجة بدل ما أنت قاعد تخبط على كتفي، والتيوس دول مبرجين لي...

ارتديت قفازات الفحص بسرعة واتخذت مجلسي بين ساقيها وشرعت أفحصها، لكنني توقفت فجأة وأسقط في يدي....هناك، بين ساقيها، لم أجد منفذ الولادة...

طبيب امتياز سمج رذيل خسيس يبدو عليه التحذلق والفذلكة فطن لحيرتي وارتباكي فسألني بتهكم:

- إيه ده يا دكتور لو سمحت؟؟

تجاهلت سؤاله اللئيم وأنا أتمتم بصوت لم يسمعه:

- اتلهي على عين أهلك وأنا إيش عرفني.

تلفت يمينًا ويسارًا فوجدت الحكيمة "صفاء" تنظر لي نظرة كلها شماتة وتشفي، فشعرت بأن كرامتي أمست على المحك. شحذت ذهني وأمعنت التفكير في الوضع؛ طالما هذه المرأة حبلى، فلا بد من موضع استقبلت فيه ماء زوجها، ولن يكون هذا الموضع فمها، ثم إنها تبول

كسائر الكائنات، فلا بد لها من فتحة تبول، العقل إذًا يقول بضرورة وجود مخرج ما في مكان ما تلبي منه هذه المرأة متطلبات الحياة من تبول وحيض وجماع، طمأنني استنتاجي إلى وجود حل لهذا اللغز، وبَلجَ صدري، فعدت أفحص المريضة بدقة وإذا بي أجد فتحة صغيرة أعلى فتحة الشرج، وبمزيد من الفحص بدا لي المشهد وكأن يدًا قد أزالت البظر والشفرين الصغرين والكبيرين، ثم التقطت طرفي الجلد من على الجانبين وحاكتهما معًا، إلا من طرفيها السفليين. دار رأسي كحجر الرحى الطاحن بسؤال: من، ولماذا ولمصلحة من؟ وتذكرت قصة كنت قرأتها عن الملكة الآشورية "سميراميس" التي أزعجتها خاطرة أن تغوي فتيات قصرها ابنها فقررت إلباس كل فتيات القصر حزام العفة (Chastity Belt)، وهو طوق حديدي له قفل يحيط بخصر المرأة، ويمتد بين ساقيها ليسد عليها باب الخيانة، وله فتحات ضيقة لقضاء الحاجة، ويحتفظ الزوج معه بالمفتاح في أسفاره، وتحتفظ الزوجة بطفاشة تفتحه بها في غيابه لتخونه.. وهو شبيهٌ بذلك الذي استخدمه فرسان الحملات الصليبية لاحقًا حين كانوا يرحلون إلى الأراضي المقدسة فيجبرون نساءهم على وضع الحزام الحديدي ويغلقونه بالأقفال، لكن..

فجأة صرخت المرأة فانتزعتني من شرودي وتفكيري في حزام العفة.. نظرت بين ساقي المرأة، فإذا رأس جنين قد برزت من وراء الجلد الذي صار رقيقًا، وبدا لي أنه يعيق خروج الرأس، فأشعت في رأسي فكرة أن أشق الجلد.. فما أن فعلت، حتى وُلِد الطفل في الحال، فأثنيت على سرعة بديهتي وحسن تصرفي.

ثم سمعت طبيب الامتياز السمج الرذيل يسأل المريضة من جديد:

- أنتي عاملة كده ليه ياستي؟

نظرت المرأة المنهكة إليه شزرًا وقالت:

- عامله إيه؟ مالك يا أنت؟ طهارة صوداني، أمك مش عاملة كده؟

في عالم ذكوري مهووس بأوهام الشرف والفضيلة، تُوضع المرأة في موضع الاتهام المستمر، وتُجبر على الخضوع لعمليات تشويه عمدي لجسدها ومن ثم لروحها، ممن يتوهم أنه يغلق عليها طريق السقوط والرذيلة. هل يؤثر هذا التشويه على الأنثى؟ دراسات كثيرة ناقشت هذا التأثير، تقول إحداها أن ٢٨٪ من المختونات يشتكين من فقد المتعة الجنسية مع أزواجهن مقارنة بـ ١٦٪ من غير المختونات، وأن نسبة عدم رضا الزوج جنسيًا مع المختونات أكثر من ثلاثة أضعاف نسبتها في غير المختونات، وأن ٤٠٪ من النسوة المختونات يشتكين من صعوبات في الجماع مقارنة بـ ١٩٪ من غير المختونات، بل ويمتد التأثير ليشمل عملية الولادة الطبيعية، فنسبة تعرض المختونات لتمزق العجان أثناء الولادة ضعف النسبة في غير المختونات، كما يعاني طفل من كل أربعة من مواليد نساء مختونات من متاعب صحية عند الولادة مقارنة بـ٢٪ في غير المختونات[٨].

fb.com/SaTer.Elkotob

وعلى اختلاف المسميات لعملية بتر الجهاز التناسلي الخارجي للمرأة من ختان[*] أو طهارة أو طهارة فرعونية (التكميم) أو الخفاض، فهذه العادة التي يرجع أنها ظهرت مع دخول الأحباش إلى مصر في عهد الأسرة الفرعونية الخامسة والعشرين، تبقى عملية بعيدة كل البعد عن تعاليم الأديان السمحة التي أوصت بها فقط عند وجود ضرورة طبية.

"أمك مش مطاهرة كده؟".. سقطت الكلمات من على شفتي وحمدت الله بعد أن كدت أسأل المريضة نفس سؤال طبيب الامتياز الرخم الرذيل، لكن مازال سؤال يؤرقني، كيف يقضي زوجها منها

وطرًا بفتحة سفلية لا تزيد عن السنتيمتر الواحد.. ولا أحرى جوابًا سوى أنه ربما هناك في الجنوب الحار يمتلك الرجال مهارات مطاطية خارقة تنقصنا نحن أهل الشمال البارد.. وعلى ذكر الأديان فلا مناص من أن نعرض لما يرتكب من دجل باسم الدين والمدعو الشيخ عبد الجليل.

(*) اختلف مذاهب الأئمة الأربعة في الختان، فهو عند الأحناف والحنابلة مكرمة غير واجب، وعند المالكية مندوب وعند الشافعية واجب، وفي ١٥ يناير ٢٠٠٨ أصدرت دار الافتاء المصرية بحثًا عن ختان الإناث[٩]، انتهت فيه إلى تحريم ختان الإناث اعتمادًا على عدم صحة أحاديث ختان الأنثى ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يختن بناته وقول ابن المنذر: "ليس في الختان خبر يُرجع إليه ولا سنةٌ تتبع"، وأورد البحث أن من يعتبره مكرمة للإناث غاية ما هو مسموح به في حالة وجوبه هو الدرجة الأولى، الذي يوضحه تصنيف المجموعة العلمية الاستشارية لمنظمة الصحة العالمية في اجتماعها بجنيف في يوليو ١٩٩٥ لختان الإناث إلى ثلاث درجات[١٠]:

الدرجة الأولى: وفيها يتم إزالة غلفة البظر أو جزء منها.

الدرجة الثانية: وفيها يتم قطع البظر وغلفته مع الشفرين الصغيرين أو جزء منهما.

الدرجة الثالثة: وفيها يتم قطع البظر وغلفته والشفرين الصغيرين ثم يلي ذلك شق الشفرين الكبيرين ثم إخاطتهما معًا أو إبقائهما متماسين عن طريق ربط الرجلين معًا حتى يلتئما ليكونا غطاء من الجلد يغطي فتحة البول وأغلب المهبل وتترك فتحة صغيرة في حجم أصبع اليد الصغير لتسمح بنزول البول ودم الحيض، وتعرف هذه العملية بالتكميم أو الرتق.

وتقدر نسبة النساء اللاتي يتعرضن للدرجة الأولى والثانية بين ٨٠ ـ ٨٥٪ من بين كل النساء المختونات، أما الدرجة الثالثة فترى عادة في الصومال وجيبوتي. وفي مصر وطبقًا لمؤشرات الصحة الإنجابية للمجلس القومي للسكان فإن المسح الصحي لعام ٢٠٠٨ جاء فيه أن ٩١٪ من النساء في مصر مختونات، وبلغت النسبة ٨٥٪ في الحضر و٩٦٪ في الريف. جدير بالذكر أن الختان يمارس في بعض الدول العربية الإسلامية بينما لا تعرفه دول أخرى إسلامية مثل ماليزيا وإندونيسيا بل ومُنع في تركيا وبلاد المغرب. أخيرًا، يقول الشيخ يوسف القرضاوي في بحث نشره على موقعه في ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٦ [١١]، فند فيه وجوب الختان للإناث: "وقد رأيت معظم بلاد العرب لا يختن فيها الإناث، عدا مصر والسودان، وكأن الختان عندهم يتوارث من عصر الفراعنة، أما في بلاد الخليج وبلاد المغرب العربي كلها وبلاد الشام: فلا ختان فيها، فكيف سكت علماؤهم على ذلك طول العصور الماضية؟".

عمر ومريم

قالوا هوى، فعلاقة، فكلف، فعشق، فشغف، فجوى، فتيم، فتبل، فهيام.. على هذا صارت قصة عمر ومريم، لكنني كنت أرى سحب السوء تتجمع في الأفق مهددة قصة حبهما هذه بالفشل. في صباح أحد الأيام، استدعاني الأستاذ الدكتور رئيس القسم وسألني عن طبيب امتياز يدعى عمر سعيد. شعرت بأن السؤال يخبئ وراءه الكثير وتوجست خيفةً، فانطلقت أشيد بالفتى وبتفانيه وإتقانه في عمله ودمائة خلقه. عقد الأستاذ الدكتور حاجبيه وقال بهدوء:

- الواد ده ينزل تحقيق النهاردة ويُحول للمشئون القانونية.

أصابني الهلع فسألته عما فعل المسكين، نافيًا عنه أي تقصير أو تجاوز، فأعاد الأستاذ الدكتور على أذني أمره وكأنه لم يسمع كلماتي، تحقيق وشئون قانونية فيها ضياع مستقبل الفتى وتضاؤل فرصته في التعيين في سلك أعضاء هيئة التدريس في الكلية.... وهذا أول السيل.

٨- المدعو "الشيخ" عبد الجليل

نيابة أمراض النساء والتوليد تعطي النائب إلى جوار العلم والخبرة كثيرًا من الفراسة والشك والحنكة مثله مثل وكلاء النيابة وممثلي الادعاء في سرايا النيابة الذين يرسمون على وجوههم براءة ودعة تبث الاطمئنان في نفس المتهم، فيشعر أنه قد عثر وسط الأهوال على الصديق الذي سينيخ به جل ذنوبه ويريح ضميره ليهجع طائر الخوف في نفسه.

وذات يوم حضرت إلى قسم الولادة سيدة من الريف محولةً من أحد الأطباء بتشخيص "طفل ثمين للولادة القيصرية"، وكما سبق فمصطلح طفل ثمين يشار به إلى جنين المرأة التي تأخر حملها لسنوات أو من اضطرت لاستخدام إحدى وسائل الاخصاب المساعد مثل أطفال الأنابيب والحقن الرحمي لكي تستطيع الحمل أو من تكرر إجهاضها مرات عديدة، وصار يخشى أن يصاب جنينها بسوء إن ترك للولادة الطبيعية. بسؤال السيدة تبين أنها قد تأخر حملها ٤ سنوات فشلت خلالها محاولتان للعلاج بأطفال الأنابيب حتى أكرمها الله بالحمل أخيرًا.

انتهينا من الولادة القيصرية وجاء وقت خروج المريضة من المستشفى

فرحت أشرح لها تعليمات ما بعد الولادة القيصرية والعلاج الذي ستلتزم به. كان قد لفت نظري غياب الأب عن هذا الموقف على خلاف العادة في مثل هذه الحالات التي يحرص الأب على التواجد بجوار زوجه وطفله الثمين وعلى وجهه علامات الزهو والنصر أن فتح الله عليه وحبل زوجه يقابلها زهو وتيه الطبيب أن منّ الله عليه وأفلح في توليد السيدة دون خسائر.

انتهيت سريعًا من إلقاء التعليمات على مسامعها ثم استدرت أسأل والبراءة على وجهي عن والد الطفل الثمين، فزفرت عجوز برفقة المريضة زفرة قوية وقالت بأسى وانكسار:

- ديه في العراج يا داكتور.

فعدت أسأل:

- ربنا يجيبه بالسلامة، أكيد هييجي يشوف ابنه قريب.

تنهدت العجوز بقوة، ورأيت دموعًا في عينيها، فأدركت أني أمام قصة ما، وأن الصنارة على وشك أن تأتي لي ربما بـ" فِلْوة "جديدة، فقلت لها:

- شاكلك مش مبسوطة فيه حاجة يا حاجة؟

فقالت لي وهي تغالب دموعها:

- ولدي محبوس ظلم في العراج من أربع سنين يا داكتور، ولاد الحرام لفجوله جضية ومن وجتها ما شوفناهوش لا أنا ولا مرته.

دبت النشوة في صدري وأنا أرى صنارتي تنشب في حلق هذا الصيد الثمين، ورقص قلبي فرحًا وطربًا مثلي مثل ضباط مباحث الآداب عندما

يداهمون أحد أوكار الدعارة ويسوقون الفاسقين وهم عرايا أو ملفوفين بالملايات وفي أيديهم ملابسهم الداخلية للدلالة على أنهم كانوا بدونها وقت القبض عليهم، ثم قفزت في مخيلتي صورتي وأنا في رداء وكيل النيابة أمام هيئة المحكمة وحضرات المستشارين، وأنا أطالب بأقصى عقوبة على هذه الفاجرة التي خانت زوجها المسكين، ذاك المخدوع الذي سافر بحثًا عن لقمة العيش الشريفة بينما سقطت هي في مستنقع اللذة المحرمة وطعنته في شرفه وهو غافل، ثم هذا الذئب الخائن ـ الذي هو بالتأكيد أخو الزوج أو ابن عمه أو أحد أقربائه على أي حال ـ الذي لم تردعه أواصر الدم من أن يعتدي على شرف الزوج الغافل، فيا حضرات المستشارين، لا تأخذنكم بهؤلاء السفلة رحمة ولا شفقة، بل العقاب الرادع والبطش العادل فمثل هؤلاء..

قطع على نشوة المرافعة المُفْوهة صوت العجوز وهي تقول منتحبةً:

- ابنى صافر يا دكتوورر لجل ما يجوش جرشين يعاود بيهم عمايل الحجن المجهري، لجل ربنا ما يأذن بالولد زي باجي إخواته، بس ولاد الحرام علموه سكة الجمار والمسخرة، ولما خلصت فلوسه، لبسوه جضيه واتسجن.

أوحت لي ذكرى السيدة فِلْوة وطفلها الكامن الراقد الخامد بأن قصتها تكرر نفسها مع هذه المريضة، فقلت للعجوز وأنا أتيه بأني أعلم بواطن الأمور:

- مفهوم مفهوم، عايزة تقولي يعنى أن الولد ده طفل كامن.

فنظرت لي بدهشة وقالت:

- كامن كيف يا دكتور؟

لم أتخل عن تيهي بعلمي الذي صار ضاربًا في أغوار أغوارعلوم أمراض النساء، وظننت أن العجوز تستخدم مصطلحًا مختلفًا:

- راقد أو خامد يعني يا حاجة، مفهوم مفهوم.. كملي يا أمي.

فلما ظلت العجوزعلي دهشتها قلت لها:

- اللي هو يعنى مية الراجل قاعدة في أوضة الكرار لغاية لما ربنا يأذن ويحصل حمل، مفهوم مفهوم، مش مهم أنت بتسميه إيه.

فنظرت لى وكأنها ترى مجذوبًا:

- أول مره أسمع الكلام ده، بس صراحة، كلام ما يدخلش العجل يا دكتور، كيف يعنى مية الراجل تفضل في جسم المره؟ أنتم علموكم كده يا دكتور؟

التفت للعجوز وقد احمر وجهي خجلًا من سذاجة ما تسرعت بقوله، فاستطردت هي تقول:

- أنا ما عرفش يا بوي عن الكامن ده، لكن لما الجدع غاب في العراج، ولاد الحلال دلولي على الشيخ عبد الجليل وجالولي ديه يفك مشكل الخلفة، فطلب مني أبعت أجيبله منديل متعاص لا مؤاخذة مية ابني.. بعتنا جنباه مع ولد عمه، والشيخ جرى عليه قرآن، وبجى يعوص خيشه ويحوشها جوه البت كل يوم لما حبلت بعد شهرين. والله يا دكتوور بعت دهبي لجل ما أدفعله الـ٢٥٠٠ أجنيه، بس الحمد لله ربنا رزج ولدي على يده!

هرعت إلى البروفيسر عرابي أنهل من علمه عن قصة الخيشة،

فضحك ملء شدقيه، ومص مصة كبيرة من لِيّ أرجيلته، نفث بعدها سحابة من الدخان الأزرق خرجت على شكل حلقات متدفقة، ثم قال لي إن الناس يزعمون أن الشيخ عبد الجليل يأتي بالمعجزات، ذلك أنه يطلب من النسوة اللاتي يقصدنه أن يحضرن له على خرقة من قماش خشن مثل صوفه أو خيش السائل المنوي للزوج والذي يحوي حيواناته المنوية، ثم يتلو الرجل بعض آيات الذكر الحكيم على السائل، ويضع هذه الخيشة في مهبلهن، فاذا بهن وقد صرن حبليات.

لم أقتنع بكلام البروفيسر عرابي لأن ماء الزوج قد فسد بالتأكيد من طول رحلة السفر بين القطرين، ويبدو أنه قد ظهر على عدم الاقتناع، فاستطرد عرابي قائلًا أن حقيقة الأمر أن المدعو الشيخ عبد الجليل يضع سائله هو أو سائل أحد مساعديه إذا فشل سائل الزوج في تلقيح الزوجة أو كان الزوج على سفر، وأن المدعو الشيخ عبد الجليل ورث هذه المهنة عن أجداده الذين ينتهي نسبهم إلى سيدي أبو خيشة، وهو من الذين سكنوا مصر في القرن السادس عشر واشتهر بعلاج العقم بالحقن المهبلي بسائل منوي من الزوج أو "الشيخ" أو "أحد مساعديه".

ورغم بغضي لهذا التدليس والخداع الا انني شعرت بالزهو من كلام البروفيسر عرابي، ذلك أن المبدأ العلمي الذي بُني عليه هذا الخداع هو اساس الحقن الرحمي الذي نقوم به اليوم في عيادات العقم لعلاج ضعف حيوانات الزوج المنوية وفشلها في السباحة حتي تلقح البويضة، وانه لمن دواعي الفخر أن أعرف أن هذه التقنية اختراع عربي أصيل، لكن لم يدم فخري طويلًا، فكما هو حال تاريخ العرب الضائع، تدعي كتب تاريخ الطب، أن أول من قام بعملية الحقن المهبلي هو طبيب اسكوتلندي يدعى چون هانتر في لندن [١٢]، حين قام في أواخر القرن الثامن عشر بوضع

السائل المنوي لرجل بريطاني في مهبل زوجته التي حملت وأنجبت، ثم تلاه الطبيب ويليام بانكوست [١٣] الذي أدخل تعديلًا هامًا، بحقن السائل المنوي داخل الرحم، خلافًا لتقنية المدعو الشيخ عبد الجليل والطبيب چون هانتر بحقن السائل داخل المهبل. كان وليام بانكوست طبيبًا بكلية چفرسون الطبية بولاية فيلاديلفيا الأمريكية وجاءته مريضة عام ١٨٨٤ تشكو من عقم شخصه هو بأنه بسبب عقم الزوج، استدعى بانكوست المريضة بدعوى فحصها فقط، ثم قام بتخديرها، وطلب من ستة من تلاميذه التبرع بسائلهم المنوي، ثم أتى بأنبوبة من المطاط وقام بدفع سائل التلامذة المنوي إلى داخل تجويف الرحم دون علم المريضة ولا زوجها، وحبلت المريضة في طفل لم تعرف في وقتها أن زوجها ليس والده، إلى أن اعترف أحد التلامذة على أستاذه لاحقًا، فلاحقته الاتهامات واللعنات.

وطبعًا احتفى التاريخ الطبي بذكرى الطبيب ويليام بانكوست أبو الحقن الرحمي، بينما أسقط ذكر أبو خيشة، أبو الحقن المهبلي.

يتبادر سؤال إلى ذهني: هل تسقط الأنثى في شرك هؤلاء الدجالين دون علمها وموافقتها؟ يقيني أن الذكاء الأنثوي الحاد لن يغفل عن الخدع التي يمارسها هؤلاء، لكنه التآمر والخديعة المشتركة. وفي الوقت الذي يبذل فيه البعض كل غالي ونفيس للحصول على الطفل المنشود، قد يكون هذا الطفل هو السبب في إزهاق أرواح آخرين.

عمر ومريم

ذبل جمال مريم، وذهب الألق من عينيها، وفقدت الكثير من وزنها. لم أدرِ ما بها، فسألت أقرب صديقاتها، فأسرت إليّ بأنه قد جاء أباها من يطلبها للزواج، فلما هرعت لفتاها تستصرخه ليبادر بطلبها للزواج، تقاعس بحجة ضيق ذات اليد وهوان الأصل ووضاعة النسب.

لم يفرض أبوها عليها الموافقة على من جاء يطلبها للزواج، لكن العريس نشط لإقناع الأب والأم باستحقاقه لذلك النسب، فلما سألت الصديقة إن كانت تعلم اسم العريس فاجأتني بالقول:

- المهندس فاروق الضبع!

٩- حكاية الدكتورة مها

من نوادر ظرفاء العرب يُحكى عن خلاف وقع بين سليمان الأسدي الملقب بالأعمش وزوجته وكانت من أجمل نساء الكوفة، وكان يزوره رجل كفيف يدعى أبو ليلى وكان فصيح اللسان، فقال الأعمش له: يا أبا ليلى امرأتي نشزت علي وأنا أحب أن تدخل عليها فتخبرها مكاني عند الناس، وموضعي عندهم فدخل عليها الكفيف وقال لها:

- إنَّ أبا محمد شيخنا وفقيهنا، الذي على يديه نتلقى أصول ديننا، وحلالنا وحرامنا، فلا يزهدنك فيه عموشة عينيه، ولا حموشة ساقيه، ولا ضعف ركبتيه، ولا قذر رجليه.

فغضب الاعمش، وقال: أعمى الله قلبك كما أعمى عينيك، قد أخبرتها بعيوبي كلها.

وجدت بين أوراقي قصاصة ورق نزعت من جريدة منشور بها خبر تتصدره صورة زفاف لعروسين. في الصورة رجل دميم، ضخم الجسم رهل، أشعث شعر الحواجب الكثيفة، والتي تزيد من ضيق العينين معقوف الأنف ذو شارب كث يغطي شفته العليا تمامًا، عريض البنيان، فشلت سترته في إخفاء انتفاخ لحم بدنه، وقد وقفت إلى جواره شابة

رقيقة الملامح صغيرة البدن ينبع فستان زفافها عن جسم لدن ناضج ممتلئ بالسحر والجمال. قرأت الخبر وتذكرت الواقعة: عباس معوض تاجر المواشي الكبير وزوجته الدكتورة مها.

المكان: عنبر الولادة بالمستشفى.

الحدث: استدعاني الدكتور شريف المساعي المدرس المساعد بالقسم - وكنت نوباتجي قسم الحوادث - وقال لي:

- كريم، الحالة دي الأستاذ الدكتور أحمد عزت موصي عليها، تولد هنا في العنبر من غير بنج، وتلقحها في العنبر الكبير.

بدا لي التناقض الشديد في كلام البك المدرس المساعد، فقد جرى العرف في حالة توصية أستاذ ما على إحدى الحالات أن تعامل كإنسانة، فلا تلد في غرفة الولادة التي تفتقد التعقيم والتخدير ولكن في غرفة العمليات، وأن تكون إقامتها قبل وبعد الولادة في غرفة المخصوص بعيدًا عن الإسطبل كما نسمي العنبر، والأكيد أن يقوم بتوليدها أي نائب أكثر خبرة مني، فالأمر على هذا النحو يبدو وكأن الأستاذ يقصد أن يثأر من المريضة بدلًا من أن يوصي عليها.

انحنى المدرس المساعد جانبًا كاشفًا عن سيدة منتقبة، يغطيها ثوب كان فيما مضى أزرقًا لكن الزمن وتكرار الغسيل أذهبا اللون. استقر رأيي أن هذه المريضة هي إحدى الفقيرات اللاتي يعطف عليهن الأستاذ لكنها أغضبته بشكل ما، وانطلق خيالي المريض يصور لي على أنغام كروان ينعى أنه ربما تكون المريضة خادمة الأستاذ وقد ذاق من متعتها المحرمة، فلما حملت في أحشائها ثمرة الخطيئة، تنكر لها فهددته بالفضيحة، فاضطر للعناية بها بينما كان يضمر لها الشر.

أشرت للمريضة أن تدخل إلى غرفة الكشف مع إحدى الممرضات وتنهيأ للكشف، فلما مرت بجواري استرعى انتباهي عطرها الذي يشبه عطر "Chloe" الفاخر، فظننت أنه ولا شك تقليد رخيص لهذا العطر العالمي، وضحكت من ما وصل إليه المقلدون في المناطق العشوائية من ذوق رفيع في العطور. لحظات واستدعتني الممرضة إلى الحجرة فاستأذنت من المدرس المساعد وتوجهت للكشف على المريضة، لكن ما أن ولجت إلى الغرفة حتى هالني ما رأيت.

هناك على سرير الكشف كانت تجلس شابة عشرينية، جمالها جد رائع، عيناها مكحولتان مشروطتان لامعتان بذكاء أنثوي حاد، وشعرها كستنائي طويل مقصوع برباطة فشلت في جمع شتاته فتهدلت بعض خصلاته على وجنتيها، كانت ترتدي "تايرًا" أنيقًا حُمرَتُهُ في حمرة دم الغزال، وقد أحاط عقد من أحجار حمراء وزرقاء جيدها، تدلى منه "ماشاء الله" كبيرة ذهبية اللون، وعلى معصمها تراصت أساور فضية مشغولة بطراز عربي بديع.

أفقت من دهشتي على صوت الفاتنة وهي تقول لي وعلى وجهها نظرات تحدٍ واستنفار:

- هاي، ألو، هتبحلق لي كده كتير يا أخينا؟ مش هتكشف؟

خجلت من نفسي أن أطلت النظر إليها على هذا النحو، فأخفيت ارتباكي بأن التقطت ملفها من يد الممرضة وصرت أقلب فيه بلا هدف، فلما زال عني الارتباك سألتها:

- ده أول حمل؟

فأجابت بلا تردد:

- أول وآخر حمل.

عقدت الدهشة لساني من ردها، فلذت بالصمت حتى قطعته هي قائلة:

- أيوه أول حمل، هه، السؤال اللي بعده كده مش هنخلص.

قلبت صفحات الملف من جديد وأنا أتفادى نظراتها الحادة:

- آخر دورة كانت امتى يا ماما؟

افترت شفتاها عن ابتسامة ساخرة:

- ماما؟ ماشي.

ثم بإنجليزية سليمة جدًا استطردت تقول:

- أنا أول يوم في الـ period (الدورة الشهرية) كان بتاريخ كذا يعني أنا حامل في ٢٩ أسبوع دلوقتي!

رفعت عيني للحظات وقد أذهلتني طلاقتها، فلما وجدتها تحدجني بذات نظرات التحدي، عدت أدفن عيني في الملف من جديد وأنا أسأل:

- طيب وامتى بدأ الطلق، وفيه مية نزلت؟

بطرف عيني لمحتها ترفع بيدها خصلة شعر تدلت على عينها وقالت:

- الـ(contractions) بدأت امبارح الصبح ولأ الـ(sac) سليمة وما فيش أي (amniotic fluid) نزل، أنا شايفة إني عندي (premature labor) ومستحيل إني أكمل.

كان نطقها للمصطلحات الطبية نطقاً سليماً دون لكنة أو لحن، نطق من تلقى تعليمه في مدارس أجنبية، ومع مظهرها وحليّها وعطرها، بدا لي الوضع غامضًا جدًا، أغلقت الملف وقد ملك الفضول ناصية أمري فاستسلمت له صاغرًا وسألتها:

- معلهش بقى، هو أنتي بتشتغلي ايه؟

فعادت تحدجني بنظرة ريبة وتوثب لرد العدوان إذا حدثتني نفسي بالتهكم عليها:

- أنا بكالوريوس صيدلة ومعايا MBA من الجامعة الأمريكية، وبأشتغل نائب رئيس مجلس إدارة مصنع أدوية والدي، فيه مشكلة في كده؟

فلم أدرِ إلا وأنا أقول لها:

- جامعة أمريكية وعندكم مصنع أدوية، وإيه اللي جابك عندنا هنا؟

فأجابت بسخرية أثارت حنقي:

- واااو، يعني هو أنا حامل ومفروض أروح مستشفى ولادة وكده، يكون السواق غلط وجابني الچيمنيزويم؟ بس فيه يافطة بره بتقول أن دي مستشفى ولادة، هم مش قالوا لك أن دي مستشفى ولادة وإنك بتشتغل دكتور نساء وولادة ولا ماعندكش خبر؟

كتمت غيظي وأشرت للممرضة فساعدتها على الاستلقاء في وضع كشف النساء، فلما انتهيت من الكشف قلت لها متهللًا:

- على فكرة عنق الرحم مش مفتوح قوي يعني ممكن نعلق محاليل توقف الولادة، وكمان وضع الجنين كويس.

اختفت نظرة التحدي من وجهها وقالت بذعر:

- لا توقف ايه، الولادة هتم يعني هتتم، أنا مش هاخد محاليل.

فقلت مغمغمًا:

- ما أقدرش أعمل كده، إذا فيه فرصة الحمل يكمل وينمو وينزل كامل النمو يبقى لازم أعمل اللي أقدر عليه.

- أنت مالك أنت يكمل ولا ما يكملش؟ أنا مش عايزاه، محاليل مش هاخد، ورغبتي غصب عنك هتحترمها، أنا عارفة حقوقي كويس.

استنجدت بالنائبة وفاء، وكانت كعادتها بالمنزل ـ تقضي وفاء فترة الظهيرة والقيلولة في المنزل لتحضير الطعام للعائلة وشرب شاي الساعة الخامسة قبل أن تعود إلى المستشفى بعد انتهاء المسلسل العربي ـ فردت على بعصبية:

- عايز إيه يا كريم، قول بسرعة البصل على النار.

شرحت لها الأمر وسألتها الرأي فصمتت لبرهة سمعت خلالها "طشة" الملوخية ثم قالت:

- هي مش الولية مش راضية تعلق على الرز ومصممة تولد قبل ما العيل يستوي.

- رز إيه؟ المحلول قصدك، آه رافضه، بصي هي مش ولية قوي هي ست متعلمة، بس كده العيل ٢٩ أسبوع بس وناقص سوى.

- وأنت مالك أنت ناقص سوى ولا حتى شايط ومحروق، وبعدين

ولية ولا مش ولية، مش دي حالة أستاذ، والأستاذ قال تولد، يبقى تعلق عليها ولما تستوي طش لها القرن وتاخدها أودة الولادة ولما العيل يتولد حطه.. في القرن يا ماما..

- فرن؟

- مش أنت، بكلم ماما، لما الواد يتنيل أرميه في الحضانة.

- طب ممكن تيجي تبصي عليها ثواني كده؟؟

صرخت وفاء وقالت:

- أنت اتجننت يا كريم؟ مش شايف البصل اللي على النار والحاجات اللي في القرن؟ بطل دلع وروح خلص الحالة.

وسمعت طرقعة شديدة وصرخة مكتومة، ثم انقطع الاتصال، فدعوت الله أن يكون القرن قد انفجر بوفاء وأهلها أجمعين.

عدت إلى المريضة وأنا أجر أذيال الخيبة وقلت لها:

- طيب هنديلك حقنة "كورتيزون" علشان تساعد رئة الجنين في النمو.

رفعت رأسها من مصحف كانت تقرأ فيه وقالت بتحدي:

- عندي حساسية منه، وريح نفسك مش هاخد حاجة.

وعادت لمصحفها، فقلت لها برجاء:

- يا دكتورة، اللي بتعمليه ده اسمه عند ربنا قتل للروح.

فرفعت الدكتورة رأسها وقالت:

- اللي أنا بعمله ده عند ربنا حفاظ على أرواح!

لم أفهم فانصرفت وامتنعت عن تركيب أي علاج تاركًا الأمر لمشيئة الله. كان لدي افتراضي الذي يشبه اليقين أننا بصدد عملية قتل متعمد للجنين.

دنت لحظة الولادة، ووجدتني أتجاهل تعليمات الأستاذ، وأصحب الصيدلانية إلى غرفة العمليات لتضع وليدها تحت تأثير التخدير، وكما هو متوقع، جاء الوليد مبتسرًا ناقص النمو وفي حالة سيئة، فهرعت به إلى وحدة الأطفال المبتسرين، لكن النائب المسئول ـ وكان نائبًا مشهورًا بالسماجة حتى لقب "اللذوذ العثول" من باب السخرية ـ رفض استقبال الوليد رغم توسلاتي بحجة عدم توافر حضانة شاغرة، ثم عاد وقَبِل على مضض بعد أن هدأته بتصعيد الأمر إلى أستاذي الذي أوصى على الحالة وتنازلت له عن وجبة عشائي.

في الصباح مررت على الصيدلانية لأتم لها إجراءات الخروج فوجدتها مبتسمة وهادئة ووجهها تكسوه السعادة والغبطة، تعجبت خاصة وأن النائب "اللذوذ العثول "كان قد هاتفني في الصباح ليبلغني أن الوليد حالته تسوء ويكاد يحتضر. أتممت إجراءات الخروج دون أن تنبس شفتاي بكلمة واحدة، فلما همت بالإنصراف استوقفتني الصيدلانية وقالت:

- أنا متشكرة ليك جدًا، أنا مفروض اللي جابوني هنا جابوني علشان أتعذب وأنهان، بس أنت ما حققتش لهم مرادهم، أنا مش وحشة زي ما أنت فاكر، بس الظروف أقوى مني بكتير.

كنت لا أزال أرى أنها قاتلة متجردة من كل مشاعر الأمومة، فاندفعت

أقول لها:

- أنا اللي أعرفه إن اللي أنت عملتيه ده اسمه قتل مع سبق الاصرار والترصد لروح بريئة اسمها ابنك.

فانفجرت في صارخة:

- ابني اللي أنت بتقول عليه ده هو رمز الاغتصاب والمهانة اللي أنا بشوفها كل ليلة من أبوه، لما بفتح رجلي وتبتدي سكيتته تقطع كرامتي وآدميتي، لما كل ليلة بغرق في مية لزجة بتحرق قلبي قبل ما تحرق جسمي زي النار، أنت صعب جدًا تفهم يعني إيه تعيش مع حيوان جاهل مقزز بتكره حتى اسمه وصوته وريحة نفسه، بهيم ما بيفكش الخط فاكر أنه يقدر يشتري الناس بفلوسه ويملكهم زي المواشي اللي بيربيها، وحش ما بيعرفش يتفاهم غير بالكرباج والحرزانة، أنا كنت معتبرة نفسي في كابوس هينتهي يوم لما أبويا يصلح مادياته ويرد للحيوان ده الفلوس اللي عليه، وكل همي كان أني يومها ما يكونش فيه أي حاجة تربطني به، فجأة عرفت أني حامل، ما أعرفش إزاي، أنا باخد حبوب منع الحمل ومش بافوت حباية، ومش برتاح إلا لما أشيل كل قرفه من جسمي، بس حلت، حاولت أنزله، ولما عرف حبسني في أوضة زي الكلاب، دعيت ربنا كتير جدًا، مش عايزة أعيش يوم تاني معاه، ولا عايزة حاجة تفكرني أصلًا به، ابني اللي بتقول عليه ده بكرهه من قبل ما أشوفه لأنه منه.

فقلت لها ومازال عصبيًا على نفسي الاقتناع:

- يعني وهو لو وحش قوي كده، طيب ما تطلقي.

فأسرعت تقول:

- ووالدي ووالدتي وإخواتي يدخلوا السجن بإيصالات الأمانة اللي معاه؟ تفتكر أنا ناقصة فضايح؟ ربنا ياخده هو وابنه، صمتت لبرهة ثم قالت:عارف..

اختنقت كلماتها، وبصعوبة سمعتها تتمتم:

- أنا كان لي في يوم حبيب، واحد طيبي زي كل الناس، قبل الحيوان ده ما يشتريني بفلوسه.

مكثنا لبرهة نترامق وحيرتي تزداد، فرغم الصدق الذي لمسته في كلماتها، لم أستطع قبول منطقها، ثم بدت مني ضحكة بلهاء وسمعتني أقول لها:

- بس الفكرة دي اتهرست في ميت فيلم عربي قبل كده وطبعًا شوية وهنسمع إنك قطعتي جوزك بساطور بعد ما حطيتي له مخدر في العصير ورميت جثته في صندوق الزبالة ولا في خرابة، مش بقول لك اتهرست خلاص، بصي ممكن تجددي، يعني مثلاً، حطي له سيانيد في عصير الجوافة مش هيبان طعمه، وبعدها أملي البانيو بالبوتاس بس الكاوي مش المطفي، هيدروكسيد البوتاسيوم يعني، أنت صيدلانية وعارفة، وأنقعي الجثة فيه، وكلها كام يوم تشيلي سدادة البانيو وباي باي للمرحوم.

لم تجبني واستدارت وانصرفت.. وما كادت تختفي عن نظري حتى شعرت نحوي بالاحتقار لسخريتي منها والخجل من نفسي لعدم تقديري لمعاناتها، فهرعت لأعتذر لها لكنها كانت قد غابت عن الأنظار ولم تترك إلا طنين الحيرة في رأسي.

مضت بضعة أيام وأنساني العمل قصة الدكتورة الصيدلانية حتى فوجئت ذات صباح بالنائب "اللذوذ العثول" يقول لي:

- اسكت يا كمكم، مش الواد بتاعك لسه عايش!

- ؟

- الواد اللي أنت بخيتك مولده في ٢٩ أسبوع ومن غير حتى ما تدي له حقنة كورتيزون بأربعة جني، الواد ابن بتاع المواشي اللي أمه صيدلانية يا كمكم.

- آه، والله؟ أنا افتكرته مات.

- عايش، اسكت دا أمه بت كلب، تخيل بتيجي كل يوم تطمن إن كان مات ولا لسه! بس أبوه جايبله لبن العصفور.

وسمعتني أتمتم:

- يا رب ما يعيش.

مضى شهران وذات صباح، وقعت عيني على إعلان شكر وامتنان في الجريدة لوحدة المبتسرين في مستشفانا والأستاذ الدكتور رئيس الوحدة والدكتور "اللذوذ العثول" من الحاج عباس معوض تاجر المواشي.. لم أهتم لعدم ذكري ولا الامتنان لمجهوداتي المخلصة في الولادة وتفاني في خدمة المريضة في الإعلان، وهل يعمل مثلي من أجل ذلك؟ كله عند الله، لكنني أدركت أن الطفل قد تشبث بالحياة فتساءلت ماذا عن حياة أمه؟

دُفِنت ذكرى هذه الولادة في أرشيف ذاكرتي، حتى أقتحمت مكتبي

ذات صباح سيدة ممشوقة القوام، شعرها كستنائي وعيناها مكحولتان مشروطتان لامعتان، ترتدي ثوبًا ضيقًا قصيرًا من الكتان الأبيض، وقد فاح منها عطر "الكلويه" المميز، وحدجتني بنظرة متحدية وهي تقول:

- فاكرني يا دكتور كريم؟ أنا الدكتورة مها الصيدلانية، أنت ولدتني من ست شهور.

انقبضت وقد تذكرت قصتها فأجبتها بريبة وتوجس:

- أهلًا، خير يا دكتورة.

فأجابت وقد سلطت على عينيها الزرقاوين:

- أنا بس كان لازم أجي أقول لك: الولد عاش بفضلك، بس فكرة البوتاس دي جامدة جدًا.. الحقيقة أنت مدهش، يعني بجد مش عارفة أقولك إيه، بص، منك لله، ضيعتني ربنا يا خدك.

كثيرًا ما كنا نسمع دعوات مثل "حرام عليكو يا ظلمة" و"ربنا ينتقم منكم" و"الله لا يكسبكم" ودعوات من هذا القبيل، مما يعبر عن شكر وامتنان المرضى على عظيم رعايتنا نحن والتمريض لهن، لكن من الدكتورة مها بدا الأمر غريبًا. وعن أي بوتاس تتحدث؟ هممت بمهاتفة معتز بك منصور، لكن تراجعت حتى لا أكون قد أفشيت سر مريضتي، في الصباح التالي وفي استراحة الأطباء قابلني نائب وحدة الأطفال المبتسرين "اللذوذ العثول" فاستوقفني ومد يده لي بالجريدة وهو يقول:

- قرأت الخبر ده يا كمكم؟

الخبر كان يقول: اكتشاف سر اختفاء عباس معوض تاجر مواشي بالدقهلية؛ فصلت زوجته الصيدلانية رأسه بعد تحذيره بعصير الجوافة

وقطعت أوصاله وأذابت جسده بكيماويات حارقة. ثم بخط أصغر: الزوجة القاتلة تعترف تفصيليًا بالجريمة وتعللها بسوء خلقه وتكرار إهانته لها.. ومع الخبر صورة الزفاف للدكتورة مها وزوجها عباس معوض.

"منك لله ربنا ياخدك" بعد ما قتلت زوجها؟ هل كان بوسعي إنقاذ الزوج إن نقلت شكوكي لمعتز منصور؟ وهل سأمشي بكل من قالت أنها تكره زوجها وترجو له الموت؟

- لا يا دكتور كريم، ولا بإيدك شيء، قدر ونصيب.

قالها البروفيسور عرابي، ثم ألتقط عوده وصار يضرب أوتاره بنغم شجي وهو يقول(*)

الهواء الثقيل يكتم أنفاسي

يغل دفق شعوري

كلما ضقت بالظلام وبالكبت، تلفت مثل طير مكبل

على فجر الخلاص يلمح، لا شيء سوى الليل

ليل سجني المقفل

وإذا انشق باب سجني أطلت

منه عينا وحش رهيب كبير

(*) فدوى طوقان شاعرة فلسطينية ١٩١٧ ـ ٢٠٠٣.

تقول دراستان صادرتان عن المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة أن القتل العمد يحتل المرتبة الأولى في الجرائم التي ترتكبها الإناث في مصر بنسبة ٣٣.٦٪، ويشكل الرجال ٦٥٪ من ضحاياها والإناث ٣٥٪، وأن الدافع في هذه الجرائم هو الانتقام في ٣٠٪ منها والذي يشمل الانتقام من الاغتصاب وهتك العرض والخيانة الزوجية وتعدد الزوجات والقسوة في المعاملة من قبل القتيل، ويلي دافع الانتقام النزاعات العائلية في ١٤.٧٪ ثم دفعًا للعار في ١٢٪، الدفاع عن النفس في ٣.٨٪ والغيرة في ١٠.٥٪[١٤]. كما بينت نفس الدراسة أن الإناث اللاتي قمن بهذه الجرائم ٧٨.٨ ٪ متزوجات، و١٣.٩ ٪ آنسات لم يسبق لهن الزواج، و٤.٦٪ مطلقات وأخيرًا ٢.٧٪ أرامل.

قد يقتل الرجل للشك أو الشرف أو الضائقة المالية، لكن يقيني أن المرأة تقتل لكرامتها وكرامة نسلها، كرامتها التي تمتهن بالضرب أو السب أو الاعتداء الجنسي أو الشذوذ أو حتى محاولة القتل في ١١ إلى ٣٠٪ من البيوت العربية[١٥]... فالمرأة أشرس ثائر لكرامتها متى امتهنت، وأجرأ مناضل لحريتها متى سلبت، وأنبل مجاهد لقضيتها متى ظلمت.. تثور المرأة فتقتل وتقطع أوصال القتيل وتمثل به، لكنها تقدم على هذا لعلة وجيهة وسبب نبيل، كفارس الساموراي الياباني الذي لا يشهر سيفه إلا من أجل العدل والنبل.. يقول الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه(*) في كتابه [هكذا تحدث زرادشت]:

"ليس عليك أن ترسل سلالتك الى الأمام فحسب، بل عليك بخاصة أن ترفعها الى أعلى.. فليكن عملك في حقل الزواج منصباً الى

(*) فريدريك نيتشه ـ فيلسوف وشاعر ألماني ١٨٤٤ ـ ١٩٠٠.

هذه الغاية: عليك أن تجد جسداً جوهره أنقي من جوهر جسدك ليكون حركة أولى وعجلة تدور لنفسها علي محورها، فواجبك إذاً هو إبداع من يبدع".

ندمت على أني أوحيت لها بفكرة البوتاس الذي أذاب زوجها، وحمدت الله أنها لم تعترف أني صاحب فكرة الفيلم، وتذكرت مبدأ كونفوشيوس(**) "الصمت هو الصديق الوحيد الذي لن يخونك أبدًا"، كما تربت عندي عقدة جديدة، فصرت أجفل ممن يقلن لي "منك لله"، وأتذكر الدكتورة مها وعصير الجوافة..

(**) كونفوشيوس ـ فيلسوف صيني وضع أساس الديانة الكونفوشيوسية (٥٥١ ق.م ـ ٤٧٩ ق.م)

عمر ومريم

كيف أتنصل من مسؤليتي عما سارت إليه الأمور بين عمر ومريم؟

جاءني عمر فزعًا جزعًا يسألني لم تم استدعاؤه للتحقيق في قسم الشئون القانونية، لم أكن أنا من شكاه بالطبع، فهرولت به إلى مدير الشئون القانونية بالمستشفى الذي أطلعنا على نص الشكوى، مريضة ما تدعي أنه قد تحرش بها أثناء الولادة... أسرعت أنفي عنه هذا الاتهام تمامًا، كان لدي افتراضي الذي يشبه هاجسًا لحوحًا أن سوءً سيصيب الفتى لمنافسته على قلب مريم، فلما رأيت الشكوى الكيدية، فطنت إلى أن لصديقي فاروق الضبع يد في هذه المكيدة. طمأنت عمر إلى أني سأشهد في صفه، وانصرفت وأنا أتدبر كيف السبيل إلى الخروج من كل هذا.

في المساء، التقيت الأستاذ الدكتور ابراهيم محمود السوهاجي في الموعد الذي ضربه لي في فيلته الفاخرة على كورنيش المدينة، ومذ اجتزت بهو الدار وشعرت بعبق تاريخ الأسرة العريقة الذي يحيطني من كل جانب، وأنا أشفق على عمر مما ألقاه الوجد فيه.

أعدت تقديم نفسي عندما انضمت لنا زوجة الدكتور إبراهيم

مارجريت، والتي لم يغادرها قطار الحسن والفتنة رغم سنوات عمرها التي تجاوزت الخمسين.

بدأت أحكي لها ما كان من الأمر منذ بدايته، وكيف كنت متحمسًا في البداية لصديقي فاروق الضبع وكيف حدثته عن مريم، وكيف كنت أسعى حثيثًا أن أجمع بينهما وكيف أنكرت ما نما بين عمر ومريم من حب وعشق، لما بينهما من تفاوت كبير اجتماعيا وماديًا، ولاحظت كيف امتعضت مارجريت من وصفي لعمر بالنكرة وذكري لتواضع حسبه ونسبه.

انتهيت من حديثي فساد الصمت، ثم قامت مارجريت متثاقلة لتقدم لي كوبًا من الشاي الإنجليزي وبعض الشطائر بالجبن، قبل أن تعود إلى مجلسها إلى جوار الدكتور السوهاجي ويهبط صمت ثقيل.

١٠- في حضرة الجهل

أستاذي الأستاذ الدكتور سامي عبد الرزاق رئيس الوحدة ليس فقط طبيبًا حاذقًا خلوقًا، بل هو ولي من أولياء الله الصالحين.. رجل بركة، رباني، سماوي، يُكشف له حجاب الغيب فينفذ منه لبرى اللوح المحفوظ والغيب المجهول.

ادعت وفاء إصابة صغيرها بالحمى فحصلت على إجازة مرضية علمتُ وقتها أنها سافرت خلالها إلى مدينة ديزني لاند بالولايات المتحدة الأمريكية للاحتفال بعيد ميلاد صغيرها المحموم دائمًا. وفي يوم سألني الدكتور سامي عن سبب امتناعي عن تحضير حالات مناظير تشخيصية ـ وهو وسيلة التشخيص للمريضات اللاتي تعانين من عقم نتيجة انسداد الأنابيب أو تكون الالتصاقات أو ما شابه ـ فاعتذرت له بغياب الدكتورة وفاء فأسمعني قصيدة تقريع بليغة.

تقوم فكرة المناظير التشخيصية على إدخال أنبوبة تشبه الشاروقة (المصاصة أو الشاليمو) من فتحة لا تتعدى نصف السنتيمتر أسفل السرة إلى داخل تجويف البطن لتشخيص أماكن الالتصاقات وإزالتها إن أمكن بإدخال آلات عبر فتحات أخرى في جانبي البطن.

عرفت المناظير طريقها إلى الطب عندما أجرى السويدى هانز كريستيان جاكوبيز أول منظار جراحي على إنسان لاستئصال التصاقات سلية من الصدر عام ١٩١١ باستخدام منظار مثانة. ويرجع الفضل لأول منظار في أمراض النساء والتوليد للعبقري السويدي المولد الفرنسي الجنسية راؤول بالمر [١١]، الذي استطاع عام ١٩٤٣، ورغم محنة احتلال الألمان لباريس، أن يحدث ثورة في عالم المناظير التشخيصية للعقم بإسهاماته المتعددة، بداية من اختراع الكثير من الآلات المستخدمة في هذه الحالات، وحتي استحداث وضع الترينديلبرج الأفضل في التشخيص والذي توضع فيه رأس المريضة على مستوى منخفض عن قدميها، ويكفي أن "بالمر" هو أول إنسان خدش حياء البويضة وتحرش بها بعد أن رآها رؤيا العين على سطح المبيض وأطلق آلاته للعبث بها.

استنجدت بالزملاء في الوحدات الأخرى فأهدوني عددًا من المريضات اخترت منهن ثلاثة قصدت أن يكن حالات واضحة وسهلة، وأهتممت بجمع وترتيب تفاصيل تاريخهن المرضي وفحوصاتهن المعملية كي أبهر الأستاذ بنبوغي. جاء يوم عرض الحالات على الأستاذ، فمضيت أسرد عليه تفاصيل الحالة الأولى:

- ٢١ سنة يا بك متجوزة من سنتين ومخلفتش خالص تحاليل جوزها سليمة ودورتها منتظمة كل ٢١ يوم ولدة يومين من غير مغص ولا تعب، سيادتك أنا شخصتها عقم أولي للبحث.

رمقني الدكتور سامي بنظرة تعجب، ثم نظر للسيدة وقال لها:

- أنتِ قبل الجواز عادتك (الدورة الشهرية) كانت برضك يومين؟

قالت المرأة بلا اكتراث وهي تمسح العماص عن عينيها وتشير إلي:

- لا ما كنتش بشوف لي عادة يا سعادة البك، ما أنا قلت للفندي.

- خدتي براشيم (أدوية) قبل كدة لأي حاجة؟

- هو يادوب الفاتامين يا بك، ما هو أني أصل العادة ماجتليش إلا على الفاتامين ديه، ما أني قلت للفندي ده.

قال الدكتور سامي:

- أنهي؟

اندهشت السيدة وقالت وهي تشير إلى من جديد:

- سلامة الشوف يا خويا، اللفندي أبو جفطان أبيض اللي واجف حدك دهوه، هو مش بتاع أنابيب حداكم؟

ضحك الدكتور سامي وقال:

- آه فعلًا الأفندي ده بتاع الأنابيب، بس سيبك من الأفندي وخليك معاي، أنهي فيتامين؟ شكله إيه يا ست؟

- برشامة إد حبايه العدس ولونها زي مية اللفت الفسخانة، والأصول تبجى ببلاش بس شحته الحرامي بيبعها بجوز جنيهات، ما أني جلت لبتاع الأنابيب ده.

الدكتور سامي أَرْبَدَّ وجهه وقال لي:

- قلتي للفندي ده؟ ايه ده يا بتاع الأنابيب، الست بتااخد حبوب منع الحمل على أنها فيتامين من أيام ما كانت بت وهرمونتها بايظة، أنابيبها مش هي السبب، اعملها تحاليل هرمونات.. ألغيبيي، اللي بعده.

تحول وجهي إلى لون ماء اللفت المخلل مع البنجر. أدخلت الحالة الثانية:

- ٢٩ سنة عندها ٥ عيال ولدتهم طبيعي من جوزها المرحوم أبو مصطفى اللي دهسه جرار مشبوك فيه كباس من بتوع....

قاطعني الدكتور سامي:

- هو احنا هنعمل منظار للجرار أو للمرحوم؟ ما تخليك في الحالة.

إزدردت ريقي بصعوبة وأكملت سرد تفاصيل الحالة:

- حاضر يا بك، هي عندها عيال من المرحوم بس مخلفتش من جوزها الحالي بعد سنة جواز. الدورة مش بتجلها من بعد الحمل الأخير من ٣ سنين.... التشخيص حضرتك عقم ثانوي للبحث.

نظر الدكتور سامي للسيدة وقال لها:

- العادة ماجتش خالص من بعد العيل ليه؟ أنتِ نزفتي في الولادة؟

ضربت السيدة صدرها بكفها وقالت:

- نزفت ديه إيه، داني ولدا الواد وأني بخبز قدام الفرن وأمو أحمد ربطت لي(الحبل السري) وكملنا خبيز، ديه سعيد ديه أسهل إخواته، لولاش بس عقله بعافية شويه زي إخواته موصطفي وحودة، ربنا يشفيهم، لكن صفية ونحمده زي الفل.

نظر لي الدكتور سامي ثم للمريضة وقال لها:

- شمري كمامك كدة ياماما، اااااه ايسسسيه ده يا سي كريم؟

على ذراع أم سعيد أعلى المرفق، رأيت ست خطوط داكنة تحت الجلد

على شكل أشعة الشمس المشرقة.

قالت السيدة وهي تتذكر:

- ديه الله يرحمه أبو موصطفى جوزي خدني الوحدة ركبوهالي من بعد سعيد عشان وجع ظهري.

من جديد أُرْبَدَّ وجه الدكتور سامي وقال بحنق:

- ايسسيه ده يا أفندي، دي مركبه كباسين هرمونات منع الحمل تحت الجلد علشان بتجيب عيال متخلفين عقليًا زيك، ألغيبي، اللي بعده.

ارتبكت وتلعثمت وأخيرًا أدخلت الحالة الأخيرة:

- آخر حالة يا بيه ٢٥ سنه ماعهاش عيال متجوزة من سنة وجوزها عنده ٦٩سنة بس عنده عيال من ستتين تانيين. أشعة الصبغة على الرحم بتقول فيه التصاقات في البطن من بعد عملية الزائدة الدودية، التشخيص عقم أولي نتيجة التصاقات.

أمعن الدكتور سامي النظر في وجه المريضة المدفون تحت مساحيق التجميل وأحمر شفاة ذا لون فاقع وشعرها المصبوغ باللون الأصفر وأظافرها المطلية باللون الأزرق النيلي، ثم قال:

- جوزك بيجيلك كل أد إيه يا ستي؟

- الجنرال؟ ده على تول معايا، أصله بيموت فيا، حتى مش بيرضى بيات غير عندي، وكل ما يرجع يجيلي إشي دهب إشي فيديون وإشي فانجيري، ده حتى جايبلي "بيلاي ستيشنز" علشان نلعب سوا، بيموت فيا.

- يرجع؟ أنت جوزك فين؟
- الجنرال في الأرتن يا دكتر عيان العاصمة، ده مشهور قوي هناك، بس قول الجنرال ألف يدلوك عليه.
- وجالك كام مرة في سنة الجواز؟
- الجنرال جالي مرتين يا دكتر بس سوري يعني مابطلش، أصله الله أكبر جامد وبيموت فيا.
- ما بطلش يعني إيه؟ اه ه! وهو فيه نفس؟ ده آخره يتباس ويتحط جمب الحيط!

تلعثمت المريضة بعض الشيء ثم قالت مدافعةً عن الجنرال:

- لا يا دكتر، دي كانت عين حسود وشوية تعب وراحوا بالجنزبيل ودهان عجينة البقدونس بزيت حبة البركة، إنما عيان كلها عارفة الجنرال سيد الرجالة.

امتنع الدكتور سامي عن جدال المريضة في فحولة الجنرال، ونظر لي وقال:

- بتقولك قاعد في عيان العاصمة وشوية تعب يا فندي.

فتشجعت وقلت:

- بس الجنرال جالها مرتين يا بيه ومابطلش فيهم.

فنظر لي الدكتور سامي وقال لي بغيظ:

- أمال إيه اللي جابها لك يا بو مخ طخين؟ هو أنت مش اتعلمت إن لازم يكون عدى عليهم سنة مع بعض باستمرار؟ بتقولك

جالها مرتين.. ثم بطلش ده إيه، يا بني دا أنا أصغر منه بعشر سنين وبتباس وأنام وشي للحيط، الغيييييبي.

بحسب تقرير تحديات التنمية في الدول العربية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي عام ٢٠١١ [١٧]، فإن نسبة الأمية في العالم العربي ضعف النسبة العالمية، وتبلغ حوالي ٦٠٪ بين الأناث، وترتفع هذه النسبة إذا تم ضم متعلمي الأبجدية والحساب البسيط لأعداد الأميين، وبهذا تتربع المرأة العربية على هرم الجهل بلا منازع في العالم، كانتْنا الأكثر رقيًا هو الأجهل في العالم، يُمتهن ذكاؤها فتتعاطى العقاقير دون أن تعلم لها علة، بينما الكائن الأوفر حظًا، الرجل، يحظى بامرأة تستر على عجزه، وتأبى أن تفضحه حتى وسط الأطباء.

حين انصرف الأستاذ دَنَت المريضة مني وقالت:

- هو الدكتر يعرف الجنرال؟

فلما رأت الدهشة على وجهي أطرقت وقالت:

- أصل الحقيقة يا دكتر، الجنرال في المرتين اللي جالي فيهم، شرب يا خويا الجنزبيل ودهنت له عجينة البقدونس بزيت حبة البركة، وبادوب بوسته علي خده، راح حط وشه في الحيطة ونام زي الدكتر ما قال كده.

ساعتها تيقنت أن الدكتور سامي رجل بركة يكشف له حجاب الغيب فينفذ ويعرف ما لا يعرفه غيره، وأن لا طائل لي بمنازلته في محراب العلم، وتملك اليأس مني في أن أتعلم شيئًا ما بين نائبة متغيبة قد فقدت عقلها وأخرى مستهترة قد فقدت ضميرها، وقررت أن أغمض عيني وأمضي كالنائم فيما بقى لي من وقت مع هاتين النائبتين، حتى يُقيض

الله لي نوابًا جددًا أتعلم منهم، فأطلقت لحيتي وأطلت شعري، وصرت أتنقل بين دور السينما والمسرح وأعاقر السهر كل ليلة على مقهى ميلانو وسط الأصدقاء، كما داومت على سهرات البروفيسير سعيد عرابي ليلة الخميس، أتنقل بين الدخان الأبيض أحيانًا والدخان الأزرق أحيانًا، أدور معه كالدرويش وأنا أنشد(*)

اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي

ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي

إن عندي محو ذاتي من أجل المكرمات

وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات

سَئِمت نفسي حياتي في الرسوم البالياتِ

فاقتلوني واحرقوني بعظامي الفانياتِ

ثم مروا برفاتي في القبور الدارساتِ

تجدو سر حبيبي في طوايا الباقياتِ

لكن الأيام كانت حُبلى بالجديد لي، وسرعان ما وضعت أحداثًا جسامًا.

(*) الحسين بن المنصور الحلاج فيلسوف صوفي من مواليد فارس عاش بالعراق ـ أعدمه الخليفة المقتدر العباسي بعد أن سجنه وعذبه ثم أحرق جثمانه وألقى برماده في نهر دجلة (٨٥٨ ـ ٩٢٢ م).

عمر ومريم

عندما جمعني مقهى ميلانو تلك الليلة بعمر الذي انتظرني فيه حتى أفرغ من مقابلة الدكتور السوهاجي، كان القلق قد تمكن منه حتى صار شبحًا يائسًا. لم أرد أن أزيد من معاناته وتعاسته، فبادرته بالقول:

- الأم معاك، الأب معاك في العلن، لكن ضدك في قرارة نفسه، وبيخفي ده علشان ما يظهرش بمظهر المتخلف أدام مراته الإنجليزية، خاصة أني عرفت أنها هي نفسها من عيلة متواضعة من ريف إنجلترا. فرصك كبيرة جدًا، بس لازم تتحرك في أسرع وقت، لأن فاروق الضبع مزغلل عين الدكتور السوهاجي جدًا...

أطرق عمر ونظر لي بعيون كلها لوم وعتاب، لا أدري إن كان على إدخالي إياه في منافسة مع غريم في قوة فاروق الضبع، أم للدنيا لضنها عليه حتى بقلب من أحب وهوى، ثم قال لي بأسى:

- أبويا موظف في البريد، وأنا أكبر إخواتي الأربعة، كلهم لسه في التعليم، تفتكر من العدل أروح أقول لأبويا وهو مستني يوم ما أتعين في الجامعة وأقبض مرتب عليهان أساعده في تعليم إخواتي

أني عايز أتجوز؟ ومن مين؟ حفيدة باشا وبنت صاحب سرايا لف التاكسي حواليها في ربع ساعة؟

١١- اسْمُها: الدكتورة هبة البيلي

بعد أن سقطت الدكتورة ليلى صريعة لوثة عقلية بسبب تصرفات وفاء، وخاصةً بعد رحلة تركيا التي قامت بها وفاء بمناسبة الثالثتين، ويأس الأطباء من شفائها، أنهت إدارة المستشفى عملها بدعوى العجز. وكان من تبعات هذا القرار أن أُعلِنَ رسميًا عن تولي وفاء مهام النائب السنيور في وحدتنا، وحدة الأستاذ الدكتور سامي عبد الرزاق. تقدم أهل ليلى بشكوى لإدارة الجامعة لرفع الغبن عنها، ودارت أحاديث في أروقة المستشفى تستنكر هذا القرار الذي كافأ من كان السبب في ذهاب عقل المسكينة ليلى، بل وذهب البعض إلى المطالبة برفع الظلم عن ليلى والقصاص العادل من وفاء، لكن تكسرت كل هذه المطالبات أمام التذكير بظهر وفاء الذي ترتكز عليه والقادر على التنكيل بأي معترض، ولأننا في قسم "النساء" فقد أرخى كل منا بخماره على وجهه وصمت، ثم انتهي بنا الأمر نلوم على ليلى أنها لم تكن قادرة على التكيف مع وفاء واكتساب صداقتها، ثم بدأ البعض في القول بأن ليلى هي من يجب أن تعاقب لأنها فشلت في تعليم وفاء معنى الالتزام، وتجمع البعض وطالبوا بمعاقبة ليلى على تشويه سمعة القسم أمام إدارة الجامعة، ورفع الأمر

لمجلس القسم الذي وقع على ليلى جزاءً إداريًا لتخطيها التسلسل الإداري في الشكوى ولإهمالها في تدريب نواب الوحدة، ورفعت توصية لمجلس الجامعة بفصل ليلى وإلغاء تدريبها وحرمانها من شهادة الخبرة وشهادة نهاية الخدمة ومنعها من دخول امتحان درجة الماجستير. ثم تدخل بعض ذوي القلوب الرحيمة من الأساتذة فتم سحب التوصية مع الاكتفاء بإحالة ليلى إلى المعاش المبكر بدعوى ظروف مرضية.

لكن نشوة الانتصار على ليلى أفقدت السنيور الجديد وفاء صوابها تمامًا، فقبعت في بيتها وأصبحت تدير شئون الوحدة عبر الهاتف، فكنت أبدأ كل صباح عملي بالاتصال بها وتلقي قائمة المهام منها، ولا تنسى أن تذكرني بأنها متغيبة لأن درجة حرارة ابنها البالغ من العمر ست سنوات قد تعدت الأربعين مما يجبرها على البقاء إلى جواره لترضعه.. والحقيقة التي توصلت لها بعد فترة هي أن درجة حرارة جسد ابنها الطبيعية هي أربعون درجة مئوية، مثله مثل حيوان "الماموث" المنقرض، لكنني على كل حال احتفظت بهذا الاكتشاف المذهل لنفسي لحين الانتهاء من فترة النيابة.

ولأن المرء على دين سنيوره أي نائبه السنيور كما قال البروفيسور عرابي، فقد اكتشفت أني أصاب بارتفاع في مستوى الأكسجين وانخفاض حرج في مستوى ثاني أكسيد الكربون عند منتصف النهار. وأمام هذا الوضع الصحي المتأزم، صار لزامًا على أن أغادر المستشفى مع أذان الظهر ومغادرة الأستاذ رئيس الوحدة للمستشفى، كي أُعالج على مقهى "ميلانو" على الكورنيش والقريب من المستشفى، بضخ ثاني أكسيد الكربون بنكهة التفاح إلى رئتي بواسطة جهاز توليد ثاني أكسيد الكربون والمعروف للعامة باسم الأرجيلة حتى يعود مستواه في دمي إلى المستوى

الطبيعي، وكم كانت فرصة رائعة لعلاج الإجهاد العصبي الذي أعاني منه على يد كوكبة من أصدقائي من خارج المستشفى واللذين يُعالجون في نفس المقهى. وحرصًا مني على حسن سير العمل، كنت أترك رقم هاتف المقهى لموظف السويتش في المستشفى لاستدعائي في الحالات الطارئة كأن يهبط على الوحدة أحد الأساتذة السمجين دون ميعاد سابق.

استاء الدكتور سامي من هذا الوضع، خاصة وأنه كان من المناصرين للنائبة المعزولة ليلى، ولم يعجبه فرض رأي مجلس القسم عليه، فقرر أن ينتقم من وفاء على طريقته الخاصة. وذات يوم فوجئت بعامل السويتش يتصل بي للحضور على عجل إلى الوحدة في أمر طارئ. تركت المجلس في المقهى كارهاً وانطلقت إلى المستشفى، فلما عبرت ردهة العنبر نزلت على الصاعقة التي أجمتني، وسرت برودة في أطرافي وكادت قدماي تخذلني.

هناك في نهاية الردهة، وأمام باب غرفة النواب، وجدتها، هي بنفسها، بشحمها ولحمها، "هبة البيلي"، أو موسيليني كما كنت أطلق عليها كلما رأيتها تمشي بخطوتها العسكرية في طرقات المستشفى.

ولا بد لي هنا أن أتوقف لأشرح من هي هبة البيلي.

هبة البيلي خليط بديع من الجمال والأنوثة والرقة والشراسة والجبروت، فجمالها الطاغي كجمال "أفروديت" إلهة الجمال عند الإغريق، بعينيها العسليتين الساحرتين، وخصلات شعرها الذهبية، وبشرتها القمحية، وأنفها الدقيق، وشفتيها الممتلئتين الحمراوتين دون مساحيق أو أصباغ، ويزيدها قوامها الممشوق ونهديها الشامخين وقدها النحيف جمالًا على جمال. شخصيتها أيضًا خليط بديع من كل شيء.. فهي قوية

تلجم من في حضرتها.. قادرة على سبر أغوارك بدرجة تجعلك توقن أنها تستطيع أن ترى خلالك تمامًا وتعلم ما يدور في خلدك.. بها حنان ودعة تَعجب كيف وُجدت مع هذه القوة في ذات الجسد البديع.. وحين تغضب، يتوقف الكون عن الدوران، ويستعيذ أبليس بالله من شرها.. وتنسحب الشياطين إلى جحورها فزعًا.. فموسوليني تتحول إلى الإلهة أريس، إلهة الحرب والانتقام في الأساطير، ولعل خير وصف لها هو ما قاله البروفيسور عرابي حين سمع بقرار تعيينها في وحدتنا:

- شوف يا كيمو باشا، هبة البيلي تبقى لامؤاخذة أمك وأختك اللي بيخافوا عليك، ومراتك اللي نفسك تترمي في حضنها، ومرات أبوك اللي مش طايقاك، وحماتك اللي عايزه تولع فيك، وطليقتك اللي هتطلع ميتين ولامؤاخذة أم سعادتك.

كانت التكليفات الصادرة هبة البيلي واضحة جدًا: عودة الانضباط للعنبر المنفلت.

وصلت العنبر ومازال ينبعث من خياشيمي ثاني أكسيد الكربون بنكهة التفاح، وبعدي بقليل وصلت وفاء برائحة البصل والتقلية والكمون، بينما علق في أظافرها بعض أوراق خضراء قدرت أنها من الملوخية التي كانت تعدها. وبوصولنا عقدت هبة البيلي أول مجلس حرب لها والذي ختمته بمبدأ المرحلة المقبلة:

- أنا يمكن أبان طيبة لكن أنا مش سهلة، هتمشوا معايا بالأصول دنيتكم هتبقى لطيفة ونهاركم بيضحك، هتتوجوا عليا ولا تتعبوني، هأعملكم كفتة، أنا مش زي ليلى يا ننوس عين أمك أنت وهي، وديني وما أعبد لمعلماكم الأدب يا غجر.

ثم التفتت إليّ وقالت:

- وأنت ياعم الصايع، وديني وما أعبد لو شفتك عتبت القهوة تاني لأكون مبلعاك خرطوم الشيشة ومعلقاك من رجليك على باب العنبر.

كان "الشيفت" أو دورة النواب قد انتصف، وبنهايته يعاد توزيعنا من جديد على الوحدات العشر، ويرحل من أنهى فترة تدريبه مثل "هبة البيلي" عن المستشفى ويأتي مكانه متدرب جديد.. لكن "هبة البيلي" قررت أن تحافظ على سمعتها، ففي خلال ما تبقى من أيام لم تسمح لي "هبة البيلي" بمغادرة العنبر إلا مرة واحدة عندما أصبت بحكة دامية نتيجة اصابتي بالجرب من قلة الاستحمام، حيث كانت أوامرها صريحة؛ كريم رأفت محبوس في العنبر ٢٤ ساعة في اليوم، كل يوم وكل أسبوع.

ولأن النفس أمارة بالسوء، فقد زلت قدمي إلى بئر الخطيئة. ففي منتصف ليل أحد الأيام، رأيت حلمًا مفزعًا له قوة حضور الواقع.. فقد شعرت بأعراض انخفاض حاد في مستوى ثاني أكسيد الكربون في دمي وحاجتي إلى جرعة من الدخان، ثم رأيتني ألقم "بَيَّ" الأرجيلة في فمي وأملأ صدري من دخانها، وفجأة ظهرت هبة البيلي، فهجمت على وصرعتني وألقتني على الأرض، ثم صارت تدكك "بَيَّ" الأرجيلة في فمي كما تدكك البَكَّة في السروال. استيقظت فزعًا وأنا أختنق من بلعي "لي"، فثارت كرامتي لهذا الهوان وقررت أن أصرع أوهامي، فخرجت متخفيًا من الباب الخلفي للمستشفى إلى المقهى حيث تلقيت العلاج بنكهة التفاح... ثم، وإيثارًا للحيطة، عدت إلى المستشفى من باب الجراج، وسرعان ما كنت أغط في نوم عميق في غرفتي بسكن الأطباء.

لا أدري كم من الوقت مر، لكنني أفقت على يد ممدوح الحيوان المنهته عامل سكن الأطباء تهزني بعنف وهو يصيح:

- نصيبة يا كريم بيه نصيبة، اصحى..

انتفضت واقفًا ومتسائلًا عن الخطب فأجاب وهو يرتعش:

- الدكتورة هيبيه واااااقفه بره على بيباب السكن.

كنت دائمًا أنام ببدلة العمليات، فهرعت بقلب منقبض لأستطلع الأمر، فقابلتني هبة البيلي بهدوء وهي تقول:

- كريم، في استدعاء في مستشفى الأطفال عاجل مليون دلوقتي. روح شوفها وبلغني فيها إيه.

الاستدعاء بصيغة عاجل مليون يعني أن المريضة قد سئمت الحياة وقطعت تذكرة الرحيل إلى عالم الأموات، ولابد من حضور الطبيب في أقل من خمسة عشر دقيقة لإثنائها عن الرحلة المشئومة، ولما كانت مستشفى أطفال شرق على بعد عشرين دقيقة، كان حتمًا على مسابقة الزمن، فانطلقت من فوري بسيارة الإسعاف وأنا أستحث السائق عم ألفونسو للإسراع.

وصلت مستشفى أطفال شرق وصعدت إلى الدور الرابع مستخدمًا الدرج لتعطل المصعد واقتحمت حجرة المريضة المبلغ عنها وأنا أصيح في التمريض لتأتيني بملف المريضة، حتى إذا ما وقفت بجوار سرير المريضة انتبهت لنص التبليغة:

"أنثى عمرها سبعة شهور تعالج من نزلة معوية ولوحظ وجود آثار دم الآن في حفاضتها، المطلوب تحري إن كان الرحم هو مصدر الدم"

أين الموت والحياة والعجلة في شأنها؟

أثبت حضوري في الملف وألقيت به في وجه الممرضة بعد أن طلبت موجات فوق صوتية على الحوض وتحليل براز، وانصرفت لاعنًا أطباء مستشفى أطفال شرق.

عدت إلى سكن الأطباء وتدثرت تحت غطائي، ولكن لم يكد يغمض لي جفن حتى أفقت على يد ممدوح الحيوان تهزني وهو يصيح بمصيبة جديدة.

على باب السكن أمرتني هبة بتلبية تبليغة عاجل مليون في مستشفى الجراحة غرب. وتكرر المشهد، حتى المصعد كان معطلًا وصعدت الدرج إلى الدور الخامس، فلما انتهى بي الأمر بجوار المريضة وجدت التبليغة تقول "مريضة عمرها ٧١ عامًا مصابة بمرض السكري وسيتم بتر أصبع قدمها في الصباح، دورتها منقطعة من سبع وعشرون عامًا والمطلوب تأكيد دخولها سن اليأس".

أطلقت لساني بسب الطبيب صاحب التبليغة، قبل أن أطلب تحليل هرموني وألقي بملف المريضة في وجه التمريض وأنصرف عائدًا إلى مستشفانا.

تدثرت تحت غطائي بعد أن ابتلعت قرصًا مسكنًا لإسكات الصداع في رأسي، حتى إذا ما خفت حدته وتلاقت جفوني استيقظت على صوت الحيوان ممدوح واستدعاء هبة البيلي: مستشفى النفسية والعصبية جنوب، عاجل مليون.

هرولت بسيارة الإسعاف، صعدت للدور الثالث على الدرج،

استدعيت التمريض، وقفت إلى جوار المريضة، التبليغة "صباء خرساء تعاني من فصام في الشخصية وتشنكي من آلام في البطن من عشرة أيام لكنها اختفت الليلة، المطلوب تحديد سبب التحسن".

لعنت أسلاف الطبيب المعالج والممرضة، وطلبت فحص بالموجات فوق الصوتية وأشعة مقطعية وفحص بالرنين مغناطيسي لأنتقم منهما، وعدت إلى سكن الأطباء وفي رأسي طبول وأهازيج.

كان وقت الفجر قد دخل ولم يغمض لي جفن، فابتلعت علبة الأقراص المسكنة علي رجاء الراحة المؤقتة أو الأبدية، وألقيت بالوسادة فوق رأسي أريح جسدي من النصب المتصل مستجديًا النوم، حتى إذا ما رق الحالي وتلاقت جفوني أيقظني ممدوح الحيوان من جديد، ثم هبة البيلي عند الباب عاجل مليون في العناية المركزة مستشفى المخ والأعصاب شمال. هرولت، صعدت، استدعيت، قرأت التبليغة "مريضة جلطة في المخ في غيبوبة من ثلاثة أشهر، أفادت أختها اليوم بأنها سمعت المريضة قبل اصابتها بالغيبوبة تقول أن دورتها الشهرية متأخرة من عشرة أشهر، مطلوب بيان وجود حمل من عدمه".

حمل عمره ثلاثة عشر شهرًا يا أولاد الكلب؟ كورت قبضة يدي وأطلقتها إلى عيني الممرضة، ثم عدت للسكن وأغلقت باب غرفتي من الداخل ووضعت الخوانَ خلفه وتدثرت بغطائي وجذبت النوم جذبًا وأغلقت عليه جفوني غصبًا.. لكنني أفقت على طرق شديد على باب الحجرة، فسحبت حزامي الجلدي وفتحت الباب وتلقفت ممدوح الحيوان باللكمات والركلات وانهلت عليه بالجلدات أسومه العذاب الشديد، ووسط الصفعات سمعته يقول:

- يا كريم بك، دكتتتورة هيبة بتقولك تصبببح على خير.

الحقيقة أن هبة البيلي نجحت في إنقاذي من ثوب النائب المهمل الذي كنت على وشك ارتدائه، وإن كانت فشلت تمامًا مع وفاء التي - وعلى الرغم من كل شكاوى هبة البيلي للدكتور سامي الضعيف جدًا أمام العيون العسلية والشعر الذهبي والنهود الشامخة - ظلت تتلاعب بثرموستات ابنها.

عمر ومريم

انتهيت من أداء صلاة الجمعة، فوجدت من يربت على كتفي، التفت لأجد صديقي المهندس فاروق الضبع يصافحني وهو يقول لي "حرمًا". لم أكن قد قابلته أو تحدثت إليه مذ تلاسنا عندما ذهبت إليه لأطلب منه الكف عن إلحاق الضرر والنيل من عمر. صافحته وتمتمت "جمعًا إن شاء الله"، فأشار إلى أن اتبعه، وبعد لحظات كنا منطلقين بسيارته الفارهة إلى مزرعته على مشارف المدينة، فلما ترجلنا في أطرافها وجدتني في إسطبلات الضبع التي يحتفظ فيها ببعض أنقى سلالات الخيول وأثمنها. سار بي فاروق إلى إسطبل تسكنه فرسة بيضاء دقيقة الرأس كبيرة العينين طويلة الأذنين المنتصبتين، طويلة الساقين رشيقة القوام، أشار لها فاروق وقال لي:

- مريم، أحسن فرسة عندي، من أنقى السلالات في إسطبل جدي، نعرفها أبًا عن جد، دمها عربي أصيل، عمرها ما اتخلطت مع أي سلالات تانية، تساوي ثروة، بس عارف، لو دمها اتخلط مع أي حصان مش من فصيلتها، يبقى آخرها تجر عربية كارو هي والبغل اللي معاها.

فطنت لما يرمي إليه، فأجبته دون تردد:

- طب ما تخليك في الخيل وتسيب البني آدمين هم يختاروا؟

فضاقت عيناه وقال لي:

- أنا مش بخسر في أي سباق يا كريم، قول لابن البوسطجي يبعد عن مريم وأنا هأعوضه، عيادة، شقة، عقد عمل بره اللي هو عايزه، إنما بشرفي ما هاسيبه ياخدها مني.

كنت أعلم أن تهديده هذا هذيان، ربما لكراهيته أن يخسر السباق على شيء ما، لكن انقبض قلبي، ورجوته أن يطلب من السائق اصطحابي لمنزلي.

١٢- مئة يوم من العذاب

ومضت عملية عودة الانضباط وإعادة تأهيل نواب العنبر المنفلت والمكلفة بها موسوليني، أو الدكتورة هبة البيلي.

وفي أول يوم كانت وحدتنا مكلفة بالعيادة خارجية، والتي عادةً ما تبدأ في الثامنة والنصف صباحًا، استيقظت مبكرًا على خياشيمي تعاني من تباريح الشوق للدخان، فلما كان الوقت لايزال مبكرًا على التوجه للعيادة، عرجت على مقهى ميلانو لإعادة الشحن، كنت أسمع وشيش موج البحر الهادر وأنا أمص الأرجيلة في تمهل ولذة، ثم أخرج دخانًا هائلًا من فمي وأنفي فأشعر بدبيب الانتشاء يصعد إلى رأسي، وأرقب السيارات تغدو وتجيء وبعضها يحمل مليحات مدينتنا. أفقت من شرودي على صوت المذياع يقول الثامنة والنصف صباحًا في استديوهاتنا، فهرعت إلى الوحدة، وإذا "بسنية" عاملة العنبر تأتيني مهرولة من أول الردهة وتقول لي وهي تلهث:

- إلحق أنزل العيادة، الشاويش تحت من الساعة ٨ الصبح، شد حيلك، قلبي معاك.

قبل أن تمصمص شفائفها وهي تستدير وتقول:

- والله دانت أمير وطيب.

تجاهلت تمنياتها الرقيقة، وطويت سلم المستشفى عدوًا حتى وصلت إلى العيادة الخارجية ودخلتها وأنا ألتمس لنفسي الطمأنينة بآيات من سورة ياسين "فأغشيناهم فهم لايبصرون"، وأعقبتها بدعاء دفع البلاء. ألقيت نظرة سريعة على دفتر العيادة فوجدت أن موس قد انتهت من الكشف على نصف المريضات فتأكدت أن البلاء قادم لا محالة. "إنا لله وإنا إليه راجعون" قلتها بقلب منقبض، ثم دلفت إلى حجرة الكشف وأنا أرسم على وجهي ابتسامة بلهاء جدًا وقلت:

- صباح الفل يا فندم أنا جيت.

وإذا بالمريضة المستلقية على سرير الكشف تطلق صرخة مدوية وهي تستر نصف جسدها العاري.

أسرعت هبة البيلي تهدئ من روع المريضة وهي تقول:

- ما تخافيش يا ستي ما تخافيش، الأخ دا دكتور معانا، فين بالطيك يا أفندي، مش دي عيادة ولا طابونة طنط أم كريم؟

واكتشفت أني من فرط تعجلي قد غفلت عن ارتداء البالطو الأبيض.. "طز"، قلتها في نفسي، فحتى نهاية القرن التاسع عشر، كان الأطباء يرتدون اللون الأسود في كل أروقة المستشفى ويجرون العمليات الجراحية في كثير من الأحيان بملابسهم العادية، فقد كان ينظر لهم في كثير من الأحيان على أنهم حرفيون وليسوا بعلماء، وساهم العلماء في التقليل من شأن الأطباء بالاصرار على أن ما ينجزه هؤلاء من علاجات

هي في حقيقتها خرافات مبنية على ضربات الحظ دون أي سند علمي. لكن سرعان ما توالت الاكتشافات العلمية في بداية القرن العشرين على يد كوكبة من الأطباء، فعلت قيمة الطب في نظر العامة، وأراد الأطباء أن يعززوا موقعهم الجديد فبدأوا في ارتداء البالطو الأبيض والذي كان فيما مضى خاصًا بالعلماء والمعلمين في المدارس فقط، كرمز لاتحاد العلم والحرفة في شخص الطبيب. وفي عام ١٩١٠، أصدر الطبيب جونز آلان هورنسباي مدير مستشفى مايكل ريس بشيكاغو قرارًا بإلزام جميع العاملين بالمستشفى بارتداء حلل بيضاء [١٨-١٩]..... يبقى طز في البالطو وفيكِ يا هبة.

لكن سرعان ما زالت عني الشجاعة، وشعرت بركبتي تصطكان، وريقي يجف بعد صراخ المريضة، فحاولت جمع شتات نفسي وإذا بهبة البيلي تسألني:

- وفين السنيورة بتاعتك؟

فأجبتها والابتسامة البلهاء لم تغادر وجهي:

- أنت سينيورتي.

فلما رأيت الشزر يتطاير، وكنت أدري أنها تقصد وفاء، أجبتها:

- عربيتها عطلانة.

كنت أكذب، وكانت تعلم أني أكذب وكنت أعلم أنها تعلم. أني أكذب، فرمقتني شزرًا ولاذت بالصمت، وعلمت ألا منجي يقيني من غائلة العقاب الأليم. انتهينا من العيادة الخارجية وأشارت إلي هبة البيلي بأننا متجهون إلى عنبر الولادة. لم أعرف سببًا للتعامل بالإشارات

وتهللت نفسي، فلعل داءً عضالًا قد أصابها، فأشرت لها برأسي بأن قد فهمت.

دخلنا عنبر الولادة واتجهنا إلى سيدة سمينة تحمل أطنانًا من الشحم تحت جلدها، كانت تزوم وتزأر. أشارت لي هبة البيلي نحو المريضة ففهمت المطلوب، وطلبت منها الاستلقاء على الفراش حتى أتم الكشف. لكن فجأة، فوجئت بكف المريضة يرتطم بصدغي فيما خيل إلي أنها صفعة. عقدت الدهشة لساني لكن هبة البيلي أشارت لي بالاستمرار في الكشف، كتمت غيظي واستدعيت "زينات الونش"، عاملة الاستقبال التي تشبه الونش، فجاءت وحملت المريضة من خصرها، ثم ألقت بها على السرير، وباعدت بين ساقيها وخلعت عنها ملابسها، ثم رقدت فوقها كما يفعل المصارعون في حلبات المصارعة، وقبعت ككلب مدرب في انتظار أوامر أخرى. لكن ما أن باعدت المرأة بين ساقيها حتى انبعثت رائحة نتنة جدًا كرائحة جثة متعفنة. كاد يغشى علي من الرائحة وتراجعت عنها، لكن اضطررت للعودة بعد أن لكزتني هبة البيلي في كتفي. جلست بين ساقي المرأة وأرسلت يدي داخلها، ففوجئت بأصابعي ترتطم بشيء لدن، أخرجت يدي، فوجدت بقايا بيض مسلوق. سألت المرأة عن البيض المسلوق المدسوس في مهبلها فأجابت:

- غذا للعيل يا عم.

أعدت يدي داخل المرأة، فخرجت هذه المرة ببقايا ثمرة بصل كبيرة:

- علشان العيل يفضل فايق معايا.

أعدتها ثالثًا، فخرجت بقطع من أعواد القرفة:

- بيحمي الطلق يا خويا.

أعدتها أخرى فخرجت بأوراق من الملوخية الذابلة:

- وريني كيده، ديه ملوخية ناشفة؟ لا ما أعرفش مين اللي دفسه والنبي يا خويا، يمكن أبو العيال نسيه هناك.

أعدت يدي للمرة الأخيرة، وفحصت المرأة فوجدتها قد شارفت على الولادة، فأشرت لهبة البيلي أن عنق الرحم مفتوح بمقدار ٤ أصابع من خمسة، أي ما يكافئ ٨ سنتيمترات من أصل عشرة سنتيمترات هي اتساع عنق الرحم، فهزت رأسها ثم أشارت لي بأن أنقل المريضة إلى غرفة الولادة، فأشرت للونش أن تحمل المرأة إلى غرفة الولادة. وهناك، أعادت الونش نفس العملية السابقة، وبعد كثير من الصراخ والعويل والرفس والركلات والضرب والصفعات واللكمات، وضعت المريضة كائنًا يشبة ضفدع العلجوم الذهبي المنقرض، والذي ما أن أمسكته مقلوبًا من قدميه ليتنفس، حتى بال علي، فألقيت به في طست الولادة على الارض.

صعدنا إلى العنبر، فلما اقتربنا من بابه داهمتنا رائحة ثوم وخل تملأ المكان، فتبعنا مصدرها حتى وصلنا إلى غرفة الكشف حيث وجدنا وفاء تلتهم ساندوتش من الكبدة الاسكندراني بالثوم مع كثير من البصل الأخضر والخيار المخلل.

أُسقط في يد موسوليني، وسألت وفاء عن سبب تغيبها عن العيادة، فمددت يدي من وراء ظهر موسوليني وكأني أقود سيارة، ثم أُرجحها بعنف وكأنها تعطلت، في محاولة لإفهام وفاء العذر الكاذب الذي قلته لهبة، لكنها لم تفهم، فأجابتها دون اكتراث:

- ما أنتي فيها خلاص، أنا قعدت أفطر.

وعندها بدأت عملية التحول، تخلت هبة البيلي عن نسويتها لتتحول إلى ريبتيل متكلس من الزواحف، فصارت أقرب إلى ثعبان الكوبرا، وبرزت منها ما يشبه الأنياب المدببة، وسمعت صوت تحشرج مسعور من صدرها، ودنت من وفاء حتى تلاقت أنفاسهما، ووضعت كفيها على كتفي وفاء وبدا لي أنها ستعتصرهما، ثم قالت فيما يشبه فحيح الأفاعي:

- نعم يا روح أمك، سايباني في العيادة وقاعده تشربي شاي؟

كانت رائحة الكبدة شهية، فسال لعابي وتلمظت شفتاي للرائحة فاستغللت فرصة انشغال وفاء بموسوليني، والتهمت ما بقي من شطيرتها وأفرغت مشروبها في جوفي، فصححت لموسوليني:

- ده مش شاي، ده هوت تشوكولات.

فتطاير الشرر من عيني هبة البيلي وفتحت فمها لتلتهم وفاء التي لم ينقذها إلا دخول الأستاذ الدكتور أحمد الصالح، الذي قال:

- ما تموتيهاش دلوقتي يا هبة، خلصي لي الموضوع ده وبعدين ابقي اقتليها بعد الظهر، بصوا، الأوساخ بتوع الإدارة التعليمية مودين مدرستين معرفة يراقبوا ثانوية عامة في عزبة بلطجية، وهما مزز من بتوع دادي ومامي وكرواسون وباتيه.. هتعملولهم تذكرة دخول، كده وكده طبعًا، وتحجزوهم على الورق في المستشفى أسبوع، وبعدين تخرجوهم وتعملوا تقرير جامد، بياناتهم في الورقة دي، وظبطوا أنتم القصة بس من غير أبوكم الحاج سامي (يقصد الأستاذ الدكتور رئيس الوحدة) ما يأخذ خبر، خلاص؟

كابوس المعلمين كل عام في مصر هو أعمال امتحانات الثانوية العامة

ومراقبة اللجان الذي يطيح بهم بطول مصر وعرضها، فكل معلم عليه القيام بهذه الأعمال بعيدًا عن محافظته التي يقيم ويعمل بها لضمان النزاهة، فمن يعمل في شمال الدولة يتندب إلى الجنوب ومن يقطن في الغرب يتندب إلى الشرق، مما يمثل مشقة جمة وتكلفة باهظة على المعلمين برواتبهم الضئيلة، فصار تقليدًا مصريًا خالصًا نصب مهرجان الشهادات المرضية المزيفة كل عام في وقت الامتحانات للتهرب من أعمالها.

يعود تاريخ الثانوية العامة إلى المدارس التجهيزية التي أنشأها محمد علي في مصر [٢٠]، والتي كانت مهمتها تجهيز أبناء البشوات والمماليك لدراسة الطب أو الهندسة أو العلوم لاحقًا، وظلت هذه المدارس في ازدياد، حتى وصل عددها إلى ثلاثين مدرسة تجهيزية منها ٥ للبنات على عهد وزارة أحمد نجيب الهلالي. واستمر التعديل في شهادات التجهيزية وعدد سنوات الدراسة فيها، حتى جاء عميد الأدب العربي طه حسين وزيرًا للمعارف، فجعل من التعليم الإعدادي عامين يليهما عامان لمن اراد الحصول على شهادة الثقافة، وسنة ثالثة يمنح من يجتازها شهادة التوجيهية. ثم جاءت وزارة كمال الدين حسين عام ١٩٥٦ التي جعلت المرحلة الإعدادية ثلاث سنوات، والثانوية ثلاث سنوات تنتهي بشهادة الثانوية العامة. وفي البداية كانت كل تجهيزية لها امتحانها الخاص، ولم تعرف مصر كارثة الامتحان الموحد على مستوى القطر إلا في يونيو ١٨٧٧، بعد أن شَكلت وزارة عبد الرحمن رشدي لجنة تنظيم التعليم انتهت إلى الكارثة التي يحياها المعلمون والطلاب وذويهم كل عام والمسماه بالثانوية العامة.

التقطت هبة البيلي ورقة البيانات وألقت عليها نظرة خاطفة، ثم أعطتها لوفاء وقالت لها:

- أنا صدعت من شغل العيادة، الموضوع ده مسئوليتك يا شاطرة، تعملي التذاكر والتقارير، مفهوم، ورجعالك بعد الظهر نصفي حسابنا. ثم استدارت وانصرفت.

أخذت وفاء الورقة وألقت عليها نظرة خاطفة، ثم دفعت بها إلي وقالت:

- أنا الكبدة عملت لي حرقان في معدتي، الموضوع ده مسئوليتك، تعمل التذاكر والتقارير، مفهوم؟

وابتسمت ابتسامتها الخبيثة وانصرفت. أخذت الورقة وألقيت عليها نظرة خاطفة، ثم أسلمتها إلى أطباء الامتياز وقلت:

- أنا صوباع رجلي مدوحس وواجعني ولازم أعمل له كمدات، الموضوع ده مسئوليتكم، تعملوا تذكرة وتوروهاني، وتقرير وتوربهوني، الأولى اسمها أنجيلا وصفي تشخيصها هيبقى نزيف رحمي تم علاجه بعمل كحت وعينة وعودة بعد نتيجة العينة وراحة لمدة أسبوع، والثانية سمية أنور، وخلي بالكم دي شايلة الرحم، فالتشخيص هنعمله كيس دموي على المبيض.

مر يومان وفي الثالث استدعانا الأستاذ الدكتور سامي عبد الرازق، فلما اصطففنا أمامه رفع عينيه عن أوراق كان يقلب فيها ثم قال وهو يمط مخارج الحروف:

- تعاالوا، أنتم عملتم كحت لست اسمها أنجليكاااا؟

كانت هبة البيلي أول المتحدثين فقالت:

- دي حالة وفاء يا بك.

فإذا بوفاء تقول دون أي تردد وبصوت مخنوق رقته حتى كادت تبكي وتبكيني معها:

- لا، حضرتك كريم صمم يعملها علشان يتعلم، ولما رفضت علشان أعملها بنفسي، أخدها هو وعملها من ورايا يا دكتور.

الكلب السافل الواطي، قلتها وكدت أبصق في وجهي.. كانت تكذب بصدق شديد حتى صدقتها.. ولو قالت أني غررت بها وراء مصنع الكراسي لما شككت في صدقها.. تركزت في الأعين وحدق بي الجميع، فسرت في أوصالي رعشة مباغتة، فقلت وأنا أحاول أن أبقى رابط الجأش:

- أنجيلا يا بك، آه عملتها طوارئ.

نظر الدكتور سامي إلى الورق من جديد ثم رفع رأسه وقال لي:

- ثانية واااحدة، يعني أنت خدت أنجلييكا دي العمليات وعلقت الرجلين ووسعت الرحم وكحته؟؟؟؟

أدركت أننا قد خلطنا التقريرين المرضيين المزورين للمعلمتين، لكن الإعتراف بالخلط قد يفتح باب افتضاح أمرهما، وقد يورط الدكتور أحمد الصالح في الأمر. كان الأحوط أن أتجاهل الخلط وأصر على موقفي. ترددت للحظات متذكرًا ضعفي في الكذب، وفشلي في الترقي لدرجة مَيُون أفاك، وتذكرت كلمات البروفيسير عرابي حين قال ذات يوم وهو يرص حجر الأرجيلة، أن إن انتويت الكذب، فتذكر أن أطباء النساء من فرط ذنوبهم، عادة تكون أبواب السماء موصدة لدعائهم بالستر. راجعت رصيدي في بنك الذنوب فوجدته مقبولًا، فدعوت الله أن يوفقني هذه المرة، على أن تكون أول وآخر مرة:

- أنجيلا يا بك، آه، ما دا اللي بعمله في الكحت يا بك.

لكن أبواب السماء فعلًا كانت موصدة في تلك الساعة، فقال الدكتور سامي:

- لا عفاارم عليك والله، برافو، وكحت إيه مناخيرها؟؟؟؟ لما هي الست شايله الرحم من تسع سنين، ايسيبه طلعلها رحم جديييد؟؟

وأُسقط في يدي، فقد اكتشف الأستاذ الكذبة، وكدت أنهار وأعترف بالاتفاق الذي أبرمه معنا الدكتور أحمد الصالح، لكن وبحساب من يمكن أن يكون ضرره أكبر، وبما أن الدكتور سامي قد أوشك على التقاعد، بينما الدكتور أحمد الصالح مازالت أمامه سنوات في الخدمة، فقدرة الدكتور أحمد على التنكيل بي إن أنا وشيت به أكبر، فاستسلمت لأقداري ورضيت بما سيقضي به الأستاذ في شأني، لكن فجأة انفجر الدكتور سامي في الضحك:

- يمكن طلعلها رحم جديد، ولا الأفندي ده كحت مناخيرها، دا أنت نيلة خالص في الكذب جتك خيبة بالوبية، أبقى شور حد كبير يا بني لما تيجي تزور.

أوشكت أن أشرح للأستاذ معنى كلمة "وبية" لكنه استطرد قائلًا:

- عمومًا طالبينك في النيابة يا بطل.

وباضت فضيلة الصدق وأفرخت في عقلي بعد هذا الموقف، فتعلمت أن أتحرى الصدق في كل تفاصيل عملي. وعند باب العنبر قابلت الدكتور أحمد الصالح الذي ما أن رآني حتى قال لي بحنق:

- الله يحرقكم، وديتوا المدرستين المزتين في داهية، دول متحولين للنيابة، قطيعة تقطعكم أنتم وهمّ والمستشفى، مين فيكم اللي عمل التقارير دي علشان أطلع ميتين أمه؟

فوضعت بيضة الصدق نصب عيني، وأجبت بكل صدق وبلا تردد، وبصوت مخنوق رقته حتى كدت أبكي:

- وفاء حلفت عليا لتعملها بنفسها يا بك علشان خاطر حضرتك، دي بتعزك قوي يا بك.

عمر ومريم

تغيبت مريم عن الحضور إلى المستشفى، وعلمت من صويحباتها أن قد عافت نفسها الحياة حتى بتن يخشين على حياتها، فأرسلت في طلب مقابلتها في كافيتريا قريبة من المستشفى.. عندما وقفت أمامي لم أكد أعرفها من الهزال الذي أصابها والهالات السوداء التي باتت تحيط بعينيها اللتين فقدتا الألق.. جلست أمامي ساجية الطرف، ولم أجد كلماتي التي كنت قد قضيت الليل أجمعها، فلما طال الصمت بيننا، انتفضت هي وبادرتني بالقول بحسم وتصميم:

- أنا مش هتجوز غير عمر، فهمه كده، وفهم صاحبك التاني ده أني مش حصان هيشتريه بفلوس أهله، أنا بحب عمر ويا أتجوزه، يا مش هاتجوز اصلًا، ويبقى ده نصيبي، أنا ماليش ذنب في عيلتي ولا أنا اخترت أبويا ولا جدي ولا الباشوات والهوانم دول، أنا أنا، وهو هيتجوزني أنا مش هيتجوز صور البشوات اللي في بيتنا، أنا راضية به بفقره ومستعدة أبتدي معاه من تحت الصفر، ومستعدة أستناه كمان لغاية لما يوفي وعده لأبوه، لكن غيره مش هتجوز.

ودون أن تنطق خُيل إلي أنها تنشد لمحبوبها(*)

بحت أحشائي
وأنا أصرخ بك
أيها الناعم كملمس أفعى
الحار كنسيم الجحيم
المثير كأعماق البحار
لا تخلعني، فأنا جلدك
أيها البعيد كمنارة
أيها القريب كوشم في صدري
أيها البعيد كذكرى الطفولة
أيها القريب كأنفاسي وأفكاري
أحبك.....أح ب ك

وهبت واقفة، وخيل إلي أني أرى الدموع في مقلتيها، ثم استدارت وتركتني مشدوهًا من موقفها هذا...

(*) غادة السمّان أديبة سورية مواليد ١٩٤٢.

١٣- توتو بك الأمور

كان من نصيبنا في هذا الشهر ثلاث طبيبات امتياز فاتنات، يَصح أن نطلق عليهن وصف "قطط"، شكلًا وأناقةً ولباقةً وتفوقًا. وفي أول يوم لهن في الوحدة نظرت إليهن الدكتورة هبة البيلي بصرامة وقالت:

- أنا ما عنديش دلع ولا مياصة، ولا ميكياج ولا بهرجة، اللبس واسع وطويل ومحتشم وغير لافت. دكتورة وفاء هتتولى تمرينكم، أي حاجة تسألوها فيها، مافيش غياب، مافيش أذونات، مافيش حجج، مفهوم؟

ثم انصرفت وهي تدب الأرض كعادتها. نظرت وفاء إلى الطبيبات بازدراء ولسان حالها يقول "هه ودول مين العوجر دول، شوفوا نفسكم أول ما تحملوا هتبقوا عملين إزاي"، ثم قالت لهن بقرف:

- مش عايزه دلع ولا مياصة، مافيش غيابات ومافيش أذونات، ومافيش ميكياج، واللبس يكون واسع ومحتشم ومحترم وبكم طويل، ومافيش كعب عالي، الدكتور ده (وأشارت إليّ وكأنها نسيت اسمي) هيتولى تمرينكم، أي حاجة اسألوه، مفهوم، وانصرفت.

تلفتت القطط إلي فأسرعت أقول:

- طبعًا سمعتم الكلام، ما فيش غيابات ومافيش أذونات، لكن ما فيش مانع من الميكياج والشياكة والكعب العالي، طبعًا اللبس يكون محتشم وطويل، يعني الشورتات ممنوعة، الجونلات ممنوع فوق الركبة بأكثر من خمسة سنتيمتر، والبلوزات على الأقل "كت"، والكعب ممنوع أعلى من ١١ سم، عيشوا حياتكم، بس أهم حاجة المواعيد وحسن معاملة المريضات.

ثم شرحت لهن طبيعة المهنة واحتمال تعرضهن لمواقف محرجة، وأنهيت الاجتماع بكلمة أستاذنا الأستاذ الدكتور سامي عبد الرازق "لا حياء في العلم، لا حياء في الدين ولا حياء مع طبيب النساء".

بدأنا العمل وأظهرت الطبيبات حماسًا وتفوقًا واضحين، وأثرن إعجابي بذكائهن ولباقتهن مع المريضات. تنفس النهار، وشرعت أفحص آخر مريضة وكانت تشكو من التهابات مهبلية متكررة فشل علاجها مما استلزم سؤالها عن بعض تفاصيل علاقتها الجنسية، فأطرقت المريضة خجلًا، فقلت لها:

- بصي يا مدام، لا حياء في العلم، لا حياء في الدين ولا حياء مع طبيب النسا.

استجمعت المريضة شجاعتها وقالت:

- بص يا دكتور أنا هقول لك، أنا أصل جوزي لما بنبقى مع بعض- لا مؤاخذة يعني- بيحرج عليا أقوم أتشطف بعدها.

فأسرعت قطة تسألها:

- إيه ده، طيب ليه؟

هزت المريضة كتفيها وقالت بلا مبالاة:

- بيقولي لا مؤاخذة ما إحنا هنعيده الصبح والظهر، يبقى لزمته إيه التشطيف؟

فسألت القطة بدهشة:

- أنتم تاني يوم بتكملوا صبح وضهر وكمان؟

فقالت المريضة وهي "تكبب" في وجه القطة منعًا للحسد:

- الله أكبر، إحنا لا مؤاخذة كل صبح وكل ضهر وكل ليلة، كل يوم يا أبلة.

دهشت لقول المريضة فسألتها مستوثقًا:

- صبح وضهر وليل؟ كل يوم؟

فضربت المرأة جيدها بيدها وهي تقول:

- الله أكبر الله أكبر، بص وراك يا دكتور أه يا خويا، لا مؤاخذة تلات مرات كل يوم.

فسألتها قطة أخرى باهتمام:

- وجوزك بيصد معاكي على كده؟ ولا لازم بيبليع برشام أو حاجة؟

فأجابت المرأة بتلقائية:

- لا يا ختي لا بيبليع ولا حاجة، هي كوباية القرفة بالجنزبيل وعنها يبقى ولا مؤاخذة سبع.

شُدِهتُ لجرأة القطط في سؤال المريضة، وبصعوبة حاولت التركيز في الحالة، فقلت للمريضة شارحًا:

- أنا مش هأحسد يا مدام، أنا بس بقول مع الالتهابات دي لازم توقفوا شوية، ده كتير، أوڤر أوڤر، قولي لجوزك كفاية! حرام.

فضحكت المرأة وهي تهز رأسها:

- توتو الأمور؟ ولا هيرضى ولا مؤاخذة يبطل، ده حتى في رمضان، ولا مؤاخذة قبل ما يشق صيامه والعشا وبعد السحور، توتو ما بيفوتش.

قلت لها بحنق:

- توتو وأمور وتلاتة في اليوم؟ ده حلال فيه كان يطلع يهودي، يقعد كل شهر أيام دورتك الشهرية كلها وبعدهم ٧ أيام تانين كمان ما يهوبش أصلًا ناحيتك(*)، ولو نقطة دم بس نزلت منك في أي وقت يقعد هو ينش في البلكونة! عمومًا هاتي لنا الأمور ده لما نشوف حكايته إيه.

فقالت المرأة ناصحةً:

- مش هيرضى يادكتور.

ضربت المكتب بقبضة يدي وأنا أصيح في المريضة:

(*) تحرم اليهودية مثلها مثل الإسلام (سورة البقرة الآية ٢٢٢) على الزوج جماع زوجته طوال مدة دورتها الشهرية، لكنها تخالفه فتتبع الدورة الشهرية بسبعة إلى اثني عشر يومًا بعدها، يستمر فيها تحريم الجماع وتسمى "نيداه" أي فترة الدنس[٢٣].

- مافيش حاجة اسمها كده، هو احنا بنلعب، هيبطل يعني هيبطل وأسبوعين كمان.

فقالت المريضة بهلع:

- يا لهوي، أسبوعين؟ أنا يا خويا ما أقدرش أقول له كده، أنا ولا مؤاخذة مش مستغنية عن عمري.

فقلت بإستهانة:

- أنا اللي هاقول له، أندهيه، ولو زود في الكلام هيبقوا تلات أسابيع، بلاش كلام فارغ.

خرجت المريضة لاستدعاء زوجها وجلست أنظر للقطط مشدوهًا لجرأتهن، بينما جلسن يصوصأن ويتغامزن ضاحكات بصوت خفيض، ثم سألتني إحداهن:

- صحيح يا دكتور، لو زوج المريضة رفض بيكون التصرف إيه؟

فأجبتها على الفور:

- يعني إيه يرفض، هو إحنا بنهزر، الحيوان ده هيوافق ورجله فوق رقبته، المهم الدكتور ما يديش أي فرصة أصلًا للعيان أنه يتفاوض ولا يناقش، مناخيرك فوق في السما، والتكشيرة على وشك، وترصيهم للعيان، لازم تعرفوا إن كلمتنا دايمًا مسموعة ومطاعة.

عادت المريضة إلى الحجرة وصاحت تقول:

- تعال يا توتو، تعال الدكتور عايز يكلمك.

فجأة هبط ظلام حالك على الحجرة وأزبَدَت السماء خارجها،

وسمعت صوتًا اختلف عليّ أهو هزيم رعد أم نخير بغل:

- أير؟ أنت أيأني أداتور.

التفت إلى مصدر الصوت، فوجدت كائنًا غير محدد الملامح ولا الأبعاد، يقف أمامي لا أعرف إن كان على يديه أم على قدميه. نظرت للمريضة متسائلًا عن كينونة هذا الشيء فقالت:

- توتو الأمور يا دكتور، الله أكبر بطل جمهورية في كمال الأجسام، ومعاه ولا مؤاخذة ميداليه آلامونيا من جوز بركستان.

ران الصمت على الحجرة بعد أن فشلت كل محاولاتي في إخراج أي صوت، فتطوعت إحدى القطط وقالت لتوتو وهي تشير إلي والصرامة على وجهها:

- بص يا توتو أنت، الدكتور كريم عايز يقول لك، إن مراتك عندها التهابات جامدة، ولازم تبطل نظام الصبح والضهر وبليل كل يوم ده، على الأقل أسبوعين لغاية لما تخف.

نظر لي توتو شزرًا وقال لي:

- أنت ألت إده؟

أشرت برأسي بالإيجاب، فلما دنا مني حتى لم يعد يفصله عني سوى المكتب، وجلت وأسرعت أشير له برأسي يمينًا ويسارًا نافيًا، فمد يده وأمسك بزوجته التي طارت في الهواء حتى تأبطت ذراعه وقال:

- أنا هأمل أربأة أو يوم، أو أيه؟

فتولت المريضة الترجمة:

- بيقولك هو هيعمل ولا مؤاخذة أربعة كل يوم، ماشي كده؟

فأجبته على الفور:

- طبعًا طبعًا توتو بك، براحتك خالص يا أمور، ولا مؤاخذة تلاتة أربعة خمسة، اللي يريحك، أنت بطل مصر ولازم تتبسط.

نظر توتو لي بشماتة وجذب زوجته بيده وهو يقول:

- أيوة أدة، ياله يا إلية

فردت عليه المريضة بدلال:

- تؤمرني يا بيبي، بس الدكتور ما كتب ليش علاج لسه.

نظر لي توتو فأسرعت ألتقط دفتر الروشتات وأكتب العلاج، فلما انتهيت انتزع مني الأمور الورقة، واستدار ليخرج ساحبًا معه زوجته التي قالت لنا ضاحكة:

- سلام يا دكاترة.

بحسب إحصائيات معهد كينسي الأمريكي [٢١]، فإن الأمريكيين يمارسون الجنس في المتوسط مرتين أسبوعيًا، ويختلف ذلك الرقم باختلاف المرحلة السنية، فالذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ والـ٢٩ عامًا يمارسون الجنس ١١٢ مرة في العام، والذين بين ٣٠ والـ٣٩ يمارسونه ٨٦ مرة، ومن بين الـ٤٠ والـ٥٩ يمارسونه ٦٩ مرة، وبين الـ٦٠ إلى ٧٥ يمارسونه ٢٢ مرة سنويًا. أما في مصر[٢٢]، فالأرقام تختلف بشدة حسب التواجد في الحضر أو الريف، وكذلك حسب المرحلة السنية. فبينما يمارسه أهل الريف من ١٥٠ إلى ٢٥٠ مرة من سن العشرين إلى سن الثمانين،

في الحضر وبسبب ارتفاع تكاليف الزواج، لا يبدأ المصريون في ممارسة الجنس إلا في منتصف الثلاثينات، والذين تتراوح أعمارهم بين ٣٠ إلى ٣٩ يمارسونه ٢٥٠ مرة في العام، ومن سن ٤٠ إلى ٤٩ عامًا ينخفض الرقم بشدة فيمارسونه ٤٢ مرة في العام، ويصاحب ذلك بداية النداء على الشريك بألقاب مثل "بابا" و"ماما" وأحيانًا يا حاج، ومن سن ٥٠ إلى ٥٥ يمارسونه ١٢ مرة، ويكون ذلك مرتبطًا عادة بالمناسبات مثل عيد الفطر أو شم النسيم أو عيد الجلاء، ومن بعد سن ٥٥ عامًا، يكتسب الأزواج المصريون لقب "البركة والحاجة وأحيانًا نينة" ويمتنعون عن ممارسة الجنس لحين الرحيل إلى العالم الآخر إلا سهوًا أو تحت الإلحاح.

عندما انصرفت المريضة بصحبة توتو بيه الأمور، سألتني إحدى القطط بدهاء:

- هو مش مفروض الزوج يسمع تعليمات الطبيب المعالج ولا إيه؟

ففطنت لما ترمى إليه عن تراجعي أمام زوج المريضة وأضمرت لها الشر وقلت:

- صحيح، لكن برضك نفسية المريضة أهم من أي حاجة، والواضح إن المريضة مستمتعة جدًا بحياتها الزوجية مع اللي اسمه توتو ده، فما فيش داعي ننكد عليها، كده ممكن جهازها المناعي يضعف وتتنكس.

فهزت القطة رأسها وقالت:

- آه، ولا مؤاخذة أحيح.

عمر ومريم

نكس عمر رأسه وشبك يديه وقال لي ونحن جالسان على سور الكورنيش المقابل للمستشفى:

- يا كريم بك أنا مش قد الناس دي، أنت وقفت جمبي في التحقيق والحمد لله اتحفظ، لكن أضمن مئين أن فاروق الضبع صاحبك ما يرجعش يكيد لي تاني ويضيع مستقبلي. اللي زيي يا بك الحب بالنسبة له رفاهية فما بالك بالجواز، أنا ليالي كنت بحرم نفسي من النوم علشان أذاكر وأحافظ على ترتيبي على الدفعة وألاقي لنفسي مكان وسط ولاد الأساتذة والمحاسيب.. ست سنين، عمري ما نمت في يوم فيهم أكتر من تلات ساعات، حتى في الصيف وأنا باشتغل في مكتب البوسطة مع أبويا، كنت بامسك كتب السنة الجديدة أذاكر فيها بين الزبون والتاني، وربنا العالم ده مش بس علشاني، لكن علشان الراجل الطيب أبويا اللي صمم أني أكمل وأبقى دكتور زي ما كانت أمي الله يرحمها بتتمنى، أمي اللي ماتت علشان ما جاش عليها الدور تعمل العملية في التأمين، وما كانش معانا فلوس نعملها في المخصوص لغاية ما راحت منا، أبويا

عايش علشان اليوم اللي يشوفني فيه أستاذ في الجامعة، تفتكر يصح أني أهد حلمه كله علشان قلبي؟

أطرقت برهة ثم قلت له:

- فاكر في فيلم "رد قلبي"، علي ويكا ابن عبد الواحد الجنايني اتجوز أنجي بنت البرنس. الزمن اتغير يا عمر.

فأجاب عمر:

- علي ويكا كان ضابط في بلد بتحترم آدميته، أنا النهاردة دكتور في بلد مرتبي فيها يجيب كيلو لحمة، وولا عشر سنين على ما أقدر على تمن شقة حتى، عايزني أعيش على قفا أنجي؟

١٤- تحت الحصار

بطبيعة الحال تعدى سحر جمال هبة البيلي الفاتن العاملين في المستشفى من أطباء وأساتذة وأهالي المرضى، فتأثر بها محامون ومهندسون وقضاة ومحاسبون ورجال أعمال وعمال وفلاحون، بل إن تأثيرها وصل إلى الساهرين على الأمن القومي الداخلي.

يقع الظهير الخلفي من مستشفانا في مواجهة كليات جامعتنا العريقة. ومع بداية كل عام وسخونة الأحداث الإقليمية والعالمية، ينخرط الطلاب في حركات إحتجاجية وتظاهرات، مما يستوجب - حماية لهم وللوطن - إحاطة مجمع الكليات بجيوش من قوات الأمن المركزي المدعمة بالمدرعات وسيارات مكافحة الشغب، وبطبيعة الحال تغلق مداخل المستشفى، فيعلق بها الأطباء والمريضات وينصاع الجميع لهذه التعليمات ونرفع أكف الضراعة إلى المولى عز وجل كي ينفك الحصار ونعود إلى أعمالنا وبيوتنا. ينصاع الجميع؟ بالطبع إلا هبة البيلي بعيونها العسلية وشعرها الذهبي.

كنا في بداية العام الجامعي، وكالمعتاد خرج الطلاب في مظاهرات

شجب وتنديد بأحد الخطوب التي تزخر بها منطقتنا، فحاصرتهم قوات عظيمة من قوي الأمن المركزي. كانت هبة البيلي في هذا اليوم هي النائب المسئول عن إدارة المستشفى والاستجابة لتبليغات المستشفيات الأخرى. وكان أن جاءها استدعاء عاجل من إحدى مستشفيات المدينة لمناظرة مريضة في حالة حرجة، وكعادتها فقد جرجرتني معها كمساعد تحسبًا لأي طوارئ جراحية. هرعنا إلى سيارة الإسعاف الخاصة بالمستشفى، فوجدنا عم ألفونسو سائق السيارة يحتسي كوبًا من الشاي الثقيل، فبادرنا بالقول:

- "سوري" يا دكاترة، "بردون"، الأمن مقفل المنطقة وممنوع الخروج من المستشفى.

وإنقاذًا لعم ألفونسو، وهو رجل كثير العيال، من أن تفتك به الدكتورة هبة البيلي، أسرعت أقول له:

- يا أسطى ألفونسو هانطلع من باب البحر ونخرم من أي حتة.

لكنه كان قد صمم على الانتحار إذ قهقه قائلًا:

- يا كريم بيه تخرم من فين الأمن مقفل المنطقة كلها.

يتيه عم ألفونسو بأصوله التي يرجح أن تكون إسبانية، فألفونسو باللغة الإسبانية يعني النبيل أو رفيع المقام، وسبب فخره هو أنه يدعي أن جدوده الإسبان هم أول من أنشأ الإسعاف المتنقل باستخدام عربات تجرها الخيول عام ١٤٨٧ [٢٤]، وأن أول فرقة إسعاف متنقل كانت أثناء الحروب الصليبية على يد فرسان القديس يوحنا الأوشيملي في القرن الحادي عشر الميلادي، وعادة ما تنشب بينه وبين عم محمود السني معارك تاريخية ضارية، عندما يجادله عم محمود في أن الفضل لأول إسعاف منظم

في التاريخ يعود إلى فتاة مسلمة في السابعة عشر من عمرها تدعى أمينة بنت قيس، كانت تصاحب جيوش المسلمين في غزواتهم لتقدم خدمات طبية متنقلة [٢٥]. إلى جواري رأيت الشرر يتطاير من عيون هبة العسليتين، فاحتسبت المقدس ألفونسو مع القديسين والشهداء.

لحظات وكنا في سيارة الاسعاف أنا، وهبة البيلي، والفقيد عم ألفونسو. اتجهنا إلى بوابة المستشفى فوجدناها تامة الإيصاد بعربة مدرعة من عربات الأمن المركزي، وقف بجوارها أحد جنود الأمن المركزي مشهرًا سلاحه. بلهجة كلها شهامة وتشفي قال لنا الأسطى ألفونسو:

- أهه، صدقتم حضرتك؟ البوابات كلها مقفولة أروح فين أنا بقي؟

تجاهلت هبة البيلي كلمات الأسطى ألفونسو الساخرة، والتي أمنت عليها بهز رأسي، حتى رمقتني موسوليني بنظرة غاضبة، فتحول اهتزاز رأسي المؤمن على كلام السائق إلى نظرة اشمئزاز وتقزز من انهزاميته، وقالت بلهجة آمرة:

- اتلقحوا هنا.

وقبل أن أفتح فمي معترضًا، ترجلت هبة من سيارة الإسعاف، واتجهت إلى باب المستشفى. أصاب الأسطى ألفونسو الهلع وقال لي مستنجدًا:

- إلحقها يا بك، العيال دول ما عندهومش تفاهم مع النسوان، ولو الدكتورة نرفزته عرق الصعايدة هينقح عليه وهيفرغ فيها رصاص بندقيته.

أعجبتني فكرة الرمي بالرصاص كنهاية سينيمائية للجنرال موس،

فلم أتحرك من مكاني. مكثت أنا والأسطى ألفونسو برهة نترامق حائرين خائفين والدكتورة هبة تقترب من البوابة حتى بلغتها وبدأت في الحديث مع الجندي، فعاد الأسطى ألفونسو يستحثني:

- يا بك العيال دي فهمهم على أدهم، يعني الظابط يلعن سنسفيل دين أمه مش مهم لكن مَرَه تعلي صوتها عليه هيطخها صدقني.

ضقت ذرعًا بإلحاح الأسطى ألفونسو، فترجلت من السيارة، وسرت بخطوات متثاقلة نحو هبة البيلي والجندي فسمعتها تقول:

- يعني لو العيانة اللي بتموت دي أختك ولا أمك ولا مراتك ولا خالتك، ترضى أنها تموت علشان الدكاترة مش عارفين يوصلوها؟ هي دي أخلاق الصعايدة؟ تعليمات إيه وزفت ضابط ايه، مش عيب عليك؟

وقبل أن أفتح فمي، انفرج باب المدرعة، وترجل منها ضابط طويل ورشيق ووسيم، بعيون سوداء واسعة، وبدا لي في حلته الرسمية كالعالمي عمر الشريف في دور الكابتن خالد في فيلم نهر الحب. اقترب عمر بك الشريف منا، وقال وقد رسم إبتسامة ساحرة على وجهه:

- أنا زفت برضك يا دكتورة؟

توقعت أن تلين الدكتورة هبة البيلي أمام سحر عيون الكابتن خالد ووسامته الطاغية، لكن لدهشتي وجدتها تقول:

- لما تكون حضرتك قافل علينا ومانعنا ننقذ حياة مريضة بيقى ده اسمه ايه؟

بسرعة رسمت في عقلي خطة النجاة بحياتي إذا ما أطلق الكابتن خالد

رصاص مسدسه على هبة البيلي بالاحتماء وراء دغل قريب من الأشجار، لكن لدهشتي سمعته يقول:

- ابقى زفت فعلًا، هدي نفسك أنتي خالص.

ثم التفت إلي الأسطى ألفونسو وقال له:

- إرجع أنت يا أسطى.

فلما لم يتحرك عم ألفونسو، أشارت له هبة قائلة:

- إرجع أنت يا ألفونسو.

فهز عم ألفونسو رأسه، ولو كان له ذيل لهزه، واستدار عائدًا.

بدا الحرج على الكابتن خالد من تجاهل عم ألفونسو لأوامره، واستجابته الفورية لهبة البيلي، لكنه تنحنح وقال ليغطي على حرجه:

- إتفضلي حضرتك أنا هأوصلك.

فسألته بدهشة:

- أتفضل فين؟

فأشار إلى سيارة الشرطة المدرعة وقال:

- إتفضلي في العربية وأنا هأوصلك.

وللحظة سرح خيالي، فصور لي الكابتن خالد في سيارة اولدزموبيل مكشوفة السقف من سيارات السيتينات، وقد ركبت إلى جواره الجميلة هبة البيلي، وهو ينطلق في طريق تحفه الأشجار من كل جانب، وهو يؤرجح المقود يمينا ويسارًا وكأنه يقود توك توك.

أفقت على كلمات هبة البيلي وهي تشير إليّ:

- وده معايا.

فأشار الضابط لجنوده بلا اكتراث:

- حطوه ورا.

وبعد لحظات انطلقت سيارة مدرعة من سيارات قطاع الأمن المركزي تشق طرقات المدينة وقد جلست الدكتورة هبة البيلي إلى جوار الكابتن خالد، بينما جلست أنا في صندوق العربة الخلفي وسط الجنود، أكاد أقضي مختنقًا من رائحة العرق الكريهة، والجوارب النتنة، وبقايا الطعام المتعفن. داخل المدرعة كان معتمًا، فلما اعتادت عيناي الظلام داخلها، أدهشني أن رأيت رجلًا مهيبًا، يرتدي جلبابًا صوفيًا أزرقًا، ويضع على رأسه طاقية من الوبر، وفي قدمه مركوب من السختيان الأزرق، ويزين بنصر يده اليمنى خاتم من الفضة له فص رائع من العقيق الأحمر، ويحتل وجهه شارب موصول بحاجبيه وشعر رأسه، ولم أدر ماذا يفعل الرجل داخل مدرعة أمن مركزي. بعد قليل غادر الرجل مقعده وجلس بجواري وقال لي:

- يا بوي دا الدكتورة ديه شديدة جوي، ما بطلتش زعيج في الباشا الظابط وهي ما تأخذنيش يعني سحباك وراها كيف اللامؤاخذة، بالك يا باشا ديه لو مرتي..

فنظرت له بامتعاض من وصفي باللامؤاخذة، وأجبته وأنا أبحث عمن أصب عليه جام غضبي وحنقي:

- ماهي نقصاك أصلها، كنت هتعمل إيه يا بلدينا؟

- كنت أناولها الجبجاب وأجولها كمان.

فغلبني الضحك من إجابته المفاجئة، فتشجع الرجل وقال وهو يعبث بشاربه:

- ديه أصلها مَرَه زين كيف لمطت الجشطة يا بوي، كيف كوز العسل إكديه، شوف يا أفندينا، أني رزق البحراوي عضو مجلس محلي وعمدة كفر البجر، وأكبر تاجر مواشي في الناحية كلتها..

وأشار إلى أحد الجنود وقال:

- وأبو الثور اللي جدامك ده، جيت ومعايا شوية هدايا، أوصي عليه الباشا الظابط الصعب، راح سايدته جالي لما يبجي يرجع المعسكر يبجي يشوف طلبي، بس شكلي ما عارجعش وحدي، الهوى جتلني يا بوي والهوى غلاب يا حضرت..

ثم اعتدل في مجلسه ومال علي وقال:

- أصل زي ما جال الخواجة شخصبير "بالعين المَرَه تُطلُب وتأخُد، وتكره وتجتل كمان".. نهايته، أنا جاصدك في مصلحة وعرفك عندي، أمانه عليك يا شيخ تكلم لي لمطة الجشطة اللي سحباك ديه، وليها عليا أطلج النسوان التلاتة وأكتب لها ٣٠ فدان وخمس ترومبيلات نجل وزريبة مواشي.

صمت ولم أحر جوابًا، فرغم فصاحة الرجل وولعه بشكسبير، ورغد العيش الذي يبدو أنه ينعم به ونفوذه في كفر البقر، ورغم عرضه المغري بتقدير عرقي، لم أجرؤ على التوسط له عند موسوليني خوفًا من بطشها إن لم يعجبها العريس... ثم لأنها كانت متزوجة.

عمر ومريم

بداية شهر جديد، جاء وجاءت معه مجموعة جديدة من أطباء الامتياز لتسلم العمل في الوحدة. مضى عمر ومريم، وانسحبت قصتهما من ذاكرتي، إلا من كلمات مقتضبة حفرت فيها، عندما قابلت مريم في مطار شارل ديجول بفرنسا بعد سبع سنوات من لقائنا في الكافيتريا بجوار المستشفى.. علمت منها أنها بعد وفاة والدها فجأة، استقرت مع والدتها في سويسرا للعمل بمنظمة الصحة العالمية، وأنها تجوب الدول الأفريقية لتساعد في تخطيط حملات مقاومة الأمراض المتوطنة والأوبئة.. وأنها لا تزال مخلصة لحبها الأول والأخير. أما عمر سعيد، فقد تم تعيينه في قسم الأمراض الباطنية في وحدة المرحوم الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم السوهاجي، وقد تزوج من قريبة له، ورزقه الله منها بسعيد وعبد الرحمن..... ومريم.

١٥- حميدة وهايدي

يحكى أن جحا اشترى عشرة حمير، فلما قفل عائدًا من السوق وقد امتطى أحدهم، خطر له أن يعدهم، فوجدهم تسعة، فلما نزل عن حماره وأعاد العد وجدهم عشرة، وتكرر المشهد فما كان منه إلا أن أحجم عن الركوب ومضى سائرًا وهو يقول:

- خيرٌ لي أن أنطلق سائرًا عن أن أفقد الحمار العاشر.

واستمرت هبة البيلي تصب علينا كل صباح جحيمًا من التعنيف والتقريع، تخصني منه بنصيب الأسد وتنزل بي عقوبة جديدة مبتكرة. وفي صباح أحد الأيام، وبينما كانت هبة تبحث عن عقاب مناسب لي على هفوة في ملف إحدى المريضات، انضم إلينا الأستاذ الدكتور حسنين الطويل، وبصحبته رجل ضخم الجثة، يشي ملبسه بالفقر ومظهره بالبؤس وملامح وتعبيرات وجهه بالغباء.

نظر إلينا الدكتور حسنين - وهو رجل فظ غليظ يكره نفسه والدنيا، ويعيش مكرسًا جل وقته لتكدير الجنس البشري، مختصًا النواب بالنصيب الأوفر - وقال:

- الحيوان ده يبقى حارس الڤيلا بتاعتي، جبته وهو عنده عشر سنين وجوزته حيوانه زيه، ومن يومها ما بيبطلش خلفة ولا طلب فلوس.

لم ينطق أحد منا، لكن الأستاذ قال بحنق:

- مش عارف أرميه بره علشان مراتي بتقول لي مش هنلاقي حيوان زيه نافعنا في البيت والجنينة.. دلوقتي مراته طلع عندها مشاكل في القلب والكلى والتهاب كبدي وبائي بي وسي ودوالي مريء.. بتوع الباطنة مش عايزنها تحمل تاني نهائي. كنت هأربط لها الأنابيب على الصاحي بس بطنها شوارع من عمليات الدوالي والهم اللي عملاها، أه، وعندها تي بي (سل رئوي) وطبعًا التخدير مش راضي يقرب لها، المهم يعني، دلوقتي لازم الحيوان ده يستخدم هو العازل لغاية ما نشوف هنعمل إيه في الكارثة دي.

تفحصت الرجل فلم أجد أي صدى لكلام الدكتور حسنين عليه، وخطر ببالي أن أسأله إن كان الرجل أخرس وأصم، لكن الدكتور حسنين التفت إلى الرجل وقال له:

- حميدة، الدكاترة هيفهموك تعمل ايه، ما تتنقلش من هنا إلا وأنت فاهم يا ثور، المرة دي لو "هايدي" حلت هتموت فاهم؟

فأصدر الرجل صوتًا مثل نهيق الحمار أن نعم.

تعجبت كيف تتزوج "هايدي" من حميدة، وبينما أنا غارق في تأمل الثور وتخيل الهايدي، التفت إلينا الدكتور حسنين مهددًا:

- شوف يا نايب منك ليها، لو هايدي حلت من الثور ده تاني، بشرفي

هأضيع مستقبلكم وإلى الأبد، هتسرحوا ببليلة آخركم، الثور ده ما يمشيش من هنا إلا لما تتأكدوا - وعمليًا - أنه فاهم هيعمل إيه بالظبط.

"عمليًا" بدت كلمة وقحة وخارج سياق اللياقة، فلا يصح أن يطلب الدكتور حسنين من هبة أو وفاء مثل هذا الطلب المنكر.

غادرنا الدكتور حسنين تاركًا الثور حميدة واقفًا ببدنه الضخم، وران الصمت على الغرفة قبل أن تتكلم هبة:

- طبعًا سمعتم اللي قاله الدكتور حسنين، حميدة ده لازم يفهم كويس قوي ازاي يستخدم العازل، وعملي.

ثم نظرت إليّ نظرة خبيثة، وابتسمت ابتسامة أكثر خبثًا وهي تقول:

- وعملي دي طبعًا يعني أنت، فهمني يا سي كريم؟

فزعت لما تقصده هبة البيلي وقلت لها بذعر:

- يا دكتورة هبة اللي أنت بتطلبيه مني ده عيب وحرام ويتهز له سبع سموات.

ولكنها أصمت أذنيها، وسرعان ما انصرفت بصحبة وفاء، بعد أن أوصدتا الباب دوني أنا وحميدة.

سمعت عواء ذئاب في رأسي، وسرت قشعريرة الخوف في جسدي، وشممت رائحة العار والحزي في أنفي، فقررت أن اتبسط مع الرجل لعله يزهد في، أو على الأقل يترفق بي فأنهي المهمة بأقل خسائر فقلت له:

- أنتو من الصعيد يا حميدة؟

- باه

- أجدع ناس، فين في الصعيد؟

- باه

- باه؟ لا ما سمعتش بها قبل كده، دي بعيدة عن هنا؟

جلس الرجل القرفصاء على الأرض فجأة كما يجثو الجمل ليستريح، وبدا أنه عازف عن طلب فريسته، فطابت نفسي، ورأيت أن أنتقل إلى العمل، فاعتدلت وقلت بلهجة آمرة لا يفهم غيرها هؤلاء:

- قول لي يا حميدة، هايدي حملت كام مرة قبل كده؟

- نعم.

- نعم إيه، كام مرة؟

- ٦ أو ٩.

- ٦ ولا ٩؟

- باه.

- طب سقطت قبل كده؟

- نعم.

- كام مرة؟

- باه.

- طب مش مهم. قولي أنت يا حميدة مراتك بتتعالج من إيه؟

- عندها طاعون بجر في كبدها وسل في جلبها وكوارعها مخشنة وجواهرها بعافية.

دهشت لمعرفة أن هايدي بقرة، لكن حميدة هم بالوقوف، وخشيت أن يجد في طلب فريسته، فنهرته بحزم:

- أقعد يا حميدة وركز معايا.

ثم شرعت في شرح كيفية استخدام الواقي الذكري:

- بص يا حميدة وركز معايا يا بابا، الحكاية سهلة خالص، وعضوك منتصب هتلبسه الواقي، وبعد القذف على طول تشيل الواقي، فاهم؟

- لا.

- حميدة وقت الجماع هتركب الواقي، معايا؟

- نعم.

- أنت فاهم يعني إيه جماع يا حميده؟ يعني وأنت مع مراتك، معايا؟

- أيوه.

- وانت معاها بقي وعضوك منتصب، هتلبسه الواقي، فهمت؟

- لا

استخدمت لغة عامية جدًا للشرح، فلما انتهيت سألت حميدة إن كان قد فهم، فأشار على الواقي الذكري وقال:

- وديه برشام يعني؟

حمدت الله أن العالم الإيطالي الشهير جابريلو فالوبيو[٢٦] مخترع العازل الذكري بتصميمه الذي نعرفه اليوم والذي صنعه من الكتان عام ١٥٦٤ للوقاية من مرض الزهري، قبل أن يُصنع حديثًا من الكاوتش واللاتكس، قد تُوفي قبل أن يسمع حميدة وهو يقول عن اختراعه أنه "برشام". وحتى لا أرتكب جناية قتل هذا الثور، قررت أن أشرح له بطريقة أبسط، فأحضرت واقي ذكري وشرعت أشرح من جديد:

- بص يا حميدة ده عضوك (وضممت أصبعين من أصابع يدي اليسرى) وقت الجماع وهو مفرود (مددت الأصبعين وهما لا يزالان مضمومين) هتلبسه الغطا ده (وضعت الواقي على الأصبعين).. وتباشر مراتك.. وبعد ماتخلص، تسحبه بسرعة، وتشيل الغطا من عليه وترميه (خلعت الواقي عن الأصبعين وألقيت به في سلة المهملات).. فهمت يا حميدة؟

فضحك حميدة ملء شدقيه وقال:

- باه، بجي كِده، لا دي حاجة بسيطه خالص، الله ينور يا داكتور، أني كده فهمت، وده كام مرة في البيوم؟

فبَلِجَ صدري لنجاح مهمتي وقلت له:

- ياسيدي إن شالله عشر مرات، المهم تستخدمه.

فجأة فُتح الباب، وبدا أن هبة ووفاء كانتا تتصنتان علينا من الخارج، فلما أرادت هبة أن تستوثق مني عن النتيجة، أطرقت وأنا أنظر إلى الأرض، ثم قلت:

- إن الله حليم ستار وحسبي الله ونعم الوكيل.

حسب تقرير صندوق الأمم المتحدة للسكان (UNFAP) [٢٧]، فإن ٩٥ ٪ من سكان مصر يسكنون على بعد أقل من ٥ كيلومترات من مركز تنظيم أسرة، ورغم أن معدل انتشار موانع الحمل ارتفع من ٣٠٦ ٪ عام ١٩٩١ إلى ٦٠٤٪ عام ٢٠٠٨، مما سمح بانخفاض إجمالي معدل الخصوبة من ٤٠٤ طفل لكل امرأة عام ١٩٨٨ إلى ٣ طفل لكل امرأة عام ٢٠٠٨، بتكلفة ٢٨٠ مليون جنيه سنويًا تدفعها مصر على وسائل تنظيم النسل، إلا أن معدل الخصوبة مازال أعلى من المنشود لتحقيق تنمية اقتصادية حقيقية.

مضى شهران، وفي صباح يوم سماؤه ملبدة بالغيوم، حضر إلينا الدكتور حسنين وهو يجر حميدة وهايدي خلفه وألقى علينا المفاجأة: هايدي حامل! ونحن جميعًا محولون للتحقيق الإداري والجنائي بتهمة الإهمال الطبي الجسيم. عبثًا حاولت أن أشرح للدكتور حسنين استحالة أن يكون الحمل من حميدة بعد شرحي العملي له لكنه أصم أذنيه. فلما مثلنا ـ أنا وهبة ووفاء ـ أمام معتز منصور وكيل النيابة، طلبت استدعاء حميدة لإثبات أني قد قمت بالشرح الوافي له، فلما حضر، فشل معتز منصور في نزع أي إقرار منه، فأشعت في رأسي فكرة، وهتفت به يائسًا:

- حميدة وري معتز بك والبهوات أنا علمتك تستخدم الواقي إزاي.

ودفعت إليه بواقي ذكري، ففهم المطلوب، وخلع جلبابه وأنزل سرواله... وبدأ العرض.

على مدار شهرين، حين يقوم حميدة بجماع امرأته، يرفع جلبابه، وينزل سرواله، ثم يرفع يده اليسرى ويضم أصبعين اثنين منها على بعض وهما مفرودان، ويلبسهما الواقي الذكري، ثم يلج امرأته بعضوه، حتى إذا ما

انتهى من القذف، نزع عضوه، وخلع الواقي عن أصبعيه، وألقى به في سلة القمامة.

٢٨٠ مليون جنيه تضيع على مصر سنويًا بسبب حميدة وهايدي!

وانتهى العام، ورحلت هبة البيلي عن المستشفى، وبجلائها عنا تنفسنا الصعداء. وتعبيرًا عن السعادة والحبور، ألقت وفاء بقارورة زجاجية خلفها، واستعدت لعام جديد كنائب سينيور مع نواب جدد، تتفرغ فيه تمامًا لأعمالها المنزلية، وعلمت أنها قد التحقت بدورة تدريبية في فنون الطهي. أما أنا، فلم أجد ما ألقيه خلف هبة البيلي سوى ممدوح الحيوان من نافذة سكن الأطباء، وطويت ذكرياتها وراء ظهري وتهيأت لحياة جديدة، في عصر ما بعد هبة البيلي.

* * *

انتهى العام الأول، وصار لزامًا تقديم كشف الحساب عن كيفية سير الأمور معي.. وهنا، وعلى خلفية موسيقى العبقري راجح داوود في فيلم أرض الخوف، أنظر إلى نفسي التي بهظتها مُكابدات عام مثقل بكثير من النَصَبِ والهوان، والأشراك والأشواك.. وأراها قد تبدّلت وتغيرت.. ربما ليس بالقدر الذي تغير به آخرون، لكنها تغيرت.. إنني أشعر بهذا التغير، الناعم الهادئ حينًا، العاصف المضطرب أحيانًا أخرى، يتسلل إلى نفسي رغمًا عني، كلما مضى عليَّ يوم بين جنبات مستشفانا.. قد يُسمى هذا التغير خبرة وحنكة، أو فطنة ودهاء، أو حتي مكر واحتيال.. قد يراه البعض تغيرًا محمودًا ومن ضروريات العمل على أرض الواقع، وقد يراه آخرون مذمومًا منكرًا.. على أنني أرى صعوبة في الحكم عليه وهو لايزال

في مرحلة مبكرة جدًا من التناسخ، وكأن كتكوتًا ينقر على جدار بيضته يبحث عن سبيل للخروج، أو هي نزع الروح من الأرنب الغر، وغرسها في، الله وحده يعلم، أي كائن..

واستمرت رحلتي، أنا كريم رأفت، في أرض دنيا أمراض النساء والتوليد.

الفصل الثاني

مضى العام الأول وبدأ عامي الثاني، والذي أصبحت فيه النائب الميد سينيور.

العام الثاني نظريًا هو أجمل سنوات النيابة ولهذا حكمة، فتحت يدي نائب جونيور يكلف بكل الاعمال القذرة والوضيعة، وقد كفل لي القانون العرفي أن أبيع وأشتري فيه، ولا مانع من إذاقته بعض الهوان الذي رأيته في عامي الأول، ثم هناك نائب أكبر "سينيور"، يحميني إن فشلت في تحميل "الجونيور" كل أوزاري وجرائمي وخطاياي، وبقليل من الدهاء والمكر والاحتيال، يُفترض أن تكتب لي النجاة من كل المصائب والمكائد. على أنني كنت قد لمست في نفسي ضعف المكر وقلة الدهاء، فصرت أشفع قوة حجتي بحصافة كلماتي، وأحجب نبل أهدافي بدهاء أفعالي، لتخشى الأفاعي مكري، فتُعقد لي الغلبة على ثعالب أرض عالم النساء والتوليد؛ أو هكذا بدا لي.

تسلمت العمل في وحدة الأستاذ الدكتور محمود الأبيض، ونائبي السينيور هو الدكتور فؤاد الصباغ (أو الدكتور كعبورة بك كما أطلقت عليه ـ والكعبورة هي العقدة بالعربية الفصحى)، ونائبي الجونيور هي الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد (أو سعدية العصبية كما كانت تُكنى في المستشفى)، واللهم لا اعتراض وحسبي الله ونعم الوكيل.

١- فؤاد بك الصباغ

فؤاد الصباغ ـ كعبورة بك، كان مصابًا بالنرجسية (Narcissism)، والتي تنسب إلى ناريس [٢٨]، ذلك الصياد الذي سقط في عشق صورته لما رآها على صفحة الماء، فلم يستطع الانصراف عنها حتى مات في مكانه. ومثل ناريس، كان الدكتور كعبورة بك يهيم عشقًا بذاته وعبقريته وقدراته العلمية الفذة، فهو رغم أنه فشل في الالتحاق بجامعتنا لتدني معدله في الثانوية العامة إلا بعد أن اضُطر إلى الانتساب لجامعة رومانية أولًا، يلقي باللائمة في ذلك على نظام الامتحانات الفاشل الذي لم يسمح ببزوغ عبقرية عليمة مثله، ولشدة ما صدق الدكتورعكعبورة نفسه، صار يتعامل مع الجميع على أنه أسطورة الطب الحديث والقديم، فهو عالمٌ عليمٌ مُعلمٌ، وأصبح يتيه بعلمه ونفسه ويعامل الجميع بتعالٍ وغطرسةٍ وكِبر، وكان آية ذلك أنه لا يضع أي ألقاب قبل الأسماء، مهما كان شأن صاحبها، بل ويضيف لازمته الشهيرة "اللي اسمه ده"، فمثلًا حين يحدثك عن الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد يقول:

- وجت البت اللي معاك دي اللي اسمها سعدية!

وحين يتكلم عن الأستاذ الدكتور رئيس الوحدة يقول لك:

- وجه اللي اسمه محمود الأبيض ده اللي ماسك رئيس الوحدة!

وطبعًا حسب ميله أو بغضه لشخص ما تضاف للصيغة بعض الأوصاف:

- أنا قلت للحيوان اللي اسمه ممدوح ده يحضر الأكل!

أو: أنا قلت للحمارة اللي اسمها فلانة ديه تولد الحالة!

ويقسم بعض الزملاء على أنهم سمعوه يهاتف زوجته ويقول لها:

- الراجل اللي اسمه فلان ده (أبوها) قال لي هيجيب اللي اسمها فلانه ديه (أمها) ويبجوا يبصوا على اللي اسمه فلان ده (ابنه).

والدكتور كعبورة بك من أشد المخلصين للفرنسي أندريه جيليه André GILLIER الذي أسس شركة "جيل" للملابس الداخلية عام ١٨٢٥ في مدينة ترويس جنوب باريس، فتجده يقضي أغلب وقته مرتديًا أطقم مختلفة من إنتاج مصانع "جيل" الوطنية، ويتنقل بها بين غرف استراحة الأطباء، حيث يقضي أغلب نهاره وجل ليله.

في الحادية عشر صباحًا، يستيقظ كعبورة بك، فيبدأ سيادته يومه بتناول الفطور الذي يحضره "ممدوح الحيوان" العامل المسئول عن سكن الأطباء، والذي يتكون من قرص من البيض ـ مختلس أغلبه من تموين باقي الأطباء، ثم طبق من الجبن الأبيض الممزوج بالطماطم ـ المختلس أيضًا من تموين المريضات ـ يأتي عليه أثناء تصفحه لجرائد اليوم، ثم يشرب كوباً من الشاي الثقيل ماركة "شمتو" المخلوط بنشارة الخشب، ثم سرعان ما يلقى بجسده تحت الدش الساخن، ينهيه بلف شعره

المفلفل بما كان في يوم ما فوطة وجه، ويستخدمها أحيانًا ممدوح الحيوان في تنظيف أرضية الحمامات، ثم يتمطى ويتثاءب، وسرعان ما يندس تحت الغطاء لينام قيلولة الصباح كما يسميها. يستيقظ الدكتور كعبورة بك من جديد بعد ساعتين ليتناول وجبة الغداء، ثم يرتدي ملابسه ويتوجه إلينا في عنبرنا، لأستعرض أمام سيادته أخبار العمل وما أنجزته طوال اليوم، وأخيره بمن سأل عنه من السادة الأساتذة، ثم أعرض عليه الحالات التي نحتجزها بعنبرنا ليقرر سيادته ما هو فاعل بها.

لكن كما قيل في الأثر: "الكعبورة فيه اللي أكعبر منه"..

استمر الدكتور كعبورة بك في هذه النرجسية حتى كان ما كان.....

ففي يوم، زارتني في العيادة الخارجية معلمة لغة عربية تشكو من نزيف رحمي، أرجع تقرير فحص بالموجات فوق صوتية بصحبتها سببه لأورام ليفية حميدة داخل تجويف الرحم. أتممت فحص المريضة، وقدرت أنها ستحتاج لاستئصال رحمها، فهيأت ملفها للعرض على الدكتور كعبورة بك، دون أن اقترح علاجًا بالطبع كما شدد عليَّ سيادته عند بدأ عملي معه.

سردت على سيادته حالة المريضة وتقرير الموجات فوق الصوتية، فقام متثاقلًا وجلس بين ساقيها ليفحصها، فلما انتهى، سحب نفسًا كبيرًا من سيجارته نفثه بين ساقيها، ثم نظر لي نظرة عميقة، وقال وكأنه وقع على طرف الخيط لكشفٍ عظيم:

- الست دي عندها نزيف.

ثم سحب نفسًا آخرا من سيجارته وصرح لي بسر الكشف الأعظم:

- أكيد من تليفات في الرحم.

اجتهدت في رسم الدهشة من هذا الكشف العظيم الذي يدل على العبقرية والنبوغ، ولم تكن بالمهمة الهينة وقد تَنِفتُ من لحظات أذني كعبورة بك بتقرير الموجات فوق الصوتية، والذي شخص المريضة تشخيصًا كاملًا دون الحاجة للتنجيم، فلما فشلت ورأى سيادته وجومي، نفث نفسًا آخرًا من سيجارته بين ساقي المريضة وقال:

- أنا هشيلها الرحم يا بني. أنا هأبلغ اللي اسمه محمود الأبيض ده ونشيلها الرحم!

ثم إلتفت للمعلمة وقال:

- بصي يا ماما أنا هأشيل لك الرحم.

ابتسمت معلمة اللغة العربية وقالت وهي لا تزال مستلقية على سرير الكشف:

- وما ألجأني إليكم إلا استئصال ذلك العليل؟ لقد قررت ذلك منذ اعتل الرحم، وما كنت أحب أن أمضي فيما بقي من حياتي بدونه، على أنني شاكرةٌ له استضافته لأربعةٍ من الأولاد!

جل ما يثير حنق الدكتور كعبورة بك هو أن يبدو عليه عدم الفهم، فنظر لي شزرًا وقال لي:

- بتقول إيه الولية دي يا بني؟

كنت معتادًا على مثل هذه المواقف، فقلت بلهجة فشلت في أن أنزع منها السخرية من غطرسته الشديدة:

- بتقول إنها مقررة تشيله من الأول وعلشان كده جت.

أَرْبَدَّ وجه كعبورة بك وصاح في السيدة قائلًا:

- أنتِ ما تقريش حاجة يا ماما، أنا هنا اللي أقول، فاهمة؟

همت معلمة اللغة العربية بالرد عليه، فضغطت على يدها راجيًا أن تلزم الصمت، لترحم أم رأسي العليلة من جدل عقيم.

انتهي كعبورة بك من فحص باقي الحالات، فقصدنا حجرة السيد الأستاذ الدكتور رئيس الوحدة لإبلاغه بما لدينا، فاعترض طريقنا رجل قصير وبدين وأكرش، بعينين حولاوين وشارب دقيق أسود كأنه مرسوم، يخفي صلعة رأسه بإطالة خصلات شعر فوده الأيسر حتى تعبر إلى الجهة المقابلة مع تثبيتها بالفازلين، ويرتدي بدلة سفاري صيفي أعياني البحث في دليل الألوان عن اسم للونها، مد الرجل يده ليصافحنا وهو يقول:

- مساء الخير، أنا سراج منير أنور عبد النور المحامي في المحاكم الابتدائية والاستئناف والإدارية العليا وحاضر مع زوجتي السيدة آمال شاكر اللي حضراتكم وقعتم الكشف عليها.

مددت يدي ليد الرجل الممدودة أصافحه وأنا أقول:

- أهلًا وسهلًا، خير؟

امتعض الدكتور كعبورة بك وقال لي بحنق وغيظ هو ينهرني:

- أهلًا إيه يا اللي اسمك كريم أنت؟ مين أذن للراجل ده يدخل هنا؟ فين اللي اسمه فرماوي ده (معاون المستشفى)، فين اللي اسمها هدى دي (حكيمة) العنبر، فين الكلاب الأمن؟

لم يبدُ على الرجل أي انزعاج وقال بهدوء وبرود:

- على مهل سعادتك يا دكتور، أنا زوجتي تقرر لها عملية استئصال رحم وأنا..

فقاطعه الدكتور كعبورة بك صائحًا:

- أنت مين أنت علشان تقرر لها استئصال الرحم يا بابا أنت، أنا اللي أقرر مش أنت..

من التكرار كنت قد حفظت هذه المواقف، فانتحيت بالرجل جانبًا وشرحت له كيف أن النائب عليه أن يعرض المريضة على السيد الأستاذ الدكتور رئيس الوحدة، وهو وحده من يقرر طريقة العلاج المثلى، والتي ستكون غالبًا استئصال الرحم في حالة زوجته الفاضلة. مصمص الرجل شفتيه وأزلقنا ببصره وانصرف، وقد بدا عليه أنه يضمر شيئًا ما في نفسه.

قبل العملية بيوم فاجأنا الأستاذ سراج منير في وقت الظهيرة بسؤال:

- لو أذنتم لي حضرات الأطباء، أنا طُلب مني أوقع على إقرار الموافقة على استئصال رحم زوجتي السيدة آمال شاكر، ولفت نظري أنه تضمن إلى جوار الرحم أستئصال أنابيب فالوب وكذلك المبيضين، فلما أحلت الطلب لرأي خبير من الزملاء الأفاضل، نصح باستبقاء مبيض واحد على الأقل لتفادي أعراض انقطاع الهرمونات واللجوء للهرمونات الصناعية بما تُسببه من ضرر.

تلبد الموقف بالغيوم الشديدة، ولم أستطع أن أحتوي الوضع، فإنفجر الدكتور كعبورة بك وقد أَرْبَدَّ وجهه، وبرزت عروق رقبته حتى استحالت خراطيمًا:

- مش من حقك تتدخل في شغلي، أنا اللي أقول نشيل المبيض ولا

نخليه، فاهم يا اللي اسمك بني آدم أنت، ودلوقتي اطلع برة قبل ما أندهلك الأمن يطلعوك بره.

على أن الأستاذ سراج الذي يبدو أنه معتاد على مثل هذه المواقف واكتسب جلده سمكًا إضافيًا مما يراه في المحاكم من إهانات، قال بهدوء يحسد عليه:

- المادة ٢١ من لائحة آداب المهن الطبية الصادرة بقرار وزير الصحة والسكان رقم ٢٣٨ لسنة ٢٠٠٣، وكذلك المادتان ٣ و٦ من قانون المسئولية الطبية تلزم الطبيب بتوفير المعلومات الطبية المتعلقة بحالة المريض للمريض أو أهله إن كان فاقد الأهلية بطريقة مبسطة مفهومة ووافية، والفصل الخامس من قانون العقوبات يعاقب من يخالف ذلك بالحبس لمدة لا تقل عن سنتين ولا تزيد عن خمس سنوات بالإضافة إلى غرامة لا تقل عن خمسين ألف جنيه[٢٩-٣٠].

همست بالكلام لألطف الموقف، لكن الدكتور كعبورة بك جذبني من معطفي ليسكتني، وصاح في المحامي:

- اطلع بره، هاتولي اللي اسمه الأمن يطلع البني آدم ده بره.

في تلك الليلة، عندما كنت في سكن الأطباء مع الدكتور كعبورة بك، وفيما بدا كأنه بهدف الاستفادة من حكمته البالغة وخبرته الطويلة في التعامل مع مثل هذه الحالات، استفهمت منه عن سبب موقفه الفظ من الرجل، فقال لي وهو ينفث دخان سجائره في وجهي:

- يا كريم أنت لسه جديد وماتعرفش تتعامل مع الأشكال الواطية

دي، دول عايزين السك، يعني الحيوان ده اللي اسمه سراج منور ده، هتلاقيه بكتيره سايس قدام قسم ولا محكمة وبيتنطط بكلمتين سمعهم، وولا يقدر يعمل حاجة، آه والله، زي مابقول لك كده.

شعرت نحو محدثي باحتقار شديد، فعقيدتي كانت دائمًا أن المريض من حقه أن يلم بكل تفاصيل أي تدخل سيجري بجسده، ولا أجد غضاضة في بذل الجهد للشرح والإفهام، فبحَسْب المريض خوفه الفطري من الجراحة والألم، على أن نضيف له جهله بطبيعة العلاج.

شردت في أفكاري، والدكتور كعبورة بك منطلق في حديث الذكريات عن مغامراته وبطولاته التي هزم فيها كل المرضى وذويهم، ولم يقطع شرودي وحديثه إلا دخول ممدوح الحيوان عامل السكن المنتهه وهو يقول:

- ففضيه باشا ظابط بره عايزز دكتور فووؤاد بك الصبيباغغ.

فزع الدكتور كعبورة بك عند ذكر اسمه مع اسم الضابط، وأسرع يقول:

- ظابط إيه اللي عايزني يا حيوان؟ قوله مش موجود.

ثم إلتفت لي وقال برجاء وتوسل وحبات عرقٍ منعقدة على جبينه قدرت أنها باردة:

- وحياتك يا دكتور كريم، ممكن لو سمحت تشوف فيه إيه؟

وعلى مدار أسبوع كامل كان يزورنا يوميًا رسول من قسم الشرطة حاملًا استدعاءً جديد للدكتور فؤاد الصباغ؛ في البلاغات المقدمة ضده من السيد سراج منير أنور عبد النور المحامي، والتي بلغت أحد عشر

بلاغًا، تنوعت بين السب والقذف إلى الإتلاف العمدي لجهاز زوجته التناسلي، بخلاف أربع شكاوى في إدارة الجامعة واستغاثة بجريدة الأهرام، كما خُلد اسم الدكتور فؤاد الصباغ عندما نشرت جريدة الجمهورية في عمود "كبسولة" بأحرف من نور قدحاً في سيادته بعد أن رمزت له بـ"ف. ص".

يقول البروفسور اللي اسمه عرابي: لا تكن كقمة الجبل، ترى الناس صغارًا ويراها الناس صغيرة، وإياك والعبث مع صغار المحامين فهؤلاء كالبرغوث، يمتصون دمك وينكدون عليك فرشك.

وتحولت نرجسية الدكتور فؤاد بك الصباغ إلى "اضطراب الكرب التالي للرضخ".

مس سونيا

مس سونيا كانت الممرضة المسئولة عن عهدة العمليات في مستشفانا. اسمها الحقيقي نحمده عليوة، وشهرتها مس سونيا، ورغم أنها لا تحمل بكالوريوس كلية التمريض حتى تحمل لقب "مس"، إلا أنها كانت لا تلقب إلا به.

مس سونيا تاريخها حافل بالخطوب والأحداث، فرغم وجهها الذي يختصم عليه أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة، يحتفظ صوتها بعذوبة مغرية، وعينيها بجرأة ووهج، وحركاتها بميل إلى الاستهتار، وضحكاتها الرنانة بدعوة إلى المجون، ويُحكى أن شبابها في المستشفى كان كله مغامرة لنفسها ولكثير من الناس، فقد كانت تجيد الرقص وتفتن به الأطباء والأساتذة، ولاتزال ذكرى أردافها التي تهتز على دقات الطبلة، ورعشات نهديها المكتظين المحتجبين أحيانًا تحت ضفائرها التي تسدلها عليهما حاضرة في ذاكرة أساتذتنا ومن أسعدهم الحظ بلقاء شباب نحمده عليوة، أو مس سونيا.

مر عامي الأول دون أن أحتك بمس سونيا كثيرًا بحكم ندرة تكليفي

بالأمور الإدارية، أما هي فكانت ترمقني بعينيها الجريئتين كلما مررت بها، وعلى وجهها ابتسامة واثقة، كنت أردها بتحية مختصرة.

٢- سعدية مسعود أسعد السعد

الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد شخصية جميلة رقيقة ودمثة الخلق، علاوة على تعليمها الراقي وخلفيتها الاجتماعية المتميزة، كل هذه الصفات الحميدة وغيرها تخلعها الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد على باب المستشفى للتحول إلى نائبتي الجونيور؛ الدكتورة سعدية العصبية بالشكل الذي سنراها فيه، حتى شكلها يتغير تمامًا، فهي خارج المستشفى ممشوقة القد مليحة الوجه ظمياء العين، يتهدل شعرها الكستنائي على كتفيها برقة ودعة، لكنها ما أن تجتاز بوابة المستشفى، حتى تنتفخ لتأخذ شكلًا أقرب إلى المنطاد الطائر، ويستحيل وجهها مطهم جهم ريان، وجفنها ألخص أبخص، وشفتها هدلاء، وعنقها أغلب، وتبرز من جوانبها طبقات من الدهون والشحوم لتصير فعماء وغيلة خدلاء، درماء المرافق والكعوب، كما يتحول شعرها إلى ما يشبه رأس العبد المستخدمة في مكافحة خيوط العنكبوت في البيوت المصرية، حتى صوتها الرقيق يخشوشن ويتحول إلى نقيق ضفدع ذكر محبط في موسم التزواج.

هل تشكك في قصة تحول الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد؟ سأسوق لك الدليل من قلب التاريخ، إن مثل الدكتورة سعدية في

مستشفانا كمثل الإلهة البقرة "حتحور" عند قدماء الفراعنة، والتي كانت تُعين الناس على حرث الأرض وتدر لهم لبنها سائغًا للشاربين، فلما كفر الناس بنعمة كبير الآلهة آمون؛ كلف البقرة حتحور بتأديبهم فاتخذت حتحور شكل اللبؤة "سخمت"، وأوسعت البشر قتلًا وترويعًا حتى اشتق منها الفعل "يسخمط" للدلالة على الإيذاء البدني البالغ، وخرجت سخمت عن طاعة الإله آمون وبالغت في عقاب البشر حتى اضطر آمون لتحويل نهر النيل إلى خمر لتسكر سخمت وتكف عن التنكيل بهم، فلما أفاقت ندمت وعادت لصورتها الأولى حتحور[٣١].

ذات يوم أجرى رئيس الوحدة الأستاذ الدكتور محمود الأبيض عملية استئصال الرحم لسيدة مسنة من جنوب مصر تدعى أم إسماعيل، هي زوجة حارس العقار الذي يسكنه الدكتور، وبنهاية الجراحة ووصولها إلى حجرتها، تجمع داخل حجرة أم إسماعيل ما يزيد عن عشر نساء وخارجها حوالي الثلاثين رجلًا.

تضجر تمريض العنبر من عدد الزيارة، وخاطبتني رئيسة التمريض تليفونيًا تشكو لي، فطلبت من الدكتورة سعدية التوجه إلى العنبر لحث الزيارة على المغادرة وترك المريضة تخلد للراحة التي تحتاجها بعد العملية، ولم أكن على دراية بعد بطباع الدكتورة سعدية، لكنني شددت عليها أن تصرفهم بالحسنى إكرامًا للدكتور محمود.

وحسب أقوال رئيسة التمريض في التحقيقات، فإن الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد دلفت إلى العنبر وهي متجهمة، واستدعت الممرضات اللاتي هرعن إليها وتوجهن جميعًا إلى حجرة المريضة، حتى إذا ما شققن الصفوف وبلغن أم إسماعيل الراقدة على الفراش؛ وضعت

الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد سماعتها الطبية على صدر المريضة ثم رفعتها وصاحت وهي تلوح بيديها في الهواء:

- كلكم برة، الست بتموت، بتموت، اطلعوا برة، شايفين؟ أهي خلاص بتنازع، لا خلاص، ماتت، ماتت، أهي ماتت أهي.

صرخت النسوة في الحجرة وضربن على صدورهن، ففتحت أم إسماعيل عينيها متسائلةً فقالت لها إحدى النسوة:

- اتشاهدي بسرعة يا أمو إسماعين، أنتِ بتموتي يا أختي.

فابيض وجه المريضة من الذعر ثم أغشي عليها، فانتحبت النسوة وبدأن في اللطم وشق الجلابيب بعد أن حَسبن أنها بالفعل ماتت، فلما فتحت أم اسماعيل عينيها من جديد وسمعت نواحهن سألتهن:

- هو أنا كده أبجى مت؟

فأجابتها إحداهن وهي تصرخ:

- آه يا حبيبتي، مع السلامة يا غالية.

فقالت أم اسماعيل مستغيثة:

- بس أني سمعاكم وشايفاكم كمان.

فقالت المرأة باستنكار:

- يا مَرَه أنت هتعرفي أحسن من الدكتورة، هي قالت إنك مُتي، تلاقيها بس حلاوة روح، بالسلامة يلا يا أختي.

فتح رجل من المتجمعين أمام الحجرة الباب ودس رأسه من الباب متسائلًا عن الخطب - تعرف الشهود عليه فيما بعد على أنه إسماعيل

ابن أم إسماعيل ـ فنعت إليه إحدى النسوة أمه، فصرخ الرجل وسقط مغشيًا عليه، وسرعان ما ساد الهرج والمرج في العنبر، بعد أن بلغ أهل أم إسماعيل أكذوبة وفاتها من مضاعفات الجراحة، فانطلقوا يحطمون زجاج العنبر وأبوابه وأثاثه بنبابيتهم وعصيهم، واندفعت بقية مريضات العنبر وأهاليهن إلى خارج العنبر يلوذون بالفرار وسط الصرخات والعويل.

انتهيت من العمليات، فتوجهت إلى العنبر كي أطمئن على المريضات، لكنني تسمرت على بابه بعد أن راعني حجم الدمار الذي لحق به، فلما زال عني الهلع بعض الشيء، اجتزت بوابة العنبر، فوجدت رئيسة التمريض تهدئ من روع المريضات وممرضات القسم اللاتي كن في حالة انهيار تام، والتي ما أن رأتني حتى هرعت إليّ تستنجد بي وتحكي لي ما كان. تلفت حولي أعاين حجم الدمار وأنا أتابع سرد الريسة لوقائع المعركة، فلما انتهت انتابني القلق على الدكتورة سعدية خوفًا من أن تكون الجموع الغاضبة قد فتكت بها، فزادت رئيسة التمريض مخاوفي بقولها:

- دي كانت جمبي يا دكتور، وأول ما بدأ الصويت، فص ملح وداب، اختفت ومش لاقينها لغاية دلوقتي

فعدت أسألها بقلق:

- وأم إسماعيل فين؟

- جتلها صدمة عصبية، وجم بتوع العناية المركزة أخدوها.

فزاد قلقي وتمتمت بصوت أقرب للهمس:

- ربنا يستر. ثم عدت أسألها:

- حد إتعور؟

فنظرت إليّ بأسى وقالت:

- حداشر مصاب منهم اتنين في حالة خطرة، ده غير أربع ستات من قرايب أم إسماعيل مغمى عليهم جوه في الأودة.

عبرت ردهة العنبر قاصدًا حجرة المريضة مخترقًا شظايا الزجاج وحطام الأبواب المهشمة وعلب الأدوية المتناثرة في كل مكان، فلما بلغت الحجرة وجدت بعض النسوة من أهل أم إسماعيل يحاولن إفاقة امرأة مستلقية على الفراش، فهرعت إليهن وأنا أسألهن عن حالتها. فجأة برزت رأس أعرفها من تحت الفراش، وسرعان ما لحق الجسد الرأس، ووقفت الدكتورة سعدية مسعود أمامي وهي تتفحص الحجرة بحرص وحذر وقد اصفر وجهها، وقالت وهي ترسم ابتسامة لا معنى لها:

- إتأخرت ليه يا كريم؟ أنا مستناك من الصبح، ثم ألقت نظرة عجل على شظايا الزجاج وحطام الأثاث المتناثر على الأرض وقالت بأسف:

- شفت المجانين قرايب الولية الصعيدية دي؟ حاجة أوڤر أوڤر يعني، عايزين نبطل ندخل الأشكال الزبالة دي عنبرنا.

فلما رأت الغضب على وجوه "الأشكال الزبالة" والوجوم على وجهي، جعلت تسعل سعلات قصيرة متكررة، وهي تشد خصلة من شعرها بأناملها، ثم تغمز بعينيها، وترسم دوائر في الهواء بأصابعها، ثم راحت بصوت خفيض تردد:

- بقر بقر، حمير حمير، وأنت عبيط عبيط.

وفجأة توقفت، ونظرت لي وقالت وهي تغادر الغرفة مسرعة:

- يلا، أنا طالعة السكن - استراحة الطبيبات، فيلم الحموات الفاتنات جاي على القناة الأولى دلوقتي، وأنا بموت فيه.

تذكرت أنني كنت قد قرأت أن الموسيقار الشهير فولفغانغ موتسارت قد وصف بأعراض شبيهه، فكان إذا تعرض لضغط عصبي لسبب ما، راح يسعل دون داع، ويكرر حركات عديمة المعنى كحك الجلد أو جذب شعر الحواجب أو فروة الرأس، مع ترديد كلمات عديمة المعنى، أو سباب متواصل متكرر، وقد شُخص لاحقًا بأنه كان يعاني اضطراب الحركة المزمن، والذي يتميز بوجود لوازم حركية أو صوتية في المريض، والذي لا يستطيع التحكم في ما يخرج من ألفاظ، والتي في كثير من الأوقات تكون ألفاظ نابية بذيئة. وهذا الاضطراب معروف "بمتلازمة توريت" [٣١]، التي وصفها الطبيب الفرنسي المغمور حينذاك جورج جيل دي لاتوريت Georges Gilles de la Tourette (١٨٥٩ - ١٩٠٤) في أواخر القرن التاسع عشر، في فتاة كان أهل القرية يحسبون أن أرواحًا شريرة تتلبسها، فتحولها من فتاة وديعة إلى مختلة فاحشة اللسان. الطريف أن الطبيب توريت اشتهر لاحقًا عندما أطلقت إحدى مرضاه الرصاص عليه في عيادته، متهمة إياه أنه قد قام بتنويمها مغناطيسيًا ضد إرادتها، وألقى في روعها أن تقوم بجريمة قتل، وعلى الرغم من تبرئتها أمام المحكمة بعد أن ثبت جنونها فعلًا، إلا أن الطبيب توريت ظل محل نقاش مجتمعي؛ هل يمكن تحت تأثير التنويم المغناطيسي دفع الإنسان إلى ارتكاب جرائم ضد إرادته؟ وأطلقت مئات النكات على الطبيب المسكين، وأُلفت مسرحيات وروايات عن هذه الفكرة، فأصيب توريت بالاكتئاب الشديد، وانتهى الأمر به لاحقًا إلى الموت في أحد المصحات. هل من الممكن أن تكون الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد مصابة

بمتلازمة توريت مثلها مثل الموسيقار موتسارت؟

لكن الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد تخشى أيضًا من تحمل أي مسئولية، وترفض اتخاذ أي قرار مهما كان من صميم عملها، كما ترفض بإباء وشمم التوقيع على أي شيء في ملف المريضة.

فذات يوم كنا المسئولين عن قسم الولادة، وجرى العرف على أن النائب الجونيور يتولى هو مسئولية العنبر أثناء ساعات الليل المتأخرة بدءً من الثانية صباحًا وحتى الثامنة صباحًا قبل أن يسلم العمل لزميل آخر، وفي الثانية صباحًا سلمنا العنبر للدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد، وانصرفت أنا وسينيوري الدكتور كعبورة بك إلى استراحة الأطباء لننال قسطًا من النوم.

سيطرت على الهواجس مما يمكن أن يكون عليه حال عنبر الولادة في مسئولية الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد، لكن سرعان ما غلبني التعب، فنمت نومًا قلقًا رأيت فيه من الكوابيس والخيالات ما أيقظني فزعًا.

نظرت إلى ساعة يدي فوجدتها تشير إلى السادسة صباحًا، فأسرعت أضع علي ثيابي وتوجهت إلى عنبر الولادة، دخلت غرفة التمريض لأفحص ملفات السيدات اللاتي جئن في حالة وضع أثناء الليل، فهالني عدد الملفات على المكتب وقد تجاوز العشرين، نظرت في ملف أول حالة فوجدت أن الدكتورة سعدية قد نقشت بخط لا يقرأ في صفحة التشخيص:

"المريضة في ولادة"

وفي صفحة تعليمات العلاج للتمريض:

"بناءً على أوامر النائب المسئول في مثل هذه الحالات: سماع نبض الجنين وقياس ضغط الدم وحقنة شرجية تنظيفية كل ساعة".

كل ساعة؟؟ حقنة شرجية كل ساعة! نحن نستخدم الحقنة الشرجية التنظيفية مرة واحدة فقط لاستثارة الانقباضات الرحمية علاوة على تفادي التلوث ساعة الولادة، حتي أعتى المجرمين لا يعذبون بحقنة شرجية كل ساعة في السجون؛ وتعليمات النائب المسئول؟ القانون يقول أن الحالة مسئولية الطبيب المناوب.

تفحصت باقي الملفات فوجدت نفس التعليمات ونفس التشخيص لهن جميعًا، خرجت من حجرة التمريض وقصدت حجرة المريضات، لكن ما كدت أفتح الباب حتى وجدت النسوة يصحن في نفس واحد:

- إطلع بره، اللي هيجي هنا هنولع فيه يا ولاد ال.....

أسرعت أغلق الباب، وهرعت إلى الحجرة الثانية فتكرر نفس الأمر:

- أطلعوا بره يا.....

وما كدت أغلق باب الحجرة، حتى وجدت "فتحية" عاملة العنبر تصرخ من أول الردهة:

- يا دكتور، يا دكتور إلحقنا...

فإلتفت نحوها مستفسرًا:

- فيه إيه يا فتحية، التمريض فين والدكتورة سعدية فين؟ والستات دول بيزعقوا كده ليه؟

فأجابت فتحية قائلةً:

- الدكتورة سعدية ما رضتش تعلق لحد محاليل ولا تحميلهم الطلق، وكتبتلهم على حقنة شرجية كل ساعة، فالنسوان إتلموا عليها هي والبنات (تقصد الممرضات) وحبسوهم في الحمام لما النهار يطلع.

عقدت الدهشة لساني لهذا التصرف غير المسبوق، فلما استجمعت قواي قلت:

- إزاي الكلام ده، دول هيودوا نفسهم في داهية.

فقالت فتحية ببراءة:

- يا دكتور، النسوان طيازهم إتهرت.

هل تكون الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد مصابة، علاوة على متلازمة ترويت، بفوبيا الخوف من تحمل المسؤلية Hypengyophobia[٣١]، وهو الخوف المرضي من تحمل المسئولية خشية الفشل؟ شرعت أقرأ عن هذا المرض، فوجدت أن جميع أعراضه بالفعل منطبقة على الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد، ذلك أنه متى كلفت الدكتورة سعدية بأي مسئولية؛ فإن العرق يجرى منها أنهارًا، ويبدو عليها الذعر والرعب، وتكاد تسمع دقات قلبها تقرع كطبول حرب، مع سريان رعشات كثيرة في جسدها. أما ما أثار قلقي فهو ما يقال أن الانسان المصاب بهذا المرض إذا استمر تحت ضغط المسئولية التي يعجز عن تحملها لفترة طويلة، فإنه قد يتحول إلى العنف، مع الآخرين أو مع نفسه، مما قد يؤدي به حتى إلى الانتحار.

عندما وصلت إلى هذه المعلومة، شرد ذهني فرأيت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد وهي تلقم فوهة المسدس لتضع رصاصة في رأسها،

ثم وهي تقف على كرسي في وسط الحجرة وقد لفت رقبتها بأنشوطة حبل تدلى من السقف.

أفقت من شرودي فزعًا، فهرعت إلى الأستاذ الدكتور أشرف فهمي رئيس القسم، العائد لتوه من إعارة في إحدى دول النفط ليتسلم مهام رئاسة القسم، وكان هذا أول لقاء لي به.

أسررت للأستاذ بمخاوفي، وسُقت له أكثر من موقف ودليل على صحة تشخيصي، وشددت على ضرورة حماية الدكتورة سعدية من نفسها بإعفائها من العمل في القسم، ذلك أن تخصصنا مبني على اتخاذ القرارات الحاسمة وتحمل المسئولية. لما انتهيت، ساد صمت ثقيل في الحجرة، وسرعان ما علا صوت دقات قلب الأستاذ أشرف، وتدفق العرق على جبينه، وابيض وجهه حتى صار في لون الثلج، وسرت رعشة في يديه وفي شفتيه، وفجأة نظر إليّ شزرًا وقال:

- وأنت مالك أنت يا أفندي، هو أنت دكتور نفساني؟ فالوطة قوي حضرتك؟ تحول للشئون القانونية للتحقيق في سب وقذف زميلة لك، حيوان حيوان، حمار حمار، اطلع برة.

على باب الحجرة قابلت الأستاذ الدكتور أحمد الصالح، فحكيت له ما كان فانفجر ضاحكًا وقال:

- أحيه عليك يا كيمو! أنت ما تعرفش أن الدكتور أشرف عنده نفس العقدة دي، إلبس بقى يا حلو، ده هينفخك.

اكتفي المحقق بتوجيه اللوم والتوبيخ لي، واكتفيت أنا - رحمة بفتحية العاملة وشرج "النسوان" - بمنع الحقن الشرجية التنظيفية تمامًا في أثناء نوباتجياتي.

مس سونيا

تلاقت مسارات حياتنا أنا ومس سونيا في الأيام الأولى من عامي الثاني، فبحكم عملي كنائب ميد سينيور، صار لزامًا على أن أجري عشرات القيصريات كل يوم، وبطبيعة الحال تستهلك هذه الجراحات مضادات حيوية غالية الثمن وخيوطًا جراحية تأتينا مستوردة من خارج البلاد. لكل جراحة نوع الخيط الملائم لها من حيث سمكه وقابليته للتحلل في الجسم أو البقاء فيه لسنوات، ويتم تعبئة الخيوط بطول محدد فيما نطلق عليه "أمبول الخيط". وللفراعنة تاريخ عريض في استخدام خيوط من الكتان وأوتار الحيوانات لحياكة الجروح، كما اشتهر العالم الأندلسي خلف بن عباس أبو القاسم الزهراوي (٩٣٦ - ١٠١٣ م) بابتكاره خيوطًا من أمعاء الحيوانات التي يمتصها الجسم والتي تستخدم حتى اليوم[٣٤]. تتسلم ممرضات العمليات أمبولات الخيوط كمهدة عليهن، وعليهن مطابقة هذه العهدة على الجراحات التي أجريت، فإذا أجرى النائب قيصرية واستهلك أربعة أمبولات من الخيط، فعليه أن يوقع في ملف المريضة أنه استهلك هذه الأمبولات الأربع.

بعض الحاذقين من النواب كانوا مقتصدين في عدد أمبولات الخيط

التي يستهلكونها، وبعضهم كان مسرفًا يبدد الخيط ويبذره، والأغلبية كانت ما بين هذا وذاك، وفي نهاية الشهر يتم مراجعة عدد الأمبولات ومطابقتها بعهدة نحمده عليوة، أو مس سونيا بقوامها الفتان، وأساور الذهب التي ترصع ذراعيها، وسيارتها الباجيرو الحديثة ذات الدفع الرباعي والإطارات الرياضية وجهاز الملاحة، أو "النافيجيتور".

٣- الصفقة

في صباح أحد الأيام ضرب لي الأستاذ الدكتور محمود الأبيض موعدًا في مكتبه، وبعد التحيات والسؤال عن أحوال العمل والعائلة والاطمئنان على حسن تدريبي. ساد صمت للحظات أنفقتها في تأمل الأستاذ الدكتور محمود الأبيض، فالرجل جميل المحيا رقيق الحاشية يأسر الناظرين إليه بلطفه وعذوبته وهي صفات نادرة في مستشفانا.

ثم تحدث الدكتور محمود قائلًا:

- كريم، البحث بتاعك اللي بعته للجمعية الدولية، زميل في لجنة التقييم بعت يقول لي إنه اتقبل، وهيطلبوك تسافر تقدمه في المؤتمر في تركيا.

تهللت لهذا الخبر السعيد، فكم تاقت نفسي لإقتحام عالم البحوث الإكلينيكية، علاوة على زيارة تركيا، فجرت كلمات الشكر والتقدير على لساني لأستاذي على هذا الخبر الميمون.

لكن الرجل تنحنح واعتدل في مقعده، قبل أن يعتمد على المكتب بمرفقيه ويقول والابتسامة لم تفارقه:

- بص يا كريم يا حبيبي، أنا زي والدك طبعًا وعلشان كده هاطلب منك طلبين.

فلما حدجته بنظرة داعية للمزيد من الإفصاح قال:

- بنتي هتتجوز قريب، وعايزين نسافر أنا والمدام نشوروها من تركيا، أنت عارف بقى الحاجات دي هناك تجنن.

قال جملته الاخيرة والابتسامة تتساقط من شفتيه، فلما وجد وجهي على حاله وشفتاي لم تنبس، بدا له أنني لم أفهم المطلوب، فاختفت الابتسامة من وجهه وقال بلهجة آمرة:

- بص يا بابا، هتحط اسمي على البحث وأنا اللي هاسافر تركيا أقدمه على حساب المؤتمر.

أُسقط في يدي، وفتحت فمي لأعترض، لكن الدكتور الأبيض باغتني بطلبه الثاني، وكأننا فرغنا من طلبه الأول:

- فاضل بقى حد يشيل مصاريف سفر المدام والبنت، شركة فرانس فارما إنترناشيونال بتاعت الأدوية هتتكفل بيهم، بس عايزين نشغل لهم الأدوية بتاعتهم.

ثم التقط ورقة من على مكتبه واستطرد يقول:

- دي لستة الأدوية اللي هم عايزين يخلصوها، كل العيانين عندنا في العنبر والعيادة الخارجية والولادة يتكتب لهم الفيتامين بتاع فرانس فارما ولستة الأدوية دي.

ثم سمعت الدكتور الأبيض يقول وقد رسم ابتسامة واسعة جدًا على وجهه ومد يده يصافحني:

- مرسي قوي يا كريم، أنت ولد ممتاز وأنا مش بنسى أي جميل، يالا همتك بقى، مع السلامة يا حبيبي.

وانطلق قوس عقلي بسرعة حتى أصاب سهمه كبد الحقيقة الوقحة؛ الرجل يطلب مني أن أتنازل له عن بحثي ليشاركني فيه، ويطلب مني أن أصف دواء لا يحتاجه المرضى لينال هو المكافأة. خسيس قح! قلتها في رأسي واستدرت لأخرج من مكتب قاسم بك، تتوج رأسي قرون محجوب أفندي عبد الدايم بطل نجيب محفوظ في رواية القاهرة الجديدة.

كنت أحفظ المادة (٨) من لائحة آداب المهنة عن ظهر قلب: "يحظر على الطبيب طلب أو قبول مكافأة أو أجر من أي نوع كان نظير التعهد أو القيام بوصف أدوية أو أجهزة معينة للمرضى" [٢٩]، لكن باستشارة البروفيسور عرابي أفاد أن "مش بنسى أي جميل" هي صيغة تهديد مهذبة تعني في الحقيقة أني لا أسامح من يرفض لي طلبًا. "طز" وجدتني أقولها كما قالها محجوب أفندي عبد الدايم. عدت للعنبر وشرعت أوصي لكل مرضانا بڤيتامين شركة فرانس فارما إنترناشيونال، كما أرسلت للمؤتمر أطلب زيادة اسم قاسم بك الأستاذ الدكتور محمود الأبيض على بحثي.

في صباح اليوم التالي، استدعاني الدكتور مصطفى أبو الليل المدرس المساعد في القسم، وبعد أن تبادلنا التحيات والسؤال عن أحوال العمل والعائلة والاطمئنان على حسن تدريبي، سعل الرجل سعلتين بصق بعدها عدة مرات من أثر معسل القص الذي يدخنه في ورشة المستشفى ثم قال:

- كيمو، أنت عارف إني هتجوز في نفس وقت مؤتمر الجمعية الدولية اللي في تركيا، والبت خطيبتي مش راضية تطلع جمصة

وعايزة تعمل شهر العسل في إسطنبول.

فلما التحفت بالصمت، استطرد شارحًا:

- شركة حمادتكو إنترناشيونال بتاعت الأدوية هيعزموني أنا وعروستي على المؤتمر، بس لازم يكون لي بحث مقبول زي ما أنت عارف.

ولم ينتظر الدكتور مصطفى جوابًا، بل شرع يكمل:

- وطبعًا لازم نشغل لهم الأدوية بتاعتهم، هم عندهم برشام فيتامين محترم، مش علشان حاجة والله، بص كل عيانين العنبر والعيادة الخارجية والولادة تكتب لهم أدوية شركة حمادتكو.

ثم ربت على كتفي وقال:

- ألف شكر يا كيمو يا جميل، جميلك ده في رقبتي ياض.

مرحبًا وسط اللئام الأقحاح!

قال لي البروفيسور عرابي، أن "جميلك في رقبتي" هذه تعني "خازوق المرة الجاية أنت مش فيه".

"طز" قلتها من جديد، وعدت للعنبر لأضيف أدوية شركة حمادتكو إلى أدوية شركة فرانس فارما لمرضاتا، ولأضيف اسم الدكتور مصطفى أبو الليل إلى بحثي.

في سكن الأطباء وجدت الدكتور فؤاد صباغ كعبورة بك ينتظرني على أحر من الجمر، وما كاد يراني حتى صاح في ممدوح الحيوان عامل السكن أن يحضر الغداء للدكتور كريم. وسرعان ما مد ممدوح الحيوان مائدة

عامرة من طعام لم يكن عندي ذرة شك أنه مختلس بالكامل من مطبخ المستشفى، من لحوم الأبقار المريضة والدجاج النافق والخضراوات الفاسدة. لم يكن من عادة الدكتور كعبورة بك أن يتنازل عن أي طعام، وهو الذي يحمل دائمًا في جيوب معطفه الأبيض أدوات الطعام كاملة؛ سكين وشوكة وملعقة ومجموعة من أعواد تسليك الأسنان، تحسبًا لفرصة اقتناص وجبة طعام زميل أو مريضة، فابتسمت محاولًا أن أحدس ماذا سيكون الطلب الذي جاء كما توقعته:

- شركة أمانتكو للأدوية هتدفع لي أنا واللي اسمها نادية مراتي وبنتي تكاليف رحلة تركيا نحضر المؤتمر، اسمي على بحثك، واكتب فيتامين أمانتكو وده كويس قوي على فكرة وكمان أدويتهم.

كتمت ضحكة كادت تفلت مني، وقلت لكعبورة بك معتذرًا:

- آسف يا دكتور، الدكتور الأبيض والدكتور أبو الليل سبقوك، وحاليًا باكتب اتنين فيتامين واتنين مضاد حيوي واتنين مسكن لكل عيانة لما الغلابة ورموا من روشاتنا.

أَرْبَدَّ وجه الدكتور كعبورة بك، وأسرع يأمر ممدوح الحيوان برفع الطعام ومضى وهو يسب ويلعن.

في مساء اليوم التالي، اتصل بي الدكتور الأبيض في العيادة الخارجية مويخًا، فقد أبلغه الصيدلي القريب من المستشفى بأن أدوية شركة فرانس فارما لم يبع منها اليوم، أكدت لسيادته أني كتبت لكل المرضى أدوية الشركة كما أمر سيادته ووعدته بتحري الأمر. لاحقًا اتصل الدكتور أبو الليل ثائرًا غاضبًا شاكيًا لنفس السبب، فوعدته ببحث المشكلة.

هرولت إلى العنبر، فوجدت كعبورة بك جالسًا إلى مكتب وضعه

على باب العنبر، ويقوم باستبدال كل روشتات المرضى بأخرى فيها أدوية شركة أمانتكو، عبثًا حاولت أن أفهمه خطورة تصرفه، لكنه أصر على موقفه، كانت تركيا تزغلل عينيه، خاصة وقد سيطرت عليه فكرة أن الصباغ عائلة أصولها تركية واسعة الثراء، وأنه قد يكون قد ورث عنها بعض هذا الثراء.

هرعت للبروفيسور عرابي أستشيره، فغاب في دخان أرجيلته الأزرق، ثم نهض فجأة، وأحضر طاولة خشبية وكرسيًا وأسرع يضعهما على باب المستشفى المواجه للصيدلية، وأحضر دفتر روشتات وأشار على بالجلوس لاستبدال الروشتات المستبدلة.

فلما كان مساء اليوم التالي، تكررت شكوى الأستاذ الدكتور الأبيض والدكتور أبو الليل من قلة المصروف من الأدوية، فهرولت إلى الصيدلية لأجد الدكتور كعبورة بك قد جلس على رصيف الصيدلية ليستبدل الروشتات المستبدلة من بعد استبدالها.

كان وعائي طافحًا بما فيه من قرف من الموضوع برمته، ففكرت في الانصراف، لكنني آثرت أن أجلس داخل الصيدلية كما أشار على البروفيسور عرابي لاستبدل المستبدل.

استمرت لعبة القط والفأر هذه لمدة قاربت الأسبوعين، حتى تنفس صباح يوم استدعاني فيه الأستاذ الدكتور والشرر يتطاير من عينيه، وقد زال عنه رقة الحاشية وجمال المحيا، وانطلق يتوعدني بضياع مستقبلي، فخطرت لي خطة ألمعية للخروج من المأزق:

- الصيدلي يا بك هو اللي بيبدل الدوا للعيانين، حضرتك عارف إن فيه شركات بتدي ٢٠٪ زيادة على الدوا للصيدلي، يعني على كل

١٠٠ علبة ياخد ٢٠ زيادة ببلاش وده شيء مغري لهم جدًا.

ولتعضيد حجتي أخرجت له روشتات عاد بها المرضى بعد أن استبدلها كعبورة بك، وقدمتها له وأنا اقول:

- شوف سعادتك، أنا بكتب أدوية فرانس فارما، يقوم الصيدلي يديهم أدوية أمانتكو علشان أرخص وعليها بونص وهو مستفيد.

وانطلت الخدعة على الأستاذ الدكتور محمود الأبيض، ومع عجزه عن التدخل عند الصيدلي خشية افتضاح أمره والتعريض بسمعته، اكتفي سيادته بصب اللعنات والسباب على الصيدلي. تكرر الأمر مع الدكتور مصطفى أبو الليل، فسقت له نفس التبرير وانطلت عليه الحيلة، فأبدع في سباب أم الصيدلي وذويه. ثم همّ الدكتور كعبورة بك بتكديري عقابًا لي على ضياع رحلة تركيا عليه، فحكيت له ما كان مع الدكتورين محمود الأبيض ومصطفي أبو الليل، فأفاق من غمة الطمع وهد لي أنني لم أشي به، ولم يحقق أي من المتنافسين الثلاثة النسبة المطلوب بيعها من الدواء كي تتكفل شركات الأدوية بسفرهم إلى الخارج، فأسرعت أزيل أسماءهم من على بحثي، وأستعد للسفر إلى تركيا على نفقة المؤتمر، مصطحبًا زوجتي التي تكفلت شركة شبرامنت لصناعة الصابون بمصاريفها، بعد أن كتبت على روشتة منفصلة صابون التشطيف المهبلي الذي تنتجه الشركة لكل مريضاتنا وأزواجهن وذويهن وكل عابر سبيل لمستشفانا ومحطة غسيل السيارات المجاورة لمستشفانا طوال فترة المنافسة.

مس سونيا

مالت على سهير حكيمة العمليات وأنا أجري جراحة قيصرية، وهمست في أذني "مس سونيا بتقول لك خلي أهل العيانين دولي يشتروا المضاد الحيوى علشان خلص من عندها".

هززت رأسي موافقًا، كان من المعتاد أن تعاني مستشفانا بين الوقت والآخر من نقص في الأدوية أو المستلزمات الجراحية من خيوط وشريط لاصق وقطن طبي، ونضطر إلى مطالبة أهالي المريضات بشراء المستلزمات الناقصة.

في اليوم التالي، مالت على تحية حكيمة العمليات وهمست في أذني وأنا أجري جراحة قيصرية "مس سونيا بتقول لك خلي أهل العيانة دي يشتروا أمبولات خيط علشان هم متريشين ومقتدرين"، هززت رأسي رافضًا التفرقة بين المرضى، انتهيت من الجراحة وفحصت تذكرة المريضة، فوجدت تحية قد زورت توقيعي على كشف مستهلكات المريضة ضاعفت فيه عدد أمبولات الخيط التي استخدمتها فيها، فهرعت إلى السيد وكيل المستشفى، لتقديم بلاغ في تحية اتهمها بالسرقة والتزوير. وقعت على البلاغ وعدت إلى العمليات أستأنف العمل، لحظات وشعرت بدفء

لذيذ في ظهري قدرت مصدره بأنه نهدين طريين ممتلئين قد التصقا به، التفت فرأيت مس سونيا وقد ألصقت جسدها بظهري، رمقتها بدهشة، فابتسمت وهمست في أذني:

- بعد ما تخلص، عايزاك تشرب نسكافيه معايا في مكتبي، هستناك.

٤- حدثني عن التعقيم: الأسطى حِرَاجي

ولأن مستشفانا الجامعي يطل على كورنيش مدينتنا بواجهة كبيرة، ولأن طريق الكورنيش هو الطريق الرئيسي الذي تسلكه مواكب المسؤلين والرؤساء، فقد قرر الأستاذ الدكتور خليفة الخلفاوي، مدير إدارة المستشفى والطامح في تبوء منصب عميد الكلية، تطوير الواجهة، فرصد مبلغاً ضخماً ابتلع أغلب ميزانية المستشفى. بدأ العمل ونُصِبت السقالات على واجهة المستشفى مما اقتضى نزع وحدات التبريد الخاصة بأجهزة تكييف الهواء والمثبتة على الجدران الخارجية.

في موسم الصيف، تتوافد المريضات اللاتي يحتجن لتدخل جراحي على مستشفانا، للاستفادة من موسم الإجازة الدراسية قبل أن تنشغل الأمهات مع أطفالهن في العام الدراسي، ومع نزع التكييفات واشتداد لظى صيف مدينتنا المشبع بالرطوبة وزيادة عدد الجراحات، بدا الأمر وكأن مستشفانا قد تحولت إلى هولوكوست للأطباء والمريضات!

وذات يوم كنا قد أعددنا مجموعة كبيرة من المريضات ممن تتطلب حالتهن التدخل الجراحي أو ما يعرف بـ "لستة عمليات". بدأنا العمل منذ الصباح الباكر، تحديًا للحر مع عدم وجود مكيفات الهواء وضرورة

غلق النوافذ لدواعي التعقيم. الدكتور أحمد إسماعيل، الأستاذ المساعد بالقسم، كان قد عاد لتوه من بعثة في إسكتلندا استغرقت خمس سنوات، ختمها بالحج إلى بيت الله الحرام، وقرر بعده أن يمتنع تمامًا عن استخدام أي ألفاظ بذيئة بعد أن تطهر من ذنوبه كلها، وكانت هذه خسارة فادحة لأن سيادته كان معجمًا في السباب، بل ومن المجددين المبدعين في ابتكار مصطلحاته. تعقمت مع الدكتور أحمد إسماعيل، وكانت المريضة سيدة سمينة جدًا فاستعنا بطبيب امتياز ليرفع لنا جدار البطن أثناء إستئصال الرحم. مر الوقت والحالة "معقرة" وكدنا نختنق من الحر فصاح الدكتور أحمد إسماعيل:

- هو التكييف مش شغال ليه يا خوا....يا دكاترة؟

فشرحت له ما فعله الدكتور خليفة الخلفاوي، فأجابني:

- الله يح.....يسامحكم، طب دي حالة تدخل في جو زي ده؟ يا مدام سنية (رئيسة حكيمات العمليات) افتحيلنا الشباك الله يكرمك.

مدام سنية امرأة خمسينية شحيحة الجمال، غادرها قطار الشباب منذ أمد بعيد دون أن تتزوج، فقررت أن تستثمر الباقي من عمرها في تربية صدرها وأردافها، وما يتبقى لها من ثروة تضعها في أساور ذهبية تحيط بها معصمها. سمعت مدام سنية صوت الدكتور أحمد، فدلف بعض بعضها من باب غرفة العمليات، فأدخلت أولًا أساورها، ثم صدرها ثم جذعها وبعد قليل تبعتها أردافها الكبيرة، فلما استقر كل كلها في حجره العمليات، ألصقت صدرها بظهر الدكتور أحمد إسماعيل وقالت وهي ما زالت تلوك إصبع محشي الكرنب:

- عيوني، عايز إيه يا دكتور أحا؟

عاد دكتور أحمد يقول بهدوء مفتعل:

- افتحيلنا الشباك الله لا يسيئك...

فضربت مدام سنية صدرها بيدها محدثة هزة عنيفة في نهديها تبعتها موجات اهتزازية في باقي جسدها المترهل:

- يا لهوى، طب والسبتكة - تقصد تلوث الجروح - يا دكتر أحا!

أزبَدَّ وجه الدكتور أحمد وقال بصوت فشل في جعله طبيعيًا:

- يا بت الشر.....الناس الأمراء، إحنا عرفنا والمحشي بتاعك هو اللي هيوسخ الجرح، افتحي الله يكرمك.

فمضت مدام سنية تتدحرج حتى فتحت النوافذ وانطلقت نسائم البحر تطفئ حرنا!

مر الوقت بطيئًا ثم سمعنا ضجة من خارج الحجرة، وسرعان ما انفرج الباب عن الأستاذ الدكتور خليفة الخلفاوي برفقة مساعديه وطاقم الإداريين، قد جاءوا لتفقد سير العمل في واجهة المستشفى.

نظر الدكتور الخلفاوي إلينا ثم قال بغير اكتراث:

- كملوا يا دكاترة أنا هابص بس بسرعة.

فلما رأى الذهول على وجوهنا من دخول سيادته ومرافقيه إلى غرفة العمليات بملابسهم الخارجية مكتفين بوضع كمامة على وجوههم وغطاء بلاستيكي على رؤسهم (أوفرهد) وأحذيتهم (أوفرشوز)، قام سيادته بالتنبيه على مرافقيه بعدم لمس أي شيء في الحجرة، ثم ألقى نظرة

متعجلة على الواجهة، استدار بعدها وانصرف هو ومرافقوه.

ظهر الغضب على وجه الدكتور أحمد إسماعيل وبدا أنه يصارع ليوقف كلمات كادت تخرج من فمه، وعدنا للعمل. فجأة وجدت عيني الدكتور أحمد - الذي كان مواجهًا للنافذة - محدقتان من الذهول وسمعت صوتًا أجشًا من خلفي يصيح:

- شد يا براهيم شد يخرج أبو اللي جابوك يا ابن الكلب...

التفت خلفي فوجدت أحد العمال قد دخل غرفة العمليات بظهره ومعه حبل.

دكتور أحمد قال بوجوم:

- وده إيه ده، مين ميتين أم ال..... إنت مين يا حاج؟

التفت الرجل وألقى علينا نظرة سريعة، ثم عدل لبادة يغطي بها رأسه، وقال ببنبرة غير عابئة:

- أني عمك الأسطى حراجي ريس العمال يا ولدي.

استشف الدكتور أحمد في قول الأسطى حراجي لا مبالاة أثارت غضبه، فانقبض وجهه وبكثير من ضبط النفس قال:

- طب هنا عمليات ياحاج حراجي، يعني ما ينفعش تدخل كده، اتفضل لوسمحت من هنا.

هز الأسطى حراجي كتفيه وقال بعدم اكتراث:

- إيوه يابا حاضر.

ضغط دكتور أحمد على أسنانه وقال بحنق:

- يابا ده إيه يا بن الع.....؟ استغفر الله العظيم، طب اتفضل يا حاج.

خرج الرجل من النافذة واستأنفنا العمل. مرت خمس دقائق ثم سمعنا صوت الأسطى حراجي الأجش مرة أخرى:

- ما تشد عاد، جطر يلهفك، شد يلعن أبو اللي جابك يا بن الكلب.

قاطعه الدكتور أحمد والشرر يتطاير من عينيه وقال:

- يا بن دين ال..... يا حاج، يا بونا، يا عم حراجي، ما ينفعش كده.

ترك الرجل الحبل واستدار وتقدم في اتجاهنا، فصِحتُ فيه بذعر:

- ارجع، ماتجيش هنا، اوعى تلمس حاجة، الأدوات معقمة، ارجع.

تردد الأسطى حراجي لحظات ثم هرش في رأسه، وماكاد يستدير ليخرج من حيث أتى حتى توقف من جديد، والتفت إلينا وقال:

- طب طب همشي أهوه، أنتم زرزارين كد ليه؟ بس حوشوا اللي وجع منكم.

وانحنى الرجل والتقط ملقاطًا جراحيًا كان قد سقط دون قصد منا على الأرض، وطوحه على طاولة الآلات المعقمة، فصرخت الممرضة:

- ياحمار يا غبي، بوظت التعقيم الله يخرب بيت أهلك.

انزعج الرجل من صياح الممرضة، فاقترب منها وربت على كتفها وقال:

- معلهش يا بتي، متزعليش مني بس ليه الغلط ديه؟ داني جد بوكى عاد.

فصرخت الممرضة:

- بوظت تعقيمي أنا كمان يخرب بيت اللي جابوك.

وبخنا الأسطى حراجي وطردناه، وانصرفت الممرضة لإعادة تعقيم ثيابها وتغيير مجموعة الآلات، واستأنفنا العمل بعد نصف الساعة. طبيب الامتياز اعتذر عن الاستمرار عن رفع جدار بطن المريضة بحجة الإجهاد، فاستبدلناه بطبيب امتياز آخر نحيف هزيل ضعيف خانته عضلاته في رفع جدار بطن المريضة، فاستشاط الدكتور أحمد غضبًا وقال له:

- ربنا يكرمك يا دكتور إجمد بس شوية وإن شاء الله هانت، ربنا يـ يـ يكرمكم إن شاء الله

ثم بدأت عضلات بطن المريضة في الانقباض فطلبنا من نائبه التخدير - وكانت خرقاء - حقنها بالمزيد من عقار ترخية العضلات فرفضت وقالت:

- لا أخاف أديها جرعة تانية، دي واخدة "الماكزيمم دوز"! انتو اللي طولتوا أوي، أفففففف!!

بصعوبة بالغة خلصنا الرحم من الالتصاقات، وبلغنا أهم خطوة وهي ربط الشرايين والأوردة المغذية للرحم ثم استئصاله مع تجنب ربط الحالب (القناة التي توصل البول من الكلى إلى المثانة)، ساد السكون التام في الحجرة، وانصب تركيزنا داخل الجرح، لكن فجأة، سمعنا صياح الدكتور خليفة الخلفاوي من وراء باب الحجرة الموصد، ثم رأيناه يقتحم

الحجرة ثائرًا، دون أن يتكلف عناء وضع غطاء الرأس ولا الحذاء هذه المرة، وبصحبته عامل فهمنا من ثورته عليه وتوبيخه له أنه الكهربائي، وقبل أن ينطق الدكتور أحمد، انصرف الدكتور خليفة بعد أن صفع الباب خلفه.

ساد الحجرة صمت ثقيل من جديد، وكتم الكل أنفاسهم للحظة الحرجة، وفجأة وجدنا الأسطى حراجي ممسكًا بأكتاف دكتور أحمد ويقول له:

- أمانة عليك ماتكون زعلان يا شيخ، دا جالولي إنك هتجطع عيشي وتخرب بيتي، حجك عليا يابوي، وآدي راسك أبوسها.

ألقى دكتور أحمد بالمقص والملقاط على الأرض، ودفع الأسطى حراجي في صدره، وخلع الكمامة و"الأوفرهد" وأطلق لسانه يسب سبابًا فاحشًا مغلولًا معباً بالغضب:

- لا بقى في داهية أم دي حجة، يلعن أبوك على أبو اللي جابك على أبوكم على أبو خليفة الخلفاوي على أبو العيانة على أبو العمليات على أبو دي جامعة وسخة، ده أنت ابن كلب جزمة يلعن أبو اللي.....

واستمر يسب ويلعن في الأسطى حراجي حتى أزاحوا الرجل من أمامه.

يعتقد الناس أن طبيعة عمل أطباء النساء هي ما يُسقط عنهم حجاب الحياء ويكسبهم بذاءة اللسان، لكنني أزعم أن غياب بديهيات ساحة العمل السليم في وقت توضع فيه أرواح الناس بين أيدي الأطباء هو ما

يكسب أطباء النساء والتوليد في عالمنا العربي فحش اللسان اللازم لضمان سير العمل على الوجه الصحيح.

المهم أن الدكتور أحمد إسماعيل قد عاد كسابق عهده معجزًا ومبدعًا في فن السباب وفحش اللسان!

مس سونيا

تنفس النهار وانتهيت من إجراء آخر جراحة قيصرية، فراجعت بيان المستهلكات من خيوط ومضاد حيوي ومستلزمات تخدير، ووجدتها مطابقة لما استخدمته، فمهرته بتوقيعي، ومضيت إلى غرفة تغيير الملابس وعقلي لا يكف عن التفكير، ماذا تريد مس سونيا مني؟ تذكرت نهديها الطريين في ظهري وشعوري اللطيف بهما، وراودتني نفسي في الذهاب إليها، لكن سرعان ما قفز خاطر في ذهني؛ هل يليق أن أذهب إليها في مكتبها؟ رسميًا لا يوجد سبب لتواجدي فيه معها، وشيء ما بداخلي لا يرتاح لها ولا يأمن مكرها، فقصصها التي تملأ أروقة المستشفى عمن أغوت ومن سحرت ومن عاقبت، تجعل الذهاب إليها مغامرة غير محمودة العواقب.

مضيت أنزع بدلة العمليات وأضع ملابسي وأنا شارد، حتى إذا ما انتهيت، أشعت فكرة في رأسي، سأنسل من غرفة العمليات دون أن يلحظني أحد، وأخلف ميعادي مع مس سونيا بدعوى إستدعائي لمكتب رئيس القسم.

استدرت لأنفذ خطتي وحواسي مشحوذة كسكين، لكنني ما أن استدرت حتى تجمدت في مكاني، فقد وجدت مس سونيا تقف بالباب صامتة وعيناها مسددتان لي. لا أدري كم من الوقت مر وهي تقف هناك بثوب برتقالي قصير يشف في مواضع كثيرة ويصف في أخرى، ولا أدري إن كانت قد حضرتني وأنا أستبدل ملابسي، فقط شعرت بالعرق البارد يجري على ظهري.

تحركت هي نحوي، ووجدتني أستسلم ليدها الممدوة وأصحبها إلى حجرة مكتبها، وعندما غادرت حجرتها بعد ذلك، كنت أدرك بأن أيامي في المستشفى أبدًا لن تكون كما مضت.

٥- محمود الهادي

في يوم شتوي غائم، وقع خلاف شديد وتلاسن بين الأستاذ الدكتور حسنين الطويل (رب حميدة وهايدي) وزميلتنا النائبة نرجس عبده بعد اتهامه لها بالتسبب في وفاة مريضة كان سيادته قد أوصى عليها، وعلى أثر هذا الخلاف، أصدرت إدارة المستشفى قرارًا بمعاقبة زميلتنا النائبة نرجس عبده بمنعها من دخول عنابر المستشفى أو حجرات العمليات، وتم ابتداع وظيفة جديدة لها كطبيبة في قسم استقبال المستشفى بدلًا من أطباء الامتياز، وإمعاناً في عقابها، أصبح لزامًا عليها التواجد في الاستقبال أيامًا كاملة دون راحة، وعُين لها مراقبٌ خاصٌ هو سائق الأستاذ الدكتور حسنين الطويل ليكون كظلها، مهمته إبلاغ الإدارة حال تحركها من مكان عملها. لكن الحقيقة مصائب قوم عند قوم كلها فوائد، فقد اختفي طبيب الامتياز عديم الخبرة الذي يتحذلق بتشخيصات خاطئة، واستبدل بنائبة مخضرمة تقوم بالتشخيص الصحيح بل وتحدد العلاج المطلوب.

وذات يوم كنت نوباتجي عنبر الولادة فأُبلغت عن حالة محولة من نرجس عبده، قد وضعت (المريضة لا النائبة) وعَلِقَت المشيمة داخل الرحم مسببة نزيفًا حادًا، ولسوء حالة المريضة بادرت نرجس بإرسالها

رأسًا إلى غرفة العمليات، وأرسلت في طلب الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد التي تمتلصت منها، وأرسلت طبيب امتياز في استدعائي من العنبر على عجل لمناظرة الحالة.

وفي وسط الهرج والمرج استغلق على طبيب الامتياز فهم الحالة بدقة، فأبلغني بأن المريضة قد وضعت مولودها في عيادة ريفية، وفشلت جهود إخراج المشيمة العالقة فحولت إلينا. أسرعت إلى العمليات، فوجدت رجلًا مهيبًا على بابها، ممشوق القامة أبيض البشرة أزرق العينين أشم الأنف رقيق الفم، شعر رأسه تسللت إليه شعيرات بيضاء بينما سبقته لحيته في التحول الكامل إلى لون المشيب، وقد وضع على عينيه نظارة طبية دون إطار.

رمقني الرجل وفطن إلى أني النائب المسئول فقال بلهجة آمرة:

- بسرعة الست جوه، العيل نزل خلاص بس المشيمة واللي حوليها مرضوش ينزلوا ونزفت كتير!

كنت قد اعتدت على لغة الزملاء من الأرياف الذين يُعَرِّبُونَ المصطلحات العلمية خوفًا من سوء نطقهم للإنجليزية، فهززت رأسي وحدثتني نفسي قائلةً "مش قد الولادة بتوليدوا ليه؟ ما تحولوهم على حد بيفهم"، وكما جرت العادة عند حضور الزميل الطبيب المعالج مع حالته يسمح له بالتواجد داخل العمليات، فأشرت للزميل إلى غرفة تغيير الملابس وتصنعت ابتسامة صفراء على وجهي وقلت له:

- اتفضل سيادتك غَيِّر هدومك واتفضل، الباب من هنا.

أتممت التعقيم على عجل، وبدأت في إنزال المشيمة وتنظيف الرحم.

عادةً في مثل هذه الحالات يكون مجرى الولادة قد تهتك وامتلأ بالجروح والتمزقات بفعل محاولات الطبيب الأخرق إنزال المشيمة عنوة، لكنني فوجئت بخلو المريضة من أي تهتكات، وما أن انتهيت من إنزال المشيمة حتى توقف النزيف تمامًا. لحظات وانضم لي الزميل فأشفقت عليه من حرج موقفه ولم أستبعد اتهام أهل المريضة له بالجهل، بل وقد يتقدمون بشكوى في حقه للنقابة، وندمت على سوء ظني بالزميل فهششت له وقلت:

- تسلم إيدك والله الست زي الفل لولاش بس المشيمة عصلجت!

أطرق الزميل، فصممت على الشد من أزره، ومضيت أعرض عليه مجرى الولادة وعنق الرحم وفتحة المثانة ثم العجان وأنا أتمتم:

- بص كله تمام، والله كلنا عرضة للموقف ده، يا ما الواحد شاف هنا، أساتذة وبيحصل معاهم أكتر من كده.

أجاب الرجل بوجوم:

- ربنا ييستر.

قالها بصوت مهزوز أثار ألمي، ورأيته في قفص العدالة وقد احتشدت قريته يقضها وقضيضها لينالوا منه ومن سمعته، فازددت تصميمًا على ذبح طائر الخوف في نفسه:

- وحياة النبي بتحصل، هنروح بعيد ليه؟ عارف حضرتك، لسه الدكتور سمير الفار مموت عيل من كام يوم، آه والله زي ما بقول لك كده، الواد علق في الحوض وما رضاش ينزل، والدكتور سمير بدل ما يفتح عليه قيصري قعد يلف حوالين نفسه، ويدعي

ويشد في العيل علشان يطلع، وحط عليه شفاط وملقاط "جفت" لحد العيل ما مات والأم اتهربدت، قعدنا والله نخيط فيها ساعة، يعني بجد حضرتك تسلم إيديك.

فابتسم الزميل ومضى يهز رأسه ويقول:

- لاحول ولا قوة إلا بالله.. والله الحمد لله، كله بتوفيق ربنا وستره.

وسرعان ما أتت أكياس الدم وبدأ طبيب التخدير في نقله للمريضة لتعويضها عما فقدته، وطمأننا إلى أن حالة المريضة مستقرة، فبدت مني التفاتة للزميل وقلت له:

- اطمن كله تمام، هنحطها تحت الملاحظة ونبقى نطمن حضرتك، سيبلنا بس نمرة العيادة وأنا هبقى أطمنك.

فانقبض وجه الزميل وقال:

- لأه يا دكتور عيادة إيه؟

ندمت من جديد على تسرعي، فلعل الرجل لم يوفق إلى إنشاء عيادة خاصة به، فاستدركت أقول:

- آسف، قصدي حضرتك المستوصف أو الوحدة.

فقال الزميل بارتياع:

- لا يا دكتور أنت مش فاهم.

ثم أردف يقول وهو يتصبب عرقًا:

- أنا محمود الهادى يا دكتور.

ساد السكون من حولي فرحت أنصت لهسيس الصمت، ثم تضاربت في رأسي التخمينات واستغلق على الفهم؛ هل هو أحد مشاهير الطب الذي ينبغي أن أعرفه مثلًا، فقلت له:

- أنا آسف، اعذرني، بس أنا ما اتشرفتش بحضرتك قبل كده، أنا أصلي لسه في سنين النيابة.

ازدرد الرجل ريقه بصعوبه واستدرك في تلعثم وانشداه:

- أنا محمود الهادي يا دكتور، ليسانس آداب قسم حضارات منقرضة.

رمقت الزميل بعين داهشة وازدادت حيرتي فعدت أسأله:

- ماشاء الله يعني بكالوريوس طب وليسانس أداب؟ عندنا أستاذ كده، معاه بكالريوس طب وليسانس حقوق.

فقال الرجل:

- لا أنا معايا ليسانس الحضارات المنقرضة بس.

فسألته دون تفكير:

- وبتولد الست إزاي يا دكتور محمود بليسانس الحضارات المنقرضة؟

تراجع الدكتور محمود إلى الخلف وقد أدرك أن المسألة لها وجه آخر وقد تورط في خطأ جسيم، وقال قبل أن يطلق ساقيه للريح:

- يا دكتور أنا محمود سواق التاكسي اللي الست دي ولدت فيه، لما لقيتها بتنزف جبتها على هنا، والدكتورة الطويلة اللي بره قالت لي

خليك معاها علشان لو عازوا بياناتك.

يبدو أنني قد هششت وبششت في وجه سائق تاكسي!

في المساء التقط البروفسور عرابي عوده وأنشد طقطوقة ارتجلها عندما سمع قصتي:

ابن كارك ألد أعدائك، يتمنى لك كل شر ومكروه

لما تشوفه إياك تديله إلا بوز قرف وكبر ونفور

ده أنت أن ابتسمت له سعى يلبسك يا حلو أكبر خوازيق

وده مين أدراك يا كرودية أنه حتى ابن كارك بحق وحقيق

وفي صباح اليوم التالي، مثلت أمام معتز منصور وكيل النيابة للتحقيق في البلاغ المقدم من المريضة بانتهاك خصوصيتها بعد أن عرضت إحليلها ويظرها ومهبلها وعجانها وعنق رحمها على محمود الهادي سائق التاكسي، وفي المساء مثلت أمام السيد رئيس الشئون القانونية للتحقيق في البلاغ المقدم من الأستاذ الدكتور سمير الفار بالسب والتعريض وادعاء قتل مولود بعد أن وشت بي إحدى حكيمات العمليات.

مس سونيا

عندما دلفت إلى حجرة مكتب مس سونيا، وجدتها حجرة صغيرة مغلقة النوافذ أسدلت عليها ستائر حمرتها قانية في لون النبيذ، وقد طليت حوائطها بلون أزرق زرقة السماء، ويتوسطها مكتب صغير وضع أمامه مقعدان من جلد قرنفلي اللون، وفي الجهة المقابلة وضعت كنبة جلدية كبيرة تكفي ليتمدد عليها شخص ولا يتناسب حجمها مع صغر حجم الغرفة، وفي طرف الحجرة لمحت ثلاجة مكتب صغيرة وسمعت أزيزًا خفيفًا مما يند عن جهاز تكييف. قطعًا يُنتظر مني أن أصف كيف كانت هيئة مس سونيا في هذا اللقاء، لكن كيف أصفها وأنا أمقتها وأبغضها؟ ربما سأكتفي بالقول أنها بذلت جهدًا واضحًا لتكون مثيرة فاتنة، ونجحت في مبغاها بما كشفت وبما حجبت وبشذى ما تطيبت به، فقط سأشير إلى ما أثار عجبي، فقد اكتشفت من قميصها الذي شف وحده، ما بدا لي كوشمين على شكل رأس أفعى قد رسما بمنتصف كل ثدي، وقد جُعل لسان الأفعى هو نفسه قمة النهد. صحيح أنه كان اكتشافًا مثيرًا، وأنا ممن يفتنهم عالم الوشم ويسحرهم، لكن قلبي قد انقبض لمن تُرضع سم أفعى.

فلما تحدثت مس سونيا، علمت أن ما رُسِم على نهديها ما هما إلا صغار الأفعى الكبرى.

٦- قانون بلبل في الإجهاض

طبقًا لمسح أجراه صندوق الأمم المتحدة للسكان عام ٢٠٠٨، فإن ١٤٪ من الحمل في مصر لم يكن مخططًا، و٩٪ منه كان حمل غير مرغوب فيه، و٥٪ كان في توقيت غير مناسب [٣٥].

وقد انتشر الإجهاض العمدي منذ قديم الأزل، يقول أفلاطون (٣٤٨ ق.م) في كتابه الجمهورية "إن تعليم الطفل ينبغي أن يبدأ قبل الميلاد، مما يعني أنه ينبغي للطفل أن يولد في مناخ صحي مختار، ومن ثم فإن الأصحاء فقط من الرجال والنساء هم الذين ينبغي أن يكون لهم أبناء، وما يأتي في غير ذلك ينبغي التخلص منه".

ويقول أرسطو (٣٤٤ق.م) "الزوجة التي يحدث لها حمل ولديها العدد المفروض من الأبناء فإنه يحسن التخلص من هذا الحمل" [٣٦].

لكن الكنيسة الأرثوذكسية، وقديمًا الكاثوليكية، ترفض الإجهاض العمدي منذ إنشائها، وتقول قوانين الآباء والمجامع المقدسة بأن من يشارك فيه قاتل. ويقول القانون ٩١ من مجمع ترولو (٦٩٢) "سيادة الأب جبرائيل نداف: إن النساء اللواتي يعطين عقاقير لإسقاط الجنين

واللواتي يأخذن السموم لقتل الجنين يقعن تحت قصاص القتلة". كما أوصى القديس باسيليوس الكبير (٣٧٩) في القانون الثاني من مجموعة قوانينه" ليُفرض على المرأة التي تقوم بعملية إجهاض مدة ١٠ سنوات في التوبة سواء أكان الجنين تام التكوين أو لم يكن". وفي قوانين الديداكية (وهي مجموعة قوانين من التشريع الكنسي من القرن الأول الميلادي ومشهورة بتعليم الرسل أو تعليم الرب للأمم بواسطة الاثني عشر رسولًا) "لا تقتل طفلًا بالإجهاض ولا تقتل طفلًا حديث الميلاد" [٣٧]. وكان رأي قداسة البابا شنودة "لاشك أن إجهاض الجنين عملية قتل، وليس من حقنا قتل جنين ولو كان عمره يومًا واحدًا" ويقول "ليس التشوه أو التعويق عذرًا لنا في إنهاء حياة أحد، أنت لا تعرف مصير المعوق أو المشوه ماذا سيكون مستقبله؟ وحتي لو كانت حياته ستقاسي بعض الآلام فليس من حقك أن تنهي حياته إشفاقًا عليه، إن الحياة والموت هي في يد الله وحده" [٣٨].

أما في الشريعة الإسلامية فإن الإجهاض قبل ١٢٠ يومًا من عمر الجنين حرام عند بعض المالكية، مكروه مطلقًا عند بعضهم الآخر، بينما أباح الأحناف والشافعية ذلك إن كان لعذر معتبر شرعًا، والعذر المعتبر شرعًا هو علة تشوه الجنين التي يستحيل معها الحياة، ولا تضم العمى أو الصمم أو الإعاقة الحركية، وقالت دار الإفتاء المصرية وكذلك المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي في دورته الثانية عشرة سنة ١٤١٠ هجريًا، أن التشوه الذي يجوز به إجهاض الجنين قبل ١٢٠ يوم هو فقط الذي لا يمكن العيش به ولا علاجه، مثل أن يكون الجنين بلا مخ أو قلب مما يستحيل حياته معه، أما بعد بلوغ هذا الحد فلا يجوز إلا لضرورة حقيقية لا متوهمة وهي الخطر على حياة الأم، ذلك أنها هي الأصل ولا

يضحى بالأصل للفرع، وعلى هذا.. فحتى لو عُلم تشوه جنين عمره ١٢٠ يومًا أو أكثر بشكل يستحيل معه حياته، لا يجوز إجهاضه إلا أن كان في بقائه هلاك للأم[٣٩-٤٠].

وعلى هذا فالقانون المصري في المواد من ٢٦٠ إلى ٢٦٣[٤١] يشدد عقوبة إسقاط حامل إذا كان المُسقط طبيبًا أو صيدليًا أو قابلة، ويجعلها السجن المشدد، ويستثنى من ذلك إذا كان الإجهاض لخطر طبي يهدد حياة الأم فقط أو في حال وفاة جنين داخل الرحم.

وعلاوة على القانون ٢٦٠ إلى ٢٦٣، فهناك قانون "بلبل".

وبلبل هو الأستاذ الدكتور مصطفى بلبل، أول من استحدث مادة جديدة في القانون تبيح الإجهاض إذا كانت المريضة محولة من عيادة أحد أساتذة المستشفى ودفعت ثمن الإجهاض العمدي.

استيقظت ذات صباح في سكن الأطباء على الحرارة المنبعثة من شعاع نور أبيض يفيض عبر الخصاص تلسع جلد ذراعي، كان النهار قد تنفس وقد تأخرت على العيادة الخارجية، لكنني كنت لازلت ثملًا بدخان البروفسيورعرابي في الليلة السابقة وبقايا طواجنه العامرة باللحم وفواكه البحر الذين غصت بعدهم في نعيم الفراش وسكينته، مرتاح البدن والنفس بعيدًا عن الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد.

تمطيت ثم ألقيت بجسدي تحت الصنبور فغمرني الماء الساخن يفعم بشرتي بغضاضة حلوة، ويفتح مسام جلدي وكأني أسبح في نبع ماء دافيء تكللني سحب البخار، بتمهل مضيت أضع ثيابي على، ثم مضيت إلى العنبر وأنا أتمطى في الطريق.

ما إن دنوت من حجرة الكشف بالعنبر حتى سمعت صراخًا وسبابًا

وشهقات ألم، هرعت إلى الحجرة فوجدت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد قد أوثقت قيود مريضة إلى كرسي المكتب، وتصب على المرأة من سطل ماء ساخن، أسرعت أنزع السطل من يد الدكتورة سعدية لأنقذ المرأة، وأهدئ من ثورتها لأفهم القصة، فقالت بحنق وغيظ:

- الولية دي تاني مرة تيجي تسقط في المستشفى في كام شهر، كل مرة تيجي بورقة من عيادة الدكتور مصطفى بلبل.

لم أجد ما يدعو للعجب، فعيادة الدكتور مصطفى بلبل في منطقة شعبية وسيدات المنطقة لا يعرفن عن تنظيم الأسرة وحالتهن الصحية مترديةً، لكن الدكتورة سعدية أمسكت بورقة التحويل من الأستاذ وقربتها من وجهي وهي تقول:

- بص كويس، ده خط دكتور؟

كانت هذه دعابة لا يمكن تجاوزها، فالدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد نفسها خطها لا يقرأ كحال كل الأطباء، أسرعت الدكتورة سعدية لما رأت الابتسامة البلهاء على وجهي إلى إخراج ورقة أخرى من عيادة الدكتور مصطفى بلبل فيها تحويل لمريضة أخرى وقالت لي:

- بص كويس، الإمضا دي زي الإمضا دي؟

لم يبد على الاقتناع، فنقش الدجاج في الحالتين لا يقرأ فكيف أقارن بينهما؟ من جيبها الآخر أخرجت سعدية عدسة مكبرة لا أدري لماذا تحتفظ بها في جيبها وقالت لي:

- فتح عينك وبص عدل.

بالعدسة المكبرة بدا لي فجأة أن الإمضاء في الحالتين غير متطابق، فلما

بدا الاقتناع على وجهي، غافلتني سعدية واندفعت من جديد بسطل الماء نحو المريضة وسرعان ما سمعت صراخًا وعويلًا من جديد.

كنت أعلم أن الدكتور مصطفى بلبل هو ملك الإجهاض في مدينتنا، وكان التصرف الصحيح هو الاتصال بالأستاذ للتأكد من صحة التحويل، لكن كان هذا معناه اللجوء إلى نائبي السينيور فؤاد الصباغ كعبورة بك لأن الاتصال بالأستاذ لابد أن يتم من خلاله، وكان هذا ضربًا من الخيال لأنه كان في قيلولة الظهيرة التي يأخذها بعد قيلولة الصباح وقبل قيلولة العصر، وكان لابد من اللجوء إلى حلول بوليسية.

فككت الحبال التي كانت توثق المريضة، وأحضرت لها منشفة، وجلست أمامها وأمسكت ملفها وبدأت في استجوابها:

- اسمك عطيات مش كدة؟ مين كتبلك الروشتة دي يا عطيات؟

- الدكتور اللي اسمه على الروشتة.

- اسمه إيه الدكتور ده؟

- بلبل، ما اسمه عندك.

غامرت وقلت لها:

- بس هو مسافر اليومين دول كشف عليكِ ازاي؟

شحب وجه المرأة وتلجلجت قبل أن تقول:

- لا ماهو اللي كشف عليا جدع تاني في العيادة.

تنهدت وقد تيقنت من كذبها وصواب رأي الدكتورة سعدية، لكنني تمسكت بأهداب الحكمة حتى تنهار وتعترف على شركائها:

- حاضر، احنا هنسقطك دلوقتي، يا دكتورة سعدية، خلي التمريض يجيب لنا الشفاط الكهربا.

ازداد وجه عطيات شحوبًا وهي تقول:

- شفاط إيه يا دكتور؟

- دي طريقة جديدة يا عطيات، بنحط الشفاط فيكي من تحت، ونشفط بضغط عالي، فالجنين يدوب من الضغط العالي وينزل على شكل نزيف حاد، صحيح أحيانًا ممكن نشفط معانا القولون أو الكبد أو مخك بس ربنا يستر.

صرخت المرأة:

- لا أبوس رجلك، أنا عايزة السقاطة العادية.

فأمسكت بورقة تحويلها المزورة وقلت لها:

- يا عطيات الأستاذ محولك إجهاض علشان عندك بولينا في زقزوق القلب صح كده؟

فتماسكت المرأة وقالت:

- آه، هو زقزوق القلب ده.

فقلت مستكملًا خطة الإيقاع بها:

- الله ينور عليكِ، يبقى المكحتة لو استعملناها الزقزوق هيزيد وقلبك يقف، علشان كده الإجهاض العادي خطير عليكي، لازم الشفاط الكهربا.

سمعت ضوضاء خلفي ولدهشتي وجدت الدكتورة سعدية التي

اختفت دون أن ألحظها تدخل وخلفها شفاط كهربائي نستخدمه في شفط السوائل من تجويف البطن أثناء العمليات الجراحية، وما أن رأت عطيات الشفاط بزجاجتيه المملوئتين بالدم حتى أغشى عليها.

عندما أفاقت، انخرطت عطيات في بكاء وصراخ وانكفأت تقبل يدي اليمنى، فلما انتهت ألقمتها اليسرى قبل أن تعترف بكل التفاصيل:

- الشفاط لا، أبوس رجلكم، أنا هأقول، أنا عندي ست عيال من جوزي، هو بيشتغل سباك، ومن كام شهر ولاد الحرام دلوه على سيبر من بتوع الكومبيتور والإنترنت، وبقى يسهر هناك كله ليلة يتفرج على حاجات أبيحة وييجي زي الثور الهايج، حبلت، منه لله ضربني لما كان هيموتني، وبعدها وداني لعيادة الدكتور بلبل ده، أخد منه ألف جني وسقطني في عيادته، شوية وحبلت تاني، وبرضك الدكتور لهف ألف جني تانيين، تالت مرة جوزي قال له مش هيقدر يدفع غير ٥٠٠ جني، بلبل حولني عليكم في المستشفى هنا وسقط، بس بعدها على طول حبلت تاني، خفت أقول لجوزي يقتلني، أمي قالت لي على عباس سواق الدكتور بلبل، إداني روشته تحويل مضروبة بـ٦٠ جني بس.

في المساء، انتهزت فرصة مقابلة كعبورة بك، وقصصت عليه قصة عطيات وسعدية وعباس والأستاذ، فعبس قليلًا ثم انفجر ضاحكًا:

- أنت ساذج قوي يا اللي اسمك كريم، اللي اسمه مصطفى بلبل ده معروف أنه بيعمل الإجهاض لأي حمل بألف جنيه، ده مسقط نص موسمات البلد، اللي ما تقدرش تدفع، بيحولها على المستشفى هنا بـ٥٠٠ جنيه تعمل إجهاض بأمره، الظاهر الواد اللي اسمه

عباس السواق قرر يضربه في السوق ويعملها من وراه بـ٦٠ بس.

فجأة اعتدل كعبورة بك في مجلسه، وسألني عن مكان المريضة فلما أجبته بأني متحفظ عليها في العنبر قال لي:

- عفارم عليك ياكريم، أنا مش عايز قلق، اللي اسمه مصطفى بلبل ده بلطجي وبتاع مشاكل وأنا مش فاضيله زي ما أنت شايف، حسك عينك حد يعرف الموضوع ده، وبكره من سكات هعمل الإجهاض للولية وأروحها.

في اليوم التالي، أجهض كعبورة بك عطيات وصرفها، فلما جلسنا في المساء للعشاء دخل علينا ممدوح الحيوان عامل السكن، وقال وهو يتعتع كعادته:

- فؤاد بك، الدكتور البلبل عايز حضرتك علشان يبهدل سيادتك على موضوع الولية عطيات بتاعت الإجهاض.

فصاح فيه كعبورة بك متسائلًا عمن أخبره، قال ممدوح بكثير من الحبور والتشفي:

- الدكتورة سعدية ضربت الواد عباس سواق دكتور البلبل وجرته على القسم وهناك سيحت له هو والدكتور بتاعه وحضرتك كمان وكلتها شوية وتلاقي البوكس جاي ياخد سعادتك.

شهقت شهقة عميقة، ثم نظرت لممدوح بدهشة وتعجب، ثم بسرور وفرح ؛ ممدوح الحيوان لم يتهته في الجملة الأخيرة مطلقًا.. لقد بَرِأ الفتى من عاهته.

مس سونيا

عندما انتقلنا من المقعد الجلدي قرنفلي اللون إلى الكنبة، مالت على مس سونيا وبصوت ملؤه الغنج قالت:

- يضايقك لو دخنت؟

فلما لم أجب، أخرجت فلترًا ذهبيًا وضعت فيه سيجارة "كنت" كنت أحسبها قد انقرضت، ثم أعطتني ولاعة ذهبية لأشعل لها سيجارتها، على طريقة النسوة الغزلات المتحببات للرجال.. كنت قد نسيت مفردات الرفض ونبرات الاحتجاج بسحر عطرها ووشميها المطلين عبر قماش ثوبها، فانصعت لها. كانت تعرف بخبرتها كيف تكبل ضحيتها وتجعل صيدها يغلق الأصفاد على معصمه بإرادته، وسرعان ما توثبت الأفعى لتعقرني بسمها:

- شوف يا دكتور كريم، الخيوط والمضادات الحيوية اللي مفروض تتصرف للغلابة ببلاش، فيه أساتذة عندك هنا بياخدوها لحالاتهم الخاصة، وبيضربوا هم الفرق في جيوبهم.. صحيح أنا ببطلع لي منها قرشين، لكن الهبرة الكبيرة بتروح لهم هم..، يعني لما أنت

بتمشي على عشر أمبولات، وأنت الحقيقة استخدمت اتنين بس، التمانية دول الكبار همّ اللي بياخدوهم، وأنا نصيبي يا دوب أمبول واحد..، لما المضاد أهل العيانة يشتروه على حسابهم وتمشي أنت أنه صرف لها من المستشفى ببلاش، الكبار هم اللي بياخدوه...، لو أنت ما مضيتش الكبار دُولي همّ اللي بيزعلوا قوي، ودُولي زعلهم وحش، بس رضاهم فيه البسبوسة، ورضاي أنا فيه البغاشة..، لو حابب تاكل البسبوسة أجيبلك، ولو حابب بغاشة أنا خدامتك.

كنت أعلم عن نظام الحساب الشامل في حساب الحالات الخاصة، وفيه يدفع المريض للطبيب ثمنًا محددًا، يمثل إجمالي تكلفة الجراحة، وينوب عنه الطبيب في دفع جميع التكاليف، من ثمن المستهلكات والإقامة للمستشفى وأتعاب معاونيه من أطباء التخدير والتمريض وكل من عمل معه، وبالتالي فكل ما يمكن تو فيره من مستهلكات أو إقامة أو أتعاب أو خلافه، هو ربح إضافي للطبيب المعالج، ولأن الخيوط الجراحية والمضادات الحيوية باهظة التكلفة وتمثل النصيب الأكبر في تكلفة الجراحة، يقوم البعض بالحصول على الخيوط الجراحية والمضادات الحيوية ومستلزمات التخدير المجانية من مستشفانا نظير مبلغ زهيد لمسئولة العهدة، لاستخدامها في حالاتهم الخاصة فلا يضطروا لدفع ثمنها للمستشفى الخاص، مع الاحتفاظ بالفرق كربح لهم.

عندما انتهت الأفعى من حديثها، كنت تقريبًا قد أصبحت مستلقيًا على ظهري، وكانت تقريبًا تكاد تكون قد تمددت فوقي.

٧- حكاية وردة

أعشق الزهور، لا عجب إذًا من ولعي بفصل الربيع، حين تكشف الأزهار عن أريجها وألوانها، وكأنها تدعونا لمشاركتها جمالها، وتبالغ في فتنتنا بتنويع ألوانها وعطورها، ما بين زهور الجكاندرا البنفسجية والبونسيانة الحمراء والمانوليا البيضاء، وهي في دعوتها هذه لا تسألنا أجرًا ولا منفعة.

في يوم، زارتني في العيادة الخارجية بالمستشفى شابة ريفية في نهاية العشرينات من عمرها تدعى وردة، ملامحها دقيقة ومتناسقة، عيناها واسعتان ورموشها طويلة ومقوسة إلى أعلى، شفتاها لون بتلة زهرة الأوركيد الوردية، وتتدلى على جبهتها خصلات ذهبية متموجة من شعرها الذي جمعته تحت طرحة فاقعة اللون، ووجهها صابح ندي عليه ابتسامة سكينة ودعة. جاءت وردة تشكو من نزيف رحمي تبين أنه ناتج عن أورام ليفية حميدة وجدت طريقها إلى تجويف الرحم.

عرض كعبورة بك أمر وردة على الأستاذ الدكتور رئيس الوحدة، فقرر الأخير إجراء عملية استئصال للأورام مع المحافظة على الرحم

لصغر سن المريضة. في اليوم السابق على إجراء الجراحة استدعيت وردة وشرحت لها طبيعة الجراحة، فلما جاء وقت أخذ موافقتها على استئصال الرحم في حالة حدوث مضاعفات أثناء الجراحة تستدعي الاستئصال الفوري للرحم لإيقاف النزيف، تململت وردة، ثم قالت:

- مش عارفة يا داكتور، يبجى نأجل العملية لما نشوف فوزي الحال هيمشي معاه ازاي.

فقلت لها مبتسمًا:

- ماهو فوزي جوزك هيمضي هو كمان.

فأجابت وردة بلا مبالاة:

- لا أني جوزي اسمه إبراهيم، فوزي ده أخو جوزي.

تطاير الشرر من عيني الدكتورة سعدية وشعرت بانبعاث بعض الشرر من جنباتها كعادتها عندما تتأهب للوثوب على مريضة ما للبطش بها، فآثرت السلامة وصرفتها لمشاهدة فيلم الظهيرة على القناة الأولى.

عدت أسأل وردة فيما استغلق على فهمه:

- طب مال فوزي ومال العملية؟

فانتبهت المرأة، وطوت قدميها تحتها لتجلس القرفصاء، ثم قالت كمن ستقص على قصة حياتها:

- آني أجولك، حاكم فوزي ديه أصغر إخوات جوزي، واسم النبي حارسه خد الدبلون واستوظف في مصنع الكاكولا، وهو اللي كان فاضل، فاحنا هنجوزوه بعد العيد لبت أبو عصام البت مُنى

الهبلة الطويلة ديه، ولازمن نشوف إن كان مرته هتحبل ولا أني اللي هحبل.

ازداد الامر غموضًا ونظرت لوردة بمجامع عيني أتفحصها لتبيان إن كانت بلهاء أم عاقلة، وسألتها:

- واحدة واحدة يا ست وردة الله يكرمك أنا مش فاهم حاجة، أنت هتحبلي من فوزي أخو جوزك ليه؟ هو مش جوزك عايش ومخلف منك كمان؟

كنت أعلم أن قديمًا في مصر على زمن النبي موسى، كان إن مات لأحد أخ دون أن ينجب نسلًا، يُجبر أخوه على أخذ امرأته لينجب منها نسلًا لأخيه المتوفي، ويسمى الابن البكر الذي يولد من هذا النكاح باسم المتوفي وينسب له ويرثه[٤٢]، لكن هل مازال هذا الطقس يطبق في أيامنا هذه؟

ضربت وردة جبدها بكف يدها وقالت باستنكار:

- يا ندامة، لا يا خويا مش هأحبل منه، هأحبل له، آني أجولك يا داكتوور، حاكم سي إبراهيم جوزي عنده ٣ أخوات صبيان بس عندهم لامؤاخذة يعني مرض وماهيخلفوش، والحكّمة جالوا مالوهش علاج، لكن إبراهيم جوزي صاغ سليم خمسة وخميسة عليه وعلى اللي حواليه، وفحل كده وملو هدومه... المهم، ما طولش عليك، خالتي أم إبراهيم جالت إني أحبل وكل مرة حد مننا ياخد العيل ويسجله باسمه، وأني جلت حاضر، وهو يعني أني أجدر أخالف لها أمر، فأديني لدلوجت جبت عيلين لعوض وعيلين ليوسف وحوشتلي ولدين وبت، وفيه أربعة في التراب،

فإفاضلش إلا فوزي لما يتجوز ونشوف يمكن مرته تجبله وأرتاح أني بجى لحسن ورمت.

عقدت الدهشة لساني، وطرفت عيني وانكمشت شفاهي وعبست في انصاعق وذهول وأنا غير مصدق ما سمعت، فلما ذهب عني الذهول سألتها للتوكيد:

- يعني أنت بتحبلي في العيال وأخوات جوزك ياخدوهم ليهم ويسجلوهم بأساميهم؟ وأنتي حملتي ٧ مرات؟ بس معاكي ٣ منهم بس؟

فضحكت وردة وقالت:

- لا السبعة معاي، حاكم إحنا عايشين كلتنا في نفس الدار فكل العيال مع بعض.

فقلت لها وقد زالت عني آثار الصدمة:

- بس ده حرام يا حاجة علشان الميراث والجواز وحاجات كتير قوي.

- نعم.

- ده حراااام وغلط يا ستي، افرضي العيال دي حبو يتجوزوا، ما هم أدام الناس ولاد عم.

- لا ما الكفر كلاته عارف القصة دي.

لم يكن لدي وقت لهذه الترهات والجدل فصحت بها:

- بس دي جريمة تزوير وفيها سجن.

فأجابت وردة بصوت مرتجف:

- وأنا مالي يا خويا؟ خالتي أم إبراهيم هي اللي شارت بكده، أنا بيجولوا لي احبلي يا وردة بأجبل.

أم ابراهيم بها استنّت قررت أن تحيي ميت الآمال وتخضر عود الرجاء وتقشع ضباب اليأس وتنسخ ظلمات القنوط في قلوب من حرم الإنجاب، لكن هل الأمر بهذه البساطة؟

تحث كل الشرائع على الكفالة والرعاية والأخذ إلى الكنف، لكن يبقى التبني يمنح الطفل اسم العائلة وتوريثه دون وصية خاصة نقطة خلاف بين الشرائع السماوية والمجتمعات المدنية. تحرم أغلب الطوائف اليهودية التبني تمامًا للإبقاء على نقاء الدم [٢٣]، وكذلك الإسلام بنص الآية القرآنية الرابعة والخامسة من سورة الأحزاب: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾. صدق الله العظيم.

أما في المسيحية فالتبني مباح[٢٤]، ويراه البعض[*] مبدأً أصيلاً في المسيحية، لأن المؤمنين تبناهم الله وفداهم بدم المسيح مما يحتم عليهم، خاصة من لم ينجب منهم، أن يتبنوا الأطفال الذين ليس لهم أسر، مثل الأطفال الذين فقدوا آباءهم أو أمهاتهم أو اللقطاء الذين لم يعرف لهم أب ولا أم، وحجة هذا الفريق أنه، وإن لم يكن هناك نصوص صريحة ومباشرة عن التبني في الكتاب المقدس، إلا أنه يوجد العديد من الأمثلة

(*) القمص عبد المسيح بسيط ـ أستاذ اللاهوت وراعي كنيسة العذراء بمسطرد.

على إباحته، فقد ذُكرت كلمة التبني ـ وهي كلمة مترجمة عن الكلمة اليونانية "هيوسيزيا" Huiothesia والتي تعنى وضعه موضع الابن ـ في العهد الجديد في خمسة مواضع في رسائل الرسول بولس (غل ٤:٥، رو ٨:١٥ و٢٣و٩:٤، أف ١:٥)، وفي قصة العبد أنسيموس الوثني الذي هرب من سيده فتقابل مع القديس بولس واهتدى للمسيحية وصار ابنًا للقديس بولس الذي وصفه بابنه، وقصة القديس مرقس الذي وصفه القديس بطرس بـ"ابني" وقال عنه "تسلم عليكم التي في بابل المختارة ومرقس ابني"، كذلك القديس بولس الذي وصف القديس تيموثاوس بابنه.

لكن هناك من يرى[*] أن التبني ليس عقيدة مسيحية واجبة، فهي لا تفرضه ولا ترفضه، ولا علاقة له بجوهر الدين، وحجتهم في ذلك أن أبوة الله الروحية للمؤمنين تختلف عن البنوة الجسدية ذات المسئولية الاجتماعية، وهؤلاء يرون أن التبني في الأمثلة المذكورة في الكتاب المقدس هو تبني روحي فقط.

جدير بالذكر أن لائحة الأقباط الأرثوذوكس الصادرة عام ١٩٣٨ كانت تبيح في الفصل الثالث مادة ١١٠ التبني للرجل والمرأة بشرط عدم وجود أطفال شرعيين لهما على أن يرثهما فقط بوصية [٢٥].

لكن القانون المصري [٢٦] يحرم التبني لسائر المصريين، جاعلًا علاج العقم هو السبيل الوحيد أمام من أراد له طفلًا يحمل اسمه، وجاءت المادة ٤٥ من لائحة آداب المهن الطبية المصرية [٢٧]، لتغلق الباب أمام

(*) القمص صليب متى ساويرس ـ عضو المجلس الملي العام وراعي كنيسة مارجرجس بالجيوشي.

وسائل الإخصاب المساعد الغير تقليدية ـ مثل التبرع بالحيوانات المنوية أو البويضات أو الأجنة أو تأجير الأرحام لاستضافة الأجنة ـ في علاج من فشل الإخصاب المساعد التقليدي في منحه طفلًا، فجاء فيها "لا يجوز إجراء عمليات الإخصاب المساعد داخل أو خارج جسم الزوجة إلا بإستخدام نطفة زوجها حال قيام العلاقة الزوجية الشرعية بينهما، كما لا يجوز نقل بويضات مخصبة لزرعها في أرحام نساء غير الأمهات الشرعيات لهذه البويضات"، وهو الرأي الموافق للشرائع السماوية؛ الـ(هالاخاه) اليهودية [٤٢،٤٣] والأرثوذوكسية والكاثولوكية المسيحية[٤٧] والسنة من المسلمين[٤٨] وبعض علماء المذهب الشيعي مثل الراحل آية الله محمد حسين فضلي المرجع الشيعي اللبناني.

وخالفت المادة المذكورة رأي شريعة البروتوستانت المسيحية التي لا تمنعه[٤٩]، وبعض المرجعيات الشيعية الأخرى؛ آية الله العظمى السيد علي الحسيني الخامنئي، قائد الثورة الإيرانية، والذي أباح عام ١٩٩٩ التبرع بالبويضات والحيوانات المنوية والأجنة وتأجير الأرحام لاستضافة الأجنة، وآية الله العظمي السيد علي الحسيني السيستاني، المرجع العراقي الشيعي ومرجع حوزة النجف الأعلى، الذي وافق رأي السيد الخامنئي لكنه استثنى الحيوانات المنوية من جواز التبرع بها فحرم تلقيح بويضة الزوجة بحيوانات منوية من غير زوجها.

وأقر مجلس الشعب الإيراني في عام ٢٠٠٣ قانونًا وافق عليه مجلس صيانة الدستور، يبيح للإيرانيين التبرع بالبويضات، بشرط قيام الزوج بالزواج المؤقت من المرأة المُتبرعة، ولحين الانتهاء من تخصيب بويضتها بحيواناته المنوية، ثم نقلها لرحم الزوجة العاقر، كما يتيح القانون التبرع بالأجنة المخصبة، بشرط أن يكون المتبرعان بها زوجين، وألا تكون

البويضة أوالحيوان المنوي من أحد الزوجين المتلقين للأجنة المتبرع بها. ورغم سماحه التبرع بجنين تَكَوَّن بحيوان منوي غير خاص بالزوج، يمنع القانون الإيراني التبرع بالحيوانات المنوية لتلقيح زوجات الرجال العاقرين ويعلل ذلك باستحالة السماح بزواج الرجل المتبرع مؤقتًا بزوجة الرجل العاقر كما هو الشرط في حالة التبرع بالبويضات[٥٠-٥٢].

لكننا في مصر لا نعدم الحيلة للالتفاف على كل القوانين، فسافر من يرغب في التبني هو والطفل إلى الخارج، ويعود بعد أسابيع بسيطة بإخطار ولادة بالمنزل في الخارج من السفارة المصرية هناك، وطلب استخراج شهادة ميلاد لطفله الجديد، بغض النظر عن سن الطفل المتبنى الحقيقي، ويسافر الأيسر حالًا إلى بنوك الأمشاج بمراكز الإخصاب في الخارج، لشراء بويضات أو حيوانات منوية يتم الإخصاب بها أو أجنة كاملة يتم زرعها مباشرة في الأرحام، تعود بعدها الزوجة بجنين انتقت هي وزوجها جنسه ولون عينيه وشعره وبشرته وكافة تفاصيله.

أما البسطاء في ربوع مصر، فيحبلون على شرع أم إبراهيم، التي قدمت لهم الحل بعفوية، ومنطقها؛ إذا كان أهل البيت سيقتسمون لقمة عيشهم وشربة مائهم وسقف دارهم، فلم لا يتقاسمون الذرية؟

واحبلي يا وردة، فتحبل وردة..

مس سونيا

كان لابد لي من ترياق لسم الأفعى سونيا، فهرعت لمقابلة البروفيسور عرابي، وانتظرته في مكتبه حتى هلّ في موعده كالمعتاد.

استقبلني مهلّلا، لكنني لم أمهله الوقت ليمارس طقوسه المعتادة.. بل جذبته من يده وجلست أحكي له كل ما كان بيني وبين سونيا. امتقع وجه الرجل، وازداد امتعاضًا كلما زدت في السرد، فلما انتهيت، لم ينبس عرابي، وهبط صمت ثقيل.. وبدا أنه قد ذهب في تفكير عميق، عاد منه بأن ضرب كفًا بكفٍ وهو يقول:

- أنت كان مالك ومال العك ده؟ الناس كلها بتمضي لسونيا ولا حتى بيبصوا، واللي بيعصلج حكيمات العمليات بيضربوا إمضته على الورق اللي سونيا عايزاه، أنت إيه اللي خلاك تكبر الموضوع؟ وكيل المستشفى سامي فوزي ده معاها، لكن دلوقتي هم كده حطوك في دماغهم.

ثم أخرج من درج مكتبه سيجارتين ملفوفتين يدويًا أدركت أنهما محشوتان بالحشيش، وأشعلهما وأعطاني واحدة.

لم أكن أدخن السجائر المحشوة بالحشيش، لكن كلمات عرابي وعينيه الغائرتين ووجهه المنقبض ساقاني إلى طلب سلوان واقعي الأليم.. لقد وقعت في المحظور.. وأطلقت الأفعى من عقالها.

٨- يحدث في ليلة الدخلة

يحكى أن جحا أراد أن يتزوج، فدعى لذلك أهل الحي ومد لهم الولائم، فلما انصرف الضيوف وجد أنهم قد أتوا على كل الوليمة، ولم يتركوا له شيئًا، فانصرف غاضبًا، فلما افتقده أهل زوجته، وجدوه نائمًا في داره، فقالوا له:

- ألا تدخل على عروسك؟

فقال لهم:

- وما شأني بها؟ من أتى على الوليمة هو من يدخل بها.

ليلة الدخلة، ليلة العمر، الليلة التي ينتظرها كل العشاق ليطفئوا نار أشواقهم ولهيب رغباتهم، على أن الحلم السعيد قد ينتهي بكابوس عند البعض. فمن مشاكل ليلة الدخلة، فرق الحجم والسعة بين العريس والعروسة، بمعنى أن تكون العروسة سعة ١/ ٢ حصان، بينما العريس حجم ٦٤ حصان، مما يتسبب في جروح تسوق العروسين إلى قسم الحوادث في مستشفى لأمراض النساء بتشخيص: نزيف مهبلي بعد ليلة الدخلة.

عادة ما تكون هذه الحالات صعبة ودقيقة، حيث يتحتم علينا أولًا إصلاح التهتكات والجروح المهبلية، وثانيًا - وهو الجزء الأدق - علينا أن نهيئ المهبل لاستقبال الزوج من جديد بأمان، مما يحتم علينا أن نحدس من حجم الدمار الذي لحق بمهبل المريضة، حجم القطار الذي مزق أحشاء المسكينة، وأخيرًا علينا إذا ما انتهينا من الإصلاح، أن نقنع العريس ألا يقرب عروسه، على الأقل حتى تلتئم الجروح، ويقنع منها بمحبة أخوية وحب طاهر بريء.

في ليلة الخميس حيث تكثر الأفراح والليالي الملاح، كنت أنا النائب النوباتجي لقسم الحوادث، وكان أسبوعًا عصيبًا، تآمر عليّ فيه سوء الحظ مع فساد منظم الجهد الكهربائي أو "الإستيبلايزر" الخاص بالدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد، بعد حادث تضارب مع إحدى العاملات نتج عنه صعقها لكل من يقترب منها، ولم نكن قد بلغنا بعد ثلثي الأسبوع حتى كنا قد أرسلنا مريضة إلى الرفيق الأعلى، ورقدت أخرى في وحدة العناية المركزة تنهي إجراءات الصعود إلى بارئها، وتم تحرير ثلاثة محاضر لنا في أقسام الشرطة، تنوعت بين اتهامات بالإهمال الجسيم وتصاعدت حتى القتل العمد.

انتهيت من اجراء بعض العمليات القيصرية وقد انتصفت الليلة. اتجهت إلى عنبر الولادة، فصكَّ سمعي صوت سعدية الحاد وقد شق سكون الليل، فلما بلغت حجرة الأطباء وجدت سعدية وقد انتصبت شعرات رأسها كالقنفذ من أثر الكهرباء المنبعثة منها، وسمعتها تصرخ وتقول:

- جررر شيلوا الراجل ده من قدامي، هموتووووو.

نظرت في الجهة المقابلة، فرأيت رجلًا من الجنوب، يرتدي جلبابًا أزرقا أنيقًا، وغطاء رأس (لبادة) بيضاء، ويبرز من وجهه شارب يقف عليه الصقر.

كان الرجل واقفًا أمام سعدية ينفخ وقد بدا الضيق على وجهه هو يتمتم بالاستغفار للمولى عز وجل، ولخطورة حالة الدكتورة سعدية تعذر سؤالها عن المشكلة فصار حتمًا الاستفسار من الرجل الذي زفر بضيق وقال:

- أحكيلك، لكن هتسمعني ولا تتزرزرلي وتتخلج عليا زي الأبلة؟

اقترضت من بنك الصبر ما يكفيني لأرسم على وجهي الابتسامة وأعده أنني سأكون حليمًا معه، فشرع يشرح سر الخلاف:

- يا بيه أني كتبت كتابي على بت عوض أبوسمعين جطعت وجطعت سيرتها، والدخلة كانت النهارديه، معايه؟

- أيوه وبعدين؟

- إن الله مع الصابرين يا حاج، ليلتي عملناها في نادي أبناء سوهاج وعلجنا عروج النور من إمة الشارع لمّا بوابة النادي، وجبنا الغوازي وفرجة الكتكوت الأحمر الموسيجية بتاعت الأستاذ عيد...

بدأ رصيد صبري ينفذ، وتسرب القلق إلى نفسي وأنا أرى سعدية حالتها تسوء، فقلت للرجل:

- يا حاج هنبقى نشوف الفرح على قناة الميلودي دراما، لخص، فين المشكلة؟؟

- يا داكتور ما أني هجول لك، خلصنا الليلة وضربولنا الخراطيش.. وفتنا على الدار..لجينا مَرّة عوض جطع وجطعت سيرته (زوجته) محضرة لنا لحم حولي ودكر بط.. خلصنا وعفرت لي سيجارتين وجات الماشطة خدت وش البت وعاصت خرجه بدمها وخرجت، فجعدت مع المرة (زوجته) أكلامها وألاعبها.. وبعدين لامؤاخذة يا داكتور جمت..

خرجت عن صمتي وقاطعته بسرعة:

- مفهوم يا عريس مفهوم وبعدين؟

- يا داكتور البت مابطلتش صويت وصراخ، جمت معفجها وجلتلها إكتمي يا بت الرفدي وفلجستها وكملت.. عنها، البت صوتت وسورجت.. أني جولت ديه كهن نسوان وماحطتش في بالي وكملت.. شوية ولجيت الفرشة كلتها متعاصة دم والبت بجت كيف الكفن الليبض. إديتها كفين وجلتلها فوجي يابت الكلب، مافيش، جلت يا نهار أزرج، البت بينها ماتت.. لجحتها على الفرشة وشيعت لعوض جطع وجطعت سيرته، ونجلناها على المشتشفي.. دلوجيتي الأبلة (يقصد الدكتورة سعدية) بتجول أنكوا صلاحتوا البت وبجت زي الأول..

فقلت له:

- آه آه آه، يا حاج صلحناها وبقت تمام، بس هتاخد الدم والعلاج، ويومين كده وتخرج لأهلها.

فضرب الرجل بكفه على المكتب أمامي وهو يقول:

- ماتتحرج هي وعوض جطع وجطعت سيرته على أهلها كلامهم، دلوجيت لما أنتو صلاحتوها، يبجى هنعاود المشاور ديه تاني؟

سعدية التي كانت تمر بمرحلة إنخفاض في الجهد الكهربائي قالت بدعة وهدوء:

- لا يا سيدي، زى ما قلت لجنابك، مراتك خلاص مش بنت، وإحنا صلحنا الجروح اللي حصلت فما تخافش هي كدة مظبوطة.

تجاهل الرجل كلام الدكتورة سعدية واستمر في مخاطبتي قائلًا:

- يا داكتور لامؤاخذة يعني مظبوطة كيف يعني؟ مش كان واجب برضيك تأخدوا مجاسي وتظبطوها عليه؟

رغم وجاهة منطقه الا أنني عزفت عن الشرح له، فقلت له لأنهي الحوار:

- لا يا حاج إحنا بنظبطها على مقاس عندنا فما تقلقش.

رفض الرجل الاستسلام وقال مجادلًا:

- يا داكتور هو ينفع لو اني طلبت منك تفصلي جفطان، تعملوا علي مجاسك انت؟ هو أني اللي زوجها ولا أنتم، يعني ما تآخذنيش يعني؟

فقلت له:

- أنت يا حاج، بس هو مقاس بيناسب الكل، all size يعني!! ثم إن هي ساعتها بتوسع، وكمان مع الوقت والاستعمال والخلفة هتبقى فلة.

لم يبد على الرجل الاقتناع وقال:

- توسع ديه إيه، هو فض مجالس وطج حنك وخلاص؟ بص يا بسيه، أنتم ولابد تاخدوا مجاسي وتظبطوها عليه، لجل الشغل يكون مظبوط، يعني هي الأصول كيديه ما تآخذنيش.

تدهورت حالة سعدية وبدأت تصدر صريرًا هائلًا وطقطقات مخيفة مما يهدد بانفجارها، ووجدت يدي تتحسس المشرط من صينية الآلات الجراحية استعدادًا لحل المشكلة حل جذري ونهائي أريح به الزوجة تمامًا، وأقصف به رجولة هذا التعيس، لكنني تذكرت محاضر الشرطة الثلاث فقلت وأنا اتصنع الهدوء الشديد:

- بص يا حاج، أنا هأركبلك فيها حساس، يعنى زي زرار كده، قبل الاستعمال تسقف مرتين وتقول يا ساتر هتفتح، وكل ما تلاقيها ضيقة، سقف تاني هتوسع كيان وأنت بقى ظبطها، ولما تخلص إقلبها على بطنها هتقفل خالص، ماشي كده يا عريس؟

لاح الرضا على وجه الرجل وأسرع يقول:

- هو فيه كده؟ يا سبحان الله ده كلام يمخول العجل، عفارم عليك يا شيخ إيوه كيده، ريحت جلبي، الله ينور عليكو يا دكاترة.

مضت ثلاثة أشهر، وحضرت المريضة وزوجها للمتابعة، وبعد أن اطمأننت على الجروح وعلى استقرار المعاشرة الجنسية بينهما، وجدت الزوج يميل على ويقول:

- إلا بالحج يا داكتور، هو ما فيش حساس من غير السجفة ديه يعني؟ أني لامؤاخذة بجيت حاسس أني داخل ميضة..

مس سونيا

عندما انتهينا من تدخين السيجارتين المحشوتين بالحشيش، كانت الحجرة تغص بصغار الأفاعي، كل منهم له رأس سونيا وجسد أفعى، وتمايل جسدي في كل اتجاه استجابة للخدر، وسمعتني أضحك ثم أبكي ثم أرغي وأزبد في عرض سونيا وأهلها، والبروفيسور عرابي صامت لا ينبس، حتى إذا ما زال عني أثر الحشيش، استطرد يتكلم وكأن شيئًا لم يكن:

- لازم نشوف طريقة نصالحك بها على سونيا، دكتور محمود الأبيض منهم، وهو رئيس وحدتك، روح قول له أنك ظلمتها واتسرعت، وإنك ناوي تسحب الشكوى، بس بسرعة قبل هي ما توسع الدنيا وتقومها عليك، البغاشة أنت ما لكش فيها، والبسبوسة مش بتاعتك.

ذهلت مما يقول، ولم أدر أجاد هو أم هازل، أتراه يتعمد اقتراح اعتذاري لسونيا ليحنقني أم يعني ما يقول، لكن أيًا ما يكن، فقد نجح عرابي في أن يثير نقمتي عليه وعلى الحشيش الذي يتعاطاه، فالاعتذار هو غمط لحقي وظلم بيّن، كيف أكشف الفساد ثم أتراجع عنه بهذه

الطريقة المهينة؟؟ والأدهى أنه يدعو الله ألا تركب سونيا رأسها وتلج في الخصومة، وسرعان ما انتابتني رجفة غضب شديدة، ووجدتني أمسك بتلابيب عرابي وأنا أرفع عقيرتي:

- كلب، خاين، أكيد بتأكلك البغاشة يا سافل..

حاول عرابي أن يهدئ من ثورة غضبي وهو يفهمني:

- يا دكتور كريم افهم، نص أساتذة القسم بيشتغلوا مع سونيا.

فلما لم ير نهاية لثورتي صرخ في:

- يا أخينا افهم، سونيا دي بتاعت دكتور السويدي الصغير، وكفاية كده هتودينى في داهية معاك..

تراجعت ثورتي كما لو كان عطلًا كهربائيًا قد أصاب عضلاتي وحبالي الصوتية فشلّهما. سونيا متزوجة جابر أبو عسكر صاحب توكيل سيارات في مدينتنا، أما الأستاذ الدكتور أحمد السويدي أو السويدي الصغير كما يُطلق عليه، فهو ابن الأستاذ الدكتور محمود السويدي أو السويدي الكبير، وزير الصحة الأسبق وطبيب الهانم والرجل القوي في النظام، وهو حفيد الأستاذ الدكتور فاروق السويدي أو السويدي الأكبر مؤسس مستشفيات السويدي المنتشرة في طول البلاد وعرضها، السويدي ببساطة تعني المال والحسب والنفوذ، فماذا يعني عرابي بأن الأفعى مس سونيا، أو نحمده عليوة "بتاعت" الدكتور السويدي الصغير؟

٩- عسل الزناجرة

انقضت أشهر الشتاء سريعًا وبدأت بواكير الربيع، وهو الفصل الذي يكرهه الدكتور فؤاد بك الصباغ، لأن كعبورة يصاب فيه بالتهاب الجيوب الأنفية من طول فترة البيات الشتوي التي يقبع فيها كعبورة في سكن الأطباء لا يغادره إلا قليلًا بدعوى برودة الجو.

وبينما الأزهار تجاهد لتبزغ إلى الوجود وتتيه بألوانها وأريجها على سائر المخلوقات، زارتنا في العيادة امرأة ثلاثينية برمادة، عظيمة الأرداف والأفخاذ والنهود، ترتج من حركتها طبقات الشحم المخزن تحت جلدها، تكسوها عباءة حريرية زرقاء مشغولة بحبات لامعة، وتضع يشمكًا شفافًا على وجهها يُنبئ عن بشرة بيضاء رطبة وعيون زرقاء صافية وجمال يشي بأن الأتراك قد عبثوا بجدانها في عصر ما.

سألت المريضة عن شكواها، فأطرقت ولم تزد عن قولها:

- تحت مني بعافية شوية.

عندما تأهبت السيدة للكشف وباعدت بين ساقيها، رأيت عجبًا، فبين أرجلها كان ميدان حرب ودمار، تهتك فيه لحمها واختلفت ألوانه

بين الزرقة والحمرة والانسلاخ عن منبته، أكملت الكشف على جسدها فوجدت آثار عضون حول رقبتها وعلى ظهرها، مشهد لا نراه إلا في حالات الاغتصاب الجماعي المتكرر.

دب الشك في نفسي فهاتفت الصديق معتز منصور وكيل النيابة الذي ألقى في روعي مزيدًا من الشكوك:

- اوعى تكون شبكة دعارة والجدع جوزها ده بيشغلها، اضغط عليها لغاية لما تقر بالحقيقة يا كيمو ولك الأجر والثواب، وليك عندي عشوة جمبري على القضية اللوز دي.

فرحت أستجلي الحقيقة من المرأة التي قالت بخجل:

- جوزي يا دكتور فجأة ربنا أعطاه الصحة بس من واسع.

ويكليات موجزة فهمت منها أن زوجها الأربعيني كان يأتيها مرة أسبوعيًا ثم شبق فجأة وصار يطلبها يوميًا عدة مرات ودون كلل، كما ارتفعت همته ومطالبه بشكل لم تعهده مذ كان شابًا عشرينيًا، حتى لتخجل مما يطلبه ولما اعتل حلالها صار يأتيها في حرامها، فلما جادلتها أنه ربما يتعرض للإغواء في العمل أو من أصدقاء جده، نفت بشدة مؤكدة أن الرجل صالح ومستقيم ولا يعرف للهو طريقًا.

لم أقتنع بما ساقت لي المرأة من حجج، فأطرقت أقلب الأمر في ذهني، لكن الدكتورة سعدية أطاحت بكل فرضي في التفكير:

- راجل صحته كويسة ويحب مراته ويطلبها، إيه مشكلتك؟

رحت أشرح لها أني أحاول أن استجلي إن كانت المرأة تتعرض لعنف أو معاملة غير لائقة فقاطعتني بحدة:

- يا سيدي ماهو جوزها.

عبثًا حاولت أن أشرح لها أن بعض الأزواج قد يقدمون زوجاتهم لآخرين في مقابل إنهاء صفقة أو التخلص من تهديد، وهو سلوك موجود في كثير من دول العالم خاصة في عالم المال والأعمال لكنها مصمصت شفتيها وهي تقول:

- الأفلام بوظت مخك يا كريم.

استدعيت زوج المرأة فلما جلست معه، وجدته رجلًا يبدو عليه اليسر والصلاح، وبدء حديثه بكثير من الخجل، ليوضح أنه لا يدري ما حدث له، لكنه يجد رحمه ينتصب لأهون شاردة تمر بعقله أو مشهد يقع عليه بصره، ويصبح كحيوان أمضه الجوع ولا يدع رحمه الانتصاب حتى يفرغ شهوته، ولأنه يخشى من الوقوع في المعاصي فإنه يأتي زوجته على المنشط والمكره، وأنه قد جرب المهدئات والأعشاب والصيام والرياضة، ولم يفلح أي منها في إنهاء المشكلة التي تتفاقم.

راجعت مع الرجل كل عاداته الحياتية والغذائية محاولًا أن أستشف ما الجديد الذي ألقى الشبق على الرجل فلم أصل لشيء، وعدت أفحص المرأة، واستبعدت فرضية العنف المنزلي من هيئة إصابات المرأة وانعدام أثر لمقاومة أو رفض، هو فقط استهلاك مفرط.

لما يئس عود الرجاء فيّ أن أبلغ حقيقة المشكلة، أرسلت في طلب كعبورة بك فؤاد الصباغ ليستجلي هو الوضع أو يبلغ السيد الأستاذ رئيس الوحدة. حضر كعبورة وقد تضخم منخاره وتلون لون الدم القاني، وقد سال منه شلال إفرازات فشل في إيقافه بمنديل هو قطعة من مفرش مائدة طعام جدته، واستحال بياض مقلتيه أحمرًا، ولوهلة

أشفقت عليه وكدت ألوم نفسي أن أرسلت في طلبه. جلس كعبورة بجواري إلى المكتب، وأعدت على مسامعه تفاصيل الحالة، وحواري مع زوجها قبل أن أهمس إليه بشكوكي، لم ينبس كعبورة ببنت شفة فران الصمت على الغرفة، فقط طلب من التمريض أن يأتين له بكوب من الزنجبيل واليانسون وساندوتش جبن نستو وتكوم على نفسه في انتظار تلبية طلباته.

انصرفت أنهي بعض الأعمال المكتبية في انتظار أن يفرغ كعبورة بك من طعامه، واستأذن زوج السيدة في الجلوس في ركن الغرفة.

بعد قليل، سعل كعبورة سعلات عنيفة قبل أن يبصق في ما يسميه منديلًا دفقات من إفرازاته. بطرف عيني لمحت زوج السيدة يخرج علبة ذهبية أنيقة كتلك المستخدمة في تخزين السعوط (النشوق)، التقط منها شيئًا دسه في فتحة منخاره فسعل، ثم أعاد يده إلى العلبة، والتقط شيئًا ودفسه في فتحة منخاره الأخرى، فلما انتهى، نهض واقترب من كعبورة بك الذي كان لايزال غارقًا في إفرازات أنفه وسعاله، وأقنعه باستنشاق السعوط لفوائده في علاج البرد والجيوب الأنفية(*).

(*)السعوط: مسحوق أوراق التبغ، يخلط مع الماء والملح وكربونات الصوديوم. يتم تجفيفه بالحرارة وإضافة الروائح المختلفه له. ويستخدم عبر الاستنشاق من الأنف كطارد للبرد والأنفلونزا فضلًا عن عمله كمنبه ذهني وجسدي وباعث على الحيوية. يعود استخدام السعوط إلى شعب الأزتيك في أمريكا اللاتينية [٢٤]، وحمله رجال كريستوفر كولومبوس معهم إلى إسبانيا والبرتغال. وفي عام ١٥٧٠ قدم السفير الفرنسي في إسبانيا جوم نيكوت إلى الملكة كاترين دوميدوسيس زوجة الملك هنري الثاني ملك فرنسا بعضًا من السعوط كعلاج للصداع، وما لبثت الملكة أن تعلقت به وعممته في كل ربوع فرنسا. ومن أشهر من استخدم السعوط نابليون بونابرت، الذي كان يحتفظ به في علبة ثمينة نقش عليها وجه زوجته جوزيفين، ومحمد علي باشا والي مصر التي تزخر مجموعته بعلب السعوط المرصعة بالذهب والجواهر.

استنشق كعبورة بك السعوط، وسعل سعلة عنيفة كادت تزهق روحه، فطمأنه الرجل إلى أن مفعوله مؤكد، وجلسا يتسامران ويضحكان. قدمت إليَّ هيام المرمضة الشابة بملفات المريضات اللاتي يحتجن لتجديد العلاج، فوقفت إلى جواري وقد أعطت ظهرها لكعبورة بك والرجل، ثم انحنت على المكتب حتى صار ردفاها أعلى ما فيها لتناقشني في الملفات. انغمسنا في العمل لكن بعد قليل انتبهت لصمت الرجلين الذين تعلقت أعينهما بأرداف هيام، وهما يغمزانها بنظرات ذئبين مسعورين، ونظرت فإذا بهما قد انتعظا، وقوس كل منهما قد أطلق سراح رمحه فأخذ في الانتصاب ممددًا أمامه السروال لينصب هرمًا أسفل بطنه.

تتبعت هيام عيني متسائلة عن شرودي، فلما التفتت ورأت الرجلين يأكلان ردفيها بأعينهما، وهرميهما يستطيلان من خفرع إلى خوفو، صرخت وألقت الملفات من يديها وهرولت خارج الغرفة، وعبثًا حاولت منع كعبورة بك وزوج المريضة من العدو خلفها فانطلقا مثل كلبي صيد خلف فريستهما.

عندما حضر إلينا معتز منصور وكيل النيابة للتحقيق في بلاغ هيام ضد الدكتور فؤاد الصباغ وزوج المريضة صاحب علبة السعوط بتهمة التحرش وهتك العرض، شرحت له شكوكي وطلبت منه الإذن بإجراء تجربة، فأتيت بممدوح الحيوان عامل السكن ووضعنا السعوط في أنفه وواجهناه بهيام بأردافها الفاتنة، لكن التجربة فشلت فلم يهتز ممدوح الحيوان، فطلبت فرصة أخرى من معتز وأحضرت البروفيسور عرابي، وأعدت تجربة استشناق السعوط عليه فانتعظ وانطلق يعدو خلف هيام برمحه وقد نزع عنه سرواله، فأضيف إلى قائمة الاتهام في التحرش بهيام وهتك عرضها.

اعترض معتز بك منصور بحجة أن البروفيسور عرابي أصلا مدمن وحشاش ومغرم بالنساء، فأتينا بفرماوي المعاون وأعدنا به التجربة فثبت صدق حدسي وانضم فرماوي إلى قائمة المتحرشين بهيام هاتكي عرضها، وتبين من تحقيقات معتز بك أن السعوط قد أُهدي إلى زوج المريضة بواسطة أحد التجار، وهو من نوع فاخر باهظ الثمن يسمى "عسل الزناجرة"، وبمداهمة وكر تصنيع السعوط تبين أنه مضاف إليه جرعات عالية من عقار الڤياجرا المعروف بتنشيطه للقدرات الجنسية، لإيهام مستخدميه بأنه يمنحهم قدرات جنسية خارقة.

في كل ثانية، يستهلك العالم ٩ حبات من الڤياجرا، ولاكتشافه قصة طريفة[٥٣]، فقد كان باحثان من شركة فيزر للأدوية يبحثان استخدام مركب السيلدينافيل في علاج أمراض القلب، وفشلت الأبحاث فشلًا ذريعًا، لكن الباحثين لاحظا أن المرضى قد رفضوا إرجاع الدواء، وصمموا على الاحتفاظ به، فلما تحروا الأمر وجدوا أن المرضى يجمعون على أنه يزيد من قدراتهم الجنسية، ولم تمضِ سنوات قليلة حتى كان الڤياجرا يحقق للشركة المنتجة له أرباحًا سنوية تقدر بـ١٥ مليار دولار.

مضت بضعة أشهر، وذات صباح وجدت رجل السعوط يدخل مكتبي في يده لفافة هدية قدمها لي، فلما فككت اللفافة وجدت علبة صغيرة فضية بديعة قد ملئت بالسعوط وهمس لي الرجل:

- مساء الفل يا دكتور، حلاوة الفرح، عسل الزناجرة.

وعلمت أن الرجل لم يكف عن استخدام السعوط المخلوط بالڤياجرا، فقد تزوج هيام على زوجته.

مس سونيا

انصرفت من حجرة عرابي وأنا عازم على ألا ألين ولا أنحني لمافيا سونيا. لم أفهم علاقة دكتور السويدي الصغير بسونيا، فلا يمكن تخيل أن السويدي الصغير بثروته التي تقترب من المليار جنيه، يختلس الخيوط الجراحية والمضادات الحيوية بمساعدة الأفعى سونيا، فلماذا زج عرابي باسم السويدى في هذا الشأن؟؟ لم أستبعد أن يكون عرابي شريكًا بطريقة ما لسونيا، أو على الأقل متعاطفًا معها، فسنون العمر التي جمعتهم في هذه المستشفى قطعًا جديرة بالوفاء. ومن أنا عابر السبيل ليضحي من أجلي بأفعى كوبرا قد تنكل به؟؟ أتراه أراد تعجيزي بالزج بحوت كبير ليخرسني؟ وماذا لو صح كلامه؟ هل أستطيع أن أناوئ السويدي صغيرًا أو كبيرًا؟ التقطت الهاتف وطلبت مقابلة الصديق معتز منصور وكيل النيابة.

١٠- وعاء الخطيئة

وفي يوم جائتني مريضة بصحبة زوجها محولة من عيادة الأستاذ الدكتور فاروق سيف الدين الذي كتب تعليماته على ورقة بيضاء:

أرجوا الاهتمام بحالته وعمل قيصرية اليوم مع عدم إبلاغي.

وبالإنجليزية كتب: احترس من الزوج الرجل ـ الحمار!

التوقيع: الأستاذ الدكتور فاروق سيف الدين.

غالبًا ما يكون طلب التحويل مكتوبًا على ورقة روشتة الأستاذ، والذي دائمًا ما يطلب إبلاغه بالتطورات وتخلوا الروشتة بالتأكيد من نعت الزوج بالرجل الحمار ومن التحذير منه.

فحصت المريضة فوجدتها امرأة بكر (لم يسبق لها الحمل) من إحدى عشوائيات المدينة ورغم صغر سنها، فقد ترك الفقر والفاقة على وجهها تجاعيدًا جعلتها تبدو ضعف عمرها، وبدت بحملها الذي بلغت فيه شهرها التاسع مع هزال جسمها كنملة تحمل فوق كاهلها حبة برتقال، سألتها عن تاريخ آخر دورة لأحسب عمر الجنين، فأزلفني زوجها ـ الذي يشبه الراحل العظيم محمود المليجي ـ بعينى صقر زائغتين تطلان

من سحنة أطبقت على آديمها آثار طعنات وجراح قديمة، ورأس حليقة لامعة، وقامة قصيرة نحيفة ثم قال:

- من سبع شهور يا دااااكتتتور.

النواب السابقون علمونا أن الزوج عادةً ما يكون (كيس جوافة أو سبت يوسفندي) في مثل هذه المعلومات مما يعني أنه لا يمكن الاعتماد على كلامه.

- ثانيه واحدة يا أستاذ أنا بسأل الست.

نظر لي الرجل شزرًا وقال:

- يا دااااكتووورر أنا كنت متحاش وخرجت من ست أشهر فالواد ده ابن ستة!

تمسكت بحبائل الصبر وقلت له:

- طيب ما يمكن من قبل ما تتحجز في المستشفى يا أستاذ؟

فضحك المليجي وقال:

- مشتشفي إيه؟ لأ أنا كنت متحاش يعني بلا آفية مشرف شوية في السجن، أصلي أنا اسم الله على مقامك عربيجي (مكاري)، وغزيت واحد اتمسخر عدم المؤاخذة على الحمار بتاعي بالمطوة، والمودام ده مش معادها تولد، بس الواد بطل حركة من يومين والأسطى زميلك (الأستاذ الدكتور فاروق سيف الدين) اللي كشف عليها قال لابد وحتمًا قيصرية مع أنها في السادس، فإيه قولك؟

نظرت لبطن المريضة وهمست للدكتورة سعدية:

- شكلها أكتر من السادس!

لكن الدكتورة سعدية التي يصيبها الصمم أحيانًا قالت بصوت أشبه بالصياح:

- بتقول شكلها أكتر من ست شهور حمل، حمل سفاح يعني؟؟؟

إنتبه المليجي واقترب مني وقال:

- انت قلت الولية حامل في أكتر من ست شهور للأبلة دي يا باشمهندز؟ إذا أنا بقولك كنت متحاش، قصدك كانت عدم المؤاخذة بتعُط من ورايا، قولي يا دااااكتووور وأنا أحش رقبتها وأخلص من قرفها، دي بتاكل أكتر من الحمار بلا قافية، وهيبقى دوفاع عن الشرف!

نظرت إلى الزوجة المسكينة، وطاف بعقلي صورتها والمكاري ينحرها ويبقر بطنها ويذبح صغيرها، فرق قلبي لهذا المشهد الحزين، وفتحت فمي لأدافع عن المسكينة حتى وإن كانت قدمها قد زلت إلى الخطيئة، على أن المكاري - الذي استبطأ إجابتي - أخرج من جيبه مطواه وأتجه ناحية الزوجة وقال بحدة:

- بسم الله الله أكبر، ناوليني رقبتك يا بت.

البروفسور عرابي قال لنا والدخان الأزرق يخرج من نخاشيشه أن المكاري خريج السجون وحامل المطواه دائمًا على حق طالما تطرق الموضوع للذبح، فخففت لنجدة المرأة وأمسكت بجلباب الرجل وهو يتهيأ للإجهاز عليها وقلت:

- ست شهور، هي ست شهور بالتمام يا معلم.

فهّمت الدكتورة سعدية بالكلام معترضة، فركلتها في ساقها وأسرعت أغلق فمها بيدي وقلت لها:

- يا دكتورة سمعك تقيل كده ليه؟ بقول لك المدام حامل في ست شهور.

و"مشتها" ست شهور، حرصًا على حياة المريضة.

الفحص بالموجات فوق الصوتية أظهر أن الجنين عمره تعدى التسعة أشهر، ووزنه كبير ووضعه مقلوب لأن مقعدته تشغل أسفل الحوض (الطبيعي أن الرأس تشغل أسفل الحوض) فكان لابد من إجراء ولادة قيصرية والتي نتج عنها طفل في حجم الفيل الصغير.

في اليوم التالي اقتحم علينا المكاري غرفة الأطباء مغمغمًا:

- الله، بلا آفية أنتو مش هتدخلوا الواد حوضّانة؟

فأجبته دون أن أرفع رأسي من ملفات المرضى:

- حضّانه ليه يا سيد الولد زي الفل!

فوضع يده على الملف أمامي وبصوته الأجش قال لي:

- فل إيه وجرجير إيهْ وفجل إيه، هي سلطة؟ الواد ابن ستة يبقى لزمن حوضّانة! أمي قالت لي كدة! ولا الواد ابن حرام؟

احترامًا لرأي الحاجه أم المكاري، ولانتفاخ جيب جلبابه بالمطواة قرن الغزال، ألقمت يدي فم الدكتورة سعدية على سبيل الاستحراص حتى لا تتفوه بما يودي بحياتنا، وأبلغت السيد الزميل نائب الأطفال حديثي

الولادة لمناظرة الحالة، وكانت الزميلة العزيزة الدكتورة دينا فاروق، فهانفتها وشرحت لها الموقف. الدكتورة دينا استدعت الطفل إلى الوحدة ووضعته تحت الملاحظة على جهاز التدفئة حسب اتفاقنا، ثم طمأنت المكاري عليه وصرفته على اتفاق بالمرور عليها في المساء لاستلام الطفل والانتهاء من إجراءات الخروج.

عاد الرجل إلى مكتبي، وهو متهلل وقد طُلى وجهه بالحبور والرضا:

- الواد طلع ابني من صلبي يا داكتور.

فاصطنعت الدهشة وقلت:

- معقول، أتأكدت؟

فهز الرجل رأسه وقال بثقة:

- أه الدكتورة بتاعت العيال المزة دي قالت لي كده، يا بيه أنا كنت متأكد من البت وأخلاقها، أمال، أنا مربيها على يدي، لو لاش بس الشوطان جزمة وابن حرام.

فربت على كتفه وأنا أهنئه على براءة زوجته فقال لي:

- الحكيكة أنت راجل محترم، بس يدك دي لو جت على كتفي تاني، أنا هأقطعها وأحتفظ بيها لا مؤاخذة توذكار.

في المساء ذهب الرجل لاستلام طفله من وحدة الأطفال المبتسرين، ويشاء القدر أن تخرج الدكتورة دينا لبعض شأنها، ويقابل الرجل طبيب الأطفال الدكتور سعيد مسعود أسعد السعد، شقيق الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد. كان الوقت ليلًا والطقس مكفهرًا والعاصفة ينبعث زئيرها في الليل كانبعاث زئير أسود في صحراء ظليمة، حتى خيل

لي أن الطبيعة قد جنت في تلك الليلة، دلفت إلى مكتبي مكفكفًا فوجدت المكاري في انتظاري مطأطئ الرأس قد اكتسى وجهه بالسواد، وقال لي بأسى:

- ابني طلع ابن حرام يا دكتور..

فقلت فزعًا:

- مين؟

فعاد يقول بأسى:

- ابني، الواد ابني طلع ابن حرام!

فتحت فمي لأعترض فبادرني المكاري محذرًا:

- وعهد الله لو دافعت عن الولية لأحش رقبتك معاها، قدر ومكتوب وما دايم إلا وجه الكريم.

وعند منتصف هذه الليلة هاتفتني ممرضة القسم في استراحة الأطباء لتبلغني أن المكاري أخذ الطفل وزوجته وانصرف. أسرعت أنظر من نافذة غرفتي، فوجدت المكاري قد وضع زوجته ووليدها على العربة الكارو، وانطلق بهما في ظلمة الليل وأزيز العاصفة، وخيل لي أني أسمع كروانا ينعي ويرثي، أسرعت أوقظ الدكتور سعيد مسعود أسعد السعد، وكانت حجرته ملاصقة لحجرتي، لأسأله عما دار بينه وبين الرجل، فانتفض واقفًا، وقال لي والغضب يكسو وجهه:

- أنت بتستهبل يا دكتور كريم أنت؟ باعتلي عيل في ابتدائي فاضله شوية ويسب الدين ويشيل مطوه وتقولي ابن ستة؟؟ أنت صحيح النايب بتاع أختي لكن مش معنى كده أني أخالف ضميري، أنا

قلت للحيوان أبوه أن الواد ده يعني باليت ابن عشرة ويمكن أربعتاشر كمان، وأنه ابن حرام، وحرام قوي كمان، هه، وأعلى ما في خيلك اركبه.

الخطيئة كي تتم أركانها لابد لها من ذكر وأنثى، لكن وحدها الأنثى هي التي تدفع حياتها ثمن الخطيئة في مجتمعاتنا الشرقية، فرغم أن القانون المصري لا يعاقب على الزنا لغير المرأة المتزوجة ولا للرجل غير المتزوج، إلا إذا كانا شركاء لطرف متزوج، إلا أنه يفرق بين الرجل والمرأة بحسب مكان الجريمة، فالمرأة المتزوجة تعاقب على الزنا إذا ارتكبته في أي مكان سواء في منزل الزوجية أو خارجه (المادة ٢٧٧ عقوبات) [٤١]، بينما الرجل يشترط أن تكون الجريمة قد وقعت منه في منزل الزوجية (مادة ٢٤٧ عقوبات)، كما يفرق القانون في العقوبة، فبينما يعاقب الرجل الذي يرتكب الزنا في منزل الزوجية بالحبس مدة لاتزيد عن ٦ أشهر هو وشريكته، نجد أن المرأة تعاقب بالحبس مدة لا تزيد عن سنتين هي وشريكها.

وفي كل الأحوال لا يجوز تحريك الدعوى إلا بواسطة أحد الزوجين، وفي أغلب الأحوال، يثأر الزوج لشرفه بإزهاق روح زوجته ولا تجرؤ المرأة على ذلك إلا نادرًا، ويكون تخفيف الحكم في حالته وجوبيًا إذا وجد زوجته في حالة تلبس في أي مكان، بينما لا تستفيد الزوجة من تخفيف العقوبة إذا قتلت زوجها إن هي وجدته متلبسًا إلا إن كان في منزل الزوجية.

اتصلت بالصديق معتز منصور وكيل النيابة أسأله النصح والمساعدة لإنقاذ وعاء الخطيئة، فقال لي:

- يعني ايه وعاء الخطيئة دي؟ قصدك الولية مراته يعني؟ طب هي قالت لك أنه هيقتلها أو هيتعرض لها علشان هي حلت سفاح؟

فلما أجبت بالنفي قال بضجر:

- طب عندك عنوانهم؟

فأمليته عنواناً مبهماً من واقع المدون في ملف المريضة فقال بسخرية:

- اه ده عربجي سريح يعني، تحت أمرك يا حبيبي، هأنزل أدور لك علي كروانة الخطيئة دي في الشوارع.. استغفر الله العظيم، كريم روح خدلك نفسين عند عرابي واتفرج على ماتش الريال وبرشلونة واطمن خالص، لو جالي بلاغات قتل متهم فيها عربجي هأقول لك على طول، بس وحياة أمك سيبني أشتغل وارحم دماغ أمي.

البروفسور عرابي قال وسط سحابة الدخان: دنيا الإنسان فيها عابر سبيل، يا يقابل فيها دكتور نسا كريم وابن حلال فيستر عليه ويعيش، أو يقصف عمره دكتور أطفال سعيد ومسعود بس ابن حرام!.

ثم أمسك عوده وانتصب واقفًا يتمايل كالدرويش وهو ينشد(*)

يا موت

يا ظلي الذي سيقودني

يا ثالث الاثنين

يا لون التردد في الزمرد والزبرجد

(*) محمود درويش شاعر فلسطيني (١٩٤١ـ٢٠٠٨م).

اجلس على الكرسي

ضع أدوات صيدك تحت نافذتي

لا تحدق يا قوي إلى شراييني

لترصد نقطة الضعف الأخيرة

أنت أقوى من جهاز تنفسي

ولست محتاجًا ـ لتقتلني ـ إلى مرضي

فكن أسمى من الحشرات

كن من أنت، كن قويًا ناصعًا

واخلع عنك أقنعة الثعالب

كن فروسيًا بهيًا كامل الضربات

مس سونيا

في ركنه المفضل في حديقة النادي، استقبلني معتز منصور وكيل النيابة وراح ينصت إلى حكايتي مع سونيا، فلما انتهيت، عقد يديه وألقى إليّ بخبر عجيب، فقد تقدم إليه اليوم أهل أربعة من المرضى يتهمونني باتهامات تنوعت بين الإهمال الطبي إلى الاعتداء بالسب والضرب إلى طلب رشى، وتقدم رجل مسن ببلاغ يتهمني بدهسه بالسيارة والفرار دون تقديم الغوث له، وأخيرًا تقدمت حكيمة لا أعرفها ببلاغ يتهمني بالتحرش الجنسي وتحريضها على البغاء بعرض مبالغ مالية عليها مقابل ارتكاب الرذيلة، بدا واضحًا أن الحرب قد بدأت، وأننا في مرحلة تكسير العظام.

في صباح اليوم التالي، هاتفني معتز منصور ليلقي إلي بالقنبلة، جميع من تقدم بالبلاغات ضدي، مرتبط بشكل أو بآخر بمستشفيات السويدي، كنت أدرك أنني قادر على حرب مس سونيا، كما كنت أدرك أنني لا أستطيع أن أقف بوجه السويدي صغيرهم وكبيرهم، ولم يبق أمامي إلا صندوق المستشفى الأسود البروفيسور عرابي، ليفصح لي عن سر السويدى ونحمده عليوة.

١١- شيرزاد

شيرزاد كازازيان، طبيبة تخدير منتدبة من وزارة الصحة للعمل في المستشفى لمدة ثلاثة أشهر. كثيرًا ما كنا نستقبل من هم مثل شيرزاد ممن يهربون من مستشفيات وزارة الصحة إلى مستشفيات الجامعة طلبًا للتدريب الجاد والعلم السليم، لكن شيرزاد كانت نسيجاً وحده.

شيرزاد كازازيان يذهلك حسنها وبهاؤها، وامتشاق قامتها، واللون الأخضر الساحر المصطبغة به عيناها، وشعرها الذهبي الأثيث المسترخي الذي تجمع مقدمه فترفعه وتثبته بالمشابك وتدع ما عداه مسترسلًا يعبث به النسيم متى شاء، وبدنها البادية كنوزه رغم تخفظ الفساتين هادئة الطبع التي تضعها، ولا تملك أمام جمالها إلا أن تخشع، وكأنك في حضرة نبي بُعث للناس بالحسن والجمال. ولدت شيرازاد لأب مصري من أصل أرمني من عائلة كازازيان المشهورة بتجارة العطور والبخور والقماش، وقد تزوج من سيدة من بيرو أنجبت له شيرزاد، قبل أن تختفي بجزء معتبر من ثروته مع صعلوك إفريقي لا يعرف أحد كيف فضلته على زوجها، فرغب الرجل عن النساء، وتحول إلى ناسك في محراب ابنته، يخصص لها كل حبه وماله ورعايته.

بدأت شيرزاد العمل في المستشفى، وتحدث الناس بحسنها، حتى دقت سيرتها باب الغريمين الدكتور وليد شكري حفيد الباشوات والدكتور ناصر أبو الحسن حفيد الفتوات. الدكتور وليد والدكتور ناصر مدرسين بالقسم، ويعود العداء والتنافس بينهما إلى وقت أن كانا طالبين في الكلية، ويذكر أقرانهما أنهما كانا يتنافسان على كل شيء، من درجات السكاشن والامتحانات، والسيارات الفارهة والثياب الباهظة الثمن، وحتى العبث بقلوب المراهقات والفاتنات.

الدكتور وليد سليل عائلة عريقة في الأرستقراطية تنتهي إلى شكري باشا، رجل الاقتصاد القوي في بلاط جلالة الملك فؤاد، والدكتور ناصر سليل عائلة مشهورة من فتوات أولاد البلد تنتهي إلى أبي الحسن الكبير، كبير فتوات مدينتنا وفخر رجالها.

كنا في غرفة العمليات لاستئصال رحم مريضة تعاني من السرطان، وتعقمت مع الدكتور وليد شكري وبصحبتنا الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد. مضى الوقت بطيئًا، والدكتور وليد يعمل مشرطه في الرحم على أنغام الموسيقى الكلاسيكية التي يصر على سماعها أثناء الجراحة. كانت جفوني تتلاقى بتأثير انسياب الموسيقى المحفزة على الاسترخاء فأزجُرها لأبقيها مفتوحة، حتى أفقت على الأستاذ الدكتور رئيس قسم التخدير وهو يتحدث لطبيب التخدير المباشر لحالتنا، فلما رفعت عيني في اتجاهه سقطت عيني على نبية الحسن والجمال، وتجمدت في مكاني. على أنه يبدو أني لم أكن الوحيد الذي أُخذ بجمال شيرزاد وقدها الممشوق ووجهها الصابح وديباجتها المشرقة، فقد صكَّ سمعي صوت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد وهي تصرخ بصوت أشبه بنخير بغل:

- يا دكتور وليد، الولية بتنزف وحضرتك مبلم ومتنح، الولية بتمووووت!

بسرعة، عاد الدكتور وليد يعمل مشرطه ويحكم وثاق الخيط على الأوردة والشرايين حتى إذا ما انتهى من استئصال الرحم ولم يبقَ إلا غلق جدار البطن، رفع عينيه من جديد ليشرب من ينبوع الحسن الذي استقر بجوار طبيب التخدير، وانتفش ريشه الطاووسي، وبدا أن دفقات من هرمونات الأرستقراطية قد سرت في عروقه، فاستدعى كل إرثه من أرواح الباشوات والبهاوات وعُلية القوم فملأوا قسمات وجهه، ثم وجه كلامه إليّ وهو ينظر بطرف خفي إلى شيرزاد:

- كيمو، بعد الحالة دي لازم أمشي علشان ألحق ماتش التنس في النادي، وبعدها أروح البيت، الباشا جدي عامل حفل استقبال لقناصل أوروبا في السرايا وأنا طبعًا اللي هأعزف لهم، ما أنت عارف أنا في البيانو ما ليش منافس، ده غير إن قنصل ألمانيا جاي، تصور جدو بيتكلم سبع لغات بس مش زي تسعة، وكمان مش منهم الألماني؟

كنت معتادًا على حوار أفلام الأبيض والأسود من دكتور وليد، فتكلفت الإصغاء، ولم أعلق على باشاوية جده الملغاة ولا على حفل قناصل الدول الذين رحلوا عن مدينتنا مع رحيل الأساطيل، لكن الدكتورة سعدية اتسعت عيناها وارتفعت حواجبها وبرزت أذناها واستطالتا كعادتها عندما تندهش، وكادت أن تنطق، فباغتها بركلة في ساقها جعلتها تتأوه، فنظر إليها الدكتور وليد، فقلت له بعدم اكتراث:

- مغص، سعدية أصل بيجيلها مغص، تحت أمرك يا بك، نشوف حد يعمل الحالة التانية.

وأفلحت في أن أُسكت سعدية، لكن الدكتور وليد وقد لمح الاهتمام على وجه شيرزاد، استطرد يقول:

- يا مدام سنية، وحياتك تخلي عم محمود السواق يجهز العربية المرسيدس الإس ٣٥٠ سبيشل ايدشن الشامبين بتاعتي علشان مستعجل.

مرسيدس إس ٣٥٠؟ معلوماتي أنها كانت سي ٢٥٠، ورأيت عيني الدكتورة سعدية تتسعان أكثر، وحاجبيها قد بلغا فروة رأسها وأذنيها قد جاوزتا أعلى رأسها، وهمت أن تنطق، فبادرتها بركلة جديدة إلى ساقها فتأوهت من جديد وغمغمت أنا "مغص، مغص يا بك".

العائلة والسيارة، بقى شيء واحد لتكتمل منظومة الدكتور وليد، ولم يخيب الرجل ظني، فسرعان ما بادرني بالقول:

- قرأت مقالي المنشور في مجلة العلوم يا كيمو؟ ده انجاز علمي كبير ولازم تعرف عنه، فكرني أجيب لك المجلة.

البحث نُشِر فعلًا، لكن من خمس سنوات، ولم يكن حقيقة بحثًا علميًا، لكنه تلخيصٌ لما وصل إليه العلم في نقطة ما، وعلى سبيل الاستحراص، وركلت الدكتورة سعدية في ساقها.

انتهي الدكتور وليد، فشد على يدي شاكرًا، وهز رأسه للدكتورة سعدية مسعود بالتحية والشكر فلم تفهم، وشد على يد طبيب التخدير، ثم انتهي إلى قبلته، الدكتورة شيرزاد، التي باغتها بمسك يدها وانحنى

ليطبع قبلة عليها، حتى إذا ما اعتدل قال:

- وليد شكري.. حفيد رؤوف باشا شكري..مدرس بالقسم، شرفتينا يا هانم، مرسي قوى على التخدير، اعذريني مضطر أمشي عندي بطولة تنس، أتمنى نشوفك تاني.. سعيدة.

ارتبكت الدكتورة شيرزاد، وتلون وجهها الأبيض بالحمرة، وقالت بتلعثم:

- شيرزاد كازازيان، طبيب تدريب تخدير، فرصة سعيدة.

انصرف الدكتور وليد، وغادرتنا المريضة، وأرسلت أُوجل المريضة التالية بعد انصراف الدكتور وليد، لكن فجأة، انفرج باب غرفة العمليات بعنف، ودلف الدكتور ناصر مسرعًا ويسراه على قلبه ورأسه مثني وصدره كالخضم يعلو ويهبط، واتجه إلي وهو ينظر إلى شيرزاد بين النفس والآخر:

- واله كريم، بقولك ايه، دخل حالة البقف وليد بتاعت استئصال الرحم، أنا جيت أشتغلها.

لم أنبس من المفاجأة، التقط الدكتور ناصر أنفاسه ثم اتجه إلى الدكتورة شيرزاد متجاهلًا طبيب التخدير:

- مش الأمورة معانا برضك في الحالة اللي جاية؟

اضطررت لمقاطعة الدكتور ناصر، فالمريضة كانت قد تخلت عن صيامها اللازم للجراحة ولم يعد في وسعنا إجراء الجراحة عليها، فانتحى بي جانبًا الدكتور ناصر، وقال:

- هات أي مَرّة من العنبر نعمل لها أي حاجة، اتصرف وإلا ورحمة

أمي استأصل بيضانك، وبقولك ايه، القطة بتاعت التخدير دي هي اللي تخدر لي.

وأمام هذا التهديد السافر، بحثت عن أم جابر عاملة العمليات العجوز لتستأصل لها الرحم أو المبيض أو ما تيسر، فوجدتها تلتهم صحنًا من الباذنجان المقلي بالثوم، فجررتها إلى طبيب التخدير، لكنه رفضها رغم قسمي له أنها صائمة، وتأكيدها أنها على لحم بطنها، لكن فضحتنا رائحة الثوم، فلم يبق أمامي إلا أن اقترضت من زملائي في قسم الولادة سيدة على وشك الولادة طبيعيًا وأدخلتها لإجراء جراحة قيصرية.

تعقمت مع الدكتور ناصر وإلى جواري تعقمت الدكتورة سعدية:

- بقولك إيه يا كيكو، أنا مش هشتغل حاجة تانية، علشان عندي بطولة بليارد، وبعدها لازم آخد جدي أبو الحسن فتوة الفتوات وكبير تجار الغرفة التجارية لاجتماع في الوزارة، ما أنت عارف أنا أمين رابطة الفتوات ودراع جدي اليمين ووريثه الوحيد كمان.

كنت معتادًا على حوار أفلام الأبيض والأسود من الدكتور ناصر، فلم أعلق على شيخ الفتوات ولا على أمانة الرابطة، لكن الدكتورة سعدية اتسعت عيناها وارتفعت حواجبها وبرزت أذناها كعادتها عندما تندهش، وكادت أن تنطق، فباغتها بركلة في ساقها جعلتها تتأوه، فنظر إليها الدكتور ناصر، فقلت له بعدم اكتراث: مغص، سعدية أصل بيجيلها مغص، تحت أمرك يا باشا.

ورغم عدم وجود أي حالات أخرى إلا أنني أردفت:

- نشوف حد يعمل أي حالات تانية.

وأفلحت في إسكات سعدية، لكن الدكتور ناصر وقد لمح الاهتمام على وجه شيرزاد، استطرد يقول:

- يا ست سنية، وحياتك تخلي جابر السواق يجهز العربية المرسيدس الإس ٣٥٠ زبيشيل إتشن العنابي بتاعتي بالمستعجل.

مرسيدس إس ٣٥٠؟ معلوماتي أنها كانت سي ٢٥٠، ورأيت عيني الدكتورة سعدية تتسعان أكثر، وحاجبيها قد بلغا فروة رأسها وأذنيها قد جاوزتا أعلى رأسها، وهمت أن تنطق، فلما هممت بركلها في ساقها باغتني هي بركلة إلى ساقي كادت تسقطني فتأوهت فنظر لي الدكتور ناصر متسائلًا فغمغمت "مغص، مغص في رجلي يا باشا".

انتهي الدكتور ناصر، فرفع يده وهو يقول بصوت عالي:

- متشكرين يا معلمين على العملية النضيفة دي.

لكنه قبل أن ينصرف اتجه إلى الدكتورة شيرزاد، وباغتها بدس يدها بين يديه وهو يقول:

- ناصر أبو الحسن.. حفيد المعلم سيد أبو الحسن.. مدرس بالمخروبة دي، شرفتينا يا حلوة، ومتشكرين قوي على التخدير النضيف ده، معلهش بالإذن علشان بطولة البلياردو..

ارتبكت الدكتورة شيرزاد، وتلون وجهها الأبيض بالحمرة، وقالت بتلعثم:

- شيرزاد كازازيان، طبيب تدريب تخدير، فرصة سعيدة.

مر يومان، واستبدل الدكتور وليد سيارته السي ٢٥٠ بأخرى إس ٣٥٠ وكذلك فعل الدكتور ناصر، وعرفنا أن الدكتور ناصر قد اشترى

قصرًا فاخرًا في أحد التجمعات السكنية الجديدة وأطلق عليه شيرزاد، وكذلك فعل دكتور وليد، واستعر السباق بين الرجلين وهما النعل بالنعل، وشيرزاد تبدو حائرة بين الرجلين، اللذين أطلقا وراءها العيون تتلصص عما تحب، يهديانها به قبل أن تقوم من مقامها، فتلبى طلباتها قبل أن تطلب أو تتمنى.

ثم إستدعاني الدكتور وليد إلى عيادته الخاصة، فلما جلست إلى جواره، استاحنى عذرًا في أن يَتفرغ من مريضة بين يديه، قبل أن يُفصح لي عن سبب الاستدعاء الذي لم يخامرني شك في أنه لطلب العون في الفوز بشيرزاد. انتهى الدكتور وليد من الكشف على المريضة، فلما جلس إلى مكتبه، نظر للمريضة وأهلها، وكانت سيدة يبدو عليها رقة الحال، وقال لها:

- أنتِ عارفة أن عندك سرطان في الرحم طبعًا يا مدام، بس أنا ممكن أعمل لك العملية.. على فكرة، أنا الوحيد اللي بأعرف أعمل العملية دي في مصر ونتايجي مضمونة ما فيهاش كلام، يعني هتعيشي هتعيشي، على أقل تقدير عشر سنين.

لهج لسان المريضة بالشكر والحمد، وتسابق أهلها في كيل المديح للدكتور وليد وإسباغ آيات الثناء عليه والدعوة له بطول العمر ودوام السؤدد، ثم انتقل الحديث إلى أتعاب الدكتور وليد، لكن أهل المريضة أطرقوا إلى الأرض، ثم رفعوا رؤوسهم وهم يتوسلون ويستعطفون الدكتور وليد، فاليد قصيرة والعين بصيرة وهم لا يحتكمون إلا على لقيمات يقيمون بها أودهم بالكاد، وأقسموا جهد أيمانهم أن جل ما تحصلوا عليه هو خمسة آلاف جنيه تكرم عليهم بها محسن، لكن الدكتور

وليد انفجر صائحًا فيهم:

- إيه الكهن ده، كل ده على عشرة آلاف جنيه أتعابي؟ أنتم ناسيين أني هأعملها لها في مستشفى الجامعة يعني ببلاش، أنتم عارفين أي حد تاني كان هياخد فيها كام؟ أنا أصلًا بأعملها بعشرين لكن عملت لكم تخفيض علشان شايف أنكم غلابة..

ثم زفر كمن نفد صبره، وقال مقطبًا:

- بصوا علشان ما نضيعش وقت، أنا الوحيد اللي ممكن أعمل لها العملية في مستشفى الجامعة، ومليم واحد مش هأنزل، منين ما تجهزوا الفلوس، لو كانت هي لسه عايشة، كلموا العيادة والمساعد هيقول لكم تعملوا إيه، مع السلامة.

انصرف الجمع منكسي الرؤوس ولمحت في العيون حزنًا وانكسارًا وكثيرًا من البغض والمقت. انتهت مقابلة الدكتور وليد بأن طلب مني المساعدة في اقناع شيرزاد بقبول عرضه للزواج.

يومان وانتدبت للعمل في قسم العلاج بالأجر بالمستشفى وكان أن ساعدت الدكتور ناصر في ولادة قيصرية خاصة به. انتهينا من فتح البطن والرحم وأخرجنا الطفل فلما حان وقت غلق البطن توقف الدكتور ناصر عن العمل وهتف في:

- كيكو، أخرج للحيوان جوز الولية دي دلوقتي وقول له عايزين ألفين جني زيادة علشان فيه التصاقات كتيرة قوي... وتعبتني قوي.

فلما عدت إليه برفض زوج المريضة دفع إلا ما اتفق عليه، ألقى

الدكتور ناصر بقفازه الطبي وغطاء رأسه وخرج للرجل وهو يسب ويلعن.

وسرعان ما دب شجار عنيف بين الرجلين كاد أن يصل لحد التشابك بالأيادي، قبل أن يعود الدكتور ناصر إلى العمليات وهو يتوعد الرجل ويتهدده، وسرعان ما جذب كرسيًا وجلس إلى جوار باب الحجرة. احترت فيما يجب على فعله إزاء بطن المريضة المفتوح على مصراعيه، ويبدو أن الدكتور ناصر قد قرأ التساؤل على وجهي فقال بحنق:

- ورحمة أمي لأنا سايب له بطنها مفتوح كده لحد ابن الوسخة ده ما يدفع، وخلينا قاعدين....

مرت نصف الساعة وأنا أضع يد على يد لأحافظ على تعقيمي، وطبيب التخدير يحقن المريضة بالمخدر كلما بدا عليها مبادئ استرداد الوعي.

ثم أشار على طبيب التخدير بمحاولة التوسط لدى زوج المريضة، وجاءت رئيسة التمريض والمدير الإداري للمستشفى للتوسط في إقناع الزوج، وكذلك طبيب الأطفال الذي تلقى المولود، وعلمت أن والد المريضة قد تدخل وأعلن أنه هو من سيتحمل الألفي جنيه دفعها الرجل إلى رئيسة التمريض حتى ينهي الموقف، فاستأنف الدكتور ناصر العمل من جديد وخرجت المريضة بعد أن استغرقت المفاوضات ساعة ونصف إضافية.

في صباح اليوم التالي، جاءتني الدكتورة شيرزاد كنوارة زهرة تغمرها أنفاس الربيع فتبعث أريجًا ساحرًا، ونظرت لعينيها الجميلتين فوجدتها ترسلان نظرات قلقة محتارة. تُرى صديقتي لو كان يزيد بن معاوية بيننا

اليوم، أظنه كان سينشدك(*)

وقولوا لها يا منية النفس أنني
قتيل الهوى والعشق لو كنت تعلمي
ولي حزن يعقوب ووحشة يونس
وآلام أيوب وحسرة آدم
خفاجية الألحاظ مهضومة الحشا
هلالية العينين طائية الفم
منعمة الأعطاف يجري وشاحها
على كشح مرتج الروادف أهضم
وممشوطة بالمسك قد فاح نشرها
بثغر، كأن الدر فيه منظم

كنا قد صرنا صديقين مقربين فأحسست بها يعتمل في عينيها وما توشوش به نظراتها دون أن تنطق، كنت أعلم أن الدكتور وليد والدكتور ناصر يطلبانها للزواج، وقد انطلقا في مضمار سباق شرس للفوز بها، جرت فيه العهود والوعود والهدايا الثمينة. استمعت لرأيها ورأي أبيها الذي ترك لها الاختيار، فحدثتها بما يختلج في قلبي، فلما انتهيت، أطرقت شيرزاد وقالت وهي تغالب دموعها بعد أن هجع طائر الحيرة في نفسها

(*) يزيد بن معاوية ـ ثاني خلفاء الدولة الأموية (٦٤٥ ـ ٦٨٣ م).

وهدأت نفسها، وعلت وجهها تلك الإشراقة التي تغمرنا عندما تبعث إلينا السماء بخير عظيم:

- كيمو عندك حق، أنا فعلًا انبهرت بالفلوس والنسب والحركات لكن الاتنين فعلًا واطيين.

ثم ارتمت في حضني، وطبعت قبلتين على وجنتي وهي تقول:

- كيمو أنت بجد إنسان رائع وعمري ما هأنسى أنك وقفت جمبي.

ولم تمض شهور قليلة بعد أن أنهت شيرزاد تدريبها في قسمنا حتى كنت أرتدي بزتي الفاخرة، وأضع المنباخ حول رقبتي، وأقف في كوشة حفل زفاف صديقتي شيرزاد بصفتي وصيف عريسها. نظرت إليها في ثوب زفاف أبيض بديع مطرز بخيوط من الذهب الخالص زانته عدة ثريات من الماس، وعلى صدرها عقد ماسي تتخلله فصوص من الزمرد والياقوت، وقد تدلى من أذنيها قرط لامع، من فرط كبره تدلى على جانبي جيدها، فشعرت بالرضا والسرور. صحيح أن عريسها لا يختلف كثيرًا عن الدكتور وليد شكري ولا الدكتور ناصر أبو الحسن، لكنه بالقطع أقل منهما خسة ووضاعة وكبر واستغلال، كما أنه أوسع منهما ثراءً وأعرق نسبًا، ثم أنه صديقي..... نعم، إنه المهندس فاروق الضبع.

مس سونيا

- سونيا يا دكتور في الأصل كانت بت شغالة عند ناس أكابر، دكتور السويدي الكبير كان عمل عملية لست كبيرة منهم في مستشفى السويدي بتاعتهم... أنت عارف أن عيلة السويدي دول دكاترة نسا أبًا عن جد، ابنه أحمد السويدي الصغير كان أيامها عيل في كلية الطب لسه، كان أبوه بيحضره علشان يبقى دكتور نسا زي جدوده، فكان الولد بييات في المستشفى وبياخد نوباتشيات.. بس السويدي الصغير كان تلفان، ومقضيها جري وراء البنات والنسوان... كل ليلة ينام مع حكيمة أو عاملة أو مرافقة لمريضة... ولو ضاقت، بيعت بجيب نسوان من برة. في ليلة "نحمده" اللي هي سونيا دلوقتي، كانت بايته تخدم الست الكبيرة اللي عملت عملية... البت كان عندها خمستاشر أو ستاشر سنة بس حلوة ومدملكة من يومها، والسويدي الصغير كان سكران وعامل زي الثور... خد البت وسقاها حاجة دروختها، واغتصبها في المكتب كذا مرة وجامد، البت اتبهدلت وكانت هتموت فيها... الدنيا اتقلبت والأكابر هددوهم... بس السويدي الكبير والسويدي

الجد دخلوا في الموضوع وصفوه مع اللي مشغلينها، ووعدوهم يصلحوا الدنيا... وفعلًا، جوزوا سونيا لجابر أبو عسكر، اللي كان أيامها سواق دكتور السويدي الكبير علشان يستر عليها، المشكل أن السويدي الصغير بعد ما داق طعم سونيا، اتهبل بيها... وفضل عايزها، والبت طلعت حرباية، صدته في الأول وبعدين عرفت تلاعبه ولما اتأكدت أنه ميت عليها، حتى بعد ما جوزوه بنت دكتور كبير في الجراحة... سونيا عرفت تربطه بيها برضك، وخلته يعينها في المستشفى بتاعتهم عشان تبقى معاه بعيد عن جابر والبيت ومراته... ولسبب مش هينفع أقولك عليه، السويدي الكبير كان هو اللي بيحميها من السويدي الصغير اللي شوية وزهق من البت... وكره الحصار اللي هي عملته عليه في المستشفى، كل يوم تتخانق معاه عل فضايحه مع غيرها... وفي مرة كان هيخنقها وهو سكران، فالسويدي الكبير نقلها مستشفيتنا دي على أنها خريجة تمريض... هي أصلًا معاها بس ابتدائية، البت جات المستشفى هنا... وعلشان التزوير ما يتكشفش، مسكوها العهدة، بس هي عرفت تعمل شغل في بيع الخيوط والمستلزمات... والسويدي الكبير حاميها، لغاية لما دكاترة كتير اتورطوا معاها في الخيوط وبقى فيه كتير بيحموها، وبس الباقي أنت عارفه...

١٢- عزيزي الوغد

يقول نزار قباني(*)

يا سيدي العزيز

هذا خطاب امرأة حمقاء..... هل كتبت إليك قبلي امرأة حمقاء؟

اسمي أنا؟ دعنا من الأسماء.....رانية أم زينب..... أم هند أم هيفاء

أسخف ما نحمله ـ يا سيدي ـ الأسماء

يا سيدي

أخاف أن أقول ما لدي من أشياء

أخاف ـ لو فعلت ـ أن تحترق السماء

فشرقكم يا سيدي العزيز..... يصادر الرسائل الزرقاء

(*) نزار قباني شاعر سوري (١٩٢٣ـ١٩٩٨م).

يصادر الأحلام من خزائن النساء..... يستعمل السكين والساطور

كي يخاطب النساء..... ويذبح الربيع والأشواق.....

والضفائر السوداء

وشرقكم يا سيدي العزيز

يصنع تاج الشرف الرفيع..... من جماجم النساء

لا تنتقدني سيدي..... إن كان حظي سيئًا

فإنني أكتب والسياف خلف بابي

وخارج الحجرة صوت الريح والكلاب

يا سيدي

عنترة العبسي خلف بابي..... يذبحني إذا رأى خطابي

يقطع رأسي لو رأى الشفاف من ثيابي..... يقطع رأسي لو أنا عبرت عن عذابي

فشرقكم يا سيدي العزيز يحاصر المرأة بالحراب..يبايع الرجال أنبياء ويطمر النساء في التراب

لا تنزعج!

يا سيدي العزيز... من سطوري

لا تنزعج! إذا كسرت القمقم المسدود من عصور

إذا نزعت خاتم الرصاص عن ضميري

إذا أنا هربت من أقبية الحريم في القصور

إذا تمردت، على موتي.. على قبري..... على جذوري.....

والمسلخ الكبير

لا تنزعج يا سيدي!

يا سيدي..... قل ما تريده عني، فلن أبالي... سطحية.. غبية.. مجنونة.. بلهاء فلم أعد أبالي

لأن من تكتب عن همومها..... في منطق الرجال امرأة حمقاء

ألم أقل في أول الخطاب أني امرأة حمقاء؟

غشاء البكارة هو صك شرف الفتاة، وعبر التاريخ الطويل للإنسانية، بقي هذا الغشاء محتفظًا بقدسيته وقيمته عند أكثر المجتمعات على اختلاف تقدمها وتحضرها، لأجله تقام الأفراح وفداء تُزهق الأرواح. الغشاء غشاء رقيق غير شفاف من الجلد يغلق فتحة المهبل يتوسطه فتحة صغيرة جدًا تسمح بمرور دم الحيض، وترجع تسمية الغشاء بالهيمن (Hymen) إلى إله الزواج عند اليونان هيمينوس[٥٥]. على أنك في عملك في مجال أمراض النساء والتوليد، تعرض عليك أشياء أمضيت عمرك موقنًا ببراءتها، لكن النساء يحلفن لك بأغلظ الأيمان أنها أشياء شريرة، وشديدة الشر أيضًا. ومن أشهر هذه الأشياء شطاف المياه في المرحاض، والمتخصص في هتك غشاء العذرية، ينافسه في ذلك مقعد الدراجة الماكر، وكليهما قادر على زرع الحمل في رحم الفتيات، إضافة إلى سروال الأخ الملوث بالحيوانات المنوية بطل الحمل السفاح الأشهر.

لكن الشطاف الوغد هو أكثرهم شعبيةً، وهناك شبه إجماع عليه من كل الطبقات الاجتماعية، مهما اختلف شكله، بدءً بالشطاف الصدئ في دورات المياة العمومية، وحتى شطاف إيديال ستاندر المدفون في جسم المرحاض. على أنني حقيقة لم أقتنع أبدًا بأن هذا الشيء البريء الذي رافقني منذ نعومة أظافري وإلى اليوم، في لحظة تزأر فيها الطبيعة، وتُربد السماء، ويشق صوت الرعد سكون الليل، وتهطل الأمطار الغزيرة في منتصف أغسطس، وينفتح شيش النافذة فجأة فيهتز المصباح المدلى من سقف الحجرة، وتفور القهوة على الموقد، بوسعه أن يقف كالوغد القذر بجوار ضحيته البرينة، وكأنه إستيفان روستي ملك الشر، ويقهقه بنظرات شريرة، بعد أن أضاع شرف الفتاة، ويُسمع من بعيد صوت أذانٍ ودعاء كروانٍ. ويعود عدم اقتناعي بغدر الشطاف، إلى أنه بدراسة مستفيضة لتركيب الشطاف وضغط الماء المندفع منه وتركيب الفتاة وغشائها، ثبت لي أنه يستحيل أن يُقدم على مثل هذه الفاحشة.

وذات ليلة من الليالي، استغاثت بي مس مريان بولس، مشرفة التمريض في القسم، وهي امرأة مشهود لها بدمائة الخلق وجميل الأدب وجليل الاستقامة:

- أنا يا دكتور كريم جايالك تنجدني، جارتي بنتها وقعت جوه قاعدة التواليت وفوجئوا بتزيف رهيب فأنا جبتها وجيت لحضرتك.

طاردت الفأر الذي يعبث دائمًا بعبي عندما أسمع مثل هذه القصص، وذلك لما لمس مريان من سمعة طيبة وسيرة طاهرة، وقلت لها:

- إن شاء الله خير، اهدي خالص، هي البنت عندها كام سنة؟

- حوالي ١٦ سنة.

هجم قطيع من الفئران على عبي تعذر على مطاردتهم جميعًا، وقرع سمعي صوت زعيمهم يقول بصوت أقرب إلى الشخير:

- نعم ياختي ١٦ سنة وبتقع في التواليت؟

كتمت صوت الفئران، وحدجتها بنظرة طويلة لأمنحها فرصة طيبة للتراجع عن العبث بعبي، فلما لزمت الصمت، قلت لها ساخرًا:

- احنا بنشوف الكلام ده في اللي عندهم سنتين تلاته، انما ١٦ سنة وبتقع في التواليت؟

فلما تجلت في عينيها نظرة فارغة من كل معنى، زأر غضبي، لكنني مسكت بعقاله وقلت لها مناورًا:

- طيب، هندخلها العمليات ونعمل فحص تحت تحذير، بس مس مريان، يعني مش شايفة أن القصة خيالية شوية، متأكدة البنت ما عملتش حاجة كده ولا كده؟

شحب لون مس مريان وفرغ الدم من وجهها وقالت بجزع:

- بسم الصليب، لا يا دكتور كريم، الناس دولي صدقني ناس نضيفة وبنتهم دي قديسة..

استبدلت ملابسي، وأتممت تعقيمي، ودلفت إلى غرفة العمليات لأفحص القديسة، فما أن انتهيت والتفت لأبلغ مس مريان بما استقر عليه رأيي، حتى انفرج الباب عن الدكتورة سعاد خميس، المدرس المساعد النوباتجي التي هرولت إلي وهي تسألني:

- هه يا كريم، أخبارها إيه حالة ميس ميريان؟

فأجبتها:

- هو فيه جروح في الغشاء عند الساعة واحدة وأربعة وسبعة، وواحد كبير قوي عند تسعة، وفيه "سيمن" (سائل منوي) متجلط جوه، ده غير كدمة من برة وجرح بسيط عند فتحة المثانة، في رأيي ده كان محاولة ممارسة الجنس بس البنت صغيرة والراجل غشيم...

رفعت مس مريان كفها إلى صدرها ورسمت علامة الصليب وهي تقول:

- لا يا دكتور كريم، لا، صدقيني يا دكتورة سعاد، البنت والمسيح الحي قديسة ما تعرفش الغلط وأهلها ناس محترمين جدًا، غلط نفتري عليهم ونبهدلهم كده.

الدكتورة سعاد خميس سيدة أربعينية من أصول ريفية صبغتها بطيبة وأصالة لكن أيضًا بكثير من اللؤم والخبث، فلاح الإنكار في وجهها وقالت مؤنبةً:

- يا ميس ميريان أنتم أصلكم - ما تآخذنيش يعني - بتسيبوا بناتكم كده على حل شعرهم، لا حجاب يلمهم ولا نقاب يسترهم، واختلاط وهَم ناعي، وبعدين تقولوا يا ريت اللي جرى ما كان، ربنا يهدي...

بُغتت ميس مريان بكلام الدكتورة سعاد وأجمتها المفاجأة الصمت، فإضطُررت أنا لتصحيح المعلومة:

- دكتورة سعاد، المريضة القديسة اسمها فاطمة محمود مصطفي!

أسقط في يد الدكتورة سعاد وانقبض وجهها، فتمتمت:

- كده، آه، طيب.

ثم أردفت بعد أن زال عنها الحرج وهي تميز غيظًا وحنقًا:

- هو مش الأهل قالوا وقعت في التواليت؟ أوام أنت عملتها ممارسة زفت وألفت فضيحة؟ يا أخي حرام عليك اتقي الله، ده قذف محصنات....

اندهشت من كلام الدكتورة سعاد فاندفعت مدافعًا عن رأيي دون تردد:

- يا دكتورة الجروح في أماكن متعددة من الغشاء وبعضها أطول من بعض وكمان فيه جروح عند المثانة وتجمع دموي بره، يعني بتتكلم في حاجة قطرها على الأقل خمسة سنتيمتر، وكمان وجود السائل المنوي جوه عند عنق الرحم يقول أن الحاجة دي طولها على الأقل خمستاشر سنتي، فيه شطاف دي مقاساته وبيتحرك ويلوش يمين وشمال وفوق وتحت ويطلع سائل منوي؟

تململت الدكتورة سعاد ثم قالت باستياء:

- اعملي فيها بقى وكيل نيابة، آه فيه، لما نكون عايزين نحسن الظن في الناس يبقى فيه، وبعدين عرفت ازاي إنه سائل منوي، هتلاقيه إفرازات من عنق الرحم يا فالح، أيش فهمك أنت، بقولك إيه، صلح الجروح دي كلها بخيوط تجميل، خمسة زيرو ولا حاجة وروَّح البنت من غير شوشرة وإلا يمين بالله ما هيحصل طيب، مش معقول محكم بقى وسخ كده....

تمسكت بسلاح المقاومة حتى النزع الأخير فقلت لها مخلصًا:

- يا دكتورة سعاد مش قصة حسن ظن، بس البنت كده ممكن تحمل، وكمان اللي عمل كده ممكن يحاول معاها تاني، لازم نتخذ إجراء ولو حتى نعرف أهلها وندبها مانع حمل.

انفجرت مس مريان في البكاء وهي تقول:

- لا حرام، أهلها صعبين جدًا وممكن يقتلوها، حرام نفتري على البنت ونقول أنها عملت خطيئة، أنا مصدقة إنها وقعت، أمها جارتي من زمان وعمرها ما بتكذب، وست قديسة تعرف ربنا..

فتحت فمي لأتحدث فنهرتني الدكتورة سعاد، وأمرتني بالكف عن الخوض في سيرة البنت والانتهاء من حياكة جروحها وهي ترقبني، فلما انتهيت ربتت على كتف مس مريان وهي تقول:

- ما تقلقيش يا ميريان خالص، كريم إيده حلوة وخيطها تمام وهتبقى زي الفل، ولا هيبان حاجة، ربنا يستر على عيالنا يا حبيبتي.

امتعضت من السيدتين اللتين تصمان على دفن رأسيهما في التراب، مهما كانت العواقب وخيمة على الفتاة، بدعوة الستر وحسن الظن، لكنني لم أكن أملك أكثر من الامتعاض. جلسنا بعد نهاية الجراحة وكتبت تقريري متضمنًا رواية أهل الفتاة عن الشطاف كما أثبت فيه شرحًا مفصلًا عن الجروح ووجود سائل متجلط على أغشية عنق الرحم.

طبقًا لقانون المستشفى، فإن أي تعامل على غشاء البكارة يُرسل به تقرير طبي إلى النيابة المختصة للإطلاع والحفظ، وهو إجراء احترازي

لمنع عمليات ترقيع الغشاء في المستشفيات الحكومية. أرسلت تقريري وتوقعت أن يُحفظ كالمعتاد، لكن في المساء هاتفني صديقي معتز منصور وكيل النيابة المختص بشؤوننا:

- كيمو، أنا جالي تقرير منك عن بنت وقعت في الكابينيه، والشطاف بهدلها الغشاء خالص، تقدر توصفهولي؟

انطلقت على الفور وقد طربت نفسي لأن فراسة رجل النيابة قد تطابقت مع فراستي:

- بص يا معتز، هو على الأقل قطره خمسة سنتي وطوله مش أقل من خمستاشر يا معلم، وبالشكل كده أقدر أقولك إنها مش مرة، لا، ده حاول معاها أربع خمس مرات بس الظاهر انه غشيم موت...

صاح في معتز:

- أنت ضارب حاجة من عند عرابي ياله؟ شطاف إيه اللي قطره خمسة وطوله خمستاشر وبيحاول أربع خمس مرات....

فقلت له مستنكرًا:

- يا بني آدم شطاف إيه أنت صدقت؟ ده واحد حاول معاها طبعًا، بس غشيم موت، أنا قلت أنت لقطها.

فقال معتز بصوت فيه كثير من الضجر:

- كريم أنا عندي جنايتين قتل النهاردة ومش ناقص هبلك على المسا ولا فاضي لحكاياتك دي، التقرير مكتوب فيه شطاف، فاضل بس كلمتين عن وصفه علشان نقفل الملف..

فقاطعته:

- وكمان مكتوب فيه سائل متجلط على عنق الرحم، يعنى سائل منوي يا باشا.

فبادرني بالسؤال:

- عرفت إزاي إنه سائل منوي؟

فأجبته ساخرًا:

- دقته.... يعني إيه عرفت إزاي؟ دكتور نسا وكمان راجل، مش هيعرف نوع السائل ده إيه!

فقال كمن يمضغ الأمر في رأسه:

- الله يحرقك، وصفك ده مش بتاع شطاف طبعًا، بس ده معناه ننتقل ونستجوب البت وأهلها، وتحريات مباحث وشوشرة مخبرين وشكوى لمحامي النيابات بكرة الصبح، وصحفي علق يعمل فيها محامي حقوق إنسان.. طب أنت حرزت السائل اللي بتقول عليه ده؟

فأجبته بغيظ:

- هو أنا عرفت أعمل حاجة، خالتك سعاد وخالتك مريان اتلموا عليا ظبطوني، عمومًا، أنا شاكك في واد شكله صاحبها قاعد على باب أودتها مسبل، قلمين على قفا أمه وممكن تحلبه وتطلع منه حرز!

فبدا على صوته الراحة وهو يقول:

- لا أحلبه ده إيه، أحلبه أنت يا روح أمك، كده خلصت، من غير حرز لا فيه جريمة ولا الهوا، فاضي أنا لكل واد زنق بت تحت سلم بيتهم ودكتور أهبل فاضي....

ثم أغلق الهاتف في وجهي.

لا أدري كم من الوقت مر، ثم وجدت مس مريان تبحث عني وفي صحبتها رجل وخَطَ المشيب فوديه، قدمته إلي أنه والد فتاة الشطاف، فلما رأيت الهلع على وجهه، شرحت له طبيعة الجروح وما قمت به من علاج ثم ختمت قائلًا:

- اطمئن حضرتك البنت كويسة والجروح اتصلحت ورجعت زي ما كانت، بس خلو بالكوا منها، ربنا ستر المرة دي، ولو على الشطاف، يا سيدي ركب شطاف داخلي احتياطًا....

أطرق الرجل للحظات وبدا لي أنه قد فهم مقصدي وما أرمي إليه، لكنه نظر لمس مريان ثم أردف يقول:

- حاضر يا دكتور، نركب شطاف داخلي، واحنا متشكرين قوي.

في المساء، مررت بحجرة الفتاة، فوجدت العاشق الولهان جالسًا بجوار فراش محبوبته، اقتربت منه وودت لو انتزعت منه حرزًا أقدمه به للعدالة.. اعتدل الصبي واقفًا ونكس رأسه، واغرورقت عيناه بالدمع، وإذا بحنقي عليه قد تحول إلى إشفاق ورحمة، ورق قلبي لقصة حب طاهرة لوثتها لحظة جنون.. فتحت الفتاة عينيها وتجولت في الغرفة حتى إذا ما تلاقت عيون العاشقين، ابتسمت الفتاة وأغلقت عينيها من جديد.. وددت لو حذرتهما، لكن مس مريان كانت إلى جوار أم الفتاة،

وتذكرت وعيد الدكتورة سعاد، فتركتها لشأنها.

ثم جاء اليوم الذي انتظرته.. كانت قد مضت خمسة أسابيع، وذات صباح وجدت والد فتاة الشطاف يبحث عني، فلما التقيته، انطلق الكلام من فيهِ كما ينطلق نثار الريق عند العطس:

- مصيبة يا دكتور، البنت حامل، اعمل معروف اتصرف.

فنظرت له أن قد حذرتك فاخترت الغفلة، فاستدرك بأسي:

- يا دكتور شكك كان في محله، بس مصطفى ده أنا اللي مربيه، وهو شاب ممتاز، لكن الشيطان الله يلعنه شاطر، أنا جبت مصطفى وأبوه وعرضوا أنه يكتب على فاطمة بنتي حالًا، بس يعني البنت صغيرة وفي الثانوي وهو كمان في الكلية وسيادتك تسلم إيدك رجعتها فبريكة، فلو ممكن بس ننزل الحمل وهو لسه في أوله، وعن نفسي يمين بالله لقطم رقبتهم.

جففت نثار ريقه من على وجهي، وربت على كتفه، ثم تحولت عنه وابتسمت.. فقد سرني براءة عزيزي الشطاف من هذه التهمة الوضيعة، ومن وصمه بالذئب المعدني.

وكان أن حكمت على صديقي معتز منصور وكيل النيابة جزاءً له على تطاوله على صديقي الشطاف وعليّ، أن يتكفل بأتعاب المأذون الذي عقد لمصطفي على فاطمة.. وتكررت الحكايات، ودائمًا استطاع صديقي الشطاف أن يثبت لي أنه جدير بثقتي ومحبتي. وإلى لوحة الثقة، يحلو لي أن أضم بكل فخر واعتزاز ذراع نقل (فتيس) السيارة السيات ١٣٣، والذي اتهمته فتاته زورًا وبهتانًا بهتك غشاء بكارتها وهي تبدل مقعدها

من مقعد السائق إلى المقعد المجاور أثناء اصطحاب خطيبها لها في جولة لتعليمها القيادة، وشاءت الأقدار كما مع فتاة الشطاف، أن تنتفخ بطنها بعدها بشهور!

مس سونيا

تحرك معتز منصور بسرعة لتضييق الخناق على نحمده عليوة والايقاع بها متلبسة باختلاس المستلزمات وبيعها للأساتذة، ونجح في نصب الفخ، بعد أن طلب مني أن أجاريها في أكل البغاشة في حضنها بالإغضاء عن سرقاتها والتوقيع على المستهلكات المختلسة في ملف المرضى، بل وزاد بطلب أكل البسبوسة بشراء أمبولات الخيط منها تحت ادعاء عملي في مستوصف خاص متواضع، حتى يتسنى له تجميع الأدلة وضمها إلى التحقيق. أسابيع بسيطة مضت، حتى استيقظت ذات صباح على رنين الهاتف في سكن الأطباء، والبشرى من معتز منصور بالقبض على نحمده عليوة أثناء بيعها الخيوط، ومداهمة مخزن العهدة المسئولة عنه، وإثبات عجز في المستلزمات بقيمة سبعين ألفًا من الجنيهات، ومراجعة مصوغات تعيينها وثبوت زيف شهادة التمريض الملحقة بملف خدمتها، ثم التحقيق معها ومع زوجها في مصادر تضخم ثروتها. كان النصر ساحقًا طربت له نفسي، وهجع طائر الخوف الذي لازمني أيامًا يقلق مضجعي من فشل الإيقاع بسونيا وانتقامها مني.. وعندما تجاوزت الثامنة من ساعات نهاري التالي، وجدت سائق الأستاذ الدكتور السويدي الكبير في انتظاري

على باب سكن الأطباء، يرجوني بأدب ولطف أن أصحبه لمقابلة الأستاذ في منزله لشأن هام.. فلما جن الليل، اتجهت إلى البروفيسور عرابي، وحكيت له ما كان مع الأستاذ، واستحلفته بدخان أرجيلته الأزرق، أن يفتح لي صندوق أسرار المستشفى الأسود...

١٣- مُهجة القلوب

سافر فؤاد بك الصباغ إلى مسقط رأسه في إحدى قرى الدلتا لحضور زفاف أخيه، وحصلت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد على إجازة مرضية لإصابتها بعطب فني، وبقيت أنا وحدي في العنبر، كنا قد جاوزنا الثانية من ساعات ليلنا، وفجأة زأرت معدتي طلبًا للطعام.. لم أشعر بميل للأكل من يد ممدوح الحيوان في سكن الأطباء، فألقيت بنفسي في سيارة الإسعاف التي حملتني إلى مقهى ميلانو القريب. ومع نسمات البحر المنعشة وضحكات الأصدقاء الذين انضممت لمجلس سمرهم، أتيت على شطائر الكبدة، وأتبعتها بإبريق شاي زردة تفوح منه رائحة النعناع الأخضر وأرجيلة دخان بنكهة التفاح. ارتشفت رشفة من الشاي الساخن وملأت صدري بالدخان فخرج من كل مخارج رأسي، وإذا بعربي نادل المقهى يقول:

- البهوات اللي سهرانين معانا لو حد عنده قلق مع التجنيد يفك دلوقتي علشان بوكس الشرطة العسكرية على أول الشارع...

لم أعبأ بتحذير عربي الذي اعتدنا سماع تحذيرات بصاصينه.

لحظات وتوقفت إحدى عربات الشرطة العسكرية وهبط منها جنديان واتجها نحو عربي، الذي - ولدهشتي - فوجئت به يشير لهم علي، وإذا بهما يتحركان نحوي، فلما دنوا مني قال لي أحدهما:

- قوم معانا يا أخ..

تلفت حولي لعله يقصد أحد الأصدقاء لكن نظراته المحدقة إليّ أكدت أنه يقصدني.

حاولت أن أظل رابط الجأش فأكدت للجندي بلهجة مازحة أن القوات المسلحة لم تجد أني ذا نفع لها ورفضت ضمي لها نهائيًا، فقال بلهجة حازمة:

- طب قوم معانا من غير شوشرة.

وضعت اللّي بهدوء ثم استدرت لعربي وأشرت له فأومأ لي، ثم سرت مع الجندين حتى بلغنا السيارة، وكانت المفاجأة التي عقدت لساني، فبجوار الضابط، وجدتها بشحمها ولحمها: هبة البيلي نائبتي السابقة!

صاحت فيّ هبة بغضب:

- أنت رجعت تسيب المستشفى وتتنيل تشرب شيشة، يا خسارة تربيتي فيك، نهايته إركب بسرعة فيه حالة في المستشفى تهمني...

وكان لي موعد مع الماضي الذي ألقى بي في صندوق سيارة الشرطة العسكرية الخلفي من بعد مدرعة الأمن المركزي، وبعد أن ظننت أنه قد زال عني سلطانه...

وسمعت صلاح جاهين(*) يقول:

كان فيه زمان سحلية طول فرسخين

كهفين عيونها وخشمها بربخين

ماتت لكن الرعب لم عمره مات

مع أنه فات بدل التاريخ تاريخين

وعجبي

بلغنا المستشفى، وأسلمتني هبة البيلي مريضتها وأوصتني برعايتها وهددتني بسوء المنقلب وعظيم البطش إن أنا أهملت في علاجها.. كانت المريضة وتدعى مُهجة القلوب بكراً رغم سنوات عمرها الأربع وأربعين، فقد شغلها عملها كمعلمة رسم للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة عن الزواج، وكان على صفحة وجهها الشاحب صفاء وبشر، تنطق قسماته بالطمأنينة والدعة، وفي عينيها الواسعتين ألق عشق الحياة، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة رغم الألم. صافحتني.. اعتذرت لي على الإزعاج، ربما أبى عليها كبرياؤها أن تظهر جَزِعَة، أو منعها حياؤها من أن تصرخ من الألم الذي يفتك بأحشائها.. أقول ربما.. لكنني لم أر فيها غير أنها مريضة هبة البيلي.

علمت أن دورتها الشهرية تجافيها أحيانًا، وأن الألم نهش في أحشائها متصاعدًا منذ أيام فاستعانت عليه بالمسكنات حتى عجزت عن تحمله..

(*) محمد صلاح الدين حلمي الشهير بصلاح جاهين ـ شاعر مصري (١٩٣٠ ـ ١٩٨٦ م).

شخصتها مبدئيًا بكيس دموي على المبيض، فلما أجريت منظارًا تشخيصيًا لاستكشاف البطن، رأيت كيسًا دمويًا قد انفجر مهتكًا المبيض وأجزاء من أنبوبة فالوب.. كانت علاماتها الحيوية تتدهور سريعًا فأجريت لها الجراحة على الفور واستأصلت الكيس والمبيض والأنبوبة فتوقف النزيف.

انتهيت من الجراحة، فانتحى بي طبيب التخدير جانبًا وقال لي أنه يسمع من قلب المعلمة لغطًا لا يطمئن إليه يُرجح أن يكون علامة قلب صماماته عليلة. لم تكن ملحوظته ذات قيمة بالنسبة لأمراض النساء والتوليد، ذلك أن المريضة قد تضاءلت فرصها في الحمل بعد استئصال أنبوبة ومبيض في سنها هذا، وإذا بدا من ضمور المبيض وآثار تلف وعلة للأنبوبة الأخرى، على أني وعدته بتحري الأمر.

تعافت مهجة مريضة هبة البيلي بشكل طيب، وجاء وقت خروجها من المستشفى وهي عني راضية مرضية سعيدة مغتبطة، نصحتها أن تعرض نفسها على أخصائي أمراض قلب، وبقي أن أشرح لها كيف تضاءلت فرصها في الحمل، إن هي تزوجت، إلى أقل من خمسة في المئة بعد الجراحة.

وهنا أشعت في رأسي فكرة عبقرية للنيل من هبة البيلي شخصيًا؛ سأصب بركان يأس وقنوط على رأس مريضتها لا تخمده هبة البيلي، إلا بعد جهد دونه إخماد بركان فيزوف. تقمصت شخصية الراحل العظيم حسين رياض، وألقيت عليها خطبة كئيبة كنت أدخرها لمثل هذه الحالات، مفرداتها اليأس والقنوط وخلاصتها إيصاد باب الرجاء والرحمة والأمل أمامها، لكنني لاحظت أن الأستاذة مهجة القلوب مبتسمة وتردد:

- الحمد لله، خمسة في المية، ربك كريم.

نحيت الراحل حسين رياض، واستعنت بالعظيمة أمينة رزق كي أُجهز على المعلمة، وألقيت عليها همي - التي أبقيتها صحيحة علميًا - بمزيد من الغم والبؤس، مؤكدًا أن فرص الحمل لا تتعدى حقيقة، باعتبار سنها، الثلاثة في المئة، وشفتاها عليها نفس الابتسامة تتمتم عبارتها من جديد:

- تلاتة في المية؟ الحمد لله، فضل..

امتعضت جدًا وأحسست أن أدائي لم يكن مقنعًا، فقلت بصوت ملؤه الحنق:

- أنتي فاهمة اللي بقوله يا أستاذة؟ إحنا شلنا مبيض وأنبوبة والميض التاني ضامر والأنبوبة شكلها مش ولابد، يعني صعب حمل حتى لوعملتي أطفال أنابيب لأن في سنك ده عدد البويضات ضئيل جدًا...

فأجابت وهي مازالت مبتسمة:

- يا دكتور ربنا مايجيش حاجة وحشة، خليها بس على الله...

قررت أن أقضي تمامًا على أحلام أمومتها لعلها تستسلم فقلت لها بجدية:

- الحقيقة من غير معجزة فرصك في الحمل ولا حتى نص في المية...

فأطرقت، ثم ضحكت وقالت:

- والله ده كرم كبير يا دكتور، نص في المية؟

استشفيت في قولها سخرية أثارت غضبي، واحتدم الغيظ في قلبي، فصرفتها من الحجرة وأنا أؤكد لنفسي أن مريضة هبة البيلي هذه معتوهة بلهاء خرقاء.

مر الوقت، وطُويت صفحة المريضة من الذاكرة تمامًا، وفي يوم دعاني الأستاذ الدكتور سامي عبد الرزاق رئيس وحدتي السابقة إلى مكتبه. قصدت حجرته فوجدت سيدة مبتسمة مسرورة، أعطاني الأستاذ تقرير عملية جراحية خاص بالسيدة مهجة مكتوب بخط يدي ومهور بإمضائي.. رفعت المعلمة رأسها وقالت وهي مبتسمة:

- فاكرني يا دكتور كريم؟ أنا النص في المية! الحمد لله ربنا أذن وبقيت حامل.

فرمقتها بدهشة فقالت بلكنة لم تخل من تهكم:

- هو مش أنت قلت لي فرصي في الحمل نص في المية؟

استأت جدًا، فلم يكن ينقصني إلا هذا التوبيخ أمام أستاذي القديم! على أن موقفي قانونيًا سليم تمامًا.. فالتقرير لا يذكر النصف في المئة، والقانون لا يعاقب على الهرطقة الشفوية.

ازدردت ريقي الجاف بصعوبة وبدأت أتكلم لكن الكلام لم يخرج من فمي.

قهقه الأستاذ الدكتور سامي وقال لي:

- نص في المية؟ كاتك خيبة، طب بحيح إيدك وخليهم عشرين في المية، المهم طبعًا ده طفل ثمين، فهتعمل قيصرية بعد أسبوعين، أنا مسافر عمرة ويا سيدي الأستاذة مهجة مصممة أنت اللي تعملها

لها، فحدد لها ميعاد.. وكريم..تعملها بنفسك، ما تسيبهاش لأمو السعد اللي معاك دي، نص في المية؟ والله دانتا أنتيكا!

انصرفنا نقصد عنبري لتحديد ميعاد القيصرية، فقالت المعلمة والابتسامة التي لا تفارقها تتألق نورًا بين شفتيها وبصوت يملؤه الرضا:

- وأنا في التخديرحلمت ب"كرمة" بتضحكلي وبتندهني يا ماما، مش قلت لك ربنا كبير يا دكتور.

تهيج كبريائي واندلعت ألسنة الغيظ من عيني فاندفعت أقول:

- أنتِ أصلًا كنتِ متخدرة بنج نصفي يعني مافيش أحلام.

أهو التفاؤل الذي يملأ فؤاد الأنثى ويمنحها القوة على الصبر والمثابرة في أحلك الظروف فلا تكل ولا تمل من الرجاء، أم هي علاقتها الخاصة جدًا مع الله التي تلجأ إليه بطيبتها الرقيقة فيكره أن يخيب رجاءها؟

ساءني اندفاعي وشعرت أني وغد حقير، فاعتذرت لها على سوء أدبي، ومضينا نتبادل الحديث فعرفت أنها زارت الدكتور سامي في عيادته الخاصة بعد أن طرق الزواج بابها، فوصف لها بعض العلاجات البسيطة، وبعدها بقليل كان الحمل، حددنا ميعاد القيصرية، وعرضتها على طبيب التخدير الذي طلب بعض الفحوصات للاطمئنان على حالة القلب، ثم وافق على ميعاد الجراحة.

في المساء، مص البروفيسور عرابي دخان أرجيلته الأزرق، ثم كتمه في صدره قليلًا قبل أن يرسله لينعقد متصاعدًا حول مصباح الغرفة سحبًا شفافة وقال:

- أنت متأكد يا دكتور كريم أنك شلت المبيض بالعفشة بتاعته؟

فلما أومأت برأسي أن نعم قال:

- شوف يا بك، ما هو يا إماتن الأستاذ الدكتور سامي راجل بركة يا إماتن.. اللي شخص الولية كان حمار..

وعاد يمص من أرجيلته نفسًا آخرا حبسه حتى ظننت لا يطلقه أبدًا وقال:

- غالبًا الدكتور سامي بركة.

ثم أنشد من شعر مولانا جلال الدين الرومي(*)

وكأنما يضعك ألمك واشتياقك أمام مرآة صافية

لكن عيناك المنهكة تخشى النظر

وتشفق من رؤية وجهك الباكي

بينما أنك لو رفعت عينيك

فأنك لن تجد سوى.. وجه المحبوب

الذي طالما ذبت اشتياقًا إليـه!

****

فلا تضجر من ألمك مهما تعاظم..

لا تكّل من قبضته القاسية

(*)محمد بن حسين بهاء الدين البلخي المعروف بمولانا جلال الدين الرومي ـ أديب ومنظر وقانوني وصوفي، قضى معظم حياته لدى السلاجقة الروم ـ تركيا حاليًا (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣ م).

فقط انظر إلى كفك.. وفكر

ماذا لو ظلت هذه الكف منبسطة طوال الوقت؟

وماذا لو ظلت منقبضة طوال الوقت؟

إنها لن تكون حين إذ سوى كفٍ مشلولة

إنما يكمن وجودك الأعمق في هذا القبض والبسط

تمامًا كما جناحي الطير يسموان بك.. حيث المحبوب

في ميعاد الولادة القيصرية، أهلت علينا الأستاذة مهجة القلوب ترفل في ثوب أبيض جميل منسدل على جسدها، نقشت عليه باقات زهر تتوسط كل باقة منها زهرة حمراء تحيط بها ورود صفراء صغيرة رقيقة تَلَوَّت بينها سيقان برزت منها أوراق خضراء، وشعرها الأسود الموج كانت قد هذبته بمشبك على شكل وردة صفراء كبيرة أفلحت بعض الخصلات في الهرب منه. رقدت مهجة على سرير العمليات بخفة ورشاقة، كما يأوي العصفور إلى عشه بين الخمائل، وعلى وجهها بعض الترقب، فلما لمحتني بثياب التعقيم، زال عنها الاضطراب، وأرسلت بسمة حلوة ومضت في قلبي فأثارت عجبي، فتأملتها وكأني لم أرها من قبل، كيف لها بكل هذه الطمأنينة والسلام؟ ومن أين لها بكل هذا السرور والرضا؟ وضعت برفق يدي على يدها من فوق الفرش المعقم، فحركت أناملها وهي تنسحب رويدًا رويدًا من عالمنا مع سريان المخدر في عروقها، ورحت أُعمل مشرطي فيها وكلمات مولانا ترن في أذني:

إنما يكمن وجودك الأعمق في هذا القبض والبسط

تمامًا كما جناحي الطير يسموان بك.. حيث المحبوب.

لم تعد مُهجة القلوب إلى عالمنا يومها، أسلمتنا ابنتها "كرمة" وسعت لمحبوبها، فقد أبى قلبها العليل بعد أن انتهينا من الولادة القيصرية إلا أن يرسل، رغم المحاذير، جلطات دموية صغيرة، انطلقت محمومة تبحث لها عن مستقر، وجدت بعضها في الرئة والمخ، فغُيبت مهجة عن الوعي أيامًا، حتى نَسَخت ظلمات القنوط صبح الرجاء واستيأس الطب، فأطلق جسدها بعد أن غادرته هي، تاركًا القلب يرتاح من القبض والبسط. لم تكن ظلمة الليل هي التي حلت بنفسي يومها، لكنها ظلمة القلب الذي تملكه الحزن على أفول هذه الزهرة الرقيقة.

في عملي أرى كثيرات يغدن ويرحن، يفدن زرافات ووحدانًا.. لكنني لا أنتبه إلى هؤلاء السابلة.. لأنهن يمررن خطفًا على ذاكرتي، فلا يتسنى لي أن أحفظ لهن ذكرى.. إذ الواحدة منهن لا تكاد تبدو حتى تختفي، ولا تسلم حتى تودع.. لكن الأستاذة مهجة القلوب، تلازمني ذكراها مهما تباعدت السنون..، أرى ملامح وجهها على صفحة الماء في نبع صافٍ أو نهر رقراق، وتشنف أذني ضحكتها متى سمعت عصفورًا يزقزق أو بلبلًا يغرد، وأشم عطرها متى تسلل إلى أنفي أريج زهرة متفتحة، وتُومض فيَّ بسمتُها، متى رأيت بسمة طفل جميل، يُضيء محياه الرضا والسرور.

مس سونيا

كان جين عرابي يتفصد عرقًا، وهو يحكي بصوت مرتجف، وعيناه خابيتان غائرتان تحيط بهما دوائر سوداء لا أدري متى تكونت. مص عرابي أرجيله المحشوة بالحشيش، ثم أخرج دخاناً هائلًا من فمه وطاقة أنفه وقال:

- السر في حفيد السويدي الكبير وأبن السويدي الصغير الوحيد، ومات الكلام.

قالها وصمت وانغمس في مص أرجيله المحشوة، وهو يتفنن في إخراج الدخان على شكل حلقات. كان كمن تخلص من حمل ثقيل، بعد أن ألقى لي بالسر الرهيب.. هل قصد أن ابن السويدي الصغير هو من نحمده عليوة؟ عبست في انصعاق، وانكمشت شفتاي، وطرفت عيني، وسرت اختلاجة في صدغي لم أستطع أن أخفيها، استزدته فلم ينبس، ومضى هائمًا في دخان أرجيله، هل منحت مس سونيا للسويدي الكبير الحفيد الذي يُبقي إرث العائلة المهني والمالي في صلبه، مقابل الحماية ورغد العيش؟

١٤- عذراء القطار

بعد طول معاناة ورفض من أغلبية الأساتذة، استطاع الدكتور عزيز الليثي المدرس المساعد بالقسم أن يجتاز امتحان درجة الدكتوراة بعد أن تشفع له وزراء ونواب مجلس شعب ومشعوذون ووسطاء العالم السفلي وأديم الأرض وصخورها وطير السماء وسحابها ودواب الحظائر وماشيتها، وأصبح مدرسًا بالقسم.

لكن تعيين الدكتور عزيز أثار سخط بعض الأساتذة، فكادوا له بأن ألحقوه بوحدة ألد أعدائه، الأستاذ الدكتور سراج نور الدين، الذي حل محل رئيس وحدتنا الدكتور محمود الأبيض الذي سافر في إعارة إلى إحدى دول النفط. وعلى العكس من الدكتور الليثي الذي احتفظ ببعض قبول المظهر رغم شفوف جسده وغور صدغيه من طول القهر، وذهاب بصره الذي ألجأه لإرتداء نظارة طبية لا يُرى من خلف زجاجها السميك أثر لعينيه، كان الأستاذ الدكتور سراج نور الدين رجلًا نازقًا حاد المزاج، يدنو من ختام الستين، يسترعي الانتباه بامتلاء قامته وقصرها، وبطنه العظيمة التي تتدلى منه، وشعره الأشعث، واضطراب ملابسه اضطرابًا يستدر الرثاء، فتكسر سرواله وانحسار ذراعي القميص عن

رسغيه وتلبد العرق على حافة ياقته، كل هذا يوهم ببؤس حاله وشذوذ مظهره، والرجل مشهور بعدائه لكل الكائنات التي تدب على الأرض، حتى لنفسه التي انتقم منها بزواجه من رئيسة الوحدة الرابعة بقسمنا، الأستاذة الدكتورة عصمت عوض التي ستطل علينا لاحقًا.

وقد استعر على الفور العداء بين الرجلين، سراج الدين الذي لم يعد يطيب له إجراء العمليات الجراحية إلا وإلى جواره الدكتور الليثي، حتى يمطره بأسئلة لا تنتهي، يعقبها مصمصة الشفائف وأرجحة الرأس والاستهزاء والسخرية من هذا الحمار ذي الأربعة حوافر، وعزيز الليثي الذي نظم زجلًا في هجاء عدوه أسماه على نمط الشاعر نجيب سرور "أميات ابن الليثي"، جاء فيه في هجاء الأستاذ:

سراج البدين زوجه عجوز.....تراودني على ما لا يجوز

تقول لي هبني نفسك يا عزيز..... فأجيبها لو شكلك كل ده بوز

أما سبب العداء بين الدكتور الليثي وكثير من الأساتذة وبخاصة الأستاذ سراج، فهو - إلى جوار فحش لسانه وخراب ذمته وولعه بالدروس الخصوصية للطلاب - أن الدكتور الليثي هو صديق كل البغايا والمنحرفات في مدينتنا وطبيبهم الرسمي، مما خلق له شهرة كبيرة في المدينة وضواحيها، منازعًا كثيرًا من الأساتذة في رزق عياداتهم الخاصة. من وجهة نظر الدكتور الليثي، فعمله لا يشوبه أي خزي، فالرجل يعتقد في رأي Albert Ellis "ألبرت إليس" القائل بأن الموس، هو أو هي "كل من يدخل في علاقة جنسية رجلًا كان أو امرأة لاعتبارات غير جنسية، أي كل من يمارس الجنس دون حب مقابل أجر أو فائدة أو خبرة أو للهو

والتسلية، وأيضًا الأزواج اللذين أو اللاتي ليس لديهم حب أو رغبة جنسية في أي وقت لأزواجهم، ومع ذلك يستجيبون للعلاقات الجنسية فقط ليحافظوا على الفوائد الاقتصادية أو الاجتماعية للزواج"[٥٦]. بهذا التفسير كثير من النساء في رأي دكتور الليثي هن منحرفات، لكن منهن محترفات يعملن بدوام كامل هن العاهرات، ومنهن هاويات، يعملن نصف الوقت أو بعضه هن باقي النساء، فلا حرج إذًا أن يقدم هو لهن خدماته، سواء منهن من دفع الأجر نقدًا أو خدمات. وبطبيعة الحال، أصابني من أمر الليثي خطوبًا، ذلك أن كل حالاته المحولة منه إلى عنبرنا، كانت من المشبوهات اللاتي يأتي بهن من الملاهي الليلية ومواخير المدينة وطرقاتها، حتى عندما أتى لي يومًا بفتاة يبدو عليها اليسر والنعمة، بثوب أنيق من الكتان ولسان فصيح ينطق بالفرنسية، وبطاقة شخصية تقول أنها مهندسة ديكور، تعرف عليها لاحقًا أحد أطباء الامتياز الفاسدين:

- دي "ناني" ألو يا باشا، بكالوريوس فنون جميلة ويتشغل مزاج، كنت بأخدها بكارت موبينيل أبو ميت جنيه أو إزازة فودكا "أي دي".

على أن عملي مع الدكتور عزيز الليثي قد أكسبني فراسة وحذاقة في كشف الموسمات، مهما تخفين بأحجبة البراءة والشرف، فصرت أخترق حقيقتهن وأراها عارية كما يرى المؤمن إلهه بقلبه من وراء حجاب.

وذات يوم دفعت رئيسة التمريض في المستشفى إليّ بورقة من الدكتور الليثي، تتضمن طلب دخول لمريضة وتحضيرها لعمل جراحة. لم أتحمس كثيرًا، فلما ألقيت نظرة على ملف المريضة وقرأت اسمها، عرفتها على الفور: سميرة المهندس، حكيمة عنبر واحد بمستشفى العظام.

سميرة المهندس أشهر حكيمة في مستشفيات جامعتنا، نتحاكى بقوامها المشوق ونهديها المكورين الشامخين، وقسمات عينيها السوداوين اللتين يشع منهما نور متوهج مليئ بالغواية والفتنة، تزينهما رموشها الطويلة المقوسة إلى أعلى، وأنفها الدقيق، وفمها الواسع وشفتيها الممتلئتين الغليظتين، وبشرتها الحمرية التي لا تمسها الأصباغ، والتي تعطيها مع شعرها القصير شديد السواد، جمالًا لا تخطئه العين، وإلى جوار كل هذا، فإن سميرة ترتدي دائمًا ثوب تمريض أبيض قصير، ما لا يشفه يصفه، دون حاجب ولا حاجز، مداعبة خيالات الطامعين والحاقدات لاستكشاف من أي بستان ألوان قررت أن ترتدي ما يستر كنزيها، وكم من مشاحنات ومشاجرات اندلعت بيننا عندما كنا أطباء امتياز على تحديد لون طقم سميرة الداخلي في هذا اليوم أو ذاك، خاصة عندما تكون الألوان ألوانًا هادئة.

وإلى سميرة المهندس يعود الفضل في حصولي على كنز ثمين من المعلومات عن العلاقات الحميمة، من حكايات الدكتور أحمد فكري والدكتور فايز محمود الناتئين بمستشفى العظام، واللذين سمعت منهما أثناء عملي معهما كطبيب امتياز في القسم، حكايات لازلت أذكرها عن علاقاتهما بسميرة المهندس، أشهرها حكاية قطار النوم؛ فقد اضطر الدكتور أحمد فكري إلى اصطحاب سميرة المهندس في رحلة ذهاب وعودة بقطار النوم الرابط بين القاهرة وأسوان، هربًا من منافسة زميله الدكتور فايز محمود، في رحلة استغرقت يومين لم يغادرا فيها القطار إلا عند عودته، وقال فيها الدكتور أحمد فكري مقولته التي التصقت بسميرة:

- والله ما كنت عارف القطر بيتهز كده لوحده ولا من عمايل أخوكم، أمال، كان غرام إيل يا دكاترة، لا إيل إيه، قول غرام الأسود.

هل ما زال يخامرك شك أن سميرة المهندس هي بغي فاجرة؟ شابة حسناء جذابة، ثيابها مثيرة، ضحكاتها رقيعة، يحكي الأطباء المقيمون عن جولاتهم معها، ويلوك أطباء الامتياز سمعتها، وفوق كل هذا، ممرضة.. فهل ستسمع لحسن ظنك وسذاجة سريرتك؟

أفقت من ذكرياتي على صوت رئيسة التمريض وهي توصيني خيرًا بسميرة قبل أن تستأذن لبعض شئونها. بفتور التفت لسميرة وسألتها عن شكواها، فلما انتهت، فحصتها بالموجات فوق الصوتية وتبين لي وجود تليف كبير على شكل لحمية داخل تجويف الرحم، مما يستلزم إجراء عملية استئصال للتليف عن طريق المهبل كما أوصى الدكتور الليثي. تعتبر الجراحة بسيطة، لكن المؤسف في هذه الحالات يكون في حالة كون المريضة عذراء، لأن الجراحة تحتاج إلى إدخال آلاتنا الجراحية عبر غشاء البكارة الذي نشقه في بداية العملية، والذي رغم إصلاحه لاحقًا، قد لا يعود إلى حالته الأولى، مما يحتم علينا إعطاء المريضة تقريرًا يثبت لها عفتها ويحفظ عليها شرفها.

عذراء؟؟ سميرة المهندس عذراء؟ أفلتت مني ضحكة، وأين الإبل والأسود وقطار الصعيد؟

انتهيت من تجهيز ملف سميرة، وكان كعبورة بك مصابًا بأنفلونزا حادة، فمضيت أعرض أمرها على الأستاذ الدكتور سراج نور الدين، والذي ما أن علم بأنها محولة من الليثي حتى قفز كمن لدغه عقرب وصاح في:

- آنسة؟ مستحيل، البت دي أكيد مش مظبوطة، دي من طرف الواد الليثي النجس اللي مش بيجي من وراه غير أنجاس زيه،

وكمان دي ممرضة، يبقى أكيد طوب الأرض داهس فيها.

لم يبد الأمر لي منطقيًا تمامًا نظرًا لوجود التليف فعلًا داخل تجويف الرحم مما يدفع عنها شبهة الادعاء، لكنني وقد تذكرت قصة قطار الصعيد وكون سميرة ممرضة، اتفقت مع الأستاذ في أنها قطعًا ليست عذراء، استطرد الأستاذ وكأنه يقرأ أفكاري:

- عارف أن عندها تليف، بس ممكن يكون جايبها يرقعها بعد العملية، بص يا بني، تمضيها على إقرار العملية، وتثبت فيه إنها مش بت ومش هنصلحها، وأنا اللي هأعمل العملية مع الحيوان الليثي وأنت وشيكارة السمنتو أمو السعد.

جاء وقت كتابة إقرار العملية، فطلبت من شيكارة السمنتو الدكتورة سعدية أن تشرح لسميرة طبيعة الجراحة وتحصل على توقيعها على الإقرار. بطرف عيني كنت أرقب سميرة والدكتورة سعدية تسألها إن كان قد سبق لها الزواج، فلما أجابت بالنفي، قلت لنفسي متهكمًا: ومن يتزوج سميرة يا وابور الساعة اتناشر يا اللي مسافرع الصعيد. ثم انتقلت الدكتورة سعدية إلى شرح طبيعة الجراحة، فساءني أنها غفلت عن أهم سؤال، واضطررت للتدخل قائلًا:

- معلهش يا دكتور سعدية. ثم التفت لسميرة:

- علشان تقرير الجراحة بس، أنت لسه بنت؟

قلتها وافترت شفتاي عن ابتسامة أردت أن أجعلها طبيعية لكن تسرب إليها سخرية لم أستطع إخفائها.

فأجابت ببساطة أدهشتني:

- أيوه، ما أنا قلت للدكتورة إني لسه ما اتجوزتش.

فعدت أعيد عليها السؤال:

- أيوه فاهم إنك ما اتجوزتيش، بس السؤال أنت لسه بنت؟

انتبهت سميرة لما أقصده من سؤالي هذا، وبدا عليها الانزعاج والاستياء، وأَرْبَدَّ وجهها واعتراها ارتباك فشلت في إخفائه، فلما تمالكت نفسها، حدجتني بحذر وريبة وتوثب لرد العدوان إن أنا كررت السؤال من جديد:

- ما هو معنى إني ما اتجوزتش إني ما جاش النصيب لسه.. يبقى أنا بنت، ولا رأيك إيه يا دكتور؟

فسبقني لساني:

- وقطر النوم بتاع الصعيد والأسود؟

ففغرت سميرة فاها وهي تقول:

- قطر إيه؟ قصدك إيه؟

ندمت على تسرعي، لكن سرعان ما ترددت في أذني حكايات النائب أحمد فكري عن غرام الإبل والأسود، وتذكرت أنها محولة من الدكتور الليثي، فهززت رأسي وكفكفت عن لوم نفسي. لم أجبها ودفنت عيني وسط ملفات المرضى، فلما انتهت الدكتورة سعدية من التحضير، التقطت الملف منها وشطبت كلمة عذراء.

وجاء يوم إجراء الجراحة لسميرة، لكن الدكتور عزيز لم يظهر، فاستشاط الأستاذ غضبًا. وأخيرًا تلقيت مكالمة منه، فبادرني بالسؤال عن

أستاذ لمبة الجاز ـ كنية الأستاذ سراج، فلما أجبته بأن اللمبة على وشك الانفجار قال لي:

- يولع، بص قول للمبة الجاز أن أبويا مات ومش هينفع أجي.

وأغلق الدكتور عزيز الهاتف بسرعة فلم أسأله عن التفاصيل، لكنني أسرعت أبلغ الأستاذ الذي هز رأسه وقال:

- كذاب، أبوه مات أربع مرات قبل كده، ثم ده ابن حرام مالوش أب، لقوه على باب جامع ملفوف في كيس "ألويز".

على سرير العمليات، تم تخدير سميرة تخديرًا نصفيًا، ثم طلب مني الأستاذ تركيب المنظار الرحمي، فالتقطه من طاولة الآلات وباعدت بين ساقي المريضة ومددت يدي لأدخل المنظار فيها دون شق غشاء البكارة الذي لم يكن بالقطع موجودًا، فصرخت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد:

- بتعمل إيه يا مجنون أنت مش شايف، دي بنت..

نظرت بين ساقي المريضة ويدي ترتعش، وكانت المفاجأة.. سميرة المهندس فعلًا عذراء، وعذراء جدًا. مضيت أتفحصها، وانضم إليّ الأستاذ سراج نور الدين، الذي بُغت مثلي من المفاجأة، لعلنا نلحظ آثار عملية إصلاح لغشاء البكارة دون جدوى، استعرت العدسة المكبرة من الدكتورة سعدية ومصباح الضوء المبهر، بلا فائدة، كف الأستاذ عن الفحص، واستمريت أنا في فحصي حتى أفقت على صوت الدكتورة سعدية وهي تهمس لي بسخرية حتى لا تسمعنا سميرة:

- هو أنت ضايع منك حاجة وبتدور عليها جوه البت؟

نظرتُ إلى الدكتورة سعدية وهمست مقطبًا دهشًا:

- دي ڤيرچين (عذراء)، أمال كانت بتعمل إيه في القطر؟

- ما هي قالت إنها مش متجوزة يا كريم، ثم قطر إيه؟

- يا سعدية القطر والإبل، بيقول لك كانت زي اللبوة؟ وبعدين دي ممرضة وحلوة..

لم تفهم الدكتورة سعدية قصدي، فنظرت لي نظرة بلهاء، وصارت تقلب عينيها بيني وبين سميرة المستلقية على السرير، ثم قالت بصوت لم يعد همسًا:

- إبل ده إيه، دي إنسانة أهي يا متعلم يا بتاع المدارس، ومش حلوة ولا حاجة.. عادية يعني، ثم إيه يعني ممرضة، إيه المخ الزبالة ده؟ ويعني إيه لبوة؟ بقول لك إيه، إحنا لو مش هنشتغل دلوقتي يبقى عن إذنك، ماما بعتت لي طاجن إكسسوارت ضاني وأنا جعت.

شق الأستاذ الغشاء في نقطتين، ومضينا نستأصل التليف، فلما انتهينا وأصلحنا الغشاء من جديد، قصدت غرفة الأطباء لأكتب تقريراً عن الجراحة، والذي بدأته بأن المريضة رغم الحكايات والأساطير، كاملة العذرية، لم يطارحها الغرام لا أحمد فكري ولا غيره.

حزمت أمري على تجنب لقاء سميرة بعد الجراحة وأن أُوكل أمرها إلى الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد، فقد شعرت أني إلى حد ما قد انتهكت عفتها بسوء ظني بها، قطعًا لست وغدًا حقيرًا مثل أحمد فكري وفايز محمود اللذين اختلقا عنها كل هذه القصص والأساطير، لكنني، ربما وبحسن نية ودون قصد، قد أخطأت بعض الشيء بأن آمنت بصحة

أكاذيبها وعملت بها عند مباشرة حالتها.

على أنه سرعان ما جاءني من يبلغني بأن سميرة المهندس تريد لقائي. قمت متثاقلًا إلى حجرتها، فوجدتها نصف جالسة على سريرها. بدأت بطمأنتها على حالتها وشرح ما تم لها، ثم مددت يدي بالتقرير الجراحي الممهور بامضائي، التقطته سميرة وألقت عليه نظرة سريعة، قبل أن تقول بنبرة بين السخرية والغضب:

- ياااه، دكتور كريم بنفسه كتب إني عذراء في التقرير، والله ده فضل منك يا دكتور.

استأت لنبرة السخرية في صوتها فأجبتها بتحدي:

- لا فضل ولا حاجة، ده اللي شفناه في العملية وأنا كتبته، فيه حاجة مش عجباكي؟

فقالت بحدة:

- طيب والقطر واللبوة والإبل والممرضة، ما كتبتهمش في التقرير ليه؟ أنت مش شطبت على عذراء في ملف الدخول؟

لم يكن بصدري متسع لهذه الترهات، فتكلفت الإغضاء، وإن لمت غبائي أني لم أنتبه لتخدير سميرة النصفي في العمليات:

- أنا ورايا شغل، فيه حاجة أقدر أعملهالك؟

فأزلقتني سميرة ببصرها وقالت:

- آه فيه، فيه إنك تعتذر لي.

أفقدتني بجاحتها صوابي فانطلق عقال لساني:

- نعم يا ختي؟ فيه إيه يا بت؟ أنت هتنسي نفسك ولا إيه؟؟أنا ما غلطش في حاجة علشان أعتذر لك، الإنسان أصله سمعة وأنت سمعتك يا شاطرة سبقاكي.

بقيت سميرة رابطة الجأش، وقالت بهدوء:

- وإيه بقى اللي أنت سمعته يا دكتور كريم، حواديت أحمد فكري وفايز محمود؟

كنا نتقارض النظر فأجبتها بسخرية:

- مش محتاجة سمع، بصي لنفسك وأنت تعرفي.

- آه علشان لبسي يعني؟

أشحت برأسي عنها ولم أجب فقالت بتحد:

- آه أنا عارفة أن لبسي أوفر، لكن ما فيش مخلوق لمس مني شعرة، وأنت بنفسك اللي شهد لي، ثم أنت هتحاسبني بدل ربنا؟ لما أنت متأكد قوي كده إني مشيي بطال، كتبت ليه التقرير؟

هاجت كبريائي من وقاحتها، واقتلعت جرأتها جذور عقلي:

- التقرير ده تبليه وتشربي ميته، بقولك سمعتك سبقاكي، عمومًا.. بصي يا ماما، ربنا كرمك والعملية زي الفل.. امشي عدل بقى.. وشوفي لك مقطف ابن حلال يرضى بيك ويسترك.

كيف لم أر دموعها التي ملأت مقلتيها..؟ كيف كنت فجًا وقحًا وأنا من كتب لها صك الشرف والعفة، لا أدري لكنها فاجأتني بالقول:

- طب ما أنا كده علشان عايزة أتستر، بس عايزة مش بس ابن

حلال، لازم ابن حلال ويكون مقتدر علشان يطلعني أنا واللي معايا من اللي احنا فيه.

فأجبتها بغضب:

- بت، أنت هتعمليهم عليا يا روح أمك؟ كوم لحم بقى وأبويا مات وجوز أمي بيتحرش بيا وعايشين تسعة في أودة؟ أنا ما باكلش من الكلام ده.

فقالت بتهكم وهي تمسح دموعها:

- لا إحنا مش تسعة في الأودة إحنا حداشر.. لكن الحمد الله ما عنديش جوز أم.. أبويا عايش وهو اللي لما يرشم مع عمي وجوز خالتي بيتحرشوا بيا أو بأي حد من إخواتي.

ترددت لوهلة، لكن كبر على أن أتراجع:

- الفقر مش عيب.

فضحكت وسط دموعها وقالت:

- هههههه، اسكت مش طلع عيب يا دكتور كريم، بس الأفلام اللي أنت بتشوفها هي اللي بتفهمك أنه مش عيب، مش غلطتك الحقيقة، أنت هتعرف منين؟ أنت "بابي" دخلك الكلية و"مامي" جابتلك العربية وأول ما تخلص نيابتك هيفتحولك العيادة، ويجوزوك بت الناس المتعلمة المتربشة، معقول هتحس ببت ممرضة زيي؟ بالعافية عرفت تخلص سنتين معهد تمريض علشان تبقى محترمة بدل ما تتشقط من الشوارع زي إخواتها.

وفجأة ضحكت بمرار وقالت:

- بس الغريبة أن أنت واللي زيك، الممرضة عندكم أكيد نجسة ما لهاش قيمة، بتتاخد من الدكتور أو الزيارة أو المعاون أو أي حد يدفع لها.

ثم قالت بصوت خفيض:

- أنا كل أملي إني أتستر أنا وإخواتي البنات، خلصت المعهد واشتغلت سنين ماحدش شاف في غير أني من إياهم، عرفت أني حلوة من عنيهم، وإن دي كل مؤهلاتي.. غيرت لبسي وطريقتي يمكن ابن الحلال يشوفني.

كانت كلماتها التي تفيض صدقًا تندفع من فيها لتسكن قلبي دون طرق ولا استئذان، فنحى قلبي عقلي تمامًا وسمعتني أقول لها:

- يا سميرة ربنا من غير كل ده هيرزقك بابن الحلال علشان أنتِ عايزة تبقي كويسة.

فانفجرت في قائلة:

- ربنا ده بتاع المحظوظين زيكم يا دكتور كريم، ربنا بتاعكم بيخلقكم ويبرزقكم فلوس وعيال وبيوت وڤلل وعربيات وعلاج، ده حتى بيستر على ستاتكم مهما عملوا، هو مش بتاع اللي زينا، اللي خلقهم ونسيهم من زمان، لا بيرزقنا ولا بيعالجنا ولا حتى بيستر علينا، الغلابة مش على باله يا دكتور، احنا نموت من الجوع والفقر والمرض والخوف، وهو ناسينا.. نهان وننضرب ونغتصب ونتسجن ونتقتل ويقولك ده رحمن رحيم.. أكيد.. بس هو رحمن رحيم بالأغنياء بس.. وهاب رزاق ليكم.. غفور ستار

على اللي زيك.. لكن اللي زيي لا.. بس برضك بأصلي وبأدعي.. عارف ليه؟ علشان بكره لو اتجوزت واحد مقتدر.. أكيد ساعتها ربنا هيشوفني، وهأعرف أرضيه عني.. علشان يديم على النعمة ويسترني ويرزقني ذرية صالحة.

هبط صمت ثقيل على الحجرة بعد أن أنهت سميرة كلماتها.. نظرت إليها فرأيتها كدودة تنفر شرنقتها لتخرج منها فراشة رقيقة النكوين، تتفتح أجنحتها بألوان بديعة تبهج الناظرين، ويشقشق قلبها بطهر يغمر الكون.. رأيت التي كنت أزاور عنها أنفة واستكبارًا، كأنها شخص قريب.. وأصبحت التي شمخت عنها بأنفي خوفًا من دنسها.. كأنها قديسة في محراب الرب.

تحركت نحو الباب قبل أن أستدير وأقول لها مبتسمًا:

- أنا آسف يا سميرة، بس المرة اللي جاية لو عزتي حاجة، ما تروحيش لعزيز الليثي، تعالي لي.

في المساء، غادرت المستشفى حتى ألحق بعزاء والد الدكتور الليثي، واصطحبت الدكتورة سعدية معي ومجموعة من الزملاء. انطلقنا إلى منزل الفقيد، وطرقت باب الشقة وأنا أدعو للمتوفي بالرحمة والمغفرة.

مرت لحظات، ثم سمعت صوت مزلاج يتحرك وانفرج الباب عن رجل في العقد السابع من العمر يرتدي قميصًا أحمرًا مزركشًا وسروالًا ورديًا قصيرًا نقش عليهما مراكب وشماسي ونخيل.

أعلمتُ الرجل بأننا زملاء الدكتور عزيز الليثي، وقلت بلهجة كلها أسى وحزن:

- البقاء لله يا فندم، ربنا يصبركم.

انقبض وجه الرجل وقال وهو واجم:

- البقاء لله؟ عزيز حصل له حاجة؟

فقلت له:

- لا والد الدكتور عزيز الليثي توفاه الله.

حدجني الرجل بنظرة طويلة كأنما يمنح نفسه فرصة طيبة لتدبر الأمر، ثم قطب وتطاير من عينيه الشر:

- أنت عيط يا بني؟ أنا ابوه وعايش أهه، هو أنتم النصابين بتوع الكاميرا الخفية ولا إيه؟

ثم ضحك ضحكة عصبية، ثم غضب، ثم تقلصت أساريره حتى قبحت وجهه، وانطلق يسب ويلعن، لكن الدكتورة سعدية اندفعت تطبق على قميص الرجل بقبضتيها تهزه وهي تصيح:

- دكتور عزيز قال أنك مت يبقى البقاء لله، أمال يعني احنا طخينا المشوار ده كله على الفاضي؟

كان الغضب قد ملك ناصية الرجل، فخلص نفسه من قبضة سعدية وواصل سبابه:

- أوعي يا حيوانه انتِ، عملها عزيز ابن الحرام، علي فكرة بقى الواد ده مش ابني، أنا لقيته ملفوف في كيس "أولويز" على باب جامع.

عدت أعاتب الدكتور الليثي على كذبه فقهقه ضاحكًا وقال:

- ياكروديا، أبويا ده أنا موته ييجي عشر مرات.. هو أصلًا ابن كلب

بخيل مستحيل يكون أبويا.. قُطع وقُطعت سيرته.

وشرح لي كيف فاجأته ولادة قيصرية عاجلة في القسم المخصوص ما كان له أن يتركها، والأهم أنه ـ وبكثير من الاشمئناط ـ أقر بأنه عزف عن تقديم خدماته لسميرة المهندس لما وجدها فتاة طاهرة، تسلك درب الغواية لتصطاد لنفسها رجلًا تتزوجه وتستظل بظله، لكنها تأبى العبث واللهو مما زهده فيها.

تفرقت بنا السبل فلم أدر ما صار من أمر سميرة بعد لقائنا، وهل رزقها الله بمن يدخلها في زمرة "المحظوظين" أم ظلت في عداد المنسيين. أما عزيز الليثي، فرحم الله أباه، عندما انتقل إلى جوار ربه بعدها بشهور، لم يصدق أحد خبر وفاته، ولم يشيعه أحد من مستشفانا إلى مثواه، ولم يواسي أحد الدكتور عزيز، فقد أدرك الجميع أنه فعلًا "ابن ألويز".

مس سونيا

حُفظت التحقيقات في البلاغات المقدمة ضدي بعد ثبوت كيديتها.. وسحبت أنا بلاغي ضد نحمده عليوة، كما حُفظت التحقيقات معها بعد تلف شرائط التسجيل.. وظهور خطأ لجنة الجرد لعهدتها التي ثبت أنها كاملة.. وثبوت أنها حاصلة على شهادة تمريض صحيحة من معهد تمريض في كوستاريكا.. كما ثَبُت أن ثروتها هي وزوجها جابر أبو عسكر مفسرة ومعلومة المصدر، بعد شهادة مستشفيات السويدي بشرائها كل سيارات المستشفى من توكيل سيارات جابر أبو عسكر.

هل انتهي الامر بهزيمة تامة؟ كلا، فقد تم ترقية نحمده عليوة أو مس سونيا إلى منصب المدير الفني للتمريض.. وهو منصب شرفي يبعدها عن العهدة ومستلزمات الجراحة، ويقطع عليها طريق الاتجار فيها.. أقنعت نفسي بأن في هذا نصراً واضحاً شربت نخبه عرق سوس ساخن مع صديقي الوفي البروفيسور عرابي الذي قال لي من اليوم الأول "مافيش فايدة".

١٥- الفندلة

ليلة رأس السنة في المستشفى كانت علامة فارقة، فها هي السنة الثانية توشك أن تغادرنا، وفي الصباح أتسلم عملي كنائب سينيور، والأكيد أن سعدية ستفارقني غير مأسوف عليها، لم يفتني أن أهنئ نفسي أنني قد أنهيت العمل مع سعدية وهي على قيد الحياة دون أن أقتلها كما حلمت كل ليلة.

كنت مكلفًا بعنبر الولادة في ذلك اليوم، وكنا قد رتبنا لحفل رأس السنة في المستشفى بالموسيقى والحلوى والشراب. ومع غروب الشمس، أرسل إليّ الأستاذ الدكتور عمر عبد الجليل توصية على إحدى السيدات اللاتي جئن للولادة في ذلك اليوم. الدكتور عمر من القلة القليلة بالمستشفى التي تتميز بالوداعة ودماثة الخلق علاوة على العلم الغزير، كما حباه الله بخفة ظل وروح مرحة جعلته صديق كل النواب وفتحت له قلوب المرضى، لكن الدكتور عمر الذي أمضى سنوات من عمره يعمل في إنجلترا، يتبدل حاله ويعتريه غضب شديد إذا ما رأي أحد النواب يمارس "الفندلة" على إحدى السيدات أثناء الولادة، والفندلة فعل معرّب من الكلمة اللاتينية Fundus وهي أعلى الرحم، والفعل يعني الضغط

بقبضة اليد على أعلى رحم الحامل من فوق السرة ساعة الولادة لدفع الجنين إلى النزول والمرور من المهبل، وهي تشبه عملية دفع الكريمة من فيه القرطاس التي يمارسها صناع الحلوى، ومتى رأيت إحدى الحكيمات وهي تعتلي بطن المريضة وتضغط على أعلى الرحم بقبضتي يديها كما تفعل الفلاحات لعجن الخبز في الأرياف، فاعلم أنك تشهد عملية فندلة، أو كما يطلق عليها الدكتور عمر عبد الجليل "المكاركة، تشبيهًا بالميكانيكي الذي "يكارك" فرامل السيارة بالضغط المتكرر والعنيف والمستمر لدواسة الفرامل لإخراج الهواء من أنابيب الزيت.

ثم كان أن عرج الدكتور عمر على قسم الولادة للاطمئنان على مريضته التي أوصى عليها، وكنت في استقباله في العنبر، وأبلغته بأنها لم تبدأ الولادة بعد وأن سعدية معها. جلس الدكتور عمر إلى جواري في غرفة الكشف، وطلب مني أن أباشر عملي حتى يقترب أوان ولادة مريضته.

أدخلت الممرضة الحالة الأولى، فوجدتها سيدة في حملها الثاني قد وضعت طفلها الأول بولادة قيصرية، التقطت ملف المريضة وكتبت "تحول للعمليات لإجراء قيصرية"، تعجب الدكتور عمر وبادرني بالسؤال عن السبب فقلت له:

- تعليمات يا بك، اللي تولد قيصريه قبل كده، علشان الرحم ما ينفجرش من مكان الجرح أثناء الولادة الطبيعية، التعليمات إننا ما نحاولش نولدها طبيعي ونعمل لهم قيصرية على طول.

امتعض الدكتور عمر، ومضى يشرح لي:

- يا بني العلم بيقول نعمل القيصريات لسبب من اتنين[٥٧]،

يا أسباب مستديمة زي ضيق عظام الحوض بشكل واضح يستحيل معاه مرور أي جنين، أو أسباب مؤقتة غالبًا خاصة بالحمل ده، زي أن العيل وضعه غلط جوه الرحم، يعني عيل نايم بالعرض، أو عيل جحش وزنه كبير قوي علشان أمه مثلًا عندها السكر وهي ما تعرفش وما اتعالجتش، أو زي أن المشيمة تكون تحت العيل مش فوقيه، أو أن السائل الأمنيوسي يعني مياه العيل يكون قليل.. يعني أسباب كلها مؤقتة لها دعوة بالحمل ده بس، هم مش علموكم كده؟ فلما أجبت أن نعم، استطرد يقول:

- طيب، يبقى لما ست عملت قيصرية لأسباب مستديمة، دي طبعًا هتولد بعد كده طول عمرها ولادة قيصرية.. لكن لو ست عملتها لأسباب مؤقتة، يبقى المرات اللي بعدها، لازم نقيم الوضع ونشوف، ولو ما فيش سبب للقيصرية يبقى نولدها طبيعي، فهمت؟

قالها وجذبني من يدي إلى حيث أرقدنا المريضة، وكشفنا عليها فانتهي إلى أن المريضة تستطيع أن تلد بسهولة فقط بحرص ومراقبة لصيقة ولا داعي للقيصرية، ورغم اقتناعي بكلامه فإنه حين سألني:

- هه، بتقولك المرة اللي فاتت العيل كان مقعدته هي اللي تحت بدل راسه وما لقش ساعة الولادة، والمرة دي الراس تحت والمية كويسة والحوض واسع ويعدي أتوبيس، تولدها إزاي يا مشمش؟

فأجبت دون تردد:

- قيصرية يا بك طبعًا.

لم أكن أقصد بإجابتي قطعًا أن أستفز الدكتور عمر، ولا أن أُطلق لسانه

بسبي وتعنيفي، لكنني كنت أعلم بالقاعدة المتبعة في مستشفانا، والتي تنص على أنه متى وضعت امرأة طفلها بقيصرية في حملها السابق، ملعون وآثم النائب الذي يسمح لها بخطيئة الولادة المهبلية لاحقًا.. وذلك ما اتفق عليه جمهور أطباء أمراض النساء والتوليد في مستشفياتنا العربية.. وحجتهم في ذلك، أنه إذا كان الله سيمن على أحدهم بمريضة لن تجادل في إجراء القيصرية بأجرها الأكبر للطبيب مقارنة بالولادة الطبيعية، مع ميزة إجرائها في الوقت المناسب للطبيب دون الحاجة لإنفاق ساعات الليل الطويلة إلى جوار من تصرخ وتولول وتصكّ وجهها وهي تضع طبيعيًا، فأي عاقل هذا الذي يضيع ثلاثة أضعاف الأجر مع قصر الوقت المبذول ومناسبته لظروف الجميع؟ ألا يكن هذا رزقٌ من الله من البطر الشرير التنكر له؟ فكيف يكون الحال إذا ما اشتهرت مستشفانا بأنها تمنح من وضعت بولادة قيصرية في ولاداتها السابقة العفو والمغفرة والعتق من الولادة القيصرية فتهبها ولادة مهبلية طبيعية؟ ألن يصيب هذا مصداقية زملائنا عند مريضات عياداتهم الخاصة ومريضات مستشفيات وزارة الصحة ومستشفيات التأمين الصحي والمستشفيات الخاصة، بالسوء والضرر، إن هم أقسموا أغلظ الأيمان ألا سبيل لتوليدهن طبيعيًا من بعد القيصرية؟ ثم أن هذه المريضة بالذات لابد أن تضع بولادة قيصرية، حتى أُنكد على نائبتي السابقة وفاء مخلص وفريقها المسئولين عن إجراء القيصريات في ليلة رأس السنة.

انتهي الدكتور عمر من سبي وأعاد على السؤال:

- هه، هتولدها طبيعي يا زفت؟

عجالة أومأت برأسي موافقًا سيادته على رأيه، وأشرت للممرضة

بسبابتي إلى أعلى، ففهمت أن تحول المريضة إلى عمليات الدور الرابع في هدوء.

دخلت المريضة الثانية، وكانت شكواها توقف حركة الجنين واشتباه وفاته، فكتبت على ملفها "تحول إلى الموجات فوق الصوتية لتحديد حالة الجنين".

امتعض الدكتور عمر من جديد، وسألني إن كنت قد أنصت إلى نبض الجنين باستخدام السماعة المخصصة لذلك بدلًا من شغل جهاز موجات فوق الصوتية دون داع، فأجبته بأن المريضة في حالة وفاة الجنين ستضطر إلى عمل الموجات لتوثيق الوفاة على كل حال، فلا داعي إذًا للكشف التقليدي.. هز الرجل كتفيه وشرع يشرح لي:

- إذا سونيك أيد (سماعة نبض الجنين) ممكن يقولك أنه عايش وبخير والولية هي اللي موسوسة.. ويبقى ولا تحتاج لموجات ولا خلافه ويبقى وفرت من عمر جهاز الموجات الغالي وكمان وقت زميلك اللي هيعمل الموجات، يبقى ليه ما تستخدموش؟ ها، هتطلب موجات فوق صوتية يا مشمش؟

فأجبت أن نعم، فأطلق لسانه بسبابي من جديد.

ورغم اقتناعي بكلامه، إلا أن أسبابي كانت أيضًا قوية.. ذلك أنه في حالة ثبوت وفاة الجنين، فإن عملية إنهاء حمل المريضة الكئيبة الحزينة سيستهلك مني ساعات طويلة، تصبغ فيه المرأة ليلة رأس السنة بالسواد والكآبة لضياع جنينها، وما الفحص بالموجات فوق الصوتية إلا حيلة لكسب الوقت حتى تنتهي نوباتجيتي فيشقى بها زميل آخر.

انتهى الدكتور عمر من سبي، وأعاد على سؤاله:

- هتعملها موجات فوق صوتية يا زفت؟

مجاملة هززت رأسي نافيًا، ثم أشرت للممرضة بسبابتي إلى أسفل، ففهمت أن تحولها إلى قسم الموجات فوق الصوتية في الدور الأرضي بهدوء.

ومضى الحال على هذا المنوال، نفحص الحالات، دكتور عمر يمتعض، يشرح، يسأل بمشمش، أخالفه الرأي، يسبني، يسأل بزفت، أوافق على رأيه، وأشير بسبابتي برأيي، والممرضة تنفذ تعليماتي في هدوء.

اقتربنا من منتصف الليل، وشارفت حالة د. عمر على الوضع، فاستدعتنا الدكتورة سعدية مسعود وقصدنا إلى غرفة الولادة.. في الطريق إلى حجرة الولادة، انطلق الدكتور عمر يشرح لي أسبابه في كراهية "الفندلة"، وكم الكوارث التي جعلته قبل سفره إلى إنجلترا، زبونًا دائمًا في أقسام الشرطة وأمام المحاكم، وكم التعويضات التي اضطر لدفعها لأهالي المريضات تعويضًا عما لحق بهن من مضار بسبب هذه العملية. كنا قد وصلنا إلى حجرة الولادة، لكن الدكتور عمر الذي أخذته الجلالة توقف أمام الباب وظهره للحجرة واندمج في الشرح الدقيق والحكايات التي لا تنتهي عن كعبورته تلك.

من وراء الدكتور عمر، رأيت مريضته مستلقية على ظهرها وقد باعدت بين ساقيها ورفعتهما في الهواء، ورأيت الدكتورة سعدية وقد امتطتها عكس ما يُمتطى الحمار، فكان وجه سعدية مواجهًا لساقي المرأة، وقد كورت كلتا قبضتيها وانهالت ركلًا في بطن المرأة في منطقة أعلى الرحم.. تدفع الجنين بكل عزمها.. بينما وقفت إحدى الحكيمات بين ساقي المرأة في انتظار خروج الجنين إلى الحياة. نظرت لوجه المريضة فكان

لونه بين الاحمار والزرقة، وقد استحال سواد عينيها بياضًا ناصعًا، وإلى جوارها رأيت ملك الموت في حلة سوداء لامعة تليق بسهرة ليلة رأس السنة، رأيته يدعوها للتوقيع على عقد منزلها الجديد في السموات العلى مع خصم خاص للاستجابة الفورية. فجأة أمسك الدكتور عمر بيدي وقال لي وهو منفعل:

- أنا يا بنى اتبهدلت ورحت النيابة بعدد شعر رأسي، أوعى تعمل كده، اوعى تفندل لعيانة أو تسيبها يتفندل لها، فاهم؟ احلف دلوقتى أنك عمرك ما ها تعمل كده، احلف...

فأجبته وعيني معلقتين بحفل التوقيع من خلفه:

- حاضر يا بك حاضر، ممكن بقى أشوف الست..

فعاد يستحلفني بإصرار:

- لا، قول والخاتمة الطاهرة ما هأفندل لعيانة في حياتي، قول، قول..

فأجبته وأنا عنه ذاهل:

- خاتمة إيه حضرتك؟

فأعاد على القسم:

- قول والخاتمة الطاهرة..

فقلت مستفسرًا:

- اللي هي إيه يا بك؟

فهز رأسه قائلًا:

- مش عارف، بس الواد بتاع القهوة طول النهار تحت العيادة بيحلف بها.. احلف بقولك

ورغم عجبي من القسم فقد أقسمت بالخاتمة الطاهرة ألا أفندل أو أسمح بفندلة في وجودي بعد اليوم.

- قولها ثلاث مرات..

فأجبته متوسلًا:

- يا بك أبوس رجلك سيبني أشوف الست.

- والخاتمة الطاهرة لتحلف الأول.

فلما أقسمت ثلاثًا، هدأ الرجل بعض الشيء، ثم قال لي:

- طيب فين الست اللي أنا موصي عليها؟

وفي هذه اللحظة لكمت الدكتورة سعدية رحم المرأة لكمة قوية فأطلقت المرأة صيحة مدوية، وجرى القلم في يدها لتوقع بالحروف الأولى على العقد..

التفت الدكتور عمر، وألجمته المفاجأة، فتسمر بلا حراك في مكانه فاغرًا فيه. علا ضجيج التمريض المتجمع للاحتفال بآخر عشرين ثانية في العام، وعلا صوت الموسيقى الصاخبة، فطمسا على صراخ المريضة وسباب سعدية وصياحها في وجه المريضة كي تحزق أكثر لتدفع الجنين إلى الحياة، ثم بدأ التمريض في العد التنازلي لآخر عشرين ثانية في عمر العام المنصرم، فلما انتهوا، انطفأت الأضواء، وساد ظلام دامس، لحظات.. وسُمع صوت ارتطام جسم بالأرض.. وصراخ الدكتورة سعدية.. ثم صرخة ألم تخلع القلوب.. ثم بكاء وليد.. ثم هدأ كل شيء فجأة.

عندما عادت الأضواء، كان صدري يعلو ويهبط، وأنا أقف بجوار الدكتور عمر، الذي قال لي:

- الست ولدت؟ الحمد لله، اطمن عليها يا كريم بعد اللي حصل لها ده، شفت الحيوانه سعدية وهي بتكارك لها؟

ثم قال بريبة:

- هو أنت بتنهج كده ليه؟ والست ليه صرخت كده والنور مطفي، هو أنت رحت تكارك لها؟

فأجبته ولم أزل مشدوهًا من هول الموقف:

- لا يا بك والخاتمة الطاهرة دي ولدت لوحدها، وبعدين أنا مش بنهج.. ومش الست اللي صرخت.. دي سعدية بس وقعت سعادتك!

فأجاب على الفور:

- يلا في داهية كسر رقبتها.

واكتفي الدكتور عمر عبد الجليل بأن أجبرنا على أن نقسم من جديد بالخاتمة الطاهرة ألا "نفندل" بعد اليوم لأي مريضة، واكتفيت أنا بصوم ثلاثة أيام الكفارة عن قسمي بأني لم أفندل المريضة.. في حين تقدمت الدكتورة سعدية ببلاغ للصديق معتز منصور وكيل النيابة، حفظه فورًا، اتهمتني فيه بجذبها من ملابسها ودفعها من أعلى المريضة مما تسبب في كسر عظام ترقوتها وساعدها!

مس سونيا

انتهيت من إجراء آخر جراحة قيصرية لي في عنبري هذا، واستعديت للعنبر الجديد.. مددت يدي لأنزع عني ثوب التعقيم، وفجأة أحسست بنهدين شهيين في ظهري، ووجدت من تهمس في أذني: منور الدنيا كلها ياسيد الناس..، التفت فوجدت امرأة شابة تغطي طبقات من المساحيق الثقيلة وجهها وترتدي ثوب تمريض أبيض ضيق، برع في إبراز مفاتنها وحسنها.. سألتها عن هويتها فأجابت بصوت كله غنج:

- أنا سونيا..

فلما لم تر على وجهي سوى الوجوم.. قالت وهي تمرر يدها على ظهري من أعلى لأسفل:

- أنا اللي مسكت عهدة الخيوط والمضادات بدل نحمده عليوة يا سيد الناس، إيه رأيك تغير هدومك على ما أحضر لك نسكافيه؟

فأجبتها بلا تردد:

- ما بشربوش يا سونيا.. أقولك، حضري لي البغاشة في مكتبك..

انتهى العام الثاني، وصار لزامًا تقديم كشف الحساب عن مسار الأمور مع كريم رأفت.

وهنا، وعلى خلفية موسيقى مقطوعة "واحد من الناس" لعمرو إسماعيل، لا أحتاج أن أسبر أغواري لأقرر أنني قد تغيرت.. فذكريات أحداث جرت في أغوار متناهية البعد في نفسي أراها وكأنها تجري اليوم أمامي، تقول أن الأرنب الغر صار نمرًا، يجمش بأظافره التي طالت من يهم بالعبث به، ولا يفت في عضده قوة الخصم وبطشه، بل يقارعه بالحجة الدامغة، فإن أعجزه واجهه بالدهاء المحمود حينًا وبالسخرية الماكرة أخرى، مترفعًا عن الكيد المذموم في كل الأحوال.. ثم أنه يغبطه حينًا أن يبدأ هو بالعبث يسعى إليه سعي حيوان أمضه الجوع ويستمرئ اللهو، ثم ما ينفك يقض مضجعه ذكرى ما سببه من ألم أو شجن لغيره.

واستمرت الرحلة، رحلة كريم رأفت في دنيا أمراض النساء والتوليد..

الفصل الثالث

وبدأت أحرج سنوات النيابة.. إنها السنة الثالثة والأخيرة.. والتي يخوض النائب في نهايتها اختبار الحصول على درجة الماجستير التي يحصل عليها فقط من ينال رضا أساتذة مجلس القسم، حتى ولو اجتاز اختبارات التحريري والشفوي والإكلينيكي بنجاح.. مما يحتم على النائب أن يتوخى الحرص حتى لا يسقط في أخطاء مهنية أو خلافات شخصية أثناء العام تُحفر في ذاكرة السادة الأساتذة.

في هذا العام، يقود النائب السينيور فريق عمله المكون من النائب الأحدث الجونيور والنائب الأقل حداثة الميد سينيور، وعلى كاهله تقع كل المسئولية أمام إدارة المستشفى في إدارة عنبره وحسن سير العمل في النوباتجيات التي يكلف بها الفريق. من يمر من مقصلة العام الثالث، ويتأهل لامتحان الماجستير، ثم يمر من بوابة الرضا في مجلس القسم، يضمن الفوز بلقب "الأخصائي" الذي كان ـ في الزمن الجميل ـ يفتح له باب العمل في دول النفط العربي، قبل أن تتنكر المذكورة لهذه الدرجة العلمية العريقة وترفع مهرها إلى زمالة الكلية الملكية البريطانية أو البورد الأمريكي.

بترقب وأمل، وتوجس وخيفة، توجهت لسكرتارية القسم، أتفقد

من سينضم لي في فريقي من النواب الأصغر في هذا العام الحاسم، حتى أتأكد من انسجام الفريق الذي سأقوده حتى أصل إلى بر الأمان وأنهي سنوات نيابتي وأحصل على درجتي. على باب حجرة السكرتارية وجدت جدول توزيع فرق العمل لهذا العام: كريم رأفت نائب سينيور، سعدية مسعود أسعد السعد نائب ميد سينيور، وعلاء مصطفى (الشهير بعيلاء فراولة نسبة إلى حبوب السيكونال الحمراء التي يرجح البروفيسور عرابي أنه يتعاطاها، أو عيلاء برشط كما أطلقت عليه نسبة إلى البيض نصف سوي الذي يأكله كل يوم في كل وجبة) نائب جونيور. ثم أمام توزيع الوحدات: الوحدة الرابعة الأستاذ الدكتور لطيف الطيبي.

الوحدة الرابعة هي أنسب وحدة لعامي الثالث الحرج، وذلك لقلب رئيسها الدكتور لطيف الطيبي الكبير وتميز أساتذتها بالدعة والهدوء وقلة العمل وبالتالي المشاكل، لكن سعدية وعيلاء؟ أسقط في يدي، وتبخرت أحلام الحصول على الماجستير، فهرعت إلى السيد الأستاذ الدكتور أشرف فهمي رئيس القسم، وشرحت لسيادته كيف جرت العادة على تغيير دماء الفريق كل عام، فأخرج بيان توزيع النواب.

خفق قلبي وقلت له بتوسل حار:

- شفت يا بك؟ ممكن بقى حضرتك تغير لي سعدية مسعود، وبالمرة عيلاء سيادتك؟ والله حضرتك أنا اتبهدلت كفاية.

فنظر لي باستهانة وقال بتهكم:

- قوي قوي، تؤمرني يا حبيبي، إيه رأيك أجيبلك منى زكي وأحمد السقا؟ ولا تحب نيكول سابا وأحمد عز؟ التوزيعة اتعملت خلاص، اطلع بره، حيوان حيوان.

وهكذا لعب القدر لعبته ووجدت نفسي من جديد مع سعدية العصبية.. وكأنها لم تكن تكفي، فأضافوا لي عيلاء فراولة.. عافت نفسي الحياة، وخرجت من مكتب السيد رئيس القسم وأنا أضمر له الاستياء واللوم وسرت إلى حجرة مدام تحية سكرتيرية القسم - وهي سيدة غادرها قطار الحسن بعد أن كانت فاتنة القسم بفضل تميز ردفيها اللذين مدحها أحد شعراء كلية الطب بمعلقة رنانة - التي ما أن رأتني في الردهة أمام باب حجرتها، وهالها ما بدا على مظهري من القنوط واليأس، حتى سألتني باهتمام وإشفاق عما ألم بي، فلما صرحت لها بمصيبتي انتفضت واقفة وقالت بتصميم:

- يعني إيه الكلام ده، أنا هأكلم أشرف فهمي حالًا.

فقلت لها وأنا أعض بنواجذي على أهداب الأمل في أن يفلح ما بقي من سحر ردفيها في إقناع البك رئيس القسم بعدالة موقفي:

- تفتكري ممكن يا مدام تحية؟

فحدجتني "مارلين مونرو" القسم، وقالت باستنكار وهي تستدير، ربما لتريني قوة أسلحتها التي ستطلقها على السيد رئيس القسم:

- استناني هنا.

وقامت قاصدة حجرة رئيس القسم وأنا أدعو لردفيها بالنصر والتأييد.. مضت دقائق مرت على كدهر، ثم عادت مدام تحية وقالت لي:

- مبروك..

دبت الروح في جسدي من جديد، وذهب عني كل قنوط ويأس، ووددت لو انكفأت أقبل ردفي مدام تحية الفاتنين، ولمت على نفسي كيف

أني لم أدرك حسنها من قبل.. أقبلت على منقذتي أسألها عن أسماء فريقي الجديد فقالت:

- لا هو مارضاش يغير لك النواب، بس أنا أقنعته يغير لك الوحدة الرابعة علشان ما فيهاش شغل وهتروح الوحدة العاشرة عند دكتورة عصمت عوض علشان تتمرن كويس...

عندما أفقت وجدت نفسي ممددًا على الأريكة الجلدية في حجرة مدام تحية وقد تجمع حولي الزملاء وهم يرثون لحالي وسمعتهم يقولون:

- مسكين الصدمة كانت شديدة عليه، حد يطمنا على مدام تحية يا جماعة.

لم يحتفظ عقلي بأي ذكرى عما حدث لمدام تحية في ذلك اليوم، لكنها تغيبت عن العمل شهرًا، فلما عادت صارت تجلس على عجلة مطاطية وتمشي بظهرها كلما رأتني وقد غطت ردفيها الفاتنين بكفيها.

وفي وحدة الأستاذ الدكتور عصمت عوض كانت لي أيام مع الزملاء: سعدية العصبية، وهي من هي كما رأينا، والوجه الجديد علاء مصطفى، أو عيلاء فراولة.

fb.com/SaTer.Elkotob

١- عيلاء فراولة

وجاءت أول نوبتجية لي مع عيلاء فراولة، نائبي الجديد مدمن السيكونال والبيض.

لم يكن عيلاء وحده هو المدمن في مستشفانا، فحقيقة الأمر أننا كلنا صرنا مدمنين لشيء ما منذ استقر بنا المقام في المستشفى، فإلى جوار دخان البروفيسور عرابي الأبيض أو الأزرق، منا من أدمن التدخين حتى صار يلتهم السيجارة بعقبها، ومنا من أدمن السب وفُحش اللسان حتى صار معجمًا في السفالة، ومنا من أدمن العبث مع التمريض والعاملات ومرافقات المريضات وأي كائن يُحسب أنه مؤنث، ومنا من أدمن استعراض ذكورته، فلا يزال يسير في سكن الأطباء بفانلة حمالات بيضاء مضلعة وسروال داخلي من إنتاج شركة غزل المحلة، مع حك كيس الصفن وما يصاحبها من نشوة وحبور، ومنا من أدمن اللعب في منخاره حتى أزال الجدار بين التجويفين وصار منخاره تجويفًا واحدًا ينخر فيه بأصبعين بدلًا من أصبع واحد. أما عيلاء، فيقسم أنه، بخلاف يوم الخميس وجلسة الدخان الأزرق مع البروفيسور عرابي، لا يتعاطى غير الشاي بحليب، والبيضتين اللتين يلتهمهما مع كل وجبة، بعد أن

توقف عن تعاطي أقراص الفراولة، وإن صعب تصديق قسمه مع عينيه الحمراوين دائمًا، وتلعثمه الدائم ومطه للحروف وهو يقول لك عبارته المشهورة:

- مظبط أنا، أنت نظامك إيه يا برنز الساسبنز؟!

وكما هو المعتاد مع النائب الجونيور، كان عيلاء هو المكلف بعنبر الولادة أثناء الليل تحت إشرافي.. انتهيت من المرور معه على الحالات والاتفاق على طريقة ولادة كل منهن وعلاج من لسن في ولادة، فنظرت إليه بتوجس وقلت له:

- فاهمني يا عيلاء، فيه أي حاجة عايز تسألني عليها؟

فأجابني وهو يمط الكلام مطًا:

- يا عم اطمن خالص أنا مظبط.

عدت ألح عليه:

- طيب ولو احتجت حاجة، سيبك من سعدية لأنها مش هتصحى أبدًا، كلمني أنا أنزلك من السكن.

فدعك عينيه ومسح تحت أنفه، ثم قال بتأفف:

- يا كابو(*) مش محتاجة، أنا دلوقتي معلق محاليلي ومولد حالاتي وحاطط كرسي على الباب وضارب عشايا ومهدي ليلتي، فاكس كده؟

- بس حاسب تتقل بعد العشا وتنام.

(*) الـ"Capo" هو زعيم العصابة في اللغة الإيطالية.

- أنام إيه يا حاج ده أنا نايم من مولد النبي.

سألته بدهشة:

- أنهي نبي فيهم؟

- النبي بتاعنا يا عم.

- مولد النبي بتاعنا كان من ست شهور يا عيلاء، أنت ضارب فرولة؟

- يا عم ومقام سيدي شديد ما ذقت غير شاي بلبن، هو أنا شكلي كده، يلا كفاية لت وعجن، طريق السلامة يا عسل خلينا نلم عيال العنبر ده ونجرج النسوان دي.

لم أجد في ذاكرتي ما يحكي عن سيدي شديد، لكني أحجمت عن السؤال، وصعدت إلى غرفتي في سكن الأطباء، واستسلمت للنوم فورًا من عناء يومين لم أُغمض فيهما جفنًا، لكن لم تمض ساعتان حتى استفيقت على ألم شديد يقطع أمعائي، وتذكرت أنني لم أتناول أي طعام منذ الليلة السابقة.. أيقظت ممدوح الحيوان عامل السكن، وأرسلته في طلب بعض الشطائر والفاكهة.. عدت أحاول النوم حتى يأتي ممدوح بالطعام لكن عاندتني جفوني، فارتديت ملابسي وعرجت على العنبر كي أسلي نفسي مع عيلاء حتى يأتيني الطعام.

دلفت إلى العنبر، فوجدت أبواب حجراته كلها مغلقة.. اقتربت من باب حجرة الولادة، فسمعت أصوات صياح وتأوهات، فأسرعت أفتح الباب، لأجد سيدة في العقد الخامس من عمرها ترتدي جلبابًا أسودًا قد شمرت أكمامه، وأرسلت ذراعها بين ساقي سيدة في حالة وضع قد برز منه الوليد من مهبلها..

أسرعت إلى السيدة وسألتها:

- أنت مين يا حاجة؟

فأجابتني دون أن ترفع عينيها عن الوليد الذي يخرج بالتدريج من جسد أمه:

- أنا خالتك أم براهيم الداية.

لم أفهم، فرددت وراءها:

- وخالتي أم ابراهيم الداية بتعمل إيه في أودة الولادة؟

فضحكت أم إبراهيم وقالت بسخرية:

- بأتفرج على المسلسل يا دلعادي.. أنت أعمى البعيد؟ مش شايف باولد البت؟ دا بيطلعوا امتى دول ياختي.

عبثًا حاولت أن أشرح لأم إبراهيم سبب سؤالي:

- شايف يا ستى بس مش فاهم ليه، إحنا في مستشفى وفيها دكاترة وتمريض، يبقى الداية بتعمل ايه؟

فأجابتني وقد نفذ صبرها:

- دكاترة؟ ما شاء الله على الدكاترة، أنا هنا مكان الدكاترة يا خويا وإن كان عاجبك، وبعدين تفهم ولا ما تفهم، وأنت تطلع إيه يا أخينا أنت إن شاء..؟؟

وقطع فاصل الردح الذي كانت على وشك إلقائه في وجهي أن صرخت المريضة صرخة هزت أركان العنبر، وسرعان ما خرج الوليد بالكامل، وهنا صرخت أم إبراهيم في:

- بسرعة يا خويا ناولني مقص ودوبارة من صنية العدة بدل سين وجيم بتاعتك دي.. يلا اجمدي يا شابة هانت، نِزَل الخلاص ونقول لك حمد الله على السلامة وما تنسيش الحلاوة.

ناولتها المقص والخيط وسألت السيدة الراقدة إلى جوارهن:

- أمال فين دكتور عيلاء والبنات الحكيمات ودكاترة الامتياز يا مدام؟

فنظرت إلى المريضة وقد استوعبت أني طبيب العنبر:

- والله يا دكتور جاه بص علينا، وبعدين قالوا له البيض جاهز فقال لنا معاكم أم إبراهيم الداية وشكرية العاملة راضوهم، واللي هاسمع صوتها هولع فيها ولم الحكيمات ودكاترة الامتياز وقفل الباب ومن ساعتها ماحدش سأل فينا ولا حتى لاقينهم.. بس الشهادة لله، أم إبراهيم عاملة معانا الواجب، بخمسين جني بتولد، وست شكرية بعشرين جني بتشطف وتلبس العيل، مولدين أربع حالات ودي الخامسة الله يكرمهم.

تركت أم ابراهيم تكمل عملها الاستشاري الخاص هي وشكرية العاملة، وانطلقت أبحث عن الدكتور عيلاء وطاقم الولادة.. تفقدت غرف الولادة، حتى إذا بلغت نهاية الردهة، سمعت ضحكات وموسيقى من وراء باب حجرة كانت فيما مضت مكتب أحد الأساتذة قبل أن تتحول إلى مخزن.. فتحت الباب ودخلت، فوجدت طاقم التمريض والامتياز وهم غارقون في الأكل والشرب، وقد ربطت إحدى الممرضات وشاحًا حول ردفيها اللذين سرت فيهما رجفة قوية، وصارت تتمايل ذات اليمين وذات الشمال على أنغام موسيقى صاخبة تنبعث من مسجل في نهاية

الحجرة. تنبه الجمع لدخولي، فأمسكوا عن الكلام، وأسرعت إحدى الممرضات لتُغلق المسجل فتوقفت الموسيقى. نظرت إلى المائدة الممتدة وسألتهم:

- إيه ده؟

فأجابت هناء أقدم الممرضات وهي تضحك:

- ده سندوتشات بيض يا دكتور كريم، أنت عارف دكتور عيلاء بيموت في البيض البرشط.

بقيت على تجهمي وسألتها:

- وفين الدكتور برشط؟

من باب دورة المياة الملحق بالحجرة، خرج الدكتور عيلاء برشط يرتدي جلبابًا أبيضًا فضفاضًا، وقد وضع على رأسه منشفة مزركشة زاعقة الألوان، فلما رآني قال لي متعجبًا:

- إيه ده، أنت إيه اللي صحاك دلوقتي؟ لسه بدري يا كابو.

- أنت لابس كده ليه، وبتعمل إيه؟

- البنطلون كبس على البيض ففكيت عن نفسي شوية، وبغسل دماغي عشان أفوق بعد العشا، ما تاخد ساندوتش من الجامد ده، مد ايدك ما تتكسفش، البيض بيضك.

- وسايب الولادة لوحدها؟

- هي الولادة هتمشي ولا حد هيسرقها.

- سايب الحالات أم ابراهيم وشكرية يولدوهم في العنبر؟

- دول نسوان ولاد كلب يا عم، ما بطلوش صويت، فمرضتش أتغابا وأمضي عليهم بطيرة، وقفلت عليهم الباب الله يحرقهم!

- يعني إيه طيره؟

- اللي هي بالإنجليزي مطوة يا برنس.

- آه، ماشاء الله، أنت عارف أن أم إبراهيم مولدة خمسة منهم لحد دلوقتي؟

- بيض بعيون، ما هم قالوا لي بعتوا جابوا أم إبراهيم قلت يلا عالبركة.

- أم إبراهيم دي إيه بقى إن شاء الله؟

- أمو إبراهيم اخت عواطف اللي محجوزة عندنا في العنبر، لا خلي بالك، جامدة أمو إبراهيم، دي فرخة قديمة في الكار، يعني أنا لو مش عارفها حلو، ما كنش هسيبها تهرس في النسوان في العنبر وتفقش لنا الشغل.. بس دي وليه كفاءة، بايضة نص البلد، اسأل حتى حبلظ السايس وروؤة السني.

- دي بتاخد خمسين جنيه من العيانين علشان تولدهم يا علاء.

- بت الكلب، شوف يا أخي جشع النفس، أنا قلت لها خدي قهوتك بس بالمعقول.

- حتى العيانة اللي على المونيتور ما حدش بص عليها من بدري..

- مونيتور ايه؟

فأجبته بسخرية:

- لا أبدًا ده جهاز كده اخترعه عيال أمريكان، واحد اسمه "هيس" والتاني اسمه "هُنّ"، بيرسم نبض العيل(*).

فأجاب ببله:

- وإحنا عندنا جهاز الهُنّ ده؟

فصرخت فيه:

- جهاز رسم قلب العيل يا دكتور، أنت ضارب حاجة؟

فأجاب بدهشة:

- أه شاي بلبن، فيه حاجة؟

صرفت السيدة أم إبراهيم وأكملت الليلة في عنبر الولادة مع الدكتور عيلاء حتى لاح الضياء، وهممت بأن أذهب لأستوفي نومي لكن النوم افترسني، فغفيت على أحد مقاعد العنبر، حتى أفقت على يد الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد وهي تهزني وكأنها تنفض التراب عن بساط قديم:

- كريسيم، معقول نايم لدلوقتي؟ قوم بقى شكلك زبالة أساسًا وأنت نايم.

بصعوبة فتحت عيني مستفهمًا فاستطردت تقول:

- فيه أمين شرطة من عند وكيل النيابة صاحبك معتز زعطوط عايز يجرجرك على القسم علشان واحدة اسمها أم إبراهيم، هو إيه الموضوع أساسًا؟

(*) أورفان هيس وإدوارد هنّ مخترعا جهاز رسم قلب الجنين الكهربائي عام ١٩٢٧ (٥).

وأمام الصديق معتز منصور وكيل النيابة، اعترف عيلاء برشط أنه قام - منتحلًا اسمي كريم رأفت - بتسليم النوبانجية لأم إبراهيم الدابة، وأنه اتفق معها على تحصيل أتعابها من المرضى، لكنه بعد أن انكشف الأمر، استولى على نقودها وطردها من المستشفى.. وحرصًا على سمعة المستشفى، حفظ معتز التحقيق بعد أن أعاد عيلاء النقود لأم ابراهيم وزادها خمسين جنيهًا لتتنازل عن الشكوي.

يومها خيل إلي أني سائر إلى منتهى مستقبلي ولاشك.. وها هي المشانق تتخايل أمام عيني، وها هي شياطين القسم تتبادل أنخاب ضحية جديدة تسقط على يد زملائي؛ الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد والدكتور عيلاء فراولة.

على أنه علي الاعتراف بأن عيلاء لم يكن أمره كله شر لي، فالحقيقة أن إدمان عيلاء وتوهانه كان يتيح له الوصول إلى حلول عبقرية.

ذات يوم، أرسل لنا الأستاذ الدكتور مصطفى ماهر زوجة سايس جراج سيادته بشكوى غريبة احترنا في علاجها. أقبلت علينا المريضة وهي تحيط بطنها المنتفخ بكلتى يديها، وقد ربطت عليها وشاحاً كبيراً، أجلسنا السيدة وشرعنا في سؤالها عن حالتها فقالت:

- الولية جارتي بت الكلب عملت لي عمل، خلت سرتي تتخرم وبطني تفسى لما العيل كان هيتصفي لولاش لحقت ربطت عليها، ودلوجتي لو شلت إيدي ولا سهيت عن بطني، العيل ولابد هيتبخر منها، فأني بأسدها بالنهار، وجوزي لما يرجع يسدها وأني نايمة.

عبثًا شرحت للمريضة أنها ليست إطار "ميشلين" حتى تنفث الطفل

من صمامها، لكن دون جدوى، كورت الدكتورة سعدية قبضتها وقلبت عينيها حتى استحال لونها أبيضًا مرعبًا، ويقين المريضة لا يتزعزع ويدها لا تغادر سرتها. فلما هجمت عليها الدكتورة سعدية تزيح يديها عن سرتها، صرخت المريضة رعبًا واستحال لون وجهها القمحي أبيضًا شاهقًا شهقة الموتى، وأطلقت لسانها في وصف الدكتورة سعدية بأقذر صفات العهر والنخاسة، ووسط كل هذا، ظل عيلاء على صمته متأملًا مفكرًا، فلما تصاعدت الأمور إلى التضارب بين الدكتورة سعدية والإطار المنفث، واستيقن ألا أمل في التفاهم مع المرأة، حمل الدكتور عيلاء المريضة عنوةً بين ذراعيه، واستدار خارجًا. انتابني الهلع على المرأة، لأن عيلاء لا يسير إلا ومطواء القرن غزال في جيبه وأحيانًا السيف في ظهره، وهمست بمنعه فالتفت لي وقال آمرًا:

- لم ريشك يا ديك.

ثم لسعدية والتمريض:

- ماحدش يتحرك من مكانه، مش عايز أتغابا عليكم.

ومضى بالمريضة بين ذراعيه إلى الحجرة المجاورة. كنت ولا زلت أرى أن للمرضى علينا حق المعاملة الكريمة، وأنه لا يليق أبدًا أن نفتح في وجوههن المطاوي أو نغزهن بسيف أو نشوه وجوههن بماء النار. انصرفت لبعض عملي، وما هي إلا دقائق حتى سمعت ضحكات عالية من حجرة النواب، فلما بلغتها وجدت المريضة تطلق الضحكات والقهقهات مع زوجها والدكتور عيلاء، فلما انصرفا، سألت عيلاء كيف أقنعها فقال ببساطة:

- أبدًا، لزقت على سرتها بريزة (عملة معدنية تساوي عشرة قروش) وحبشتها ببلاستر..

ومن حلوله العبقرية أيضًا علاجه لزوجة كبير قبيلة الفساوسة البحرية، والتي احتار الأساتذة في علاجها لغرابة شكواها، كانت السيدة كلما حملت تمنع زوجها تمامًا من جماعها ولها في ذلك حجة مقنعة:

- كيف يعني الولد يشوف جضيب أبوه؟ مافي خشى ولا أدب؟

فقد كانت مقتنعة بأن الجنين سيرى عضو زوجها حين الجماع، وهو في عرفها إساءة للأدب وخدش لحياء الطفل، يأسنا جميعًا من إقناعها بفساد منطقها كما يأس أساتذتنا من قبلنا، لكن الدكتور عيلاء كان له رأي آخر، ففي صباح ذلك اليوم، دخل على الدكتور عيلاء منتشيًا وهو يقول:

- لقيتلك الحل يا برنز في الفرخة الهبلة بتاعت الوساوسة.. شوف يا نجم، امبارح على القهوة لما أخدت رأي الرجالة، الواد كمارة بتاع الكاوتش ضربها لي في وسط كلام وقال لي "ماتركب لها بنطه لحام داكنة تقفل على عين الواد".

ورغم اعتراضي على اللجوء للسيد "كمارة بتاع الكاوتش" لعلاج سيدة الفساوسة الأولى، إلا أنني أنصت للحل العبقري:

- احنا هدفنا نغمي عينين الوله علشان ما يبصش على الديك وهو "بيتثأن" فرخته... خلاص، هنجيب حتة كاوتش أسود من بتوع كمر العجل، ونعمله دايرة، ونلف طرف الدايرة بأستيك نقلبها زي الشنطة اللي الصاغة بيلفولك فيها الدهب لما تروح بالبيضة بتاعتك تثبتها بمشاء الله دهب صيني، ونلبس عنق الرحم التليبسة دي كل ما الديك يعوز الفرخة، وكمارة عنده استعداد يخلص لنا

الحوار ده وياخد بريزتين (عشرون جنيهًا).

صمت لبرهة ثم سألت عيلاء:

- أنت سمعت قبل كده عن خواجة ألماني اسمه فريدريش فيلد[٥٨]؟ الراجل ده يا عيلاء اخترع سنة ١٨٣٨ غطاء لعنق الرحم من الكاوتش، تلبيسه كده بتركب على عنق الرحم تقفله وعمله وسيلة منع للحمل، يعني زي واقي ذكري بس حريمي.

نظر عيلاء لي ببله شديد وقال:

- وايه علاقة النجم الألماني ده باللي أنا بقوله ده؟؟

- اختراع كمارة موجود من قرون، بدأه فريدريش فيلد الألماني، ولما شارلز جوودير اكتشف بالصدفة فلكنة المطاط لما سخنه مع الكبريت في مطبخ بيتهم، الأمريكي "إدوارد بليس فوت" أخده وعمل به واقي عنق رحم بألوان كمان، وباع منه بالهبل في أمريكا تحت اسم (womb veil) اللي بقى وسيلة منع الحمل الأولى في أمريكا.

انفجر عيلاء في وجهي قائلًا:

- كيمو إيه البيض اللي أنت فيه ده؟ فلكنة إيه ومطبخ إيه، يا برنز روح اتعلملك شيل مطوة ولا ضرب سيوف علشان لو حد اتغابى عليك وأنت في الشارع تعرف تعلم عليه.

وفي النهاية أرسلنا في طلب غشاء عنق الرحم بلون أسود من الصيدلية، وشرحنا لسيدة الفساوسة الفكرة فتفحصت الغشاء، ثم أومأت برأسها موافقةً، فانقض كبير الفساوسة على رؤوسنا يقبلها وهو

متهلل.. وفي الصباح، أرسل لنا الرجل هدية عظيمة؛ قطيعًا من عشرة أغنام واثنين من الجمال وجدتهم يقتاتون على حشائش حديقة المستشفى.

وتمتد عبقرية الدكتور عيلاء ليخدم بها زملاءه من الأطباء.. في يوم من الأيام، قررنا إجراء عملية قيصرية لراقصة شهيرة في مدينتنا تدعى بدر، عرفنا فيما بعد أنها زوجة جابر التنى أحد المسجلين خطر بمخدرات وسرقة بالإكراه.. على أن زميلنا وليد الفار طبيب التخدير كان قادمًا للتو من جلسة دخان أزرق في مكتب البروفيسور عرابي، فلما رأى مساحيق التجميل تغطي وجه المريضة ورأى جسدها الغض البض، لم يتورع عن غزل المريضة التي تجاوبت معه، بل وشجعته بالضحكات الرقيعة والنكات الفاحشة، وأملته رقم هاتفها المحمول.. لكن ما أن وصلت المرأة إلى حجرتها في العنبر حتى أطلقت عقيرتها بالنداء على زوجها جابر التنى، الذي وجدناه فجأة داخل غرفة العمليات، وقد أمسك بتلابيب وليد وكور قبضته وأطلقها لتصيد عيني وليد الذي فشل في الهرب.

تسمرنا ونحن نرى جابر التنى وهو يخرج مطواه ليوقع على وجه زميلنا وليد بحروف اسمه، لكن الدكتور عيلاء كان الوحيد الذي لم يباغته الموقف، وسرعان ما قفز وأمسك بيد جابر التنى قبل أن تخط أول خطوطها على وجه وليد، ونهر الرجل وهو يقول:

- حاسب يا كبير، مش ده العيل اللي أنت عايزه.

فتوقف الرجل للحظة ليفحص الدكتور عيلاء، ويبدو أنه اطمأن إلى أنه غالبًا زميل إجرام، ثم أكمل قائلًا وهو يلوح بالمطواه:

- قالوالي أن حكيم سفيف اسمه وليد استحرش بالمودام، يعني تحال أوراقه لفضيلة العشاوي، مش هو ده وليد برضك يا صاحبي؟

امتقع لون وليد وبدا أنه يتنفس بصعوبة، لكن عيلاء قال ببرود:

- لا يا كبير، اللي في إيدك اسمه برايز، بيشتغل فني مكيفات، يعني عيل قص مش في المشروع ده، الواد اللي يخصك خلع من بدري.

ضاقت عيني جابر التتي وهو يتفحص وجه عيلاء، ثم وجه وليد، ثم جرجر وليد حتى صار بجوار عيلاء وسأله:

- أنت اسمك إيه ياض؟

بصعوبة أجاب وليد:

- برايز يا كبير

فعاد التتي يسأله:

- وبتشغل إيه ياض؟

وبصعوبة أكبر أجاب وليد والتتي مايزال يقبض على رقبته:

- والمصحف فني مكيفات يا باشا.

ومن يومها، اشتهر وليد باسم برايز، وتغير لقب طبيب التخدير في مستشفانا إلى فني مكيفات تيمنًا بنجاة وليد الفار.

القضبان الباردة

استمر زحف الأستاذ الدكتور خليفة الخلفاوي مدير المستشفى الدؤوب نحو منصب عميد كليتنا. لا أدري من أشار عليه بأن يأتي بفكرة تصبح حديث الإعلام وترفع من أسهمه لدى أولي الأمر، لكنني فوجئت ذات صباح بسكرتيرة القسم تبلغني عن دعوة الأستاذ الدكتور الخلفاوي لكل النواب سنايز ـ جمع سنيور ـ عنابر المستشفى للاجتماع به، فلما كان مجلسنا بين يديه، تكلم سيادته عن دور جامعتنا الرائد وحملها لشعلة النور في ظلام بحر المرض الذي يفتك بأهلنا في محافظتنا والمحافظات المجاورة، ورفع عقيرته بالثناء والشكر لأولي الأمر الذين لا يبخلون على مستشفانا بأي دعم أو مساندة، رغم إنكار الجاحدين والمغرضين لهذا الخير المتدفق، وكيف وجب علينا أن نرد الجميل لمجتمعنا الذي تهون من أجله كل التضحيات. استمر الخلفاوي يلقي علينا خطبته العصماء، حتى ثقلت علينا كلماته وتعبت نفوسنا من الضجر والملل.. فجأة انتهي الرجل من خطبته، فلما لم ير أثرًا لما أتعب نفسه بإلقائه علينا، انقبض وجهه وامتعض، ثم أفصح لنا بلهجة حانقة ما جمعنا من أجله:

- أنا اتفقت مع إدارة سجن النسا أنكم تعملوا عيادة هناك أسبوعيًا

كل يوم أربعاء.. النواب السنايز بس، وهتبلغوا المدرسين المساعدين لو احتاجتوهم.. لو حالات محتاجة عمليات، تحولوا ملفها علي.. غوروا.

٢- القاهرة ٢٠٠٠

أعرابي كانت امرأته حامل، فنظرت في وجهه القبيح وقالت: الويل لي إن كان الذي في بطني يشبهك! فقال: بل الويل لكِ إن كان لا يشبهني!

مرور نائب العنبر على المريضات بعد خضوعهن لعمليات ولادة قيصرية، مرور متميز جدًا لأنه يشبه زيارة الفرعون لتفقد أحوال الرعايا.. ويتكون الموكب من النائب السينيور، وعرضة قديمة قد تربى لديها عبر السنين مناعة عالية ضد ملاحظات النائب السخيفة عن تنفيذ العلاج وحسن معاملة المرضى وخلافه، ثم أداة قياس ضغط على شكل طبيبة امتياز يفضل أن تكون جميلة أنيقة مرحة وتتحدث اللغات بطلاقة.. وأخيرًا ماكينة تصوير بشرية متنقلة كتلك التي كانت تعرف في عهد الفراعنة وكانوا يسمونها: الكاتب، يكون الغرض من اصطحابها هو كتابة روشتات الخروج للمريضات اللاتي أتممن علاجهن، وعادةً يشغل وظيفة الكاتب عبد حبشي من فصيلة أطباء الامتياز الذكور (استغنيت عنه تمامًا عندما قامت إحدى شركات الأدوية بطباعة روشتات جاهزة فانقرض هذا النوع من عنبري)، ويبدأ المرور عادةً بتفقد ملاحظات التمريض عن حالة المريضة (وهذه يستحيل قراءتها

* لرداءة خط التمريض) ثم سبب القيصرية (وهذا صعب فهمه لأن الله أمر بالستر) ثم روشتة الخروج (وهذه تتسبب في حرق الدم لأن العبد الحبشي يخطئ في كتابتها حتى بعد كتابتها عشرين مرة في ساعة).

وبحسب بروتوكول المرور، يطلب من الفرعون النائب أن يكشف على المريضة للاطمئنان عليها ومباركة جرحها قبل أن يمنحها الإذن بمغادرة المستشفى، فيتقدم بوقار ويرفع ثوب المريضة، ليفاجأ بأنها ترتدي ملابسها الداخلية أو "الأنصرير"، فيمتعض ويصيح في الممرضة المرافقة له بحنق وغيظ:

ـ أحا(*) إيه ده، ينفع كده؟

والحقيقة أن الممرضة عادة تقصد أن تترك المريضة بملابسها الداخلية حتى ترفه عن النائب المسكين المسجون في المستشفى لمدد طويلة، فتسري عنه برؤية أحدث خطوط الموضة البلدي في "الأنصرات" التي تتخذ عادة من الساتان الأحمر أساسًا لها، ويتغير التطريز والموديل واستخدام الدانتيل أو الترتان أو شريط الإطارات المذهب حسب الموضة.. وبفضل هذه السياسة أمكن للسادة النواب حتى القادمين منهم من أدغال القرى والنجوع أن يتعرفوا على ابتكارات جديدة عليهم تمامًا في عالم الأنـ ـات غير "اللباس الأبيض التقليدي"، مثل أنضر "نجمة الجماهير" المطرز بالدانتيل على سوار البطن و"رمش العين" المقعر من الخلف المكاشف

(*) أحا: كلمة تستخدم في مصر للإعتراض، ويحكى انه في العصر الفاطمي صدر قانون يُحرم التفوه بأي مفردات تفيد الاعتراض على نظام الحكم، فما كان من المصريين الا ان حوروا كلمة أحتج الى (أحتا) التي سرعان ما تحولت الي أحا... وفي معـ ـة العربية المعاصرة أحا تعني تَوَجّع بصوتٍ من الغيظ والغمّ.

عن خندق الردفين و"قصر الشوق" الذي يجمع بين الساتان من الخلف والدانتيل الشفاف من الأمام. كما اطلع بعضهم على موديلات عالية مثل "الشيكي ثونج" والسترينج بأنواعه المختلفة "الجيي والتيي والسيي والفيي" في نسختها العربية حتى قبل ظهورها في العالم بسنوات.. ثم يضع النائب يده المباركة على البطن ويضغط على الرحم فتتدفق زخات دم النفاث من الرحم عبر المهبل، فيهز النائب رأسه معلنًا أن كمية الدم مقبولة، ثم يتفقد سيادته جرح العملية القيصرية، ويصرح ـ إن كان هو من أجرى العملية ـ أنه أكثر من رائع وذلك لمهاراته في حياكة الجلد تجميليًا بحيث يختفي تمامًا، أو يهز رأسه أسفًا أن كان غيره من أجرى الجراحة، ولسان حاله يقول بامتعاض: إيه القرف ده؟ ده ولا ما يكون منجد عربي، وأخيرًا يبدأ في ترديد التعليمات على مسامع المريضة.

ذات يوم كنت أمر على القيصريات في عنبري، واستوقفتني فتاة مليحة فاتنة لا يزيد عمرها عن ١٨ عامًا على وجهها علامات الحيرة والارتباك، والتي ما إن انتهيت من الكشف عليها وتلقينها بتعليمات ما بعد القيصرية حتى بادرتني والدموع في عينيها بالقول:

ـ دكتور أنا محتاجة أشورك في مسألة خاصة.

ولأنني ضعيف جدًا أمام دموع المليحات، فقد وافقت على الفور.. توجهنا إلى مكتب النواب بالعنبر وكان على التخلص من سعدية، فأرسلتها لمشاهدة فيلم الظهيرة، وعيلاء الذي أرسلته لجرد عهدة التمريض من الأدوية والعقاقير، واستبقيت طبيبة الامتياز ـ حسب نصائح البروفيسور عرابي عن ضرورة وجود شاهد ليس محايدًا ـ ولم يبق لي سوى إرسال طبيب الامتياز إلى حوانيت الحيوانات الأليفة ليبتاع

طعام لصرصوري المجنح.. جلست المليحة وقالت وسط دموعها:

- يا دكتور أنا مش عارفة ابني ده أبوه مين؟

انفرجت أساريري وأنا أقول لنفسي "صباح الفل، آدي حكاية نحكيها لرفقاء الشيشة في قهوة ميلانو، احكي يا حلوة". فقالت وهي تجفف دموعها:

- أصل أنا يا دكتور أول ما دخلت المعهد ارتبت (ارتبطت) بعصام لأنه كان راجل قوي وحلو ويحسس أي بنت إنها ملكة.. ما كانش يندهني إلا يا برنسيسة.. شوية وقالي تعالي نتجوز يا بت.. وقال لي على جواز الدم علشان ما كانش معانا فلوس لمهر وشبكة وفرح.

طبيبة الامتياز نظرت إليها متعجبة وسألتها عن زواج الدم فقالت البرنسيسة:

- شكينا صوابعنا وخلط الدم اللي طلع فبقينا متجوزين..

ثم استطردت تقول:

- دخل بي في شقة أخته اللي في الإمارات وبقينا بنتقابل هناك على طول.. واشترى لي محمول بكاميرا.. بس بعد شوية بقى عصبي قوي وخنيق وبيتخانق مع كل صحابنا.. وهو عشان بيروح الجيم تلاقيه كدة مفتري... في يوم اتخانقنا وقالي أنه غسل صويعه خلاص، وأنا مش مراته.. وراح ضربني وكسرلي ضلع فأنا حلفت ما أنا راجعاله، بس هو بقى قاطرني وبيجي ورايا عند البيت فأنا خفت يعملي سباح في المنتأه (المنطقة) فكلمت حمتي (حمدي) أنتيم عصام يكلمه ويبعده عني.. ما أتولش عليك.. أنا وحمتي اتجوزنا

جواز كاسيت في شقة حمتي اللي في مساكن المحافظة.. وجاب لي محمول بكاميرتين.

امتقع لون طبيبة الامتياز وسألتها عن جواز الكاسيت فقالت:

- أنتي من مصر يا أبلة؟

قالتها بتهكم لم يعجبني فانبريت أشرح لسفيرة العلم لا الهوى:

- زواج الكاسيت يا دكتورة، بيجي الولد والبنت يقعدوا أمام جهاز تسجيل ويقولوا صيغة الجواز ويجيبوا اتنين شهود كمان يسجلوا ويشيلوا الشريط معاهم زي كده قسيمة جواز يعني.

من خلفي سمعت صوت عيلاء فراولة مستكملًا الشرح:

- يعني يا دكتورة لما العيال دي تبقى عايزة تتنأن، يجيبوا شريط الكاسيت ويقولوا أنهم بقوا "هازبند أند وايف" ويجيبوا اتنين من صحابهم يشهدوا وبس مبروك يا قطة.

التفت فرأيت عيلاء واقفًا خلفي فسألته:

- أنت يا دكتور مش مفروض بتجرد عهدة التمريض؟

فقال وعينيه تلتهمان جسد البرنسيسة الفاتنة:

- لا ما يولع المخزن خلينا في الكنكوتة دي.

فصحت فيه موبخًا فانتبه وعاد يقول:

- يا دين أمي، يا عم كريم والنعمة جردته في السريع مع البت الحكيمة وظبطتها والبت بتدعيلك وكله فلة يا كبير ما تقلقش، خلينا بس نعرف الواد ده أبوه مين.

أكملت البرنسيسة حكايتها:

- بس "دنيا" أنتمتي وزميلتنا في المعهد راحت سيحت لعصام عني أنا وحمتي إننا اتجوزنا.. فعصام فتح المطوة على حمتي وكانت عاركة والاتنين دخلوا المستشفى.. كلمت حمتي قال لي أنه كسر شريط الكاسيت وطلقني... شوية وعصام كلمني وقالي ما قدرش أعيش من غيرك يا بت، تعالي والمرة دي هنتجوز بالمحمول علشان نتقي فيا.

أشفقت البرنسيسة على طيبة الامتياز التي كاد يغشى عليها، فبادرتها بالشرح قبل أن تسأل:

- بيبعت لي رسالة على المحمول يا أبلة، يقول لي عايز يتجوزني، وأنا أرد برسالة أني موافقة ونوريها لاتنين من صحابنا علشان يبقوا شهود.

ارتشفت البرنسيسة من كوب ماء قدمته لها وأكملت قصتها:

- بصراحة ضعفت.. وهو كان واحشني قوي.. فوافقت.. ورحت له شقة أخته واتجوزنا برسالة المحمول.. وجاب لي إزازة ريحة مستوردة ودخل بي.. بس بعد ماخلص قالي أنتي مش إتجوزتي "حمتي" وبقيتي الختة بتاعته؟ خليه ينفعك وطردني وكسر محمولي.

صمتت البرنسيسة، فالتقطت طرف الحديث وسألتها:

- أيوة يا أمورة، فأنتي مش عارفة ده ابن عصام ولاحمدي؟

فأطرقت وقالت:

- ولا حودة ولا إبراهيم!

فرمقتها بعين دهشة وقلت:

- نعم؟

أصدر عيلاء شخرة قوية أتبعها بالسؤال:

- أنت شغالة مكرواباص بالنفر ولا إيه يا بيضة؟

نظرت له شزرًا فاختفت الابتسامة من على وجهه وتشاغل بالنظر إلى سلسلة مفاتيحه، لكن طيبة الامتياز قالت كمن يرد الصاع للمعتدية:

- الميكروباص ١١ راكب يا دكتور، دي كده لسه تاكسي العاصمة.

نظرت ذاهلًا لمن حسبتها بريئة.. ثم أشرت للتاكسي أن تستمر، فازدردت ريقها وقالت وهي تغالب الدموع من جديد:

- ما هو لما عصام وحمتي نفضولي.. كلمت حودة أخو عصام أشتكيله.. فقالي أنه هيصلح غلطة أخوه ويتجوزني فرحت له شقة أخته.

فقال عيلاء باهتمام:

- العبي يا ألعاب، أخته دي اللي في الإمارات؟

فأومأت برأسها بالإيجاب وقالت:

- اسم الله عليك يا دكتور.. رحت له فكتب عليا بس عرفي علشان مراته شرانية.. وجاب لي نظارة شمس مستوردة.. بس بعد كام يوم قطع الورقة لأن عصام عرف واتخانقوا.. وعصام قال لمرات حودة فأهلها كانوا هيأطموه بالسيوف.

ساد الصمت برهة ثم قفز لذهني آخر الأسماء "إبراهيم"، فسألتها

عنه، فانفجرت في البكاء من جديد حتى إذا ما هدأت قالت:

- ماهو لما الدورة ماجاتش قلت لأمي فبهدلتني.. قالت لي أبوكي لو عرف هيموتك.. وحبستني في البيت.. وبعد يومين جابت مدرس كان بيدرسني وأنا في ابتدائي ومن عندنا من المتأه.. كان رجع من الكويييت (الكويت) ولما شافني عجبته قوي، أمي قالت له أني وقعت من عالعجلة وأنا صغيرة والغشاء اتقطع بس أنا بت.. هو كان فاهم فمرضيش يدفع خمشتاشر ألف جنيه وأهلي ماشوها بخمسة واسورة دهب.. هو كتب الواد باسمه.. بس أنا دلوقتي ضميري تاعبني أن الواد يطلع ما يعرفش مين فيهم أبوه الحكيكي.

ما أن تنتهي أنثى الجرذ من مضاجعة ذكر ما، حتى تغلق مهبلها بسدة من الإفرازات تمنع اختلاط الحيوانات المنوية من أي ذكور أخرى قد تقوم بمضاجعتها، فتمنع بهذا اختلاط أنساب ذريتها[٦٠]، وعلى الرغم من شيوع هذا النوع من السلوك في عالم الثدييات، إلا أن الإنسان لم يُجبل على هذه الخصلة، ربما لأنه تُرك لضميره وعقله.

وفي العام ٢٠٠٩، نشرت الباحثة الألمانية كريستينا جوميز من معهد ماكس بلانك للدراسات التطور والأنثروبولوجيا نتائج دراستها لسلوك الشمبانزي، وجدت فيها أن إناث الشمبانزي تطبقن نظرية اللحم في مقابل الجنس، فأنثى الشمبانزي تقبل مضاجعة أي ذكر مقابل مشاركته في اللحم الذي أفلح في صيده.

هل يعني هذا أن الأنثى قد جُبلت على الخيانة، فتقبل أن تضاجع كل من يهبها اللحم؟[٦١]. وفي الزمن السومري القديم، كانت للمرأة الحق

في أن تتزوج بأكثر من رجل، وظل لها هذا الحق لأكثر من ألف عام، حتى أصدر الملك السومري أوروكاجينا سنة ٢٣٥٥ قبل الميلاد شريعته التي حرم فيها على المرأة الزواج بأكثر من رجل[٦٢]. هل المرأة كما يصفها عباس العقاد في قوله:(٥)

خل الملام فليس يُثنيها
حب الخداع طبيعة فيها
هو سرها وطلاء زينتها
وطبيعة في النفس تُحييها
وسلاحها فيما تكيد به
من يصطفيها أو يُعاديها
وهو انتقام الضعف يُنقذها
من طول ذلٍ بات يُشقيها
أنت الملومَ إذا أردت لها
مالم يُرده قضاء باريها
خُنها ولا تُخلص لها أبدًا
تخلص إلى أغلى غواليها

أختلف مع دراسات الأنثروبولوجي والأستاذ العقاد.. يقيني أن

(٥) عباس العقاد - أديب ومفكر وشاعر مصري ١٨٨٩ - ١٩٦٤.

الأنثى أرقى من أن تبتذل نفسها ولو بمقابل.. يقيني أنها بنقاء روحها وسلامة سريرتها وطيبة نفسها، تعيش تبحث عن السعادة والاستقرار بين ذئاب من ذكور تسعى لقضم تفاحتها وقطف وردتها ومص رحيقها.. أدرك أن الأنثى قد تقع في خطيئة بعد خطيئة وهي تبحث بسذاجة عن الحب بين أَخِسَّةٍ لا يرون منها إلا جسدها.. ثم تبقى هي وحدها لتدفع الثمن الباهظ.. وتنصرف الذئاب بحثًا عن فريسة جديدة. هل أكسبني هذا تعاطفًا غير مشروط مع الأنثى مهما كبرت خطيئتها؟ ربما، لكنني كنت أرى أن تحميلها وحدها وزر الخطايا إجحاف وظلم.

بقي أن نقول أن أهل الخبرة أجمعوا على أن إبراهيم لو كان قد ساوم أكثر من ذلك، لحصل على البرنسيسة بألفين فقط من الجنيهات.. أما الدكتور عيلاء فيقسم أنه كان بوسعه الحصول عليها بثلاثمائة من الجنيهات وخرطوشة سجائر مارلوبورو.

القضبان الباردة

زيارة السجون كانت آخر ما يسعد به طبيب أمراض النساء والتوليد.. فالحكايات لا تنتهي عن أطباء حلوا خلف القضبان الباردة في قضايا إهمال طبي جسيم؛ بعضهم نسى فوطة العمليات في البطن فقتل المريضة، وبعضهم جذب وليدًا بالشفاط أو الجفت ففصل رأسه، وآخر تباطأ في توليد المريضة بقيصرية، فأنفجر رحمها وماتت هي وجنينها.. فإذا كنا مهددين بالقبوع خلف القضبان في لحظة ما من حياتنا المهنية، هل يعقل أن نذهب إليه بأقدامنا؟ على أنني سعدت بهذه التجربة، فالسجن عالم من الأسرار والحكايات، لا نعرف عن نزلائه نحن من في خارجه إلا من قصاصات أخبار في صحيفة، تتوارى بعدها ذكرى هؤلاء ويمضون إلى النسيان. من هؤلاء، كانت هويدا زين العابدين أحمد التي تقضي عقوبة السجن خمسة وعشرين عامًا مع الشغل، ومع هويدا كان لي حكاية أغرب من الخيال، وكأن عالم النساء والتوليد لا يكفي غموضًا وسحرًا، ليضاف إليه عالم السجون والقضبان الباردة.

٣- الأستاذ الدكتور عصمت عوض

ونعود للوحدة العاشرة، أو وحدة الأستاذ الدكتور عصمت عوض.

الأستاذة الدكتورة نيللي عوض الشهيرة بالأستاذ الدكتور عصمت عوض، هي إحدى العلامات الفارقة في تاريخ مستشفانا، فسيادتها أول أنثى تعين في قسم أمراض النساء والتوليد، الذي كان حكرًا من قبلها على الذكور فقط، وبطبيعة الحال دفعت ثمنًا باهظًا لاقتحامها هذا المجال المغلق أمام النساء، فاضطُرت للتحول إلى ذكر، فجعدت شعرها الأسود وقصرته، فبرز جبينها وأذنيها، وكفت عن تهذيب شعر حواجبها فصار كثًا غليظًا، ووضعت نظارات طبية رجالية إطارها أسود سميك، وتركت مساحيق التجميل وخلعت عنها حليها، فلما أتمت التحول، تزوجت من الأستاذ الدكتور سراج نور الدين.. ويحكى أنها عندما بدأت عملها في المستشفى قصدت الإدارة آنذاك إلى تسكينها في نفس سكن الذكور بدورة مياهه المشتركة لدفعها إلى الاستقالة، فلما أبت، صدرت التعليمات للنواب الذكور بالتجول في ردهات السكن بالغيار الداخلي فقط مع إلقاء النكات الفاحشة، بل بلغ بهم الشطط أن صاروا يتجولون في الردهات عرايا ويقصدون غرفتها بدعوى اقتراض المشط أو المناشف، وصمدت

الدكتورة نيللي حتى استيأس زملاؤها وإدارة القسم، فإستسلموا واكتفوا بتغيير اسمها من نيللي إلى عصمت، وهو الاسم الذي صار محببًا إلى قلبها فيما بعد حتى نسي الجميع اسمها الأصلي.

بدأنا في العمل في وحدة الأستاذة الدكتورة عصمت وأنا أضع عيني في منتصف رأسي حتى يمر الوقت بسلام.. لكن يأبى القدر إلا أن يدفعني إلى بحور الأهوال والصعاب، فذات ليلة عاصفة، والبرق يشق السماء، والرعد يقرع الآذان، وإبريق القهوة يفور على نار الموقد، أقدمت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد على إجراء عملية قيصرية عن طريق شق المثانة بدلًا من تجنبها، وهي خطيئة لا يكفر عنها إلا تحويل النائب هو ونائبه السينيور وأهله وعشيرته وتابعيه ومن والاه إلى يوم الدين إلى التحقيق، ومع الدكتور عصمت تكون العقوبة مضاعفة.

استدعتني الدكتورة سعدية إلى العمليات فهرعت إليها وأنا أدعو الله لطفه في قضائه، فلما رأيت المثانة وقد شُقت نصفين، أدركت أنني هالك لا محالة. جمعت شتات نفسي وشرعت على الفور في إصلاح المثانة والانتهاء من العملية القيصرية، دون الالتفات إلى محاولات الدكتورة سعدية التملص من المسئولية بزعمها أنني أنا من فتحت المثانة. كان رأسي يدور كحجر الرحى الطاحن، بوسعي إصلاح المثانة - وهي مهارة أتقنتها من إصلاح خطايا الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد - لكنني فيما سبق كنت أخفي هؤلاء الضحايا عن أعين الأستاذ الدكتور رئيس الوحدة في غرفة مخصوصة مهجورة في العنبر أسميها القرافة، لكن في عنبر الدكتور عصمت عوض، من أين لي بقرافة؟ للدكتور عصمت أعين من التمريض في العنبر يبلغنها بكل شاردة وواردة، ومريضة مثل هذه بالقساطر التي ستتدلى منها وأنابيب البطن

اللازمة لهذة الحالات لا يمكن حجبها عن الجواسيس.

ثم لمعت في ذهني فكرة يائسة فقررت أن أنفذها.. فما يضير الشاه سلخها بعد ذبحها؟ استدعيت إلى العمليات مس سهير رئيسة تمريض عنبرنا، وكبيرة البصاصين العاملين لحساب الدكتور عصمت، وقصصت عليها ما كان، فلما انتهيت نظرت إليها وقلت بتأثر:

- شوري عليا يا ميس سهير.. الدكتورة سعدية مسعود مسنودة زي ما أنت عارفة.. وأنا اللي هلبس المشكلة.

دهشت مس سهير وسألتني:

- مسنودة؟ مسنودة على مين؟

تلعثمت وقلت لها:

- مسنودة على الحيط.. قصدي يعني ما بتشلش مسئولية.. مش ماضية على ولا حاجة في ملف المريضة.. يعني أنا اللي هشيل الليلة.. ويضيع مستقبلي.. وأنا على يدك مش مقصر في شغلي.

أطرقت ميس سهير لبرهة، شعرت خلالها وكأنني جَدْيٌ يوشك أن توضع التفاحة في فمه ويدكك سيخ الشواء من فمه إلى مؤخرته ثم يُرفع إلى النار، وأخيرًا نطقت مس سهير:

- طب وبتاخد رأيي ليه يا دكتور كريم؟ مش عارف أني ممكن أبلغ الدكتورة عصمت بالكلام ده؟

فأسرعت أقول لها أملًا في النجاة من سيخ الشواء:

- لا أنا عارف أنك مش هتقولي.. وكمان هتساعديني.. أنت مش

حد فتان ولا وحش يا ميس سهير.. أنت حد كويس قوي.. حد عنده ضمير.. لما بيلاقي حاجة غلط، مش بيسكت ويطنش، أنتِ عملة نادرة وسط بتوع معلهش وطنش ومشي حالك.. وأنا زيك تمام.. علشان كده أنا عملت الصح.. صلحت المائنة.. وعلمت سعدية علشان عمرها ما تكررها.. والعيانة زي الفل وأي حاجة هتحتاجها أنا متكفل بها.. أنا كده قصرت في حاجة؟

تراقص لهب نار الشواء أمامي وميس سهير تزن الأمر برمته، وأخيرًا قامت وأصدرت حكمها:

- لا ماقصرتش.. بالعكس.. أنت صلحت غلطة زميلتك وعلمتها كمان، والأهم إن العيانة ما انضرتش.. وبعدين ما أنتم هنا علشان تتعلموا والأساتذة يصلحوا لكم، بص.. ما تخافش.. وسيب الموضوع ده عليا.. أنا هاقعد الحالة في عنبر تاني.. ومحدش هيعرف عنها حاجة..

قلت لها وأنا أتعلق بأهداب الأمل:

- أعتبر ده وعد؟

فرمقتني معاتبة وهي تقول:

- عيب يا دكتور.. أنا كلمتي زي الجنيه الدهب.

وانطفأ لهب الشوي ونزعت التفاحة من فمي مؤقتًا، في انتظار وفاء مس سهير بوعدها.. كم أنت عظيمة يا ميس سهير.

وجاء يوم مرور الدكتور عصمت على العنبر، فاصطفينا كطابور المدرسة أنا والأطباء سعدية وعيلاء وميس سهير وطاقم الحكيمات..

مضت الدكتور عصمت تتفقد المريضات وعلاجهن وتطور حالاتهن، وتتصيد من شكواهن من العلاج أو المعاملة أو الطعام أسبابًا لتوبيخنا وتعنيفنا وتوقيع الجزاءات والعقوبات علينا، فلما انتهينا دون خسائر غير معتادة، سرنا نشيع الدكتور عصمت حتى باب العنبر وهي مستمرة في توبيخنا وتذكيرنا بأننا عود الثقاب الذي ستُوقد به نار جهنم لأننا حثالة البشر.. كدنا نبلغ باب العنبر، فتلاقت أبصارنا أنا ومس سهير، فغمزت لها بعيني امتنانًا لصنيعها الذي لن أنساه طول عمري.

وفجأة صكَّ أذني صوت الدكتور عيلاء ـ ولم تكن الدكتور عصمت قد ابتعدت بعد ـ قائلًا:

ـ هووووف، إيه كرتونة البيض الفاقس ده، بس كيمو، أمال فين الولية اللي سعدية شخرمت أمها ديك النهار وجابت صفارها في بياضها؟

أظلمت الدنيا من حولي برهة هيئ لي فيها أن قلبي قد توقف... تسمرت الدكتور عصمت في مكانها، ثم استدارت ببطء، وحدقت في بنظرات غاضبة.. ثم التفتت لميس سهير وقالت:

ـ فيه حاجة أنا ما أعرفهاش يا سهير؟

أحسست ببرودة تسري في كل أطرافي، وأبى الهواء أن يتدفق إلى صدري، ووجدت طعم التفاحة يغمر فمي، وشعرت بوخز سيخ الشواء في مؤخرتي. تعلقت عيني بميس سهير ـ شريكتي الجديدة في الجريمة ـ ملتمسًا في وجهها لنفسي الطمأنينة، فقالت بهدوء خبرة عشرات السنين من العمل مع الدكتور عصمت:

ـ لا طبعًا يا دكتور، هو بس الدكتور عيلاء أصله مرح وخفيف

الظل ويحب يهزر مع زمايله.. بس هزاره بيكون ساعات رزيل وسمج قوي..

ضاقت عيني الدكتور عصمت كعيني ثعبان كوبرا.. وتعالت أنفاسها فيما يشبه حفيف الثعابين.. وصارت تقلب عينيها بيننا.. ثم استدارت وغادرتنا وهي تقول:

ـ خفيف قوي الدكتور عولاء ده.. خصم يوم ونوباتجية زيادة للظريف يا كريم.

وطبعًا أمضيت ليلتي تلك في ضيافة صديقي معتز منصور وكيل النيابة، وذلك لسؤالي عن أقوالي في واقعة اعتداء الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد بالضرب المبرح على زميلها الدكتور عيلاء مصطفى والذي تسبب في كسر أحد ضلوع المذكور ونظارته الطبية وفقدان أحد أسنانه. لكن لم يمض يومان على هذه الواقعة، إلا وتلقيت ذات صباح مظروفًا به كارت زاعق الألوان مكتوب بماء الذهب:

"يتشرف مصطفى شبارة ومسعود أسعد السعد، بدعوة سيادتكم لحضور حفل زفاف نجل الأول الدكتور علاء مصطفى على نجلة الثاني الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد"، ثم تاريخ بعد أسبوعين.

تكسر له ضلع، ثم تتزوجه بعدها بأيام وهي تكبره بعام؟

القضبان الباردة

حل على الدور في العمل في عيادة السجن يوم الأربعاء. انطلقت وطاقم التمريض بسيارة الإسعاف إلى سجن مدينتنا الذي يقبع في ظهيرها الخلفي فبلغناه بعد مشقة. في باحة السجن الأمامية، شقّقنا الصفوف وسط أهالي المساجين الذين كان بعضهم يحملق فينا بفضول والآخر يزلقنا ببصره حاسبًا أننا من رجال السجن.

دلفنا إلى حجرة العيادة، فوجدتها مرتفعة السقف باردة معتمة رغم حوائطها المطلية باللون الأبيض، وأثاثها بسيط لكنه نظيف، في ركن منها يقبع مكتب صغير بمقعد جلدي متواضع وضع أمامه مقعد من الخشب كالمنتشر في مقاهي الأرياف، وفي الركن المقابل وخلف ساتر أبيض، رأيت سرير الكشف المعدني وجهاز موجات فوق صوتية قديم. كانت نفسي هادئة حتى رفعت رأسي إلى النافذة الوحيدة في الحجرة والتي كانت على ارتفاع شاهق لم يمنع السجان من وضع قضبان حديدية غليظة عليها. انقبض قلبي لرؤية القضبان، وسرت في جسدي برودة لا أدري مصدرها، وشعرت بأن القضبان هناك لتسجن روحي لا المساجين، وزاد الطين بلة أن سمعت صوتًا يشبه زقزقة أبراص لاهية في زوايا الحجرة،

وهي عندي كالخفافيش، أبغضها وبِعَبْءٍ شديد أخشاها.. نادت السجانة على أولى مريضاتي، فجاءتني سحنة عابسة فظة، على أديمها آثار طعنات وجراح وندبات.

٤- كريم تويوتا

جدت الاستعدادات لإتمام الزفاف الميمون، والحقيقة أنني كنت أسعد من في المستشفى بهذا الأمر، فبهذا الزواج الميمون، سيتغيب العصفوران على الأقل لمدة شهر العسل، تتفنن فيه سعدية في طهي البيض البرشط لعيلاء، وهي فترة سآمن فيها الوقوع في المشاكل التي يجلبها لي، وربما تجد الدكتورة سعدية في الزواج ما تنفث فيه عصبيتها وكعابيرها، ومن يدري، لعلها تدمن عقار السيكونال أو الفراولة مثل عيلاء وتنطفئ جذوة جنونها، أو ربما يُقدم الزوجان على جريمة انتحار مزدوجة فتبرأ البشرية من بلائين فتاكين. وسرعان ما اصطحب الدكتور عيلاء فراولة خطيبته الدكتورة سعدية وسافرا إلى دمياط لشراء الأثاث، وبقيت أنا وحدي في العنبر أُمني نفسي العليلة بأوقات خالية من سعدية وعيلاء والمشاكل، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

الأستاذ الدكتور عبد الأحد الأسيوطي، أو أبويا الحاج عبده كما أكنيه، من أحب الأساتذة إلى أنفسنا نحن النواب، ذلك لدماثة خلقه وطيبة قلبه التي تجعله يتبنانا ويعاملنا وكأننا أولاده، لكن أحيانًا يُفرط

الدكتور عبد الأحد في معاملتنا كأولاده، حتى ليختلط عليه الأمر تمامًا، فيعهد إلينا سيادته بمرافقته إلى السوق لجلب السمك من عم إبراهيم السباك والخضار من عم محمود الخضراتي والفاكهة من عم سعد الفكهاني واللحم من عم السيد القصاب. على أن الأستاذ الدكتور عبد الأحد يختص بهذا التبني فقط النواب الذين يملكون سيارات مكيفة الهواء، ودائمًا ما يقرن أسماءنا بنوع سياراتنا.. فأصبح أنا كريم تويوتا، ومحمود أوكتافيا، وطارق لانوس.. كما يبقى سيادته على شعرة معاوية مع من يملكون سيارات بدون تكييف هواء مثل عمرو أونو وعبد الرحمن بولونيز، فقد تضطره الظروف إلى اللجوء إليهم مكرهًا، أما من لا يملكون سيارة، فهم من أولاد الشوارع في عُرفِ أستاذنا.

مرت النوبتجية بهدوء ودون أي منغصات في غياب عصافير السُّنُونُو سعدية وعيلاء، ولم أحل ضيفًا على معتز بك منصور وكيل النيابة للتحقيق في بلاغات ضدي لأول مرة منذ زمن بعيد. سلّمت عنبر الولادة للمجموعة الجديدة وتهيأت لمغادرة المستشفى بعد يوم كامل لم أذق فيه طعم النوم. فجأة، سمعت صوت مدام نحية سكرتيرة رئيس الأقسام خلفي وهي تقول (ولا زالت تضع يديها خلفها حماية لأردافها كلما رأتني):

- دكتور كريم، دكتور عبد الأحد باعتني أدور عليك، هو مستنيك في مكتب رئيس الأقسام.

توجست خيفة فسألتها بريبة:

- ما تعرفيش عايزني في إيه أبويا الحاج عبده؟

فقالت هامسة:

- قال لي هات لي الواد كريم تويوتا يوصلني أجيب الواد ابن بتي من الحضانة، ويعديني على عم إبراهيم نجيب السمك وعم محمود نجيب الخضار في السكة.

دب الذعر في قلبي فقلت لها:

- لا حرام، أنا شايل نوباتجية الحوادث لوحدي ما أنتي عارفة، ويدوب لسه مخلص وهأموت وأروح.

فنظرت لي مدام نحية وقد فهمت قصدي:

- يعني أقول له عندك قيصرية ومشغول؟

فقلت لها مستفهمًا:

- بس أنا ما عنديش قيصرية.

فأجابت باستنكار:

- كذبة بيضا يا كيمو، كذبة بيضا.

قالتها وهي تتقهقر إلى الخلف كعادتها في الحرص على عدم تعريض أردافها لي أبدًا. بيضاء بيضاء، لكن ماذا لو خطر للدكتور عبد الأحد أن يتأكد من صدق وجودي بالعمليات؟

أسرعت إلى حجرة العمليات، فوجدت ممرضات العمليات تستعددن للحالات الجديدة ووجدت زميلي فني المكيفات برايز، وليد الفار سابقًا، معهن منهمكًا في تحضير أدواته، هشوا لي لما رأوني وسألوني عن سبب عدم رحيلي، فقصصت عليهم ما كان من أبويا الحاج الدكتور عبد الأحد وأنهيت كلامي مقهقهًا:

- والنبي تستروا عليَّ بنوبكم ثواب، لو أبويا الحاج سأل عليَّ قولوا له متعقم جوه.

فجأة ونحن غارقون في الضحك والمزاح، سمعت صوت الأستاذ أبويا الحاج عبده وهو يقول:

- كريم، يا ولد يا دكتور كريم تويوتا، أنت فين يا تويوتا؟

واستدلينا من اقتراب الصوت أن أبويا الحاج عبده لم يكتف بالسؤال عليَّ، بل إنه في طريقه إلى داخل حجرة العمليات. تسمرنا في مكاننا، لكن فجأة وجدت نهي عبد الرسول الممرضة تجذب زميلتها الحبلى فاطمة إدريس، وترقدها على سرير العمليات، وسرعان ما أدركنا خطتها، فانطلقت باقي الممرضات تغطين فاطمة بفرش العمليات الأخضر، وهرع الدكتور برايز إلى ونخ ورويد يدها بالإبرة وتثبيت المحاليل فيها، بينما أسرعت نهي تضع على ثوب العمليات الأخضر وتساعدني في لبس القفاز الجراحي.

عندما دخل الدكتور عبد الأحد، وجدنا جميعًا منغمسين في ما بدا وكأنه تحضير للقيصرية التي ستعوقني عن اصطحاب سيادته في رحلة التسوق المعتادة، فلما يأس مني قال لي بحزن وإحباط:

- أنت لسه يا كريم هتبدأ القيصرية؟ لا أنا كده هتأخر على عمك إبراهيم والسمك هيبرد.. والواد ابن بتي كمان هيتلطع في الحضانة ويزعل مني، طيب آخد عمرو أونو وأمري لله، ربنا معاك يا بني..

واستدار ليخرج لكنه توقف وقال:

- بقول لك إيه يا وَله.. اوعى تتسريع في العملية، سيبك من صدر

البت الحكيمة الحلوة اللي جبك دي وركز.. عايزك تقفل بطن الولية كأنها بطنك أنت شخصيًا يا وله.. يا الله سلام عليكم يا ولاد.

انصرف الدكتور عبد الأحد، فنظرت ممتنًا لمنقذتي نهي عبد الرسول بقدها النحيل وبشرتها القمحية وعينيها الواسعتين اللتين تشعلان أغلب وجهها الصغير.. كانت ملامحها مغتبطة وعلى فمها الرقيق ابتسامة الزهو بنجاح خطتها، فلما حولت بصري إلى فاطمة ببطنها المنتفخ وجسدها الضخم وشعرها المشعث تحت غطاء رأس العمليات، وجدتها تنفض فرش العمليات عنها وتنزع الابرة المغرسة في وريدها وتقفز لتمسك بتلابيب نهي وهي تصرخ في وجهها:

- بتقولي عليا أولد قيصري يا نهي؟ وكمان في الشهر السابع يا واطية؟

في صباح اليوم التالي جاءني من يخبرني أن الأستاذ الدكتور عبد الأحد يرسل في طلبي. نظرت في ساعة يدي، كان النهار لم يتنفس بعد ومازال الوقت مبكرًا على التوجه إلى السوق، هززت رأسي وانطلقت لمكتب أبويا الحاج عبده فوجدت معه رجلًا بجلباب أزرق وامرأة بثوب أسود عَرَّفها لي قائلًا:

- ده عمك الحاج إدريس مؤذن المسجد اللي جمب البيت، وسايس الجراج.. ودي تماني مراته يا دكتور كريم يا بني.. هي عندها طفح جلدي، فهتحجزها في العنبر وتبعت تجيب أخصائي الجلدية يبص عليها الله يكرمك..

فأسرعت أقول له:

- تؤمرني يا بك، فيها حاجة نسا نعملها لها؟

رمقني الدكتور عبد الأحد باستياء وقد فطن لمقصدي من انعدام وجود سبب لحجزها في عنبر أمراض نساء وتوليد وهز رأسه نافيًا، فاستطردت أقول:

- أصل يا بك بتوع الجلدية ما بيطلعوش تبليغات ولو طلعوا ما بيجوش على طفح جلدي.. ده شغل العيادة الخارجية يا بك.

- يا كريم بطل خيابة، كلمهم وقول لهم دي حالة أبويا الأستاذ الدكتور عبد الأحد هيجوا.. ولو ماجوش قل لي أشد ابن الكلب منصور الخولي (رئيس قسم الجلدية) من ودانه.. ده كان بيشحت مني مصاريف الكلية.. وبقولك إيه، أخصائي اللي يبجي موش نائب.

"ياسلام ياعم الحاج مالهم النواب ماهم شايلينكم شيل أهوه".. هكذا حدثتني نفسي.

- طب وأزَوِّحها بعد كشف الجلدية يا بك؟

- لا يا واله، تروحها ده إيه، قعدها كام يوم هنا في العنبر تاكل وتبرطع، وروقها بشوية تحاليل وشغلها أي فيتامينات كده وحديد من عينات شركات الأدوية المجانية، المهم قعدها كام يوم تروق نفسها وتريح عمك إدريس الحسن ورم..

- تؤمرني يا بك، أي أوامر تانية؟

- بارك الله فيك.. بس خلص بقى علشان نلحق عمك إبراهيم.. زمانه خلص شوي السمك.

لوكاندة السعادة هي إذًا. وترى ماهو دوري في هذه اللوكاندة؟ لن أرضى بأقل من وظيفة موظف الاستقبال بها، وهي وظيفة طالما راقت لي، حيث تُعرض عليك أنواع من البشر من كل صوب وحدب يقدمون لك نبذة عن أنفسهم ببطاقاتهم الشخصية، ثم يطلقون عقال خيالك لتستنتج ما وراء بياناتهم الشخصية، فتحل فيك روح جمال الصواف بطل رواية حكاية الغرفة ٢٠٧ لأحمد خالد توفيق(*). عمومًا لن أرضى بوظيفة ساعي اللوكاندة، حتى لو كنت أحمل السمك والخضار والفاكهة لأبويا الحاج عبده.

نظرت لتهاني فبدت لي بجسدها الضئيل الهزيل وبطنها الحمصاء كمومياء فرعوني أفلحت في الهرب من صندوقها الزجاجي في المتحف. كانت تخطو في سنوات عمرها الخمسين وإن بدت سبعينية بتجاعيد وجهها التي خطها الفقر وسوء التغذية، وكان على وجهها سماحة ودعة دفعتني لأن أتمرد على وظيفة جمال الصواف وأقرر أن أمارس عملي كطبيب لأفيد هذه العجوز الطيبة. أرسلت بصري أتفحص تهاني، وسرعان ما رسمت في عقلي الخطة: سأطلب لها فحوص تحليل للدم كاملة، فالمرأة بلا جدال تعاني من فقر دم وربما بعض الأمراض الخافية، كما سأفحصها للسرطان[٦٣-٦٤]، بداية بفحص خلايا عنق الرحم للسرطان باختبار المسح الخلوي (Pap smear) والذي يُنصح به للإناث بداية من سن ٢١ عامًا فقط إن كانت متزوجة أو من سن ٣٠ عامًا لكل الإناث وحتى سن ٦٩ عامًا مرة كل ٣ سنوات، كما سأفحص ثدييها سريريًا كما يُنصح لكل أنثى من سن العشرين عامًا مرة كل ٣ سنوات، وأيضًا

(*) أحمد خالد توفيق - طبيب وأديب مصري معاصر.

بالأشعة (Mammogram) كما يُنصح لكل سيدة بدايةً من سن الأربعين عامًا، وعلى طبعًا أن أشرح لها الفحص الذاتي للثدي الذي ينبغي أن تقوم به كل أنثى بداية من سن العشرين عامًا شهريًا. تهاني أيضًا كانت مدخنة، فمن يعيش مع عم إدريس لابد وأن ينفث عن نفسه بنفخ دخان السجائر الرديئة، سأطلب لها أشعة مقطعية على الرئة إذًا[٦٥]، كما يمكنني أيضًا فحص قولونها بحثًا عن أورام كما يُوصى لكل من بلغ الخمسين عامًا باختبار سنوي لعينة من البراز (FIT /FOBT)(*) وسأطلب لها موعدًا في قسم الأمراض الباطنية يتم فيه فحص قولونها بالمنظار والذي يكرر كل ٥ سنوات لاحقًا[٦٤]. ماذا تبقى إذًا؟ قفزت في مخيلتي صورة موظف الاستقبال جمال الصواف واللوكاندة، ورأيتني في زي موظف الاستقبال أحمل لفائف السمك المشوي وأكياس الخضار والفاكهة فتذكرت، الفيتامينات والحديد، وطلب أخصائي الجلدية كما أمر أبي الحاج عبده.

هاتفت المدرس المساعد النوبالجي في قسم الجلدية، ولحسن حظي كانت تجمعني به سابق معرفة. وبعد الترحيب والمجاملات قلت له المطلوب، والحقيقة أن الرجل طوال سنوات معرفتي به كان دمث الخلق عفيف اللسان، لكنه ما أن سمع طلبي حتى قال مستنكرًا بعفوية:

- أحا أنت عبيط يالله؟ تبليغة أخصائي على طفح جلدي يا روح أمك؟

على أنه سرعان ما عاد يعتذر عما بدر منه، ووعدني بأن يزورني في العنبر في ظهيرة ذات اليوم، وكان أن أوفى بوعده، وجاءني وناظر الحالة

(*) FIT: Fecal immunochemical testing
- FOBT: Fecal occult blood testing:

مقررًا إصابتها بجرب مزمن وإكزيما، وطلب لها بعض المراهم ثم تلا علينا التعليمات عن غسيل فرشها وثيابها وانصرف.

فلما كان اليوم التالي أرسل أبويا الحاج في طلبي، فلما مثلت أمامه وقصصت عليه ما قاله صديقي مدرس مساعد الجلدية، قال لي:

- طيب لما ييجي النهاردة خليني أكلمه علشان أسأله في حاجة.

فأصابني الهلع وأسرعت أقول له:

- ماهو جه يا بك امبارح خلاص، وأنا مقعدها تاكل وتبرطع في العنبر زي سيادتك ما أمرت، وعملت لها فحوصات وتحليلات وأشعات، وخدت لها مواعيد مناظير كمان يا بك.. بس الجلدية خلاص، شافها امبارح ومش طالب يشوفها تاني سيادتك. بهدوء قال لي أبويا الحاج:

- ده كان أول امبارح يا كريم يا مسطول، وأنا قايل لك تأكل وتبرطع، وأخصائي الجلدية يجيلها يوم ويوم.

تمتمت بصوت لم يسمعه الأستاذ:

- وعهد الله امبارح، وبعدين يوم ويوم؟ ده هيسبلي ميت ملة ودين لو قلت له كده!

هاتفت صديقي المدرس المساعد من جديد، وبعد الموال المتوقع من السب والتعريض بأطباء النساء والدكتور عبد الأحد، جاء وقابل الأستاذ، الذي استشاره في أمر خاص به فوصف له علاجًا وانصرف متأففًا، وانطلقنا أنا وأبويا الحاج الأستاذ الدكتور لإحضار السمك من عم إبراهيم (نعم، أبويا الحاج الأستاذ الدكتور عبد الأحد يأكل السمك

تقريبًا كل يوم لإيمانه بأن الفوسفور يمنح الحيوية والشباب).

كنا قد أوغلنا في الصيف وصار الجو جحيمًا لا يطاق خاصةً مع رطوبة مدينتنا، فاتفقت مع صديقي الصيدلي يوسف عادل على الهروب إلى إحدى القرى السياحية لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. فلما كان اليوم التالي هو يوم الخميس جمعت أغراضي بعد المرور على العنبر، وأرسلت في طلب أم إبراهيم الداية تحسبًا لأي طارئ أثناء غيابي، وألقمتها ثلاثين جنيهًا مقابل أتعابها علاوة على ما ستتقاضاه من أتعاب من المرضى، وتهيأت للانصراف مع صديقي يوسف، وإذا بأبي الحاج عبده يدخل العنبر ويرسل في طلبي، فلما مثلت بين يديه من جديد قال لي:

- يا كريم، فين يا بني أخصائي الجلدية؟

- ماهو جه لحضرتك امبارح يا بك!

- يا كريم يا مسطول ده كان أول امبارح.

(طب والخاتمة الطاهرة كان امبارح)

- فينه يا كريم؟ كلمه قول له أبوك الحاج الأستاذ الدكتور عبد الأحد مستنيك تطمنه على تهاني، بس ما يتأخرش علشان النهاردة معزوم على أكلة سمك.

يا للمصيبة، ومن أين آتي بأخصائي جلدية يوم الخميس؟ لكن على الأقل أبويا الحاج مدعو ولن أصحبه في رحلة جلب السمك من عم إبراهيم.

انصرفت من أمام الأستاذ وأنا أتمتم:

- بس أنا لو كلمت مدرس مساعد الجلدية وقلت له أبويا الحاج الاستاذ عايزك، هيقول لي أبوك علي أبو أستاذك على أبو اللي جابوك على بلدكم كلها يا ولاد الكلب.. فلم يبق غير حل واحد.

مضت نصف ساعة، دخل بعدها العنبر رجل وسيم يرتدي حلة أنيقة ورباطة عنق مزركشة. نشطت في الترحيب به وبالغت في الاحتفاء به وأنا أدعوه لتناول المرطبات، لكنه اعتذر لي بتواضع ورجاني أن نسارع بفحص المريضة، فلما وقفنا إلى جوار سرير تهاني أمسك بيدها ليجس نبضها ثم طلب منها النظر إلى أعلى وفحص عينيها، ثم نظر في بلعومها، وبدت عليه الحيرة، فأشرت له على الطفح الجلدي على جسد المرأة ففحصه، ثم ربت على كتفها وقال لها:

- هممممم، ممتاز يا ستي ممتاز، أنتِ ما شاء الله في تحسن مستمر يا أمي، إن شاء الله خير، كلها كام يوم وتقومي تمشي على رجليكي، وتبقي أحسن من الأول.

تفحصت تهاني هيئة الطبيب بحلته الأنيقة وعطره الفواح، ثم ألقت على هيئتي نظرة مقارنة بسروال العمليات الذي يشبه البيجاما ومعطفي الطبي الأبيض الذي تأبى بقع الدم أن تغادره، فاستقر في يقينها أن الرجل ذو الحلة هو ولا شك أستاذ أساتذة الجلدية، فتورد وجهها ولهج لسانها بالدعاء له والامتنان لصنيعه.

كنا على وشك الانصراف من زيارة تهاني، عندما سمعت صوت أبويا الحاج عبده وهو يقول:

- يا كريم، واد يا دكتور كريم، الجلدية وصل؟

فلما رأى الرجل المتأنق استدرك قائلًا:

- أهلا وسهلًا بالزميل العزيز، معقول الولد كريم أزعجك على موضوع بسيط كده، لا مالوش حق.. يعني أي حد من تلامذة سيادتك كافي والله.

فأجابه الرجل الأنيق بتلعثم سرعان مازال:

- أهلًا بيك يا فندم، لا مافيش إزعاج ولا حاجة، حالة سيادتك لازم تكون في عينينا، دي فرصة سعيدة جدًا إني أتشرف بلقاء أستاذنا.. متعك الله بالصحة يا باشا.

فأجابه أبويا الحاج بتواضع:

- الله يبارك لك. ثم التفت لتهاني وقال لها:

- ابني كريم جابلك الاستشاري بنفسه أهوه يا تهاني يا بت الكلب علشان إدريس يتهد بقى ويجل عن سمايا.

ثم التفت من جديد للرجل الأنيق وقال:

- هنعمل إيه بس، أنت عارف دول غلاية والواحد بياخد فيهم ثواب.. والله أنا كان يسعدني أقعد مع سيادتك بس معذرةً، مواعد ناس على الغذاء واتأخرت عليهم.. واعذرنا على إزعاجك، كريم معاك ويوصلك فين ما تحب، عربيته تويوتا حديثة ومكيفة وهو سواقته هادية.. أه، وسلامي لأخي الأستاذ الخولي.. سلام عليكم.

شد الرجل الأنيق على يد إبويا الحاج الدكتور عبده وهويقول:

- ما فيش إزعاج يا فندم، في أمان الله معاليك.

جلست عصر ذلك اليوم بالمايوه على شاطئ البحر في القرية السياحية أمص دخان الأرجيلة وأخرجه من فمي على شكل حلقات متتابعة. تداخلت سحابة دخان عظيمة مع حلقات دخاني فأفسدتها، نظرت غاضبًا لمن أضاع جهدي، فكان الرجل الأنيق ذو الحلة ورباطة العنق الذي زارني في العنبر، أو صديقي الصيدلي يوسف عادل استشاري الجلدية المزيف، وقد ارتدى مايوهاً أحمراً مشجراً زاهياً يأبى الرجال أن يرتدوه.

يقول البروفسور عرابي أن رضا الأستاذ من رضا الرب، فيوم الامتحان ستمثل بين يديه، يوم لا ينفع مال ولا توصية إلا من أتى الأستاذ برصيد كافي من الخدمات، فاختر أي خادمة تريدها؛ "أنت ابننا وخدمتنا، وأنا ضميري المهني يحتم عليا أقف جنبك وأعينك، بالتوفيق يا حبيبي".. أو؛ "أنت مستهتر ومشاكلك كتير وأنا ضميري المهني يمنعني أشارك في جريمة إعطائك رخصة تقتل بها المرضى".

في الصباح، اتصل بي عيلاء ليطمئن على سير العمل وعلي كما قال لي.. فلم أُرد أن أبرد نار فضوله وتركته مع العبارات المطاطة على شاكلة "أنا بخير، ربنا يجيبكم بالسلامة".

ثم التفتت الدكتورة سعدية طرف المكالمة لتقول لي:

- شكلك متهني ومرتاح يا كيمو، أرزاق، ناس لها الشقى وناس لها الراحة، بقولك أنا عايزة أجيب الصالون أصفر كناري والبيه مش راضي.. بيقول لي إيه صفار البيض ده.. شفت الحيوان؟

ولم أدر إن كان الحيوان إلى جوارها أم لا، فاكتفيت بأن قلت لها:

- العفش يا سوسو لازم يبقى على ذوقك أنت، أنت ملكة البيت يا حبيبتي.. ولو ما اشترتيش اللي أنت حباه هتعيشي طول عمرك متكدرة، اسمعي كلامي أنا أعرف ناس اتطلقوا بعد سنين علشان رجل نيش السفرة مش عاجب الست.. وبعدين لو عمل معاك كده من دلوقت أمال هيعمل إيه وأنت تحت إيده.. ده هيركبك ويقول لك "شي"؟ أقل ما ينبغي أنه يسيبك تنقي اللي عاجبك.. الأصول كده، والحب هو أن الحبيب يبقى كل هدفه في الدنيا سعادة حبيبه، أنت ما سمعتيش ليلى مراد في أغنية "ماليش أمل" وهي بتقول:

ماليش أمل في الدنيا دي غير أني أشوفك متهني

حتى إن لقيت إن بعدي راح يسعدك إبعد عني

أما أنا مهما جرى حافضل أصون عهد الهوى

وإن غبت يوم ولا سنة حافضل أنا برضك أنا.....يا حيوان

تمعنت الدكتورة سعدية في كلامي وشعرت بالسعادة في أذني تكاد تحرق يدي، فتيقنت أني قد أبليت بلاءً حسنًا، وهذا من فضل ربي..

القضبان الباردة

مضيت أكشف على السجينات اللواتي تلخصت شكوى أغلبهن في بعض الالتهابات أو الأمغاص أو النزف، وقد وضعت على وجهي جدية صارمة تضن بالابتسامة فضلًا عن الدعابة أمام هؤلاء المذنبات الخاطئات، حتى أظهر لهن غضبنا نحن المواطنين الصالحين مما اقترفن، لكن سرعان مازال عني هذا الوجوم بعد أن اكتشفت أنهن بشر مثلنا، يُضحكن ويَضحكن ويسخرن ويتألمن ويعابثن ويداعبن، وزال عني بعض الهلع الذي جثم على نفسي وأنا في حضرة هؤلاء الوحوش، بل قابلت بعض مشاهير مدينتنا مثل فلة الكيلو تسعة ونص أجمل فتاة ليل في مدينتنا، وماما عبير كافولة المشهورة بخطف الأطفال الرضع وبيعهم للأثرياء، كما أسعدني الحظ برؤية مدام فوزية معتمد، صاحبة أكبر توكيل أدوات كهربائية في مدينتنا والذي اتضح أنها تاجرة مخدرات، ثم دخلت العيادة هويدا.. استدرت وكنت أغسل يدي بعد المريضة السابقة، فوجدتها واقفة في منتصف الغرفة والأصفاد في يديها تغلهما إلى أخرى في ساقيها. كانت المريضات تدخلن علينا العيادة دون أصفاد، فبدا المشهد غريبًا، لكن السجانة أجابت بعدم اكتراث:

- هويدا زين العابدين أحمد دي أصل مخها بعافية شوية.. بس خلي بالك يا بك، دي بت كلب قتلت جوزها وعيالها.. وقطعت لسانها.

٥- في دار الهجرة للولادة

لم أسمع من طائري السُنُونُو بعد مكالمتنا الهاتفية. في اليوم التالي، دخلت عنبري وأنا أهنئ نفسي على نصائحي لطيور السُنُونُو، لكن ما إن دلفت حجرة الكشف حتى رأيتها، وهما يتناولان طعام الإفطار معًا في حب وود، وتساءلت كيف انتهي موضوع الصالون الأصفر الكناري.

تناولت الدكتورة سعدية كسرةً من خبز التقطت بها قطعة من قرص العجة، ورفعتها إلى فمها فالتهمت منها قضمة، ثم رفعتها إلى فم عيلاء الذي التهمها دون اهتمام، فرقّت سوسو صوتها وقالت بدلال وغنج:

- أنا قضمة وأنت قضمة علشان تجرى ورايا يا عللولتي.

فانتفض عيلاء غاضبًا وقال لها بصوته الأجش:

- إيه عللولتك دي يا برنسيسة، أنتِ هتبيضي ولا إيه؟

فانتفخت أوداج الدكتورة سعدية وأَرْبَدَّ وجهها وصاحت فيه:

- أبيض ده إيه شايفني فرخة؟ أنا بأولد يا دكتور يا خريج الكليات لأني من الثدييات، يعني زي البقر والحوت والفيل.

بذلت نظرة متفحصة للدكتورة سعدية، لكنني فشلت في تحديد هل هي بقرة أم حوت أم فيل، فالتمست العذر للدكتور عيلاء في اعتبارها بياضة لا ولادة.

تركت الثدييات البياضة في حجرة الكشف وانطلقت إلى مكتب الثواب، وجلست أملأ صدري بهواء البحر من نافذته، وأفكر كيف تطارد الموجة الموجة في مشهد رومانسي رائع، لم يقطعه سوى دخول الدكتورة تسنيم عبد الوارث الأستاذ المساعد بالقسم. دكتورة تسنيم من أصل عريق ضارب في القدم في طين مصر الخصب، وقد صبغ هذا الأصل بشرة وجهها بالسمار مع تناثر النمش عليه من كثرة التعرض للشمس في الطفولة، لكنه منحها أيضًا قبولًا رائعًا لدى قطاع كبير من البسطاء من المرضى. تزوجت الدكتورة تسنيم وهي لاتزال طالبة في السنوات النهائية من الكلية وأنجبت أطفالها الواحد تلو الآخر في سنوات النيابة، ثم سافرت بعدها مباشرة إلى إحدى جامعات الخليج للعمل في التدريس هناك، وعادت بعد سنوات طويلة إلى مصر لتفتح عيادة في مسقط رأسها في عاصمة محافظة ريفية متاخمة لمحافظتنا الساحلية. ورغم نبوغها في علم النساء والتوليد، إلا أن الدكتورة تسنيم كان ينقصها الخبرة العملية للجراحات المختلفة وحساسية المشرط وثقة العامل الماهر في قدرات يديه، مما اضطرها للجوء إلى توظيف جراحين من الباطن.

بعد التحيات والمجاملات، تبين أن الدكتورة تسنيم جاءت تطلب مني مساعدتها في جراحة استئصال رحم ستجريها في إحدى المستشفيات الخاصة بمحافظتها الريفية. كان الطلب رغم غرابته معتادًا حيث يلجأ إلينا بعض الأساتذة لمساعدتهم في جراحتهم الخاصة خارج المستشفى متى تعذر تو فير مساعد في المستشفى الخاص، لكن بالنسبة لي كانت

هذه أول مرة أعمل بها خارج حدود محافظتنا، فكدت أعتذر لها لولا أنها شددت على في أنها لا تثق غير في شخصي، ولأنه أول طلب لها مني، وأخيرًا لأني علمت أنها المسئولة عن امتحان الماجستير الذي سأخوضه في نهاية العام، فاضطررت للموافقة.

وفي اليوم المحدد سافرت إلى المحافظة الريفية، واتجهت مباشرة إلى دار الهجرة للولادة وأمراض النساء حيث ضربت لي الدكتورة تسنيم الميعاد. على باب المستشفى استوقفني رجل أمن وسألني إن كنت الدكتور كريم، فلما أجبت بالإيجاب، صحبني عبر باب خلفي للمستشفى صعد بي مباشرة إلى غرفة العمليات حيث كانت الدكتورة تسنيم وطبيبة التخدير في انتظاري، وسرعان ما استبدلت ملابسي بزي العمليات وأتممت تعقيمي، ثم دلفت إلى حجرة العمليات حيث رقدت المريضة الغائبة بالفعل عن الوعي بفعل عقاقير التخدير. في الجراحة يقف الجراح على يمين المريضة ويقف المساعد على يسارها، فلما اتخذت موقعي على يسار المريضة، فوجئت بالدكتورة تسنيم تشير إلى أن أغير موقعي إلى جهة اليمين، فأدركت أنني من سيقوم بالجراحة وستساعدني الدكتورة تسنيم. لم أندهش كثيرًا لعلمي المسبق بمحدودية خبرتها الجراحية، وشرعت على الفور في استئصال الرحم. جرت الأمور على مايرام، وسرعان ما انتهينا من الجراحة، فطلبت مني الدكتورة تسنيم مغادرة الغرفة قبل إفاقة المريضة والانتظار في غرفة استراحة الأطباء لتوافيني هناك بعد إفاقة المريضة. مضى بعض الوقت وأنا أنتظرها، فتشاغلت بمطالعة بعض الصحف الموجودة على طاولة إلى جواري. فجأة انفرج باب الغرفة عن رجل مهيب بلحية طويلة بيضاء، وجلباب بني اللون داكن وخف في قدميه أسود وبصحبته امرأتين منتقبتين بالأسود، بدا على الرجل أنه قد

فوجئ بوجودي، ومضت لحظات قبل أن يلقي التحية عليّ، فلما رددتها بادرني بالسؤال عن الدكتورة تسنيم، فأجبته أنها في انتظار إفاقة المريضة بالحجرة المجاورة. هبط سكون طويل على الحجرة، قبل أن يعود الرجل ويبادرني قائلًا وهو يشد على يدي مصافحًا:

- أخوك مصطفى شعبان.

كانت يده غليظة خشنة كحال من يعمل بالزراعة وقبضتها قوية، فصافحته قائلًا:

- تشرفنا، كريم رأفت.

بدا القلق على وجه الرجل وقبل أن يكمل ما بدا أنه سيقوله، دلفت الدكتورة تسنيم إلى الحجرة بصحبة طبيبة التخدير، فلما رأت الرجل، تغير وجهها وصارت تقلب عينيها بيني وبين الرجل بقلق، قبل أن تقول بتلعثم:

- أهلا يا حاج.. زوجتك بفضل الله بخير والجراحة ناجحة.. اتفضل حضرتك دلوقتي وسأوافيكم في أودة الحاجة بعد قليل.

تحركت المتقبتان للخروج، لكن الرجل تباطأ قليلًا قبل أن يشير إلي وهو يوجه حديثه للدكتورة تسنيم:

- الأخ كريم هو قريب حضرتك يا دكتورة تسنيم؟

تلعثمت الدكتورة تسنيم، وانقبض وجهها، ثم قالت بصوت جاهدت ليبدو طبيعيًا:

- لا الأخ كريم سائق الحاج والدي وجاء لشأن عاجل.. اتفضل

أنت يا حاج ما يصحش الحاجة تصحى ما تلاقيكش جمبها.

انقبض قلبي وانفرج وجه الرجل، وصافحني وانصرف. مدت الدكتورة تسنيم يدها لتنفحني بأجري على مساعدتها، وكان مبلغًا يزيد قليلًا عن تكلفة وقود سيارتي للرحلة، قبل أن تشكرني وتسلمني لرجل الأمن الذي صاحبني إلى سيارتي من الباب الخلفي. في اليوم التالي، قابلت الدكتورة تسنيم فشكرتني على مساعدتي لها بالأمس، ولم تمر على ذكر الإشارة إلي بوصفي "سائق الحاج" أمام زوج المريضة ولا حتى مع تكرار المقابلات.

عندما قصصت على البروفيسور عرابي ضحك ملء شدقيه، وقال لي مازحًا:

- يا دكتور كريم يا ريت تبقى سواقهم.. دا أنا سامع إنه قريب هيعمل برنامج على فضائية من إياهم.

ورغم بغضي لهذا الخداع، واحتقاري لهذا التصرف، اضطررت لتكرار زياراتي لدار الهجرة للولادة وأمراض النساء. وفي يوم، حل الدكتور علاء فراولة محلي في مساعدة الدكتورة تسنيم بسبب إصابتي بإنفلونزا حادة، لكن علاء حين نفحته الدكتورة تسنيم بأجره، أصيب بنوبة غضب عارمة، اندفع على أثرها إلى خارج العمليات، فقابل أهل المريضة، فما كان منه إلا إن أملى لهم باعتراف تفصيلي عن حيلة الدكتورة تسنيم، فأقسم زوج المريضة، وكان من رجال السلطة، ليُغلقن دار الهجرة للولادة وأمراض النساء وعيادة الدكتورة تسنيم، وليُلاحقنها قضائيًا على خداعها هذا. كم شنف سمعي علاء وهو يحكي لي تهديد الرجل ووعيده للدكتورة تسنيم. بقي أن أقول أن الأستاذة الدكتورة تسنيم

حاليًا هي صاحبة دار الأنصار للولادة، والواقعة في أكبر شوارع مدينتنا الساحلية العريقة.

لكن يبقى السؤال، هل عملي في مجال أمراض النساء والتوليد حرام؟ مضيت أبحث عن إجابة فوجدت اختلافًا في الآراء، فقد قالت أمانة الفتوى بدار الإفتاء المصرية [٦٦]:

"نص فقهاء الشافعية وغيرهم على تقديم الطبيب الأمهر إطلاقًا ولو من غير الجنس والدين على غيره، ونصوا على أنه إن وجد من لا يرضى إلا بأكثر من أجرة المثل، فإنه يكون كالعدم حينئذ، فلو وجد كافر يرضى بدونها مسلم ولا يرضى إلا بها (بالأجر)، صار المسلم كالعدم وجاز تطبيب غير المسلم الحاذق، مع التنبيه على ضرورة وجود محرم عند الكشف عليها من قبل الطبيب أو من تأمن على نفسها في وجوده.

وعلى هذا يجوز للمرأة المسلمة الذهاب إلى طبيب النساء والولادة وأن يباشرها بنفسه إذا اطمأنت إلى مهارته وحذقه عن غيره، لأن حالة الولادة من الحالات الضرورة، حيث أنها من العمليات الدقيقة التي تستدعي مهارة الطبيب الحاذق، إنقاذًا لحياة الحامل وحياة الجنين فيها، فإنه لا يُعلم قبل مجيء المخاض إن كانت هذه الولادة ستكون سهلة أو ستكون عسيرة يخشى منها على حياة الحامل، واحتياطيًا للمحافظة على حياة الحامل ونجاح الولادة".

وعلى هذا فقد قُدمت المهارة على الدين والجنس، فإن تساوت المهارات، قُدم الأجر الأنسب أيضًا على الجنس والدين.

لكن مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، خالف رأي دار الإفتاء المصرية وقدم دين وجنس المعالج على المهارة ولم يقم

اعتبارًا للأجر فقال [٢١٧]:

الأصل أنه إذا توافرت طبيبة مسلمة متخصصة يجب أن تقوم بالكشف على المريضة، وإذا لم يتوافر ذلك فتقوم طبيبة غير مسلمة ثقة، فإن لم يتوافر يقوم به طبيب مسلم، وإن لم يتوافر طبيب مسلم يمكن أن يقوم مقامه طبيب غير مسلم، على أن يطلع من جسم المرأة على قدر الحاجة في تشخيص المرض ومداواته وألا يزيد عن ذلك وأن يغض الطرف قدر استطاعته وأن تتم معالجة الطبيب للمرأة هذه بحضور محرم أو زوج أو امرأة خشية الخلوة، ويوصي المجمع أن تولي السلطات الصحية جل جهدها لتشجيع النساء على الانخراط في مجال العلوم الطبية والتخصص في كل فروعها وخاصة أمراض النساء والتوليد نظرًا لندرة النساء في هذه التخصصات الطبية حتى لا نضطر إلى قاعدة الاستثناء.

وعليه تقول فتوى إدارة الدعوة والإرشاد الديني بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر [٢١٨]:

"يجوز للرجل التخصص في طب النساء خصوصًا فيما لا يمكن عادة أن يقوم به أغلب النساء المتخصصات، كالعمليات الجراحية المعقدة، وإذا تخصص هذا التخصص فعليه أن يلزم جانب الحيطة والحذر أثناء ممارسة المهنة، فلا يكشف إلا عما تدعو الضرورة إلى الكشف عنه، ولا يخلو بمريضة منفردًا، ولا يباشر من العلاج ما أمكن أن يباشره النساء الطبيبات، وأن يلازم استشعار كون الله مطلعًا عليه، وهو يعلم السر وأخفى".

تفكرت في ما بين يدي من فتاوى، فتوصلت إلى أنه بالنسبة للدين والجنس، فليس لي فيها حيلة، فليكن التميز والحذاقة والمهارة إذًا هم

تصريح العمل لي في مجال أمراض النساء والتوليد، مع رفع أكف الضراعة للمولى عز وجل أن يمن علي بكثير من البراعة والإتقان والإجادة، وأن يصيب الزميلات المتخصصات في هذا المجال بالفشل والإخفاق والخيبة اللي بالويبة.

القضبان الباردة

لم أكن أسأل كل سجينة عن جريمتها، ربما ليظل طائر الهلع في نفسي هاجعًا ولا أدع القلق يفترسني، لكن هويدا كانت تجلس أمامي في سكون ودعة، ذاهلة عما حولها، تدور عيناها في المكان دون أن تستقر، وتتجلى فيها نظرة فارغة من كل معنى، فتبدّد القلق الذي استبد بي من ذكر جريمتها بفضول في أن أعرف لماذا؟ لماذا أجهزت هذه المرأة على زوجها وطفلها، ثم قطعت لسانها؟ نظرت في وجهها، فلم أر فيه شراسة ولا شراً. كنت أتمنى لو أسبر أغوارها لاعلم لأي شيء كان جرمها. التقطت بياناتها من على غلاف ملفها: هويدا زين العابدين أحمد.. مواليد بني سويف.. في التاسعة والعشرين من عمرها، رفعت عيني أنظر إليها من جديد، بدت لي أصغر من عمرها المذكور، بدت لي دون العشرين، قصيرة مسحاء، جسدها يابس هزيل، بطنها خمصاء ورأسها صغير، بشرتها شاحبة لكن وجهها به براءة ودعة، شعرها الأسود الأثيث تجمّع تحت منديل أبيض إلا بعض خصلاته، عيناها الخابيتان الذاهلتان واسعتان، هما مزيج من الأسود بقليل من الأخضر تحيط بهما دوائر سوداء، شفتاها دقيقتان، أنفها مستو، وصدغاها غائران. كانت هويدا جسدًا قد خمدت

فيه الحياة. طلبت من السجانة فك قيودها فرفضت بحجة التعليمات، وأجلستها على المقعد. فتحت الملف، وبدأت أقرأ فيه عن شكواها.

٦- مهرجان الامتحانات الجامعية

تفاقم الخلاف بين طائري السُنُونُو على طقم الصالون الأصفر الكناري القبيح، فقررا تأجيل الزفاف لحين سفر وفد من العائلتين للتحكيم بينهما في قضية الصالون الأصفر، وهل هو فعلًا لون صفار البيض أم هو الموضة؟ كانت قناعتي أنه لون زبالة أساسًا، إلا أن مبدأي كان راسخًا: البيت مملكة الزوجة ووحدها هي من حقها اختيار أثاثه، سواء كانت من الثدييات الولادة أو السوسو البياض، لكن دعونا الآن من طائري السُنُونُو، ولنحكي عن الامتحانات في جامعات وطننا العربي.

موسم امتحانات جامعتنا هو مهرجان الخير والمتعة، وأيضًا الإثارة والتشويق للسادة أعضاء هيئة التدريس، ففيه تنعقد فعاليات الملتقى السنوي المتجدد لرجال إبليس وقادة ألوية التدليس وصغار الأبالسة الجدد، بالتوازي مع الملتقى السنوي المتجدد لرجال الشرف ومحاربي الفساد ومسحراتية الضمير. وعلى مدار شهرين كاملين، تنخرط الكلية في فعاليات المهرجان الذي يتوسع كل عام، بإضافات مثيرة تحت مسمى تطوير التعليم ومحاربة المحاباة، وبالتوازي أبحاث إجهاض تطوير التعليم وتشجيع المحاباة. والحقيقة أن هذا الفساد الضارب بجذوره

في معظم كليات الجامعات العربية مفهومة دوافعه تمامًا، ما بين عملية التوريث الممنهجة لأبناء السادة أعضاء هيئة التدريس الذين صرفوا المال والجهد لبناء صروح طبية أو هندسية أو تجارية أو خلافه غير جائز أن تؤول لغير أبنائهم، أو تبادل المنافع وتسديد ثمن الخدمات لرجال السلطة أو المال والأعمال، أو للنيل من الأعداء والتنكيل بالخصوم والانتقام من الأشرار، وأخيرًا لممارسة جميع أشكال التمييز الطائفي والعرقي والديني.

كانت عيادة الكلية قد آلت للأستاذ الدكتور عادل عبد الحق صبري رئيس لجنة تطوير التعليم الجامعي بالكلية، وشرع الدكتور عادل في تطبيق ما رآه سيادته من أنظمة الامتحانات الجامعية المتطورة التي خبرها في أثناء بعثته لدراسة تطوير التعليم في رومانيا وبولندا، وتركزت التغييرات التي أدخلها سيادته في إضافة نظام القرعة في امتحانات الشفوي التي يسود فيها الكثير من المحاباة والفساد، كما أضاف سيادته امتحانًا عمليًا إكلينيكيًا ليقتطع من درجة امتحان الشفوي ويقلل من تأثيره.

كانت شمس النهار تتثاءب مملة رغبتها في الرحيل، وخف ضوؤها من السماء عندما استدعاني السيد الأستاذ الدكتور أشرف فهمي رئيس القسم إلى مكتبه. تعجبت من وجود سيادته في هذا الوقت في المستشفى وسعيت إلى مكتبه فلما دلفت إلى الحجرة رفع الدكتور أشرف رأسه من ملف كان يقرأ فيه ثم قال لي بلهجة آمرة:

- أقفل الباب بالمفتاح وتعال اقعد هنا.

لم يكن معروفًا عن الدكتور أشرف ما يقلق، ومع ذلك فقد بدا أمر إغلاق الباب بالمفتاح غريبًا خاصة في هذه الساعة، على أنني انصعت

لأمره نظرًا لضآلة جسده التي تسمح لي بتلقينه درسًا قاسيًا إن راودته نفسه على ما يشين.

اعتدل الرجل في جلسته وقال:

- كريم، العميد طلب مني ترشيح أسماء المعيدين اللي هيمسكوا امتحان الشفوي والعملي، وكان شرطه إنهم ما يكونوش متورطين في نشاط الدروس الخصوصية غير القانونية للطلبة. المشكلة، أن ما فيش غير تسعة هم اللي ينطبق عليهم الشروط ومطلوب عشرة، وأنا قررت أضمك لهم.

كان يتكلم وكأنه محسن ممتاز (السيد عبد المحسن فايق) مكتشف الجاسوس المصري رأفت الهجان (رفعت الجمال)، أو الريس زكريا (اللواء عبد السلام المحجوب) مُجند البطل جمعة الشوان (أحمد الحوان). أومأت برأسي موافقًا، لكنه تلفت حوله ثم عاد ليؤكد بصوت أكثر جدية:

- كريم، الموضوع ده سر.. ما حدش يعرف عنه حاجة.. أنا بلغت سكرتيرة العميد بالأسماء.. لكن الأسماء مش هتُعلن إلا صباح يوم الامتحان فقط.

" ربنا يشفي" هكذا حدثتني نفسي؛ ذلك أن الامتحانات التي تدوم لأكثر من ستة أسابيع لن يُحدث حجب أسماء العاملين عليها أثرًا طالما سيُعرف بعد أول يوم.

استطرد الدكتور أشرف قائلًا وهو يرفع سبابته محذرًا:

- كريم، الموضوع ده خطير ولازم يتاخد بجدية كاملة منك، حسك عينك مخلوق يعرف ولا حتى في بيتكم، وأنا هأعمل لك انتداب

لأعمال الامتحانات من عنبرك علشان تتفرغ تمامًا للموضوع ده.

بصعوبة استطعت أن أكبح جماح فرحتي لخبر انتدابي خارج عنبري لمدة شهر ونصف. كادت الدموع تملأ مقلتي وتخذلني الكلمات على هدية السماء لي، ستة أسابيع كاملة بعيدًا عن سعدية مسعود أسعد السعد وعيلاه فروالة، يا لرحمتك الواسعة يا إلهي.

خرجت من مكتب الدكتور أشرف وقلبي يرقص طربًا للخبر السعيد، في الردهة قابلت عيلاه فراولة، كنت أتحرق لأصرح له بأني سأستريح من مصائبه هو وخطيبته سعدية لمدة ستة أسابيع كاملة، لكنني تذكرت الوعد الذي قطعته للدكتور أشرف بإبقاء الأمر سرًا، فابتلعت لساني، لكن عيلاه بادرني بالقول:

- قشطة يا كابو يا سفاح "الاستيودنتس" ودبيح "الأنضر إيج"، مبروك يا معلم.

فزعت من كلامه، فشددت عليه ألا يتحدث في الأمر نظرًا لسريته الشديدة، ولم أتركه إلا بعد أن أقسم ألا يخبر أحدًا، ثم ران لي أن أسأله كيف علم بالأمر فقال لي ببساطة:

- أبدًا، الواد أحمد بتاع السويتش سمع مكالمة دكتور أشرف مع البت سكرتيرة العميد فقال لفرماوي المعاون اللي قال لممدوح عامل السكن اللي قال لباكينام عاملة سكن الطبيبات اللي قالت للمزة تيسير ممرضة عنبرنا اللي قالت أستغفر الله العظيم لسعدية خطيبتي اللي قالت لي، بس سرك في بير يا برنس.

في صباح اليوم التالي، استدعتني الاستاذ الدكتور عصمت عوض

إلى مكتبها ودفعت إلي بقائمة أسماء قد قسمت إلى ثلاثة أقسام، قسم كتب بالقلم الأزرق وقسم كتب بالقلم الأخضر، ثم قسم كتب بالأحمر، وشرحت لي:

- في لجنة امتحان يوم الخميس ٧ مايو، الطلبة اللي اسمهم مكتوب بالأخضر دول توديهم للدكتور سراج، واللي بالأزرق هتجيبهم عندي، الاتنين اللي بالأحمر بقى دول هتجيبهم عندي.

لم أفهم، فسألت الدكتورة عصمت:

- هو إيه الفرق بين الأحمر والأزرق طالما هأجيبهم عند حضرتك؟

فاعتدلت في مقعدها وقالت:

- الأزرق دول ولاد أساتذة زملائي أو ولاد ناس يهموني، انا اللي هأمتحنهم، بس لو اتزنقت ممكن أوصي عليهم حد يمتحنهم، إنما اللي بالأحمر دي تبقى حفيدة دكتورة كانت عندنا في الكلية زمان اسمها فوزية الأمير ماتت من بحبي عشر سنين.. الدكتورة فوزية دي كانت نقصتني خمس درجات في الامتحان الشفوي لما كنت أنا طالبة في الكلية، ويومها عملت ندر لأخلصهم من أي حد من طرفها، فالبت اللي اسمها بالأحمر دي لازم تيجي عندي تتربى فاهم؟

تذكرت الاسم الثاني فسألتها عنه:

- اه ده عيل اسمه فادي جرجس أبسخرون ولا مش عارفه إيه، قبطي، بيقولوا عليه شاطر وجايب الدرجات النهائية في امتحانات أعمال السنة.. فده يجي عندي علشان نسقطه لجنة شفوي ويضيع

تقديره فما يعرفش يتخصص نساء.

كنت أعلم أن قسم أمراض النساء من الأقسام التي تتحايل حتى لا يُعين بها أطباء ذكور أقباط، لكن ليس بتعمد رسوب الطالب في لجنة امتحان، وإنما يقتصر الأمر فقط على خصم شيء من درجاته يكفي لعدم نيله تقدير امتياز وبالتالي تخلفه عن باقي أقرانه النابهين في المادة مما يضمن حرمانه من منافستهم على التعيين كعضو هيئة تدريس في القسم لاحقًا. أما في حالة الطالب المذكور فمن الواضح أنه طالب نابغ نجيب مما يستلزم ـ لضمان حرمانه من التعيين بالقسم ـ رسوبه في لجنة كاملة. كان الأمر كله مثيرًا للغثيان فقلت مستنكرًا:

- بس حضرتك طالما الولد شاطر قوي كده، حرام نضيع تقديره.

فصرخت الدكتور عصمت في وجهي قائلة:

- إيه ده، أنت عايز الواد المسيحي ده يكشف على ستاتنا؟ مافيش نخوة خالص؟ ما فيش رجولة؟ وبعدين ده حرام.

تذكرت فتوى دار الإفتاء المصرية التي تُقدم المهارة على الجنس والدين[٦٦]، وأدركت أني أُبحر مع أبسخرون في نفس القارب، فتملكتني الشجاعة وقلت:

- حضرتك هو ما قالش إنه هياخد نيابة أمراض نساء، وهو لو شاطر يبقى حلال، وده رأي دار الإفتاء المصرية.. وبعدين ما إحنا بنكشف على ستاتهم، ثم ما هو في التخصصات التانية برضك هيكشف على مسلمات، في جراحة ولا في باطنة.. المفروض إنه دكتور شاطر يعني ديانته مش في الموضوع خالص.

ثارت الدكتور عصمت في وجهي قائلة:

- لا حرام، وبعدين أنت ترضى أن أبسخرون ده يكشف على أختك ولا أمك؟

فسرت جرعة شجاعة جديدة في عروقي وقلت مجادلًا:

- ماهو حضرتك هما لو سافروا يتعالجوا بره هيكشف عليهم هناك واحد بيتر أو فيليب أو يمكن كوهين وليفي، أو حتى واحد كافر ملحد مالوش دين أصلًا.

فقالت باشمئزاز وقرف:

- بلاد بره ده وضع تاني، إنما هنا مستحيل الزفت أبسخرون ده يتعين في قسم النسا ويكشف على الستات، يغور يتعين في قسم من الأقسام المزيتة اللي هم قفلينها عليهم.. فيه حاجة اسمها نخوة يا فندي يا لطخ أنت، روح اسأل عنها، والموضوع ده ما تتكلمش فيه مع حد، اتفضل.

بدت لي عبثية المناقشة، وتذكرت نقطة هامة فهتفت في الدكتور عصمت:

- بس فيه مشكلة في الموضوع ده كله، دكتور أشرف قال أن التوزيع هيبقى قُرعة يا دكتور عصمت، يعني كل طالب بييجي لي ساعة الامتحان وأنا باسحب ورقة مقفولة فيها اسم الأستاذ اللي هيمتحنه، فإزاي يعني أظبط مين هيمتحن فين؟

نظرت إلي وكأنها ترى أبلهًا يقف على كفيه:

- أنت هتفضل كده عيط لحد امتى يا كريم؟ يا بني أنت خلاص

فاضلك شهور وتخلص النيابة وتطلع للحياة بكل مصاعبها ومشاكلها، هتواجهها ازاي يا حبيبي وأنت باهطل ده؟ يعني أبسط الأمور مش عارف تحلها أمال هتعمل إيه في المصايب، يا بني مش كده، اجتهد شوية، فكر، حاول، أنا مش هأكون موجودة جمبك على طول، يعني ربنا يجعل يومك قبل يومي ويديني طولة العمر، بس أنا مش هأشيل عنك التفكير في كل حاجة، أنت كده هتضيع في الدنيا الواسعة.

انقبض قلبي عند معرفة أني سأضيع في الدنيا الواسعة، وحاولت أن أتدبر كيف يمكن أن أتجاوز مشكلة القرعة، لكن الدكتور عصمت التي يئست من ذكائي قالت ببساطة:

- ولا حاجة، في جيبك اليمين هتحط ورق مكتوب فيه اسم سراج، وفي جيبك الشمال هتحط ورق فيه اسمي، العيل اللي عليه الدور تسحب له، لو اسمه في اللستة دي، هتدب إيدك في جيبك تاخد ورقة من اللي متحضرين، تطبق الورقة في إيدك، تدب إيدك في دورق السحب كأنك هتشد ورقة، وتطلع بالورقة اللي أصلًا في إيدك، بس خلاص صعبة؟ عندك أسبوع تتمرن عليها علشان لو حد كان واقف لك.

ما شاء الله، سأتعلم حركات الحواة حتى لا أضيع في الدنيا، ومن يدري ربما إن فشلت في عملي كطبيب أمراض نساء وتوليد فبإمكاني أن أعمل كحاوي في سيرك. لم يكن أمامي اختيارات كثيرة، فاضطررت للبدء في التدريب العملي على اكتساب مهارة اخفاء الورقة في باطن يدي.

في اليوم التالي، طلبني الدكتور عزيز الليثي وقال لي:

- واد يا كريم، الريسة الدكر بتاعتك عصمت عايزة تمتحن حفيدة المرحومة فوزية الأمير علشان تطلع دين أبوها.. ده ظلم.. ظلم، البت شاطرة ومتفوقة، ولها تعيين في الجامعة، ثم دي تبقى بنت أخت مراتي، وعلى جثتي تمتحن عند عصمت أو سراج، ده ظلم ما يرضيش ربنا أبدًا.

رسمت الدهشة على وجهي واصطنعت الجهل بالأمر فقال لي الليثي:

- واله أنت هتعملهم عليا؟ هي مش ادتلك لستة وقالت لك تتمرن على كعمشت الورقة في إيدك علشان القرعة؟ ياض عيب مش أمي اللي تشتغلها.

يبدو أن هذه الحيل قد اعتركها الناس حتى صارت بديهية. فلم يكن للانكار مجال، فانتقلنا إلى الخطة المضادة، قال الليثي:

- بص، أول ما يجي الدور على البت حفيدة فوزية، أنا هأبعت لك الواد ممدوح الحيوان بكوباية نسكافيه هيدلقها عليك، فتمشي وتسيب القرعة أنا هأظبطها.

كانت حيلة مكشوفة وقد استهلكت في كل الأفلام المصرية، فلم أقتنع بها. عيلاء الذي كان على الباب ولم ننتبه إليه قدم خطه بديلة:

- أول ما يجي دور البرنسيسة، هأبعت لك الواد أشرف خرابة يعمل إنه جوز عيانة وعايز يغزك مطوه، بس، أنت بقى ديلك في سنانك ويا فكيك، وعمنا الدكتور الليثي يظبط الورق..

- مين أشرف خرابة ده؟

- ده أخصائي تحرش جنسي ويبحضّر دراسات عليا اغتصاب حاليًا.

لم أكن أثق كثيرًا في ذكاء صديق عيلاء السيد أشرف خرابة، ثم أنها لا تختلف عن الأفكار البالية المستهلكة الأخرى التي لا ترقى لتخطيط عصابة من المبتدئين. تذكرت الطالب القبطي فسألت الدكتور عزيز ماذا نحن فاعلون به؟

- ده مسيحي، عايزنا نعمل لأمه ايه؟

- يا دكتور عزيز الواد شاطر ومتفوق زي قريبتك والدكتور عصمت هتسقطه في اللجنة علشان تضيع تقديره، مش ده ظلم برضك وما يرضيش ربنا؟

فأجاب الدكتور عزيز على الفور:

- يا عم دول ولاد كلب، ما يصعبوش عليك قوي كده، ما تشوف قسم التشريح والفارماكولوجي(*) ولا قسم التحاليل، كلهم قبط ويسقطوا المسلمين.. تصدق الدكتور مرقس بوز الإخص كان منقصني ١٠ درجات بروح أمه في الشفوي وضيع عليا التعيين في قسم التحاليل، إنما مردوده له، أنا القبطي اللي بيجي تحت إيدي بأفشخ أمه، العين بالعين يا بابا.

الظلم الذي يُغضب ربنا هنا لا يغضبه هناك إذا؟ وظُلم من كان على دين الظالم عدلٌ لمن سبق وظُلِم من ذاك الظالم.. والعين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم، على شريعة حمورابي.

(*) فارماكولوجي: علم الصيدلة.

كدت أناقش دكتور الليثي في منطقه، لكن فجأة أشعت في رأسي فكرة تنقذ الجميع، مسلمين وأقباط، فالتفت لأسأل عياله:

- مش أخوك بيشتغل نائب في قسم الجراحة.

فلما أجاب أن نعم، استطردت قائلًا:

- حلو، وأنا ابن خالي دكتور في قسم جراحة العظام، والدكتور سامي عبد الرازق هو اللي ماسك اللجان الطبية الخاصة.

ومضيت أشرح لهما خطتي فاقتنعا بها وباركاها وبقي أن نستعد ليوم الخميس ٧ مايو.

وبدأ مهرجان الامتحانات.

اليوم الأول: السبت ٢ مايو.....

اليوم كلفت بشئون امتحان الإكلينكي، وهو عبارة عن طاولات رصت في غرفة كبيرة، على كل طاولة آلة من آلات الجراحة أو صورة لأشعة مقطعية أو موجات فوق صوتية أو نتيجة باثولوجي لعينة من جدار رحم، والمطلوب من الطالب التعرف على الآلة أو استنتاج التشخيص من صور الأشعة أو نتيجة العينة. مضت الأمور بهدوء لكنني لاحظت أن طالبًا فارع الطول كان لا ينظر إلى موضوع الاختبار بل بمجرد أن ينظر إلى رقم الطاولة يندفع ليكتب التشخيص. اقتربت منه وقرأت اسمه: أيمن كمال البحيري. ربتُّ على كتفه وسألته:

- هو أنت يا دكتور تبقى ابن..

وقبل أن أكمل جملتي قال لي بلهجة كلها تحد واستنفار:

- أيوه يا دكتور أنا ابن الوزير..

ازدرت ريقي بصعوبة، فالوزير معروف بغلظته وفظاظته، فربت على كتفه وقلت:

- بالتوفيق يا دكتور، بالتوفيق..

وتكررت نفس الملحوظة مع طالب آخر، فاقتربت لأقرأ اسمه: أحمد سعيد الدمياطي

- أنت ابن..

بنبرة تحدي واضحة قال:

- أيوه، ابن وكيل الجامعة الأستاذ الدكتور سعيد الدمياطي.

ولم يختلف الأمر مع ثالثهما: آسر المخزومي.

اقتربت منه أسأله عما يصنع والده لكسب قوته، فأجاب بفخر:

- الوالد صاحب شركات المخزومي مال المجاولات والمعمار، ترى مشاريعه تغطي كل العالم، ما سامع فيه دكتور؟

وأخيرتهم، آمال فاروق العشري بنبرة لم ينقصها التعالي والازدراء قالت:

- بابي فاروق العشري، رجل أعمال وعضو مجلس الشعب وفي الحزب.

قررت أن أجري اختبارًا، فأبدلت رقم الطاولة رقم ٩ بالرقم ١٠. وكما توقعت فقد جاءت إجابة آمال العشرى على حسب رقم الطاولة لا موضوع الاختبار، وكأنه قد تم تلقينها بإجابة كل طاولة من قبل

الامتحان. تلفت حولي فلم أرَ سوى رجال أبليس، وكدت أفقد الأمل في كشف الغش لولا مرور الدكتور أحمد الصالح، فهرعت إليه أستغيث به وحكيت له ما كان، وكان الرجل عند حسن ظني، إذ جمع الطلاب الاربعة واصطحبهم إلى اللجنة المجاورة ذات الترتيب المختلف، وسرعان ما انهار الطلاب واعترفوا بأن الامتحان قد سُرب إليهم قبيل بدايته. شرع الدكتور أحمد في كتابة محضر بالواقعة لإثباتها وتوقيع العقوبة على الطلاب ومن سرب إليهم الامتحان. فجأة، انفتح الباب عن الدكتور أشرف فهمي، ومعه كوكبة من قادة الأفرع الرئيسية لجيش إبليس الأعظم، واصطحبوا الدكتور أحمد الصالح معهم قبل أن يبتلعهم باب لجنة الامتحان من جديد، ولم تمض الساعة حتى عاد الدكتور أحمد الصالح وقد أَرْبَدَّ وجهه من الغضب والغيظ، وطمأنني إلى أنه رفض سحب المذكرة وأصر على تحويل الواقعة للشئون القانونية، وطلب مني التزام الصمت حتى لا تمارس الضغوط علي أو عليه لسحب الشكوى.

اليوم الثاني من المهرجان: الاحد ٣ مايو

رُفع اسمي من مراقبة لجان الامتحان وكلفت بأعمال رصد درجات لجان الأمس في مكتب الأستاذ الدكتور أشرف فهمي رئيس القسم، والذي لم ينبس بكلمة طوال اليوم معي. لم أسمع جديدًا في واقعة غش الأمس.

اليوم الثالث من المهرجان: الاثنين ٤ مايو..

كلفت بلجنة امتحان إكلينيكي جديد. كشف أسماء الطلاب لا يضم

أي أسماء معروفة، إذًا لجنة هادئة عادية. انتصف وقت اللجنة، طالب يعبث بصورة أشعة موجات فوق صوتية ليضلل من سيمتحن وراءه، الغيرة أحيانًا تصيب الطلاب بالجنون.. أنهره... أجمع أوراق الإجابة وأتجه إلى مكتب رئيس القسم، تقابلني مدام تحية السكرتيرة وتسلمني ورقة استدعاء للشئون القانونية في اليوم التالي.

مكتب الشئون القانونية: الثلاثاء ٥ مايو.

جلست أمام المحقق القانوني الأستاذ ناصر السعيد. قرأ علي نص المذكرة التي تقدم بها الأستاذ الدكتور أحمد الصالح ضد الطلاب الأربعة:

- طيب مقيم كريم رأفت، هل حدث يوم ٢ مايو الواقعة المذكورة في مذكرة الأستاذ الدكتور أحمد الصالح وبنفس الكيفية التي استمعت إليها الآن؟

أجبت أن نعم فاستطرد يقول:

- هل قمت بتبديل أرقام طاولات الامتحان للطالبة أمال فاروق العشرى أثناء الامتحان يوم ٢ مايو؟

فوجئت بالسؤال، فحاولت أن أشرح الهدف من التبديل فقاطعني الأستاذ ناصر:

- طيب كريم رأفت، من فضلك أجب بنعم أو بلا فقط.

فأجبت أن نعم، فعاد الأستاذ ناصر السعيد يقول:

- طيب كريم رأفت، هل استأذنت السيد الأستاذ الدكتور محمود

الحاتي رئيس لجنة الامتحان المذكور في تبديل أرقام طاولات الاختبار للطالبة المذكورة.. ومن فضلك أجب بنعم أو لا فقط.

أجبت أن لا، فقال بلهجة مختلفة بها بعض الود:

- دكتور كريم، أنت عارف أن ده اسمه إخلال بنظام الامتحان لأنه عبث بمواده بهدف إعاقة طالبة من أداء الاختبار ودي فيها مساءلة قانونية؟ أنت عارف أن دي فيها نيابة وقضية؟ دكتور أحمد الصالح وافق يسحب المذكرة حماية لمستقبلك، إيه رأيك؟

ساد صمت ثقيل، أنهاه الأستاذ ناصر السعيد بأن مزق ورقة التحقيق وقال لي:

- أنت قليل الخبرة يا دكتور كريم وأنا فاهم حماس الشباب، ويصعب عليا قوي أني أضيع مستقبلك اللي لسه بيبتدي. أنا ما شفتاكش يا دكتور كريم النهاردة. مع السلامة.

عيادة دكتور أحمد الصالح: مساء الأربعاء ٦ مايو.

قابلني الدكتور أحمد الصالح وعلى وجهه كثير من الغضب والحنق، حكيت له ما كان مع المحقق القانوني فزفر بقوة وقال:

- أنت عارف إني كنت في لجنة تطوير التعليم دي بعد ما رجعت من إنجلترا؟ قلت لهم أن المنظومة فاشلة، الفساد ضارب في كل الكليات.. المشكلة أن أغلبية الأساتذة ناس فوق مستوى الشبهات، لكن مضطرين يقبلوها.. مافيا المصالح أقوى من الجميع ومتغلغلة في النظام الإداري.. دول كلهم ما يطلعوش

عشرة في المية من عدد الأساتذة، لكن العشرة دول في إيدهم كل حاجة.. اقترحت عليهم نعمل زي الدول المحترمة.. ندي الامتحانات هيئة عالية متخصصة، الدنيا كلها النهاردة فيها هيئات مخصوصة للامتحانات، وده هيفتح لنا باب الاعتراف الدولي بدرجاتنا العلمية بدل ما خريجينا بيضطروا يعملوا امتحانات معادلات صعبة ومكلفة لو حبوا يشتغلوا بره مصر، عارف عملوا ايه؟ شالوني من اللجنة.. قالوا أن ده يسيئ لصورة جامعتنا! يعني هي أم الكوسة والمحسوبية هما اللي مش بيسيئوا؟ لكن أقول لك إيه، نهايته، شوفلك أي حجة واطلع من الامتحانات دي قبل ما يلبسوك قضية يا بني وأنت لا ليك لا في الثور ولا الطحين.

خرجت من عيادة دكتور أحمد الصالح، فهاتفت الصديق معتز منصور وكيل النيابة، والصديق أحمد الحلو طبيب جراحة العظام في مستشفى جامعتنا.

اليوم الخامس من المهرجان: الخميس ٧ مايو.

سُلِمت لسكرتارية رئيس القسم مذكرة اعتذار عن استمراري في أعمال الامتحانات وتوصية بمنحي إجازة مرضية نظرًا لإصابتي بكسر في قدمي بعد حادث سيارة مسرعة فرت هاربة وقائدها مجهول في ليلة الأربعاء ٦ مايو.

الجمعة ٨ مايو: مستشفى جراحات العظام بجامعتنا ـ الحجرة ٣٠٩.

كنت أرقد في سريري بالمستشفى وقدمي معلقة في جبيرة مزيفة وضعها لي قريبي الدكتور أحمد الحلو طبيب العظام، وإلى جواري الصديق معتز منصور يطمئنني إلى حسن سير خطتنا. زارني الدكتور عيلاء ومعه باقة زهور لم أدر لها نوعًا ورجحت أن تكون زهور بزلاء، وبعد التحيات والسلامات همس لي:

- الخطة مشت زي الفل، حفيدة دكتورة فوزية دخلت عنبر الجراحة بتاع أخويا على إنها زائدة دودية منفجرة، والقسم هيطلع لها لجنة شفوي خاصة بكرة ريسها حبيبك الدكتور سامي عبد الرازق وهو اللي هيمتحن البت وكله في السليم يا نجم، تسلم خططك.

فعدت أسأله:

- طيب والواد فادي أبسخرون عملت ايه؟

فانفرج فم عيلاء وقال:

- ما هو متلقح في الأودة اللي جامبك يا برنز وهتجيله اللجنة الخاصة برضك بتاعت عمك سامي عبد الرازق، ده أمه قاعده تصلي لك وولعت لك يجي ميت شمعة في الكنيسة عندهم.

بَلجَ صدري. كنت أثق في عدالة أستاذي الأستاذ الدكتور سامي عبد الرازق وصفاء ضميره، فضحكت وسألت عيلاء كيف اختلق سببًا لدخول الطالب المستشفى فبدا عليه الاضطراب وقال ببطء:

- لا هو ما كانش ينفع فيها تزوير، ما أنت فاهم، دي هيبقى فيها تنخير وتدقيق وطوب الأرض هيشمشم ورانا..

انتابني القلق من كلمات عيلاء، فلما حدجته بنظرة داعية للمزيد من الإفصاح قال بتلعثم:

- بص يا كابو، الحقيقة كان لازم الإصابة تبقى حقيقية، فأنا رميته من سلم المستشفى، وإيده ورجله وضلع صدره وعظمة الترقوة اتكسروا وجاله ارتجاج في المخ.

فلما رأى الهلع على وجهي استطرد يقول:

- بس والمصحف أمه بتدعي لك....

القضبان الباردة

كتب طبيب السجن في الملف أن هويدا زين العابدين أحمد وزنها في تناقص مستمر، كما أنها بلا شهية تقريبًا، وتعاني من نزيف مهبلي بين الحين والآخر بعيدًا عن دورتها، وقد اشتكت بمغص في بطنها أكثر من مرة، وأنه حسب مرضها في البداية هو إصابة دودية أو ماشابه، لكن نتائج تحاليلها جاءت سلبية، وقد احتار في أمرها. حاولت أن أسألها عن شكواها.. كنت أعلم أنها دون لسان لكن اعتقدت أن بوسعها الرد ولو بالإشارة على أسئلتي.. لكنها بقيت صامتة ذاهلة.. ولم أدر أهي عليلة العقل أيضًا، فقد خلا ملفها من أي تقييم لقواها العقلية، لكن أظن أن عليلات العقل يوضعن في مستشفيات الأمراض العقلية. سألت السجانة إن كان يمكن سؤالها فضحكت وقالت: "لو نطق أبو الهول هي ما بتنطقش يا باشا، دي في دنيا تانية، بيقولوا لا مؤاخذه الصدمة أثرت عليها".

طلبت من السجانة أن ترقدها على سرير الكشف، فهوت على كتفها اليابس بقبضتها الضخمة وجذبتها منه وسحبتها وراءها كما لو كانت نعجة، ثم بغلظة أرقدتها على سرير الكشف ومضت تكشف عنها ثوبها الأبيض. فلما انتهت نخرت كبغل قائلةً أن قد أنهت مهمتها. اتخذت

مجلسي على المقعد بجوار سرير الكشف ورحت أتهيأ لجس بطن هويدا، وبدت مني نظرة إلى وجهها، فرأيت عينيها قد كفت عن الدوارن، وقد افترت شفتاها عن ابتسامة غامضة، وانبسط وجهها، فلما تلاقت أعيننا، رأيت عينيها بلا حياة فسرت رعشة باردة في جسدي. اقتربت منها، ونفخت في يدي لأدفئها قبل أن ألمسها، فلما لامست جلدها تألقت عيناها فجأة واتسعت ابتسامتها وأدارت كامل وجهها شطري.

٧- الحب في زمن الإمتياز

عندما تبدأ سنة الامتياز وهي سنة التدريب الإكلينيكي للأطباء الذين اجتازوا سنوات الدراسة الست في كلية الطب، يصبح هؤلاء فجأة في مواجهة العالم الحقيقي، بشروره ومتاعبه. ولأنهم - أي الأطباء - قادمون من بيئات مختلفة وبخلفيات اجتماعية متباينة، فإننا كثيرًا ما كنا نفاجأ بتصرفات غريبة تصدر عنهم لم نكن مؤهلين حقيقةً للتعامل معها ولا لاحتوائها. ولهذا علقت في ذهني قصة متولي.

أول لقاء لي مع متولي كان خارجًا من دورة مياة السيدات في العنبر وهو يغلق سوستة سرواله، فسألته ولم أكن قد تعرفت عليه بعد:

- أنت إيه؟ وبتعمل إيه في حمام الستات؟

- أنا متولي دكتور امتياز وده أول يوم ليا عندوكوا يا بك، كنت محسور ودخلت فكيت زنقتي.

وفي أول نوبتجية، وجدت متولي جالسًا مع العاملات في حجرتهن، وقد افترشوا طعام الإفطار الذي غمرتني منه رائحة الثوم والباذنجان المقلي. كنت أبحث عنه لأرسله إلى بنك الدم لإحضار بعض أكياس

الدم، فأجابني بغير اكتراث:

- أخلص بس اللقمة يا بك، أنا أصلي على لحم بطني من أول امبارح، بس حاضر، أخلص الفطار وأطير على بنك الدم، بس لو مستعجل قوي عليه، شوف لي معك بريزة للتاكسي، أنت عارف الإسعاف وقرفه.

بعدها بدقائق سمعت صياحًا وسبابًا، فلما هرعت لأستطلع مصدره وجدت تشابكًا بالأيادي بين الدكتور متولي وأم محمود العاملة بالقسم. ثم علمت أن الشجار كان بسبب رفض الدكتور متولي دفع ثمن إفطاره، فلما نهرته قال لي بتلقائية:

- يا باشا دي ولية حرامية، كل يوم تجيب لي الطعيمة سادة، ودلوقتي عايزة تحاسبني عليها على أنها محشية، إنما وحياة أمها ما أنا دافع ولا مليم، الأشكال الواطية دي أنا مترب وسطها وعارفها يا باشا. ثم التفت لأم محمود ولكمها في وجهها وهو يسبها.

كانت طريقته في طلب النقود غريبة، وصراعه عليها مريب ومقزز. لن أخوض في مظهره الذي لا ينم أبدًا عن طبيب، فلم أكن يومًا ممن يقيمون الناس بظاهرهم، لكن شيئًا ما في مظهره يوحي لك من الوهلة الأولى بأن هذا الفتى غير سوي السريرة . هل يمكن تحديد انحراف شخص ما من مظهره؟ نعم، لقد تفوق أجدادنا في علم الفراسة أو ما يسمى باللاتينية Physiognomy وهو علم معترف به اليوم في كل العالم، بل هناك دراسة مثيرة قامت بها مجموعة بحثية في جامعة كورنويل الأمريكية عام ٢٠١١[٦٩]، حيث طلب الباحثون من مجموعة من المتطوعين أن يحدسوا من بين صور عدد كبير من الأشخاص من منهم أدين في جرائم

ومن منهم مواطنين شرفاء، وكانت المفاجأة في التجربة التي أعادوها مرتين، أن المتطوعين أمكنهم وبدقة تحديد من المنحرف ومن السوي بتأمل الوجه.

لم تقتنع؟ دعك إذًا من طريقته في طلب النقود وكذلك من رفضه دفع ثمن الطعام للعاملة المسكينة، ودعني أحكي لك ما كان مع الدكتور متولي.

كانت عادتي أن أجرد عهدة التمريض في عنبري يوم الخميس من كل أسبوع، وهي عادة اكتسبتها من بعد تجربتي مع نحمده عليوة، أو مس سونيا. وذات يوم، لفت نظري أن عهدة القسم رغم تمامها، إلا أن نوعية بعض العقاقير والمحاليل مختلفة عن الأسبوع السابق. انتحيت جانبا بسناء مسئولة العهدة في عنبري ـ وكانت فتاة أمينة وعلى خلق ـ ونقلت لها ملاحظتي تلك، وسرعان ما انهارت الفتاة في بكاء مرير، اعترفت بعده بأن العهدة فعلًا كانت ناقصة وأنها اضطرت لاستكمالها من العنابر المجاورة ولشراء بعض المستلزمات على حسابها الخاص، لكنها أبت أن تصرح بسبب النقص. كان هذا غريبًا على سلوكها الذي خبرته معها على مدار أسابيع عملي الطويلة معها، فلجأت لصديقتها هدى التي صرحت لي بأن سناء على علاقة بطبيب الامتياز متولي، الذي وعدها بالزواج، والذي يقترض منها مستلزمات العنبر ولا يعيدها أبدًا. كان كثير من أطباء الامتياز يعملون في مستوصفات صغيرة في مناطق شعبية بهدف اكتساب بعض الأموال التي تعوضهم عن ضعف مرتبهم من الجامعة في أثناء عام الامتياز، وكان بعضهم يستولي على المحاليل الرخيصة أو بعض المضادات الحيوية الضعيفة من مستشفانا، لكن طبيعة النقص في عهدة سناء التي استولى عليها متولي تشي بأنه يقوم بعمليات إجهاض،

وهو عمل غير مصرح به في المستوصفات. انطلقت لمكتب البروفيسور عرابي، وطلبت منه الاطلاع على دفاتر الدخول لقسم الإجهاض في عنبرنا، وبنظرته المتفحصة، أشار عرابي إلى زيادة ملحوظة في حالات الإجهاض من أحد الأحياء الشعبية في مدينتنا. وللدلالة على كلامه، أطلعني على دفتر نفس العنبر في الشهر السابق. دونت أسماء الحالات الموجودة من هذه المنطقة وانطلقت إلى عنبر الإجهاض وقابلت المرضى الذين أجمعوا على أن طبيبًا يدعى منصور يعمل في مستوصف المنطقة، هو الذي يعالجهم بالعقار الذي يبدأ الإجهاض، ثم يستكمل علاجهم في مستشفانا إذا ما استجاب عنق الرحم وقرر لفظ محتواه. لم يكن في مستشفانا نائبًا اسمه منصور. استفسرت عن مواصفات الدكتور منصور، فانطبقت على الدكتور متولي.

اتجهت لعنبر الولادة، فأعلمني تمريضه بأن الدكتور متولي دأب على جلب حالات يقوم بتوليدها بنفسه بحجة أنهن قريباته. نظرت لدفاتر العنبر لأفحص المريضات اللاتي قام متولي بتوليدهن، فوجدتهن جميعًا من نفس المنطقة الشعبية التي جاءت منها حالات الإجهاض. لم يكن ما جمعته حتى الآن يرقى لدليل إدانة لمتولي، فاتصلت بالصديق معتز منصور أسأله النصح، فأجابني بأن الطريقة الوحيدة للإيقاع بمتولي هي أن تعترف عليه إحدى المريضات ويفضل ممن أتت منهن للإجهاض لأنه مخالفة قانونية صارخة. مضيت أفكر كيف أوقع بمتولي. شددت على تمريض عنبر الإجهاض بضرورة إبلاغي فور وصول أي مريضة من هذه المنطقة الشعبية. وذات يوم جاءتني الإخبارية، فأرسلت على الفور في طلب متولي لأبعده عن المستشفى، وأرسلته مع الدكتور عيلاء لمناظرة حالة في مستشفى الجراحة لم يعد منها إلا بعد أن أجهضت مريضته

المحجوزة في العنبر فعلًا. وأثمرت جهودي شكوى رسمية من مريضته جاء فيها أن الدكتور متولي قد قبض منها أتعاب إجراء إجهاض كامل لها في مستشفانا، لكنه تخلف عن الحضور لمباشرة حالتها. وتكرر الأمر مع أكثر من مريضة في عنبر الولادة والإجهاض، حتى لم تمض أيام قليلة إلا وكان في حوزتي أكثر من عشر شكاوى ضد متولي، كانت كفيلة بإيقاف المحقق القانوني للمستشفى إياه عن العمل وإحالته للتحقيق. ثم هبطت عليّ هدية من السماء. أخبرني معتز بك منصور عن شكوى قُدمت للنيابة من مريضة تتهم متولي بأنه قد تسبب في وفاة جنينها أثناء الولادة في المستوصف الذي يعمل به والذي انكشف أمره فيه وعُرف أن اسمهُ الحقيقي متولي.

اقتنعت الآن؟ لعلك إذًا سعيدٌ بأني قد نلت من هذا الطبيب الفاسد.

ذات مساء، زارني متولي في حجرة مكتبي في العنبر، وكان يتأبط ذراع سناء الممرضة. رفعت رأسي فوجدتهما على باب الحجرة. كانت عيناها تترقرقان بالدموع، وكان هو يحملق فيّ بمزيج لا أدري أمن البغض أم الغضب، أم الندم وطلب الصفح. أطرق قليلًا ثم قال لي بصوت مخنوق مرتجف:

- أنا عارف أنك نزلتني تحقيق في المستشفى، وعارف كمان أنك ورا المحاضر اللي في النيابة، وعارف أنك عملت كده علشان لازم تحمي نفسك والمستشفى من المسئولية القانونية.

رغم التأثر البادي عليه والذي لمست صدقه، إلا أنني لم أجد في نفسي أي تعاطف معه ولا حتى رثاء لطبيب قد يضيع مستقبله، فالرجل منحرف ولا يليق به أن يكون في فيلق الأطباء.

استطرد متولي قائلًا:

- أنا مش وحش قوي زي ما أنت فاهم. أنا قلت لك إني من بيئة واطية جدًا، ده بجد مش هزار، إحنا أيام وليالي كنا مش بنلاقي الرغيف الحاف نسد به جوعنا، إحنا تسعة في أوضة.

ها قد عدنا لإسطوانة الفقر المعتادة.. هكذا حدثتني نفسي.

استطرد متولي يقول:

- أبويا الله يرحمه بالعافية خلاني أكمل تعليمي، بس بشرط أني أشتغل وأنا بذاكر.. كنت أخلص المدرسة وأطلع على ورشة واحد إسطورجي، أشتغل لحد الفجر.. صدري أكله التنر، بس أنا ذاكرت، وتفوقت، وجبت مجموع كلية الطب.. أبويا إحتار يعمل إيه فيّ.. حاول معايا أدخل معهد وأخلص وأشتغل وأساعده.. سقت عليه طوب الأرض.. وبالعافية وافق أني أدخل الطب.. دخلت من هنا وهو مات من هنا، وبقيت بشتغل طول النهار وأذاكر طول الليل.. اتخرجت، واستنيت تفرج، لقيتها ضاقت أكثر.. ما ينفعش أرجع استورجي بعد ما بقيت دكتور.. ومرتب الدكتور ما يأكلش عيش حاف.

نفذ صبري فزفرت زفرة قوية. الفقر لا يبرر الإنحراف خاصة في مهنتنا، والأكيد أنه لا يبرر تعريض حياة المرضى للخطر فقط من أجل المال.

وكأن متولي قد قرأ أفكاري فقال لي:

- ده مش عذر، ده واقع.

أجبته على الفور:

- ده عذر أقبح من ذنب، عمومًا أتعشم أنك تتعلم الدرس وتعرف أن السكة دي غلط..

فهقه متولي فجأة وقال لي:

- وهو لو أنا اتعلمت، الدنيا هتتعلم؟ أنا ترتيبي على الدفعة في الأواخر، يعني لا هيجي لي فرصة تدريب في مستشفى زي سيادتك كده ولا زي أي حد من البهوات اللي بيتعرص لهم في الإمتحانات.. أنا أخري هترمي في وحدة صحية في المجاهل أتعلم في الناس اللي هناك، وأنصب عليهم وأطلع لي بقرشين زيادة عن اللي وزارة الصحة هتديهم لي.. تفتكر بعد كام سنة هأعرف أجيب لنفسي شقة أتجوز فيها ولا هدمه نضيفة ولا عربية ألم فيها عيالي علشان أبقى الدكتور راح والدكتور جه؟.. أي واحد من ولاد البهوات اللي معانا هيخلص ويتعلم ويتفتح له عيادة ولآ يتعين في مستشفى ويعمل فلوس قد كده، ولآ يطلع له بلد عربي يظبط نفسه بيها.. إنما اللي زعي هيفضل طول عمره في الوحل.. أنت عايزني بقى أفضل في الوحل؟ علمتني إيه أنت ولا غيرك في الأقسام التانية؟ الجامعة بتدي دكتور الامتياز تمن كيلو لحمة وعايزاه يعيش ويتمرن ويتعلم، طيب ازاي؟ وبعد ما نخلص الامتياز، الوزارة هتخليهم تلاتة كيلو لحمة.. يعملوا إيه دول؟ البلد دي عايزانا نسرق، بس من غير ما حد يشوفنا.. عايزانا ننصب، بس من غير ما حد يشتكي.. عايزانا نقتل الناس، بس من غير ما حد يتهمنا.. ولما حد مننا يقع، تجري البلد وتعلق

له المشانق.. وتقول آه ما هو أصله هو اللي واطي وفقير ونجس.. وناسيه أنها هي بلد النجاسة والظلم.

قالها واستدار لينصرف، وقبل أن يغيب عن بصري، سبقني لساني بما كان يختلج في صدري، فقلت له:

- طيب وما فكرتش أن في يوم لو سناء دي وهي مراتك وقعت تحت إيدين دكتور امتياز نصاب منحرف زيك وضيعها، أنت هيكون إحساسك إيه؟

فقال دون أن يلتفت:

- يومها هأقول منها لله البلد الوسخة اللي خلت دكتور امتياز يبقى مجرم، وخلت ولادها ضحايا لجهله.

صمت لبرهة ثم استطرد يقول بصوت مخنوق:

- يمكن كان لازم أسمع كلام أبويا وأبيع حلمي أني أكون دكتور، يمكن فعلًا العلم ده مش للفقرا.

ومضى بعد أن أن صفع الباب خلفه. نظرت لسناء الممرضة التي كانت دموعها قد جفت في مقلتيها، وحلت مكانها نظرات رجاء وأمل. اقتربت مني، ثم بهدوء جلست إلى المقعد المقابل لمكتبي واستغرقنا في الحديث. فلما انتهينا، ودعتني بابتسامة أمل أشرق بها محياها. وودعتُها بعيني تقدير وإجلال حتى غابت وراء الباب، ثم أغمضتها.

في الليل جاء صوت عود البروفيسور عرابي عذبًا وهو يضرب على

أوتاره لحنًا هادئًا ويطلق لسانه يقول(*)

وبعثت تعتب يا أبي

وغضبت مني بعدما

تاهت خطاي.. عن الحسين

أنا يا أبي في الدرب مصلوب اليدين

وزوابع الأيام تحملني ولا أدري لأين

والناس تعبر فوق أشلائي

ودمعي بين بين

وبعثت تعتب يا أبي

لم لا تجيء لكي ترى

كيف الضمير يموت في قلب الرجل

كيف الأمان يضيع أو يفنى الأمل

لم لا تجيء لكي ترى

أن الطريق يضيق حزنًا بالبشر

أن الظلام اليوم يغتال القمر

أن الربيع يجيء من غير الزهر

(*) قصيدة زمن الذئاب ـ فاروق جويدة شاعر مصري.

لم لا تجيء لكي ترى

الأرض تأكل زرعها

والأم تقتل طفلها

أترى تصدق يا أبي

أن السماء الآن تذبح بدرها

والأرض يا أبتاه تأكل نفسها؟

وغضبت يا أبتاه مني بعدما

تاهت خطاي عن الحسين

أتراه عاش زماننا

أتراه ذاق كؤوسنا

هل كان في أيامه دجل وإذلال وقهر؟

هل كان في أيامه دنس يضيق بكل طهر؟

******

ورأيت أحلام السنين كلها كأنها

وهم جحود أو سراب

وعرفت أن العمر حلم زائف

فغدًا يصير إلى التراب

زمن حزين يا أبي زمن الذئاب

وقطع لحن البروفيسور عرابي صوت الدكتور متولي وهو يستصرخني أن أرتدي ملابسي بسرعة وأتوجه معه إلى عنبر الولادة. هناك، وجدت فتاة راقدة على سرير الولادة وهي في حالة إعياء شديدة، وقد تدلت ذراع جنينها من بين ساقيها، بينما علق باقي جسده بداخل بطنها، وهي حالة طارئة تستدعي سرعة التصرف. حاولت سماع نبض الجنين فجاءني صوت قلبه خافتًا مضطربًا. كان وضعه مستعرضًا أفقيًا في الرحم بدلًا من الوضع الرأسي، كما انفجر كيس الماء المحيط به، وكلها أمور تحتم إنهاء الولادة وإخراج الجنين في أسرع وقت بإجراء ولادة قيصرية، فأسرعت بنقل المريضة إلى غرفة العمليات، ولما تلكأت ممرضات العمليات في التحضير للجراحة صحت فيهن:

- سيزيرين بسرعة يا ولاد الكلب

ولم تمض دقائق معدودة، حتى كنت قد أخرجت الجنين إلى النور، ومضيت في إغلاق طبقات البطن. طبيبة الأطفال حديثي الولادة التي كنت قد استدعيتها لتحضر معي الولادة، بذلت محاولات مستميتة مع الطفل لإنعاشه، والذي رغم الحياة التي كانت بين ضلوعه، كان رافضًا تمامًا للتنفس.. مضت الدقائق الأولى ثقيلة، قبل أن تعلن الطبيبة أن حالته سيئة وتنسحب به إلى غرفة الإنعاش. كانت الدلائل تشير إلى أن الجنين قد تعرض لتلف في خلايا المخ نتيجة نقص في مستوى الأكسجين أثناء الولادة المتعثرة، وهي حالات يقف أمامها الطب عاجزًا، فما تلف يستحيل إصلاحه، علاوة على احتمال إصابته بالشلل في ذراعه التي تدلت فيما يعرف بشلل "إيرب"، وهو شلل بالذراع نراه في حالات الولادة المتعثرة عندما تتلف أعصاب الذراع نتيجة محاولة الطبيب إخراج الجنين بجذبه بعنف من ذراعه. كانت النذر كلها تشير إلى أننا

بصدد مأساة في طفل سيعيش عمره معوق العقل والجسد. انتهيت من القيصرية، فانتبهت إلى أن الدكتور متولي كان معنا أثناء الجراحة. كان في نهاية الحجرة مرتعشًا مرتجفًا، شاحب الوجه ضامره، فلما رأيته يستعد لمغادرة الحجرة، أمسكت بيده لأفهم منه ماذا حدث لهذه المريضة ولماذا انتهت هذه النهاية المأساوية. انتابه الذعر، فلما حاول تخليص يده مني، انتابتني موجة غضب شديدة، فأمسكت بتلابيبه أجرجره أمامي إلى جوار المريضة المخدرة، وأنا أصيح فيه بأنه السبب في إعاقة هذا الطفل المسكين وتدمير أسرته. كنت أرغي وأزبد، وأصيح وأصرخ في وجهه وأنا أسبه، ووجهه يزداد شحوبًا وارتجاف جسده يزيد، حتى خيل إلي أنه سيغشى عليه. لكن بدلاً من تحفزه المعتاد، فإنه ولدهشتي، ارتمى على الأرض بجوار سرير العمليات وقد غطى وجهه بكفيه، وصار يبكي كطفل ضاع عن أهله. كنت أتمنى أن ألكمه في وجهه وأركله بقدمي لأفرغ فيه كل غضبي وحنقي على ما اقترفه في حق هذا الطفل المسكين وهذه الأم التعيسة، لكن علا نحيبه وصار نواحًا عجيبًا وهو يسب نفسه، قبل أن يبدأ في لطم وجهه كما تفعل النساء، ووسط نحيبه وسبابه لنفسه قال لي:

- أنا اللي عملت كده في ابني.....

التفت أنظر لوجه المريضة الراقدة، ولدهشتي وجدتها سناء.

عندما جلست سناء الممرضة إلى مكتبي رفعت رأسها وقالت لي:

- متولي إنسان أصله طيب يا دكتور كريم.. عوده أخضر بس الحمل عليه تقيل، حلم سنين التعب والسهر اللي قضاهم على أمل أنه يخلص ويبقى دكتور ويساعد عيلته اتكسر لما قبض أول مرتب من الجامعة.. يوميته في ورشة الإستورجي بعشر نوباتجيات من اللي

بيقضيهم هنا.. والمصيبة أنه مش عارف يرجع يبقي إستورجي تاني بعد ما بقى الدكتور متولي.. اللي زي متولي مش عايز تحقيقات ونيابة صدقني.. اللي زيه محتاج إيد تتمد له، وحضن يترمي فيه وحب يصبره.

ثم أطرقت لبرهة وقالت وهي تغالب دموعها:

- أرجوك إديني فرصة.

ما رأيته من كابوس سناء وطفل متولي المعاق لم يحدث. قد يكون حلمًا مريعًا له من قوة حضور الواقع ما جعلني أرتجف، وجعلني أبصر في الحب الكبير الذي ملأ قلب سناء لمتولي زورق نجاة له قادر على انتشاله من وحل الإحباط ودرب اليأس اللذين كادا يوردانه موارد الهلاك وينهيا مستقبله المهني كطبيب. التزمت أنا بوعدي لها فسحبت كل التحقيقات والبلاغات المقدمة مني ضد متولي، وفي قضية وفاة جنين مريضة المنطقة الشعبية تبرع أبويا الحاج الأستاذ الدكتور عبد الأحد الأسيوطي بدفع بضعة آلاف من الجنيهات ديّة الجنين الشرعية لتعويض المريضة فتنازلت عن شكواها، وراعت المحكمة التي نظرت الشق الجنائي من القضية أنها أول سابقة لمتولي، فحكمت عليه بالسجن ستة أشهر مع وقف التنفيذ وإلغاء الحكم إن لم يتورط في جرائم أخرى خلال عامين ودون تأثير على مستقبله الوظيفي، والتزمت سناء بوعدها أن تسعى لتصرع بحبها شياطين متولي ليبدآ معًا مشوار النجاح.

القضبان الباردة

انتهيت من جس بطن هويدا، لم يكن هناك ما يمكن استشعاره من فحص بطنها بيدي، لكن شيئًا ما كان غير مريح. التقطت جهاز الموجات فوق الصوتية، وكان قديمًا لكنه يعمل على أي حال، وقد زود بمجسين أحدهما سطحي والآخر مهبلي. وضعت السائل الهلامي على بطنها، ثم المجس، ورغم أن الصورة بدت سيئة جدًا على الشاشة لسوء حالة المجس وجود تشققات كثيرة على سطحه، إلا أن شيئًا ما كان يقبع على مبيض هويدا الأيسر أقلقني. عبثًا حركت المجس محاولًا الحصول على أفضل رؤية، فصار لزامًا أن أستخدم المجس المهبلي لجهاز الموجات فوق الصوتية. أمرت الممرضة أن تُحضر هويدا للفحص بالمجس المهبلي، لكنها ما أن مدت يدها بين ساقيها لتنزع عنها غيارها الداخلي حتى، ولدهشتي، انتفضت هويدا مصدرة ما يشبه الصراخ، ولكمت الممرضة في وجهها بأصفادها فسال الدم منه، لكن السجانة المتمرسة سرعان ما ألقت بجسدها الضخم على هويدا بجسدها الهزيل فبدت كعصفور سحق عظامه حجر عظيم، وسرعان ما انتزعت عنها غيارها الداخلي عنوة وباعدت بين ساقيها وهي تسبها وتلعنها. حدث كل شيء بسرعة

فتجمدت في مكاني، حتى أفقت على صوت السجانة وهي تدعوني للانتهاء بسرعة. التقطت المجس المهبلي، وأنا أنظر إلى هويدا التي انقبض وجهها ونطقت قسماته بالغضب والسخط، وأسرعت أتخذ مقعدي بين ساقيها وأباعد بين شفرتي عفتها لأدس المجس المهبلي، لكن لما وقع بصري على ما بين ساقيها، أفلتت مني شهقة وسقط المجس من يدي.. هويدا قاتلة زوجها وطفلها عذراء.

٨- الجواز عرفي

قيل الرجل ألعوبة المرأة، والمرأة ألعوبة الشيطان.

طبقًا لدراسة أعدها المجلس القومي للسكان بالتعاون مع الجامعة الأمريكية بالقاهرة[٧٠]، فإن حالات الزواج العرفي في مصر تعدت الـ٤٠٠ ألف حالة سنويًا، كما أن ١٧٪ من إجمالي عدد طلبة الجامعات والمدارس متزوجون عرفيًا أي حوالي ٢٢٥ ألف حالة، ينتج عنها ١٤ ألف طفل منكري النسب. وتشير دراسة أخرى أجرتها الدكتورة ليلى عبد الجواد الأستاذ بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية في القاهرة إلى وجود أكثر من ٣٠ ألف حالة زواج عرفي بين أصحاب الشركات ورجال الأعمال وسكرتيراتهم[٧٠].. شرعًا يجيز الفقهاء الزواج العرفي إن أتم أركان الإشهار والشهود والزواج بولي للقاصر[٧٢]، لكن القانون يعتبر كل زواج لم يوثق في دواوين الدولة بتاريخ لاحق على أغسطس ١٩٣١ هو زواج غير قانوني لا يترتب عليه مثل ما يترتب على الزواج الموثق[٧٣]. وتنص المادة ١٧ من القانون رقم ١ لسنة ٢٠٠٠ على أنه لا تقبل الدعاوى القضائية عن الإنكار والناشئة عن عقد زواج لم يوثق بوثيقة رسمية، بمعنى أن دعاوى إثبات الزواج العرفي في حالة إنكار

أحد الطرفين لا تقبل، كما لا يحق لأي من طرفي الزواج المطالبة بأي حقوق قانونية أو شرعية. كما اشترط نفس القانون لفسخ عقد الزواج العرفي وجود أي دليل كتابي على الزواج ولو كان غير موثق، فلا تكفي شهادة الشهود لفسخ العقد، ونص على أن فسخ العقد أو تطليق الزوجة لا يترتب عليه أي حقوق لها عند الزوج مثل النفقة أو الإرث أو المهر لأنه لا يثبت الزواج أصلًا، فهو فقط طريقة لإنهاء وضع المعلقة. ويعد هذا تعديلًا للوضع السابق على صدور هذا القانون، حيث كان لا يُسمع أيضا لدعاوى طلب فسخ العقد أو الطلاق للزوجات المتزوجات عرفيًا واللاتي يتركهن أزواجهن معلقات دون طلاق. الحق الوحيد الذي يثبت بالزواج العرفي هو نسب الطفل المولود من زواج عرفي، وهو الإثبات بالإقرار أو بالفراش أو البينة، والإقرار هو أن يقر الزوج به، والفراش هو إثبات قيام العلاقة الزوجية وقت الحمل والبينة هي شهادة الشهود[٢].

كان النهار قد انتصف وهدأت الحركة في العنبر عندما تلقيت اتصالًا من صديقي معتز منصور وكيل النيابة. كان بحكم الصداقة القوية التي نمت بيننا يهاتفني بين الحين والآخر ليحكي لي عن واقعة غريبة أو يحذرني من متاعب علم أنها في الطريق إلي. انتهينا من التحيات الأولى وفهمت من جدية صوته أنه في عجالة من أمره وأن الأمر جلل، فأنصت بتوجس وخيفة. بادرني معتز بالسؤال عن مريضة ما، فأجبته بأنها دخلت عنبرنا وقامت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد بتوليدها طبيعيًا دون أي مضاعفات، وأنها وضعت طفلًا كامل النمو بصحة ممتازة، فقاطعني قائلًا:

- مكتوب عندى هنا يا كيمو أن طبيب الولادة حضرتك يا باشا...

كان هذا شيئا طبيعيًا.. فكثيرًا ما توقع الدكتورة سعدية باسمي على كل شيء وأي شيء، فلم ألق بالًا لكن ثار فضولي لأي سبب وصل الملف بين يديه، فسألته ما الخطب فأجاب بصوت خفيض:

- كريم، الست اللي ولدت دي تبقى سكرتيرة أمير خليجي.. وطبعا متجوزين عرفي، وهي كتبت الواد باسمه وهو معترف به.

عادة ما ينكر الرجل بنوة طفل ولد له من زواج عرفي، فلما اختلف الوضع هنا استغلظ علي فهم طبيعة المشكلة، فاستطرد معتز شارحًا:

- المشكلة أن الولية قبل ما تعرف أنها حامل من الخليج اطلقت منه وسابته، واتجوزت عرفي في نفس الأسبوع ابن اللواء الطحياوي اللي أنت أكيد سامع باللي عمله في بتوع الجماعات المتطرفة، بس اتطلقت منه بعد يومين لما أبوه عرف.. وبعدها بعشر أيام اتجوزت عرفي مقصود الشلتاوي، مليونير الصعيد بتاع السلاح.. البشر دول كلهم، خلفتهم من ستاتهم التانيين بنات، ماعندهمش صبيان.. وكلهم دولقتي مقدمين بلاغات بيتهموا الست بالتزوير وكل واحد يبطلب إثبات الواد ده له.. والدنيا مقلوبة طبعًا.

تعجبت أن تختار المريضة مستشفانا الحكومي لوضع طفلها فيه وهي القادرة على الولادة في أفخر المستشفيات، وكأن معتز كان يقرأ أفكاري فقال:

- طبعًا هي جات لكم علشان ما حدش يحس بها.. وتاخد العيل من سكات وتطير للخليجي، اللي الظاهر قدم أحسن عرض.

لم أكن قد تملكني الضجر حتى يسري عني معتز بقصصه، فأردت أن

أنهي المكالمة بصنعة لطافة فقلت:

- خلاص يا معلم اكتب أنت الواد باسمك وساومهم عليه.. ياله صباحك لذيذ.

فصاح في:

- صباحك طين وقطران وهباب على خلقتك، هو أنا باتصل أسليك؟ افهم يا بنى آدم.. الواد ده دلوقتي عليه مشكلة ولا يمكن تسمليه لأمه لأنها متهمة ويُخشى أن تبدده أو تتلاعب به، وبها أن سيادتك اللي اسمك في الملف فالعيل ده بتاعك يا حبيبي.. لو ضاع ولا اختفى ولا اتبدل، الزنزانة هتنور بطلعة أمك البهية..

أسقط في يدي، ولم أفهم "العيل ده بتاعك" ماذا تعني فشرح لي معتز:

- يعنى ما ينزلش من على كتفك، وعينك عليه أربعة وعشرين ساعة، أنا عينت عليه طبعًا حراسة، بس أنت فاهم، بعشرين جنيه العسكري بيبعه.. وبيبع اللي جبوه.. وعليهم سيادتك في عرض التوفير الكومبو!

لم يُجد الاعتراض أو المجادلة مع معتز، فاكتفيت بأن توسلت إليه أن يجد لي مخرجًا في أسرع وقت.

أرسلت في طلب الدكتورة سعدية حتى تتحمل معي قدري، فوجدتها قد أبلغت بإجازة مرضية بعد أن شعرت بآلام مبرحة في شعر حاجبها الأيسر.. ولم يكن ينقصني غير مندوب القسم يأتي لأوقع على محضر تسلم الطفل محل النزاع والذي ودعني بعرض سخي:

- بص يا باشا، عندي ناس يشيلوا الواد ده ويحلوا بقك وبقي،

وهيجيبوا بدله عيل تاني ولا من شاف ولا من دري، سايق عليك النبي تقول آه، أنا عندى كوم لحم.

تذكرت عرض التوفير الكومبو، وأسرعت أضع يدي على الطفل الرضيع، فلما استقر بين يدي، حرت في أمري، ماذا أنا فاعل به؟ رنت في أذني كلمة معتز "الزنزانة هتنور بطلعة أمك البهية" وتخيلت نفسي وراء القضبان وقد ضاع مستقبلي، فتملكني الهلع. نظرت للطفل القابع في هدوء ودعة لا يدري بما يجري حوله ولا يدري ما سببه لي من مشكلة. ودار في خلدي، هل أعهد به إلى إحدى العاملات؟ أو إحدى الأمهات؟ربما من الأفضل إحدى الممرضات؟ أعدت كلمات معتز في أذني فخشيت أن يُسلمن مستقبلي للمجهول، وبدا الأمر واضحًا: هذا الطفل لابد وأن يظل على كتفي!

أثناء اليوم انفجر الطفل في البكاء عدة مرات، لا أدري أطلبًا للطعام أم الماء أم ساءه تلوث ما بين ساقيه، وفي كل مرة كنت أستدعي إحدى العاملات لتلبي حاجته تحت عيني. كنت بلا خبرة في هذه الأمور على الإطلاق وبات من الواضح أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا الحال. وكالمعتاد، أتى الحل العبقرى من الدكتور علاء. ففي المساء وفي مكتب البروفيسور عرابي، وبعد أن التهمنا فتة اللحم الضأن والأرز بالزبيب والكلاوي ومخروطة المكرونة بالبشاميل، وعلى أعمدة الدخان الأزرق الذي انبعث من أرجيلتنا حتى سرى الخدر في أوصالنا جميعا بما فينا الطفل المتنازع عليه فنام ملء جفنيه. أشار الدكتور علاء وهو يملأ رئتيه بنفس كبير من الدخان:

- كيمو أنت مش هترضع الواد ده؟ حرام المسكين ده ينحرم من لبن السرسوب.

كدت أن ألكمه في أنفه، لكنه استطرد قائلًا الحل السحري:

- ابن الكلب ده هيوديك في داهية يا نجم.

عبقري هذا العيلاء..

فعلًا، ابن كلب، وابن الكلب هو بالضرورة كلب مثله.

هتفت في عيلاء:

- أنت عبقري يا عيلاء، فكرة تستحق عليها التقريظ.

انتفض عيلاء وانقلب وجهه، ثم ألقى بـ"لِيّ" الأرجيلة وسارع يتحسس مطواه التي لا يسير إلا وهي في جيبه:

- إيه تأريظ دي يا برنس، ما تحترم نفسك..

- عيلاء تقريظ يعني مدح، ثناء، حاجة كويسة يعني.

فنظر لي متفحصًا وهدأت ثورته ثم التقط "اللي" من جديد وقال:

- كويسة ولا مش كويسة، المهم ما تقولهاليش أدام حد علشان ما نتفهمش غلط وتضطرني أعلم عليك.

أسررت للبروفيسور عرابي بفكرتي، فأسرع في طلب عم ألفونسو سائق الإسعاف وأرسله في طلب ما سنحتاجه. في تلك الليلة، بات كيمو جونيور كما أسميناه بجواري وقد ربطت بيننا أقوى الأواصر، رابطة من الجلد والفولاذ، فقد استدعينا من الورش من قام بصناعة طوق جلدي أُحكم غلقه حول معصم كيمو جونيور، وربطه بطوق جلدي مشابه حوط معصمي، سلسلة من حلقات الفولاذ البراق، كما حاك له الرجل كيسًا من الجلد يثبت على ظهري، له أربطة تحيط بكتفي وخصري، ويقبع

فيه الطفل كفلاحات تايلاند، فصرنا متلازمين، أينما ذهبت ذهب.

لم تثنيني سخرية الزملاء والعمال ولا ملاحظات السادة الأساتذة عن التمسك بكيمو جونيور على ظهري. لكن بقي تدبر أمر من سيلبي شئونه، ولم يكن من الصعب أن أهتدي للشخص المناسب: نهى عبد الرسول ممرضة العمليات، ملاك الرحمة الجميل ومنقذي. أسرعت بانتداب نهى من العمليات إلى عنبري، وشرحت لها الأمر وخطورته، ولم تخيب ظني بها، بل هشت في وجه الطفل الذي ما أن رآها حتى هدأ وقبع في أحضانها تلقمه زجاجة اللبن. صاحبني كيمو جونيور في غرفتي وغرفة العمليات والعنبر والعيادة الخارجية وغرف الولادة، فلم أدعه يغيب عن ناظري إلا حين أسلمه لنهى لتطعمه وتبدل حفاضته. لازلت أذكر هذه الأيام، وأذكر كيف كان ينام هذا الملاك الطاهر بين يدي بعد أن يتم رضاعته من الزجاجة، والضحكة التي كنت أتحيلها على وجهه بعد أن يدهشه صوت تجشأه، والفضول على وجهه ونهى تبدل له حفاضته وتدهن له جسده بالمراهم والمرطبات، بعد أن تنتهي من غسل جسده الطري بالماء الدافئ ليبدو أنيقًا في حلله المزركشة.

في صباح أحد الأيام، اتصل بي معتز ليقول لي أن الأمر قد انتهى. ارتضى المتنازعون أن يلجأوا إلى تحليل البصمة الوراثية بشكل ودي لإثبات والد الطفل الحقيقي، وتبين صدق دعوى الأم فجاءت النتيجة قطعية لصالح الأمير الخليجي. وحين تنفس النهار، حضرت والدة الطفل ومندوب عن أبيه لاستلام الطفل، وما أن ابتلعت السيارة كيمو جونيور بداخلها واختفى عن عيني بعد أن أسلمنا مندوب والده الكثير من الهدايا القيمة امتنانًا بصنيعنا مع ابنه، حتى ظهرت الدكتورة سعدية أمامي بعد أن قطعت إجازتها وهي تبتسم ابتسامة ولا أبله، وقالت وهي

ترقق من صوتها:

- بجد ملاك، كيوتي قوي.... ربنا يبارك لها فيه.

وفي تلك الليلة، ربط رباط الفولاذ المقدس بين معصم الدكتورة سعدية، وبين ساق مكتبي..

القضبان الباردة

لما زال عني ذهول اكتشاف عذرية الفتاة، صحت بالسجانة أن المريضة ليست هي نفسها هويدا زين العابدين أحمد قاتلة زوجها وأطفالها. جزعت المرأة، وأمسكت بوجه هويدا تقلبه بقسوة بين أصابعها، قبل أن تؤكد لي أن "بوز الإخص" هي هويدا بشحمها ولحمها. نهرتها وطلبت منها أن تأتي لي برئيستها، فأومأت هويدا إلى سرير الكشف، ومضت وهي حانقة تستدعي رئيستها التي هلت علينا دون تأخير، فلما دلفت إلى الحجرة، نظرت لوجه المريضة المستلقية على فراش الكشف، فأكدت لي أنها هي هويدا المعنية. أعدت فحص المريضة المستلقية بعد أن طلبت مصباح ضوء مبهر، وللعجب، لم تقاوم هويدا الكشف هذه المرة.. بل استسلمت في يسر وبساطة، ووجهها متهلل ومحياها مشرق. تأكدت من عذريتها، فشرعت أفحص بطنها. كنت خافق القلب أبحث عن آثار جرح ولادة قيصرية على جلد بطنها يبدد شكوكي، فلم أجد. قفلت عائدًا إلى المكتب، وعقلي عاجز عن التفكير. اقتربت مني الرئيسة، وسألتني عما بي، فلما رفعت رأسي لأخبرها بما تأكد لدي، صمت.. فلقد رأيت عيني المرأة تضيق وكأنها أفعى كشف غريب جحر بيضها، فانقبض قلبي..

واكتفيت أن قلت لها "أبدًا الظاهر الصداع زغلل عيني". طلبت منها الهاتف لأتصل بأستاذي، فلما سألتني عن السبب قلت لها "أنا شاكك الست دي عندها ورم على المبيض ربنا يستر وما يبقاش سرطان".. كانت هذه شكوكي، أما يقيني فكان أن هذه المرأة ليست هويدا زين العابدين أحمد.

٩- وقالت المرأة: شج بطني

من العجيب أن يكون أغلب أطباء النساء والتوليد من الذكور، ذلك لأن الذكر مهما كانت خبراته في المجال وسنوات عمره التي قضاها فيه، يستحيل عليه إدراك مرادفات الحمل والولادة، مثل الوحم والطلق وحركة الجنين، ومهما بلغ الطبيب الذكر من الخيال فلن يعدو تصوره لعملية الولادة أكثر من وصف البروفسور عرابي لها بأنها كحالة "إمساك" شديدة، وحركة الجنين في البطن كزغورة القولون بعد أكلة كرنب وقرنبيط. وعلى هذا فأولى بنا معشر الأطباء الذكور أن نثق في حكم الأم عندما تصيح "بموت يا دكتور، افتح بطني"، لكننا تعلمنا أن السيدات يُسئن استخدام هذه الكلمة حتى بتنا لا نثق في حكمهن.

كان الوقت فجرًا عندما قررت تفقد عنبر الولادة والاطمئنان على المريضات اللاتي تشرف على ولادتهن الدكتورة سعدية العصبية. وما أن اقتربت من باب العنبر حتى تبادر إلى سمعي صوت صياح ومشاجرة ميزت فيه صوت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد الذي يشبه صوت أنثى البعرور والمستخدم كسارينة ونش رفع السيارات الخاص بالشرطة المصرية. دلفت إلى العنبر فوجدت سعدية ممسكة بتلابيب

عجوز من البدو يغطي الوشم الأخضر وجهها وقد برز من بطنها انتفاخ غريب. أسرعت أمسك يد سعدية التي كانت قد كورت قبضتها استعدادًا لاستهداف عين العجوز وسألتها عن الأمر وقالت:

- الوليه دي ولدت سبعتاشر مرة في الخيمة عندهم هناك في الصحرا، وقال إيه المرة دي عايزه تولد قيصري، يبقى من حقي أضربها.

نظرت لانتفاخ بطن العجوز وعدت أسأل سعدية:

- هي حامل.

فأَرْبَدَّ وجهها من الغضب وقالت بغيظ:

- لا جايبه تمشي ضرس مسوس.. طبعًا حامل.. أمال يعني أنا مدخلاها العنبر ليه، غاوية أنتيكات؟

شردت أفكر في السبق العلمي الذي سقط علي من السماء والذي سيسجل باسمي كأول طبيب ولادة يقوم بتوليد عجوز في الستين من عمرها. انتبهت من أحلام المجد على يد العجوز وقد غرزت أظافرها في لحم ذراعي وهي تقول:

- شج بطني يا داكتور، أني بموت يا دكتور.. جلبي هيوجف.

فربت على كتفها وقلت لها ومازال حلم السبق العلمي يراودني:

- ما تخافيش خالص يا ستي، كلنا معاكي، أنت اسمك إيه يا حاجة؟ وعندك كام سنة؟

عضت العجوز على نواجذها لما داهمتها انقباضة قوية من رحمها ثم قالت بعد نهاية الطلق:

- اسمي ست الدار، وبيجولوا لي يا ضارة، كام سنة كيف يعني؟ يعني تسأل عن عمري؟ أني اتولدت يوم لما الحاج شهاب معزته ولدت معزتين في بطن واحدة.

تمسكت بأهداب الصبر وقلت لها بابتسامة كبيرة:

- وده امتى ده؟ ادييني أمارة أوضح..

فضربت الست ضارة جيدها بيديها وقالت:

- يا سوادي، أجولك، لما الأسفلت شج الأرض البحرية، أبوس إيدك شج بطني..

من خلفي سمعت صوت زئير أتبعه حفيف فالتفت وإذا بالدكتورة سعدية قد أطلقت قبضة يدها مستهدفة عين العجوز من جديد. بصعوبة أمسكت قبضتها وقبضت على ذراعها وثنيته خلف ظهرها وقبضت على شعرها المقصوع كذيل حصان فأفلحت في السيطرة عليها، وقلت للعجوز:

- يعني ده ستين سبعين سنة كده ولا إيه؟

- لا يا داكتور أني اتولدت يوم وكسة عبد الناصر، بس أنت ياخويا هاتسيب العيل محشور في وتجعد تستني؟

تبخر حلم السبق العلمس فأطلقت ذراع سعدية وشعرها وطلبت من ست ضارة الاستعداد للكشف، فَصَكَّت العجوز وجهها وقالت:

- ياسوادي، كشف إيه أني باموت.. يا داكتور شج بطني.. العيل محشور في يا ناس وما هايتزلش..

ثم صرخت بعد أن باغتتها انقباضة قوية من رحمها:

- شجوا بطني إلهي وابور ينحاش في طيازكم يا بُعدا..

وهذه المرة عزفت عن السيطرة على الدكتورة سعدية التي باغتت ست ضارة بالهجوم عليها، فألقت بنفسها فوقها وهي تقول:

- يشج باطنك ده إيه يا وليه يا هبلة أنتي؟ دا أنت لو كحيتي هتولدي..

فجأة، زامت العجوز، وبدا أن ألسنة لهب ستخرج من عينيها وفمها، وتحجر انتفاخ بطنها على شكل كرة، فحزقت حزقة شديدة انفجرت بعدها الكرة وصارت بلا شكل، ثم تبدل سواد عيني العجوز بياضًا وهوت إلى الارض دون أن تنبس بكلمة.

أسرعت إلى جوارها، فوجدتها قد بدأت في مراسم الانتقال إلى جوار ربها وصارت بلا نبض، فشرعت على الفور في تدليك عضلة القلب، ومرت لحظات ثقيلة حتى عاد القلب إلى الانقباض وفتحت المريضة عينيها وهي تقول بصوت واهن:

- خلاص، أني كده ارتحت.

Fb.com/Su7er.Elkotob

نظرت إلى تكويرة بطنها فوجدتها صارت جبالًا وهضابًا وكثبانًا، كان الرحم قد انفجر وأصبح الجنين حرًا طليقًا في تجويف البطن، فصار لزامًا فتح البطن جراحيًا لاستخراج الجنين، وإصلاح الرحم أو استئصاله. حملتها بسرعة ورفعتها إلى حامل المرضى (الترولي) وهرولنا إلى العمليات.

أرسلت أُبلغ الدكتور عصمت عوض رئيسة الوحدة بالحالة، لكنها كانت تشارك في حفلة تعذيب لطبيب ساقه حظه العثر لامتحان درجة

الدكتوراة الشفوي معها، فأمرتني أن أقوم أنا بالجراحة. لحظات وكنا في غرفة العمليات وأخرجت الجنين الذي كان مازال على قيد الحياة وشرعت في إصلاح الرحم. بدت مني التفاتة إلى شاشة جهاز رسم القلب فوجدت أن القلب متوقف عن العمل، فسألت طبيب التخدير وكان صديقي الدكتور حسين شوقي عن حالتها فقال ببروده المشهور:

- آه القلب واقف، هيشرب سيجارة ويريح خمسة وبعدين يدق، فيها حاجة دي؟ يا مرار أمي من بتوع النسا، ما تخليك في حالك وتشوف شغلك.

لحظات وعاد القلب للانقباض من جديد وتنفست الصعداء. كانت المريضة قد نزفت الكثير من الدم، فأرسلنا لبنك الدم الذي أجاب بعدم توفر الفصيلة لندرتها. توتر الموقف مع الإعلان عن عدم وجود دم ينقل للمريضة فصرخ حسين:

- يعني إيه ما فيش دم؟ طب ماحدش هنا فصيلته O negative؟

عندما يكون الأمر حياة أو موت، يُسمح للطبيب بنقل الدم مباشرة من متبرع للمريضة، دون إخضاع المتبرع ودمه للفحص المعتاد للأمراض التي تنتقل بالدم مثل الإيدز والالتهاب الكبدي الوبائي، ويُكتفى فقط باختبار توافقي بسيط بين دم الطرفين بوضع قطرة من دم المتبرع مع قطرة من دم المريض ومراقبة عدم تخثر الدم دليلًا على التوافق. كنا يومها نشبه إلى حد كبير طبيب أمراض النساء والتوليد البريطاني جيمس بلوندل الذي قادته الصدفة عام ١٨٢٩ إلى القيام بأول عملية نقل دم ناجحة بين آدميين في التاريخ عندما نقل دمًا من رجل لزوجته التي كانت تنزف بشدة أثناء ولادتها لطفلها، فنجت وعاشت[٧٨]. بلوندل لم يكن يعلم عن

فصائل الدم المختلفة آنذاك، مما تسبب في وفاة كل من حاول أن ينقل له الدم قبل هذه الحالة الناجحة المحظوظة. وظل الأمر متروكًا للصدف حتى اكتشف النمساوي كارل لاندشتينر عام ١٩٠٠ ثلاث فصائل للدم (A،B،O) ثم AB لاحقًا، وسرعان ما اكتشف تلميذه فيليب لاڤين عام ١٩٣٩ تصنيف موازي للدم بوجود (+RH) أو غياب (- RH) عامل "ريسس"(٧٨).

صاح حسين من جديد:

- يا جماعة الولية بتموت، شوفوا لنا أي حد في المستشفى فصيلته O negative؟

ساد الصمت للحظات، قبل أن تصيح فاطمة إدريس ممرضة العمليات الحامل:

- أنا يا دكتور حسين.

من الموانع القطعية للتبرع بالدم الحمل خاصة إن كان في الشهور الاخيرة. تردد حسين للحظات، وفتحت فمي لأعترض، لكن فاطمة لم تترك لنا فرصة وصاحت بحزم:

- ما فيش وقت يا دكاترة، الست بتموت، فصيلتها نادرة وصعب تتلاقى، وأنا فصيلتي زيها، بسرعة.

لم يكن أمامنا خيار آخر، وبالفعل رقدت فاطمة على سرير نقل المرضى (الترولي) الذي وضعناه بجوار سرير العمليات، ووخزها حسين فتدفق الدم في الأنبوب الممتد من يدها ليد المريضة. أسرعت أتم الجراحة حتى إذا ما انتهيت قرر الدكتور حسين إدخال المريضة إلى وحدة العناية

المركزة، فنقلنا المريضة على الترولي وأسرعنا بها نحو وحدة العناية، لكن ما كدنا نجتاز باب حجرة العمليات إلى الردهة المؤدية إلى وحدة العناية حتى صاح حسين:

- قلبها وقف تاني..

وفوجئت به يجذبني من ملابسي كي أصعد فوق المريضة لأقوم بإنعاش القلب، وبالفعل صعدت على (الترولي)، واعتليت المريضة لأدلك القلب بينما الدكتور حسين يضخ الهواء إلى رئتيها بمضخة الهواء المعروفة بـ"الأمبوباج" والعمال يدفعون الترولي إلى وحدة العناية المركزة.

وفجأة صاح حسين من جديد:

- الأمبوباج دي مخرومة مافيش هوا الله يحرقكم، هاتولي واحدة تانية يا بهايم. ثم وجه حديثه لي قائلًا:

- أنت مالكها أحسن من عندك.. نفخ لها ببقك وأنا هأدلك قلبها..

فلما رأى ترددي في الدس بشفتاي وسط مستنقع البصل والثوم والفسيخ النتن، صاح في:

- الولية بتموت، أنت هتتعولق؟ نفذ.

فأغلقت أنف المريضة ولثمت شفتيها بشفتي وبدأت في زفر الهواء من صدري إلى صدرها فيما يعرف بقبلة الحياة.

عبرنا الردهة إلى غرفة العناية المركزة وأنا ممتطي المريضة كما يُمتطى الحصان، وشفتي على شفتيها أزفر في صدرها هواء صدري، حتى وصلنا إلى الوحدة وأسلمت المريضة للتمريض، وطلبت منهن كحولاً أبيضاً مركزاً وخلطته بالبوتاس لأطهر فمي، لاعنًا اليوم الذي رأيت فيه حسين

زفت تحذير وجدود ست "ضارة".. ثم أفلتُ عائدًا إلى العمليات لأطمئن على فاطمة ممرضة العمليات النبيلة.

على باب وحدة العناية المركزة، وجدت الدكتور خليفة الخلفاوي مدير المستشفى ومعه رجل بجلبابٍ أبيضٍ حدست أنه من أهل المريضة. ما أن رآني الرجلان حتى اقتربا مني وبادرني الدكتور خلفاوي قائلًا:

- الأخ ده بيقول أنه شافك راكب على مراته وبتبوس فيها في الطرقة وهي مسخسخة.. أنا قلت له أنك مش معقول تعمل كده في الطرقة.

تعجبت من منطق "في الطرقة"، لكن الإرهاق كان قد نال مني فمنعني من الجدل، فأجبته بإختصار:

- يا بك.. الست كل شوية تدخل في "أرست"، والأمبوباج بايظة.. فالمعتوه حسين بتاع التخدير طلب مني أعمل لها تنفس صناعي.

فاستدار الدكتور الخلفاوي وقال للرجل:

- مافيش حاجة يا أستاذ.. هو صحيح كان لامؤاخذة راكب على الست بتاعتك، وصحيح ولا مؤاخذة بُقه في بقها.. لكن ما كانش قصده حاجة وحشة، دي اسمها قبلة الحياة علشان ينقذها، عملية تنفس صناعي لأن قلبها كان وقف ونفسها كمان وكانت هتموت.. ما هو يعني لو في نيته حاجة وحشة كان لامؤاخذة أخدها في أي أوضه جوة أو في العمليات.. احنا الأوض عندنا كتير.. لكن يعني مش في الطرقة أدام اللي رايح واللي جاي.. سمعة المستشفى يا أستاذ.. ثم احنا ولادنا عندهم خشى.

فأزبَدَّ وجه الرجل من الغضب وقال:

- هو إيه اللي لا مؤاخذة لا مؤاخذة، هو أني بجولك حَبَلها؟ ثم ما تموت ولا تمفنى يا دكتور، احنا نسوانا ما يتجبلوا لا في الطرقة ولا في الغرف، ده أنا زوجها عمري ما جبلتها..

انهارت مقاومتي تمامًا فاستأذنت في الانصراف، ولدهشتي وجدت الدكتور خلفاوي يُربت على كتف الرجل وينشده قصيدة الشاعر يزيد بن معاوية(*):

فوسدتها زندي وقبلت ثغرها..... فكانت حلالًا لي ولو كنت محرم

وقبلتها تسعًا وتسعون قبلة.....مفرقة بالخد والكف والفم

ولو حُرِّم التقبيل على دين أحمد.....لقبلتها على دين المسيح بن مريم

في العنبر وجدت الدكتورة سعدية شاحبة واجمة تجلس إلى جوار الدكتور عيلاء، فلما رأتني هرعت إلي وهي ترتعش وبادرتني بالقول:

- إيه ماتت؟ طب هتموت ولا هي بتموت؟ لا طبعًا هي ماتت، ماهي ميتة أصلًا.. عمومًا أنا ماليش دعوة بيها.. أنتَ اللي قلت مافيش قيصرية.. أنا كلمت خالتي المحامية وهي قالت لي انت ما فيش مسئولية عليكِ، يا سوسو.

فعاتبها عيلاء:

- عيب يا سوسو يعني إيه مالكيش دعوة بيها، احنا فريق واحد.

فقلت له ممتنًا:

(*) يزيد بن معاوية - ثاني خلفاء الدولة الأموية (٦٤٥ - ٦٨٣).

- أصيل يا عيلاء.

فأجابني:

- أي تأريظ يا سينيور، احنا فداك يا كبير.. أنا حضرت لك غيارين وفوطة ومرهم فازلين لزوم التخشيبة والمخبرين.

تجاهلت عيلاء والتفت لسعدية مستنكرًا:

- وأنتِ لحقتي تأمني نفسك؟ مش دي اللي لو كحت هتولد يا سوسو؟ على العموم الست كويسة بس أكيد هتقعد في العناية كام يوم لغاية ما يطمنوا على قلبها ونفسها.

عندما هبط المساء كنت قد انتهيت من المرور على مريضات العنبر، فقررت التوجه إلى سكن الأطباء لأريح جسدي قليلًا. هممت بالانصراف لكنني افتقدت سلسلة مفاتيحي فعدت إلى غرفة المرضى أبحث عنها وإذا بصوت يأتيني من طرف الغرفة البعيد:

- مش جلتلك تشج بطني يا دكتور جمت تتنأوز عليا.

ميزت الصوت الناعي القادم من الظلام، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم، وضحكت من خيالي المريض الذي يبث في نفسي الأوهام، لكنّ الشك دب في نفسي عندما أعاد الصوت نفس المقولة من جديد. التفت ابحث عن مصدر الصوت، فوجدت ست الدار أو "ضاره" جالسة على أحد الاسرة وعلى رأسها وشاح أحمر مشجر، وقد جلست تلتهم فخذ دجاجة. كان يقيني أن هذا هو ولا شك شبح ست الدار التي فاضت روحها إلى بارئها، فترحمت عليها وقلت لنفسي:

يا شماتة سوسو فيك.

أسرعت إلى وحدة العناية المركزة لأستفسر من طبيب التخدير حسين عن المريضة، فما أن رآني حتى قال عابسًا:

- دي ولية زنانة بت كلب.. يادوب فتحت عينيها قالت عايزة فرخة وتكون بلدي.. وجوزها عرباوي جزمة مصمم يطلع فوقها ويبوسها في الوحدة، ويقول لي الدكتور الخلفاوي قاله يبوسها على دين محمد أو دين المسيح، فرمتها لك في العنبر إياكش تولع أنت وهي وخلفاوي في ساعة واحدة.

وقطعت على نفسي عهدًا ألزمت نفسي به إلى اليوم. فمنذ ذلك الحين وأنا أجري جراحة قيصرية لكل من تقول لي "شح بطني".. وأكتب في خانة سبب القيصرية في ملف المريضة "ضارة".

القضبان الباردة

فشلت محاولاتي للاتصال بالمدرس المساعد المسئول عن عيادة السجن، فاتصلت بالدكتور وليد شكري المدرس المناوب، وأسررت له بشكوكي في شخصية المريضة وكذلك في إصابتها بورم على المبيض، وطلبت منه أن يحضر على الفور. فنهرني مستنكرًا أن يدخل حفيد الباشا السجون. احترت، لجأت لصديقي معتز منصور وكيل النيابة، لكنني وجدته في مأمورية للتحقيق في حادث قطار مروع. تذمر طاقم التمريض وأرادوا العودة إلى المستشفى بعد انتهاء وقت عملهم. طلبت أن تصحبني المريضة إلى مستشفانا، فقهقهت الرئيسة وعلمت أن السجينة لا تخرج إلا بأذن من رئيس مصلحة السجون نفسه. نظرت لهويدا المكبلة بالأصفاد إلى سرير الكشف، فلما تلاقت نظراتنا، وجدت وجهها قد أشرقت شمس الحياة فيه، وانقشع ضباب اليأس الذي رأيته عليه. عجِبتُ منها ومن أمرها، وسمعت عينيها توشوشني أن قد صَدَقت شكوكك.. فلا تتركني بعد أن كشفت الحقيقة. غُصت في نفسي لا أدري ما يتوجب علي عمله، حتى اهتديت إلى طلب مقابلة مأمور السجن. تذمرت الرئيسة، لكن سرعان ما جاء الرسول أن الرجل في انتظاري. تحركت مغادرًا

الحجرة، فصرخت هويدا بأصوات لم أفهمها وحاولت فك أصفادها، لكن السجانة عاجلتها بصفعة على وجهها ولكمتها الرئيسة في كتفها، فوضعت هويدا كفيها على رأسها وضمت إلى بطنها ساقيها واستكانت.

١٠- الإشترفتاحي

طُبعت مصر بالطابع الاشتراكي مع بدايات ثورة ٢٣ يوليو المجيدة، وحل القطاع العام مكان القطاع الخاص الذي صُودرت أملاكه وأصوله وأمواله، وغادر البشوات والبهوات والأجانب مناصبهم ليحل محلهم أبناء المزارعين والعمال والطبقات المتوسطة الصاعدة. ولم تكن جامعتنا في منأى عن هذا التغيير، فقد حل الدكتور سراج نور الدين محل الأستاذ الدكتور كمال الدين منصور باشا، والدكتور محمود الأبيض محل الأستاذ الدكتور استيفان غطاس باشا، وحلت ميس عطيات جابر محل ميس كارولين خريستوبوليس رئيسة التمريض.

وهبوب رياح الانفتاح الاقتصادي علي بلادنا، تبنى بعض أعضاء هيئة التدريس بالمستشفي من الذين عُينوا بفضل الثورة الاشتراكية فكراً انفتاحياً جديداً (الإشترفتاحيون كما أُطلق عليهم)، وإستتبع ذلك تعديل قانون المستشفى العرفي من "يعالج المرضى بالمجان ويشارك القادرون منهم طواعية في تكاليف العلاج بالتبرع لصندوق المستشفى"، فعُدل إلى "يعالج المرضى بالمجان، ويشارك القادرون منهم جبريًا في أتعاب السيد الأستاذ الدكتور الإشترفتاحي الذي يجري لهم الجراحة إذا رأى سيادته

ذلك". وبهذا التعديل، أصبح المرضى عندنا يقسمون إلى ثلاثة أنواع:

- **حالة العنبر**: وهي التي تعالج بالمجان تمامًا، ويجري لها الجراحة أستاذ غير اشتراكي انفتاحي، أو أستاذ إشترفتاحي فقط إن أراد سيادته تجربة تقنية جديدة، وقد يجريها لها المعيد أو النائب كتدريب لها، أو في ما ندر، أحد أبناء الأساتذة من طلاب الطب في إجازة الصيف إذا ملَّ من لعب الاسكواش في النادي.
- **حالة إشترفتاحية**: وهي التي يجري لها الجراحة أستاذ إشترفتاحي الذي يقبض أتعابه كاملة في العيادة لكنها تعالج بالمجان في المستشفى فلا تدفع ثمن الإقامة أو المستهلكات أو أتعاب باقي الأطباء والعاملين.
- **حالة المخصوص**: وهي الحالة التي تدفع أجرة المستشفى والمستلزمات والأطباء، ثم تدفع في العيادة أتعاب الأستاذ كاملة.

ومنطق الأساتذة الإشترفتاحيين الاشتراكيين الإنفتاحيين - الذين يحلفون أنه حلالٌ حلال في رأي مولاهم البحباحي - هو أن كونك أستاذًا وتعطي المريضة من وقتك وصحتك وأنت الحاذق الماهر النِّحْرير، فتنقذها من أن يجري لها الجراحة نائب معتوه قليل الخبرة، أو مدرس مساعد أخرق أكتع أحمق، أو حتى زميل لك قليل العلم غشيم، فهذا فضل وكرم منك، وبالتالي لا غضاضة في مقاولة المريضة وتحصيل أتعابك مع عدم المغالاة مراعاة لطبيعة الميزانية المحدودة لمرضانا.

ويفهلوة المصريين، استحدث العاملون في مستشفانا وظيفة جديدة هي الملقاط، وهو الشخص الذي يتخصص في التقاط الحالات القادرة ماديًا من عنبر العلاج المجاني وتحويلها إلى حالة أستاذ إشترفتاحي

نظيرمكافأة معلومة، وبرع في هذا الدور أسماء حفرت ذكراها في تاريخ المستشفى بعد أن أحدثت نقلات نوعية في حياة بعض أساتذتنا الإشترفتاحيين الذين أتوا من بيئات معدمة فصاروا يسكنون القصور ويملكون اليخوت.

ومن أعلام ملاقيط الحالات في مستشفانا الرفيق عم حامد سويتش، عامل السنترال بالمستشفى، الذي بلغ هذه المكانة بذكائه الحاد وعين الصقر الصياد التي يمتلكها، علاوة على موقع السنترال المتميز والذي يقع في بهو المستشفى في طريق دخول كل المرضى، وملتقى أقاربهم الراغبين في إجراء المكالمات الهاتفية. وعلى مر السنين برع الرفيق عم حامد في عمله هذا وأبدع فيه، فصار يحتفظ في درج مكتبه بروشيتات مطبوعة بأسماء طاقم الأساتذة الإشترفتاحيين المتعاقدين معه، فما أن يقع صيد في شباكه، حتى يكتب العبارة المشهورة "دخول لعنبري وتحضيرها للجراحة وإبلاغي" على روشتة من يناسب ميزانية المريضة من الأساتذة المشاركين في باقته حسب لائحة أسعارهم، والهدف من الروشتة الإيهام بأن المريضة أتت للتو من عيادة الأستاذ. ولم يعدم عم حامد حيلة في أيام الجمعة عندما تكون العيادات مغلقة، فعوضًا عن الروشتة المعهورة باسم الأستاذ، كان الرفيق عم حامد يدخل مع المريضة لإبلاغ النائب الهمام بأن الأستاذ اتصل تليفونيًا لإثبات حقه في هذه الحالة.

وحدث أن يوم جمعة، وكنا نوباتجيتنا في قسم الحوادث، فلما جن الليل، دخل الرفيق عم حامد ليبلغنا أن الأستاذ الدكتور الإشترفتاحي أنورعبد الناصر الأستاذ بالقسم قد اتصل هاتفيًا ليبلغنا عن مريضة تدعى نوال في عنبر الولادة، قد تحولت بعون الله وفضل عم حامد إلى حالة إشترفتاحية، وأنه سيأتي في الصباح الباكر ليجري لها عملية قيصرية.

خطأ صغير حدث: عم حامد أبلغ الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد!

تلقت الدكتورة سعدية الرسالة، فدخلت عنبر الولادة ووقفت في منتصف الحجرة وقد وضعت يديها على خصرها وصاحت:

- مين اسمها نوال هنا؟

فجاءها من طرف الحجرة صوت يقول:

- إيوه أني نوال مرزوج.

- مرزوق ولا مش مرزوق احنا هنناسبك، مش اسمك نوال؟ يالا يا ماما لمي كراكيبك وتعالي معايا، عايزينك فوق.

انتفضت المرأة ضاربة صدرها بيدها وقالت منتحبة:

- يا سواادي؟ فوج فين؟ أنتم هتموتوني؟

بهدوء غريب قالت الدكتورة سعدية:

- نموتك إيه يا ست؟ إحنا مش بنموت حد يا ماما، هما اللي بيموتوا لوحدهم، يالا تعالي.. انتِ إشترفتاحية والأستاذ هيعملك عملية بكره.

ضحكت المريضة بوهن وقالت:

- لا أني اسمي نوال مش تحية، وعملية إيه يا حاجة؟ داني بولد.

زفرت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد بضجر وقالت:

- عملية يعني ولادة قيصرية يا ست.

فقالت المرأة بجزع:

- قيصرية؟ يا ندامة؟ قيصرية ليه داني والدة خمسة والعيل ده قرب يُوجع مني.

- لا ياستي امسكي نفسك وحسك عينك تولدي على نفسك، الأستاذ قرر يعملك قيصرية بكره ولو ولدتي طبيعي هيسود عيشتك وعيشتنا.

في المساء مررت على حجرة الولادة وقررت أن نجري أنا والدكتورة سعدية القيصريات لمن كن في حاجة إليها. فلما انتهيت، مررت على العنبر للاطمئنان على الحالات التي انتهينا منها. لكن ما ان بلغت سيدة مرافقة لإحدى المريضات بدا من جلبابها المزركش بألوان زاعقة أنها من بيئة شعبية وتشي أساور الذهب المتراصة حول معصمها بالثراء، حتى بادرتني بالسؤال:

- بردون يا دكتر، هو الأستاذ مش هيعدي يبص على بتي؟

فأجبتها وابتسامة الإرهاق على وجهي:

- أستاذ مين؟

- اللي بردون يعنى عملها السزريا؟

نظرت في ملف المريضة فوجدت قد خط على غلافه بخط سعدية مسعود أسعد السعد الذي لا يقرأ:

المريضة نوال الأحمدي، الجراح: كريم رأفت.

أدركت أن سعدية من أجرت لها الجراحة، فأجبتها متعجبًا سؤالها:

- لا مافيش أستاذ في الموضوع، دي سعدية اللي عملت لها العملية.

فقالت المرأة بحيرة:

- بردون، عملية إيه يا دكتر؟

فلنتتها تتصنع هيئة أهل الطبقات الراقية ذوي التعليم الأجنبي، فأجبتها وأنا أقلد طريقتها في الكلام:

- "بردون"، قصدي "دكتر" سعدية هي اللي عملت "السيزريا" لبنتك يا هانم.

وتركتها وانصرفت. انتهيت من المرور، فسمعت أصوات عراك في ردهة العنبر، فلما استطلعت الأمر وجدت رهطًا من البشر قد أحاط بالسيدة الثرية المرافقة للمريضة نوال الأحمدي وقد أمسكت بتلابيب الرفيق عم حامد وهي توسعه ركلًا وصفعًا وسبًا وتصيح:

- تقولي أستاذ هيعملها السيزريا وتلهف خمسوميت جني وحلاوة عشرين جني، وفي الآخر حكيمة اسمها سعدية هي اللي تعمل السيزريا يا بن الكلب؟ دا أنا هأشرح أمك الليلة دي..

ومن الحجرة المقابلة سمعت صراخًا وعويلًا وسيلًا من السباب القاذح، فأسرعت أستطلع الخطب، فرأيت سعدية وقد أولجت ذراعها بين ساقي سيدة قد استلقت على ظهرها، وهي تصرخ وتولول وتسب سعدية وأهل سعدية ودين سعدية، وسعدية تدفع بكل ما أوتيت من قوة ذراعها داخل المرأة، فأسرعت نحوها مستفسرًا فقالت لي:

- دي نوال حالة الدكتور أنور عبد الناصر اللي هيعمل لها قيصرية الصبح، بس هي بتولد والعيل بينزل وأنا بازقه جوه على ما

الأستاذ يجي الصبح علشان ما يزعلش..

صكّت المريضة وجهها وهي تركل الهواء بساق وتركل بالأخرى سعدية، وخصرها يطير في الهواء:

- أستاذ مين يا بت الكلب، هموت الله يحرقكم، سيبي الواد ينزل يا مرة يا وسخة.

بدا لي الأمر حماقة وعبث، المريضة تضع طفلها طبيعيًا ونحن نؤجل الولادة حتى يجري لها الأستاذ قيصرية! استخرجت سعدية وذراعها من داخل المريضة، وساعدتها على الوضع، فوُلد الطفل في لحظات وملأ الغرفة بولًا وصراخًا مستكملًا ما بدا لي سبابًا لسعدية، فلما انتهيت وجدت سعدية قد شحب وجهها وشرعت في صكّ وجهها:

- دي حالة إشترفتاحية والأستاذ هيخرب بيتي، لا وأنا مالي، هيخرب بيتك أنت أنا ماليش دعوة أنت اللي شيلت إيدي.

في الصباح، وبعد ثورة الأستاذ الدكتور أنور عبد الناصر وإحالته لنا جميعًا إلى التحقيق بتهمة "الإهمال الجسيم بتوليد الحالة طبيعيًا" وضياع الخمسمائة جنيه على الأستاذ، اتضح الأمر لي عندما اعترفت الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد:

- كريم، فيه حاجه عايزة أقولك عليها، هو الظاهر أنا لخبطت نوال مرزوق بحالة الأستاذ اللي اسمها نوال الأحمدي.

في الظهيرة، وأنا أتفحص خطاب استدعائي للتحقيق في شكوى الأستاذ الدكتور أنور عبد الناصر، جائني الرفيق عم حامد متجهمًا طالبًا مني أن أشهد لصالحه في المحضر الذي حرره ضد أهل المريضة بعدما

لسبوا في كسر ذراعه وفقد بعض أسنانه، فابتسمت وقلت له:

- تحت أمرك يا عم حامد، بس في الحالة دي لازم أحكي كمان عن النصب في تحويل حالة مستشفى مجانية لحالة أستاذ بأجر، وأنا خايف ساعتها يبقي شكلك وحش قوي.

بغت عم حامد من كلامي، لكنه تمالك نفسه بسرعة وقال لي:

- عيب يا دكتور كريم تقول على راجل في عمر والدك إنه نصاب.

فأسرعت أجيبه وأنا أحاول الحفاظ على هدوئي:

- والله يا عم حامد لو والدي بيحول الناس اللي بيجوا المستشفى الحكومي يتعالجوا ببلاش، لحالات إشترفتاحية والناس تدفع فلوس، يبقى أنا أول واحد هأشهد ضده.

فقال عم حامد بسخرية:

- وهو أنا بأضرب حد على إيده يدفع للأستاذ يا بك؟ هم اللي بيجوا يقعوا في عرضي، ما هو ما تآخذنيش، لو العيان عنده ثقة فيك أنت وباقي زمايلك، هيدفع ليه فلوس للأستاذ؟ وهو لو العيان مش عارف أنه علشان تعاملوه زي البني آدمين لازم يكون حالة أستاذ، كان هيطلّع مليم؟

ساءني ما يلمح إليه هذا النصاب، فأجبتُه بحنق:

- جزاك الله خيرًا يا عم حامد، يعني أنت بتنقذ العيانين مننا، لا كتر خيرك.. مش عارف أقولك إيه وأنت راجل كبير كده، والله عيب عليك، يعني إذا بليتم فاستروا، بقى شغل السمسرة ده إحنا السبب فيه ولا طمعك وجشعك؟

فصاح عم حامد:

- جشع وطمع على الكام جني اللي بيطلعوا لي من الأتعاب؟ طب ما تتكلم عن اللي بيلهف الأتعاب اصلًا، أنا يا باشا في مكتبي في السويتش، حيا الله وسيط بين البايع والمشتري، لا بأضرب العيانين على أيدهم علشان يدفعوا، ولا بأسترجى الأساتذة علشان يعملوا العمليات ويقبضوا..

قاطعته قائلًا:

- مش كل الأساتذة، أغلب الأساتذة أصلًا بيحتقروا اللي أنت بتعمله ده.

ضحك عم حامد ملئ شدقيه وقال:

- اللي بيحب عمك حامد ربنا بيحبه، وبيركبه المرسيدس، بص كده سيادتك على موقف عربيات المستشفى وشوف كام واحد بيحب عمك حامد.

واستدار ليخرج وهو يقول:

- أنا شعري شاب في المستشفى دي، لسه بتشعبط في الأتوبيس وأنا اللي مركب الدكاترة دول كلهم المرسيدس لكن الحمد لله، علمت ولادي كلهم وخرجتهم من الجامعة، وكله وكتاب الله بالحلال.

ثم فتح باب الحجرة وخرج، فأمسكت ورقة تحويلي للشئون القانونية ومزقتها غيظًا وصحت في الحجرة الخالية:

- حلال يا نصاب يا بن الكدابة.

مر يومان وفي صباح اليوم الثالث، دخلت على حجرة النواب سيدة مستقبة وجلست بهدوء إلى جواري على المكتب ولم تنبس ببنت شفة، فلما رأتني أطالعها باستغراب، أخرجت ورقة وقلم وكتبت:

"أنا سعدية يا كريم"

أُسقط في يدى من هول المفاجأة فسألتها:

- وعاملة كده ليه يا سعدية، أنت عليك تار؟

فامسكت الورقة والقلم من جديد وكتبت:

" تار إيه، لا، أنا بس حاسة أن ربنا زعلان منى وعلشان كده بأغلط"

دب الشك في قلبي، وبقلب الأب أسرعت أقول لها:

- الغلط يتصلح يا سعدية، هنجيب الكلب علاء ونخليه يكتب عليك النهاردة وفي داهية الصالون الأصفر الكناري.

انفجرت سعدية صائحة في:

- يكتب إيه وغلط إيه يا عيط أنت، هو يستجري يقرب مني لا دلوقت ولا بعد كتب الكتاب؟ أنا باتكلم عن الشغل.

ثم أمسكت بالورقة من جديد وكتبت:

"ما تكلمنيش بقى لأني مش هينفع أرد عليك تاني، أنت أجنبي ولا يصح أن تسمع صوتي"

تملكني الغيظ من المعتوهة التي أعمل معها، فأجبتها بصوت الواعظ معطشًا الجيم:

- فعلًا أنا أجنبي، وأنا وأنت فقط في الحجرة وهذه خلوة غير شرعية قد يفقس فيها بيض، فطريق السلامة يا أختاه، اطلعي برة.

انتفضت سعدية كمن قرصه ثعبان، وهرولت إلى الخارج لكنها ارتطمت على باب الحجرة بعيلاء الذي قال لها دون أن يعرف هويتها:

- مش تفتحي يا مَرَة؟

فقلت له:

- دي مش مَرَة، دي سعدية خطيبتك يا عيلاء.

فنظر عيلاء إلى المنتقبة ثم إلي من جديد وقال:

- أنت هتأرظ يا برنس؟

ثم أشار إلى سعدية وقال:

- سعدية ده إيه، أنت هتلبسني جنحة اغتصاب جاموسة عشر ولا إيه؟

فصرخت فيه سعدية من خلف النقاب:

- جاموسة عشر دي إيه يا حيوان، أنا سعدية خطيبتك يا مسطول.

فهرش عيلاء رأسه وقال:

- آه صحيح ده صوتك يا سوسو، طب مافيش مشكلة، النقاب حلو وسترة برضك، بس اعملي حسابك، هتتنقبي جوه البيت وبراه، اشمعنى أنا اللي أشيل البيض ده لوحدي.

القضبان الباردة

صرفت التمريض من عيادة السجن، فقفلن عائدات إلى المستشفى. أتيت مأمور السجن فنشط في إكرامي وأقبل عليّ بسرور، فلما اطمأنت نفسي إليه، نقلت له شكي في إصابة المريضة بورم على المبيض أرجحت أن يكون من نوع خبيث جدًا مميت، وشددت على ضرورة أن تنتقل معي المريضة هويدا زين العابدين أحمد إلى المستشفى. صمت المأمور لبرهة، وبادرني بالقول أنه من سلطاته إخراج المرضى للمستشفى فقط في الحالات الطارئة، والتي ليس من ضمنها الشك في الإصابة بالسرطان، لكن بوسعه السعي لإرسالها للمستشفى في أسرع وقت ممكن. وددت أن أنقل إليه شكي في شخصية المريضة، لكنني ترددت وتجمدت الكلمات على شفتي، وأثرت الصمت خشية أن يؤدي فضح الأمر إلى إصابة الفتاة بمكروه. وكأن الرجل شعر بأن هناك ما أخفيه، فحثني على البوح بالأمر واعدًا أن يحقق لي كل ما في وسعه، فما كان مني إلا أن صرحت له بكل شيء، فلما انتهيت، طرُفت عيناه، وانكمشت شفتاه وعبس في انصعاق وفزع وبدا أنه لا يصدق ما قلته له فصاح بي: ده جنون، أنت مجنون، مجنون.. أنت عارف السجينة عندنا كام جهة بتتأكد من شخصيتها..

مستحيل اللي أنت بتقوله ده. أفزعني رد فعله، وحاولت أن أفهمه، لكنه كان قد أصم أذنيه عني، وطلب مني مغادرة السجن فورًا متوعدًا بأنه سيصعد الأمر إلى رؤسائي. يئست من مناقشته، فطلبت منه وأنا أغادر أن يحقق في الأمر على الأقل ويحمي الفتاة.

١١- حديث البحث العلمي

في عالمنا العربي البحث العلمي مختلف عن مثيله في العالم!

يقوم النظام الجامعي على أن النائب في أثناء فترة تدريبه أو نيابته، يدرس أيضًا للحصول على درجة الماجستير. ومتطلبات الماجستير هي القيام ببحث علمي في نقطة مبتكرة ثم مناقشة نتائج البحث بواسطة لجنة متخصصة من الأساتذة، يعقبها خوض امتحانين، أحدهما في العلوم الطبية الأساسية والثاني في مادة التخصص. ويتم تعيين أستاذ للإشراف على البحث العلمي لكل طالب، والذي يقوم بدوره بتعيين اثنين من أعضاء هيئة التدريس لمساعدته والطالب في موضوع البحث. اختيار موضوع البحث مسئولية الطالب، ويجب أن يكون عن مشكلة أو نقطة محيرة وغير معروفة، بحيث ينتهي البحث بشيء جديد تمامًا.

أما على أرض الواقع، فإن الأستاذ هو الذي يتفتق ذهنه عن فكرة عبقرية غالبًا كانت تشغل بال سيادته مذ طفولته، أو سمع بها في محاضرة ما في أحد المؤتمرات الدولية حضرها سيادته ليريح جسده بين جولة تسوق وأخرى، وأحيانًا تكون الفكرة قد أشعت في رأس سيادته عندما قرأ عن مشكلة ما في إحدى الصحف. وفي كل الأحوال، وفي أغلب الاحوال

تكون الفكرة في الحقيقة قد قُتلت بحثًا وتنقيبًا وفحصًا، ونُشرت عنها أبحاثٌ وأبحاث في كل مجلات الأرض بما فيها مجلة ميكي وماجد.

وجرى العرف أن يهرول النائب إلى الأستاذ الذي تم تعيينه مشرفًا عليه فور إعلان الخبر ليعبر عن علو حظوظه لأنه سيعمل تحت إشراف هذا العلامة النابغ، وعادة ما يسير اللقاء بشكل روتيني جدًا، فيعدل الأستاذ من جلسته ليتخذ وضع مخترع الذرة ويقول:

— هممم، بس عايزين نعمل شغل جديد ومحدش عمله قبلينا (يقصد في القرن الماضي)، أنا عندي فكرة مبتكرة، جديدة وهتكسر الدنيا، يلا مش خسارة فيك أنت ولد مجتهد، خد المجلة دي فيها بحث حلو قوي، هنعمله تاني ونزود عليه شويه حاجات، ده هيكسر الدنيا.

تتلقى المجلة من سيدك الأستاذ وضربات قلبك تدق كطبول الحرب من الرعب، أولًا لأن أبحاث الأجانب جادة وحقيقية، وثانيًا لأنك مطالب بالانتهاء منه في خلال عام ونصف على الأكثر، وأخيرًا لأن تكلفة البحث بالكامل ستكون من ميزانية والدك. ولا يطيل سيدك الأستاذ فترة الرعب طويلًا اذ يبادرك بالقول:

- أنت أبوك بيشتغل إيه يا بني، أصل البحث ده فيه "كيت" (كيماويات لقياس نسبة شيء ما) ودى بـ ١٠ آلاف (سيدفعها أبوك صاغرًا بالإضافة لمصاريف أخرى)..

ثم يعتدل سيدك ويأخذ وضع شيخ تجار الحشيش ويستدرك قائلًا:

- الحيوان اللي قبلك قال الشيلة تقيلة عليه، وأنا قلت له روح لأمك

ياض، اللي معهوش ما يلزموش يا ننوس، أنت بقى نظام أهلك إيه؟

وطبعًا خوفًا من الطرد من جنة سيدك الأستاذ تقول بلا تردد:

- لا يا بك، احنا تحت أمر سعادتك، المهم البحث يليق باسم سيادتك.

فيعود الأستاذ إلى هيئة مخترع الذرة بعد أن انتهى من المساومة واطمأنّ على ميزانية والدك:

- في المجلة، البحث معمول على ٣٠ حالة، إحنا بقى هنعمل ٦٠، والبحث فيه موجات فوق صوتية عادية، احنا بقى هنعمل موجات ثلاثية الأبعاد وموجات دوبلر وأي موجات تلاقيها..

وسرعان ما يقفز في ذهنك حقيقة أن الموجات الوحيدة التي تعمل في المستشفى هي موجات إذاعة الشباب والرياضة، لكن سيدك الذي يقرأ افكارك يبادرك بالقول:

- الموجات كلها هنا طبعًا بايظة، فأنت هتعملهم عند صاحبي الدكتور فوزي جابر، أنا متفق معاه وهو هيديك سعر كويس، بس الدفع مقدم في أول البحث، يلا ورينا الهمة.

وهكذا أُضيف إلى التكلفة حوالي خمسة آلاف أخرى، فلما تهم بالانسحاب قبل أن يتفتق ذهن سيدك عن مزيد من التكاليف، يبادرك الأستاذ بالقول:

- وبقولك إيه، أنا عايز النتايج كلها متظبطة زي اللي طلعت للخواجات في المجلة اللي معاك، فاهم؟ مش عايزين فزلوك من

القسم ولا ممتحن خارجي فلاح من جامعات الاقاليم يتعولق علينا في المناقشة، اللي هيتكلم نحط المجلة في عين أمه، فاهم؟

وبحسبة بسيطة تجد أن البحث سيكلفك على الأقل عشرين ألفًا من الجنيهات بعد إضافة مصاريف المناقشة والطباعة ودعوات العشاء للمشرفين والمناقشين، علاوة على حتمية تطابق نتائجك مع نتائج البحث الأصلي مما يجعل جهدك وكدك ومال أبيك عبثًا في عبث.

النائب باسم حبيب كان زميلًا خلوقًا مهذبًا خجولًا خجل عذراء في ليلة زفافها، ولأننا سفلة فقد أطلقنا عليه اسم باسم الطري. وتشاء الأقدار أن يتم توزيع باسم على الأستاذ الدكتور عبد الغفار فجلة الأستاذ بالقسم.

دكتور فجلة كان عائدًا للتو من مؤتمر في ماليزيا تعرف خلاله على الدكتور"يوسفزاي علي أكبر" الأستاذ الهندي الذي يعمل في الخليج كخبير في جراحات المناظير النسائية، ويبدو أن علاقة وطيدة قد نمت بين الرجلين جعلت الدكتور يوسفزاي يصرح للدكتور فجلة عن راتبه ذي الستة أرقام، والذي يرجع الفضل فيه إلى خبرته في المناظير النسائية. وعلى الفور، اختمرت الفكرة في ذهن الدكتور فجلة؛ من اليوم سيتحول الأستاذ الدكتور فجلة إلى خبير في المناظير النسائية. لكن الأمر يحتاج إلى كثير من المرضى للتدريب عليهم، وسرعان ما قفز اسم باسم الطري في ذهن الأستاذ فجلة ورسالة ماجستير عن المناظير: "أي موضوع قديم، المهم فيه مناظير، مافيش غير الواد باسم الطري ده، يتلقح في المستشفى، هو يسقط لي الحالات وأنا أشتغلها".

وعند عودته اجتمع الأستاذ فجلة بباسم الطري:

- شوف يا باسم يا ابني، حالات الحمل خارج الرحم (حمل في أنبوب فالوب بدلًا من الرحم يستدعي التدخل الجراحي لاستئصاله) اللي تيجي الحوادث هنعملها بالمنظار كيت وكيت.. أنت ياحبيبي تقعد هنا في المستشفى الستة شهور اللي جايين.. وأول ما تييجي حالة تتصل بي تبلغني بيها، وتجيب لي إشعاتها منين ما أكون.. وتحضرها للمناظير، وبعدين هاجي أنا أعملها وأنت تساعدني، فاهم؟

تلعثم باسم كالمعتاد وقال:

- هه، بس، هه، حاضر بس هه، الحالات، والطوارئ، وحضرتك فلو ممكن هه يعني..

- ممتاز حماسك ده، خلاص، على البركة يا حبيبي!

وعنها انتقل باسم للإقامة الدائمة في المستشفى.

في الماضي كانت حالات الحمل خارج الرحم في أنبوبة فالوب تعني الموت الأكيد مع انفجار الأنبوب نتيجة فشلها في استيعاب نمو الجنين المطرد، مما يؤدي إلى نزيف داخلي مميت يقف أمامه الأطباء عاجزين عن إنقاذ المريضة، حتى كان العام ١٨٨٣ عندما قام الطبيب الأسكتلندي روبرت لاوسون تيت بأول جراحة نجح فيها في استئصال أنبوبة فالوب المنفجرة وإيقاف النزيف، وهي الجراحة التي أنقذت ملايين النساء من الموت، وتطورت اليوم فصارت تجرى بالمنظار دون فتح البطن [٧٣].

على أن الأمر لم يكن بالسهولة التي اعتقدها الدكتور فجلة، فحالات الحمل في أنبوب فالوب تكون عادة في حالة نزيف داخلي يهدد حياة

المريضة، والوقت الذي يستغرقه تبليغ الأستاذ ثم انتقال باسم إليه لإطلاعه على الإشعات، ثم التحضير للمناظير بعد قدوم الدكتور فجلة، هو نفسه الوقت الذي يستغرقه صعود روح المريضة إلى بارئها، وكثيرًا ما كنا نضطر إلى التدخل الجراحي الفوري قبل وصول الدكتور فجلة إلينا ونتركه يصب جام غضبه على رأس باسم الطري. وفي ليلة أبلغت باسم عن حالة حمل خارج الرحم، فقام بدوره بإبلاغ الأستاذ الدكتور فجلة، وذهب إليه بالإشعات والتقارير في بيته الصيفي خارج المدينة، فتهلل الأستاذ فجلة وأسرع خلف باسم الطري إلى المستشفى، لكن في هذه الأثناء تدهورت حالة المريضة، فاضطرت إلى التدخل الجراحي دون انتظار فجلة والطري. عندما وصل باسم، انتابته حالة هستيرية عندما علم بضياع الحالة، فصار يصكّ وجهه كنساء العشوائيات ويهيل على رأسه ورق فحوصات المريضة وصور أشعاتها:

- ده قابل لي هيلغي لي الرسالة، هه، أنا كده رحت في داهية، هه، هه خلاص خلاص..

وبدأ يدور في دوائر كالحلزون. لكن السماء كانت رحيمة به، فأرسلت إلينا في هذه اللحظة مريضة أخرى بحمل خارج الرحم، فأسرعنا بتجهيزها للدكتور فجلة. انتهى الدكتور فجلة من العبث بالمريضة بالمنظار وأعلن نجاح العملية، واستعد للانصراف وقد غمرته النشوى، وودعناه بنظرات حانقة لأننا كنا قد قررنا أن نتدخل جراحيًا بعد أن ينهي الأستاذ عبثه، لكن الأستاذ فجلة عاد بعد قليل ووقف يسأل باسم الطري:

- واد يا باسم، هي الولية اللي أنا عملتها دي مش قلت لي اسمها فاطمة إسلام مصطفى؟

فأومأ باسم بالإيجاب فعاد الدكتور فجلة للسؤال:

- بس الولية اللي نايمة دي دقه على دراعها صليب من بتاع الأقباط، طيب إزاي طيب؟

تصبب سيل قطرات عرق من جبين الطري، وبدا أنه على وشك الانهيار والاعتراف بالخدعة مما سيوردني معه ظلمات المهالك، فأسرعت أقول للأستاذ فجلة:

- يا بك أنا اقول لسيادتك.. الولية دي حضرتك اتجوزت مسلم وغيرت اسمها.. بس سيادتك عارف الوشم ده مش بيروح، لكن ربنا رب قلوب يا بك طبعًا.

التقط الدكتور فجلة ملف المريضة فقرأ بالنط العريض وبخط البروفيسور عرابي الأنيق:

"كارولين جرجس كرلس، ثم اسم الزوج فريد عادل فريد"

فرسمت الجدية على وجهي وبادرته بالقول:

- فريد عادل، مسلم يا بك مسلم، ده حتى كتب قصيدة في البت قال فيها(*)

عَساكِ بحق عِيساكِ مريحة في قلبي الشاكي
فإن الحُسن قد أولاكِ إحيائي وإهلاكي
وأولعني بصُلبان ورهبان ونسّاك
ولم آتِ الكنائس عن هوى فيهن لولاك

(*) شعر محمد بن أحمد بن عثمان القيسي بن الحداد الأندلسي (٤٨٠ هجريًا).

فلما استحسن الدكتور فجلة الشعر استطردت أقول:

- كلام في سرك يا بك، هم هربانين من أهلهم علشان عايزين يخلصوا عليهم، سيادتك عارف بقى هبل الأقباط في المسلمين ده..

لم يبد على الأستاذ الدكتور فجلة الاقتناع بالحجة، لكنه كان متشيًا من عمله فقال:

- غريبة.. مش مهم، فاطمة كارولين اللي يكون، على العموم أنا ماشي وابقى طمني بالتليفون بعد ساعتين.

مر على ذلك اليوم عامان، ويوم مناقشة رسالة الماجستير لباسم الطري، عرض باسم النتائج المتطابقة مع بحث المجلة الأجنبية. فرغم اجتهاده للالتزام بخطة البحث، الا أني كنت أعلم أنه أسلم الدكتور فوزي جابر ثمن إجراء موجات فوق صوتية لستين حالة لم يجر منها في الحقيقة سوى عشرة وزور بقية التقارير، وأن عينات الدم التي جمعها ضمت وسطها عينات أحضرها لمجندين ذكور من مستشفى والده العسكري، وأن عينات البول جمعها من الأطفال الذين يرتادون دار حضانة والدته.

انتهت المناقشة، ووجدت الأستاذ الدكتور فجلة يناديني فلما مثلت بين يديه قال لي ممازحًا:

- بقى الولية أسلمت وربك رب قلوب، وعساك بحق عيساك! بتشتغلني يا عرص؟

وطبعًا نال باسم الطري الماجستير متأخرًا عن دفعته بعامين، وفقط حين صار الأستاذ الدكتور فجلة خبير مناظير نسائية كبير في مدينتنا.

القضبان الباردة

عدت إلى المستشفى، وأسرعت إلى سكرتيرة الأستاذ الدكتور الخلفاوي لأقابله وأحكي له ما كان، والأهم لأطلب منه سرعة نقل المريضة إلى مستشفانا. كانت الدقائق الثمينة تمر ولا أعلم ما يُفعل بهويدا في سجنها. كانت نظراتها المستغيثة تطاردني تكاد تفجر رأسي. أخيرًا سُمح لي بالدخول لمقابلة دكتور الخلفاوي، فانطلقت أحكي له ما كان وأنا أتنفس عرقًا وصوتي يرتجف من الغضب والقلق والخوف، والرجل يسمع مشدوهًا، فلما انتهيت من قصتي تراجع في مقعده وصمت كمن يهضم الكلام، ثم رفع سماعة الهاتف وتحدث مع مأمور السجن. كنت أسمع صياح المأمور في الطرف الآخر، فلما انتهى الدكتور الخلفاوي وجدته ينقل لي تأكيد المأمور على استحالة أن يحدث خلط في شخصية سجين رغم التفتيش والبصمات والتوثيق، وإلا كان عتاة الإجرام كلهم خارج الأسوار. هبط صمت ثقيل، ومرت دقائق ظننتها دهرًا قبل أن يسألني الدكتور الخلفاوي إن كان لدي شك في عذرية هويدا، فلما أقسمت له أنها عذراء، طلب مني أن أكتب ما قلت وأتركه له، وأن ألزم الصمت ولا أحدث بالأمر مخلوقًا مهما كان...

١٢- طفلك في الأنبوب

ذات صباح استدعتني الدكتور عصمت إلى مكتبها، فاستودعت الله الأهل والأحباب، ثم تلوت الشهادتين ودخلت إلى مكتب سيادتها. رفعت الدكتور عصمت رأسها وسعلت بصوت أشبه بضباح ثعلب، ثم قالت:

- اقعد يا دكتور كريم، أنت متجوز يا كركر؟

فأومأت برأسي بالإيجاب وقلت معترفًا بجرمي الذي لا أعرفه:

- حصل يا فندم.

سمعتها تتمتم بالسباب قبل أن تعود وتقول بصوت رقرقته فجاء كعرير صرصار البساتين:

- ومش ناوي بقى تجدد زي كل الشباب اليومين دول؟

فكرة التجديد لم ترد لي من قبل، واحترت في سبب كل هذة العرعرة، فمبلغ علمي أن الدكتور عصمت متزوجة من الأستاذ الدكتور سراج نورالدين الأستاذ بقسمنا، والمثل يقول من علمني حرفًا صرت له عبدًا.

صحيح أني لم أتعلم منه شيئًا مما يجعلني في حل من هذا التعهد، لكن السقوط في بئر الخطية لا يمكن أبدًا أن أقبله مع الدكتور عصمت، فهي تحمل من صفات الذكورة ما يفوقني بكثير. انتزعتني الدكتور عصمت من أفكاري بقولها:

- أشكيناز بنتي، خلصت ثانوية عامة بتفوق وداخلة المعهد المتوسط لوسائط التخابر القسم الفرنسي.

دب الشك في قلبي ولم أرتح لفكرة التخابر خاصة وأنه فرنسي، ثم أن ناتج تزاوج الدكتور عصمت والدكتور سراج نور الدين حتمًا سينتج مخلوقًا شبيهًا بالسلعوة.

فلما رأتني الدكتور عصمت لم أنبس بشفة استطردت تقول:

- بص جواز رسمي عرفي مش فارقة احنا بنشتري راجل، هه، نقول مبروك؟

أصابني الهلع فاسرعت أزيل اللبس:

- لا حضرتك، هو طبعًا يشرفني، بس صعب جدًا يا فندم.

فأرْبَدَّ وجه الدكتور عصمت من الغضب وقالت:

- صعب؟ الله يحرقك، وأنت ازاي قاعد وأنا بكلمك يا فندي، محول للتحقيق.

فقلت لها:

- حضرتك يا دكتورة عصمت اللي قلتِ لي اقعد.

زاد ازْبَادُّ وجهها وصرخت فيّ:

- هي حصلت؟ بتقولي دكتورة، أنت بتتريق يا فندي؟

وكما بدأت فجأة توقفت فجاءة، وبدا أنها تمضغ الكلام حتى إذا ما انتهت تحشأت قبل أن تقول بصوت خفيض:

- مافيش غير أنه بمضي تعهد أنه يتمرن فيها ستة شهور، ويستعملها ستة شهور وبعدها لو طلع كويس وعجبني يبقى يشتغل معايا أنا بس.

ولم أفهم لماذا سأتدرب في أشكيناز لمدة ستة اشهر وأستعملها ستة أشهر، فإن أبليت بلاءً حسنًا في استعمالها، أنتقل حصريًا لاستعمال الدكتورة عصمت.

وسرعان ما تبدد الغموض لما بدا كعرض خارج عن اللياقة. فهمت أن الأستاذ الدكتور عصمت عوض قررت اقتحام عالم أطفال الأنابيب وعلاج العقم الذي يستأثر به ثلة من الأساتذة الذين تدربوا في الخارج وعادوا ليقدموه لمرضاهم في عياداتهم ومراكزهم الطبية الخاصة فقط ونظير مبالغ باهظة. المشكلة كانت في ضرورة سفر الدكتور عصمت إلى الخارج لتعلم التقنيات المختلفة وبرامج العلاج المتبعة والتي لن يُعلمها لها أحد في الداخل، مما يعني اضطرارها إلى غلق عيادتها الخاصة وما يصاحب ذلك من تسرب المرضى إلى المنافسين. لكن سرعان ما تفتق ذهن الدكتور عصمت عن خطة عبقرية: وحدة أطفال أنابيب حكومية في مستشفانا تجلب بها الخبراء من الخارج بهدف معلن وهو تدريب الأطباء الشباب على هذه التقنية، وهدف مستتر وهو تدريب طبيب واحد تضمن هي ولاؤه، ليتولى لاحقًا العمل في مركزها الخاص، فلما راسلت المراكز العالمية، وقع اختيارها على مركز الدكتور بيار فرانسوا، خبير أطفال الأنابيب الفرنسي

المشهور الذي وافق على إنشاء الوحدة مساهمة في الهدف المعلن النبيل، ومن بين السير الذاتية التي أرسلتها الدكتور عصمت إليه، وقع اختياره عليّ كمساعد لإجادتي اللغة الفرنسية.

عملية الإخصاب المساعد المعروفة إعلاميًا بإسم أطفال الأنابيب تضم وسائل عديدة لعلاج العقم الناتج عن انسداد أنبوب فالوب في المرأة أو ضعف حيوانات الزوج المنوية. أول طفل ولد في العالم بهذه الطريقة كانت فتاة تدعى لويس براون في عام ١٩٧٨ بمانشستر بإنجلترا على يد الدكتور باتريك كريستوفر ستبتو وزميله روبرت إدواردز [٧٤]، ومنح عليها روبرت إدواردز جائزة نوبل، ولم يحصل عليها باتريك ستبتو لوفاته (لا تمنح الجائزة لمن توفي قبل تسميته فائزًا). في حالة لويز تم وضع بويضة الأم مع حيوانات الأب المنوية داخل أنبوبة ومراقبة التلقيح حتى إذا ما اندمج المشيجين، نقل الجنين إلى تجويف رحم الأم، وهي عملية تشبه إلقاء بيضة في سطل من الماء المليئ بالحيوانات المنوية وانتظار نجاح أحد الحيوانات المنوية في اختراق جدارها وتلقيحها. في عام ١٩٩١ حدث تطور كبير على يد الدكتور چيانبيارو باليرمو في بلچيكا عندما قام بالإمساك بالحيوان المنوي وإدخاله داخل البويضة بعد تقشيرها باستخدام مجهر (ميكرسكوب) وأذرع آلية، وسميت التقنية بالحقن المنوي المجهري الذي أخذ مكان أطفال الأنابيب التقليدي [٧٥].

ومضت الدكتور عصمت تسابق الريح لإنشاء الوحدة رغم المعوقات والمؤامرات التي حيكت ضدها من الأساتذة المنافسين والحاقدين، وما هي إلا أسابيع معدودة حتى جلبت المعدات والكيماويات، ووصل الخبير الفرنسي بطاقم مساعديه، وافتتح السيد عميد الكلية الوحدة وسط اهتمام إعلامي كبير. كان دوري في الوحدة هو تحضير الحالات

التي اختارتها الدكتور عصمت للخضوع للعلاج وكذلك الإشراف على العمل الإداري، ثم التدرب على تقنية الحقن المجهري وما يحيط بها من تفاصيل. أيام واستدعاني الفرنسي الدكتور بيار وقال لي بالفرنسية:

- مسيو كريم، أريد أن أقول لك أنك..

ثم باغتني بعربية مهشمة:

- واخد أرص كبير.

ثم وبلهجة غاضبة بدأ يشرح كيف اكتشف أن الحالات التي تختارها الدكتور عصمت لا تحتاج أصلًا لأي علاج، مما جعل نتائج الوحدة تحطم كل الأرقام العالمية المعروفة لنجاح التقنية وهو بحسب قوله ما يعرض مصداقيته لهزة عظيمة. لم يفهم الخواجة بيار بأنه في عالم البيزنس الذي تخطط الدكتور عصمت للدخول فيه، يلجأ البعض إلى إدخال بعض المرضى الذين لا تحتاج حالتهم سوى لعلاج هرموني بسيط في أتون نار أطفال الأنابيب باهظ التكلفة، فقط لتحسين نسب النجاح وتسديد المرتبات والفواتير. ثم سحبني الخواجة وذهبنا إلى مكتب الدكتورة عصمت حيث طلب مني الترجمة فشرعت اقول:

- الدكتور بيبار عايز يقول لحضرتك أن اختيار عباين حالتهم عادية علشان يتعمل لهم أطفال أنابيب علشان النتائج تبقى كويسة دي اسمها قلة أدب وسفالة وسرقة ونصب..

أخذ وجه الدكتور عصمت يربد وأنا انقل لها أقوال الفرنسي، فلما أنتهيتُ أصْدَرَتْ صوتًا كنخير البغل ثم قالت:

- هو قال كل ده؟

فأكدت لها أني لم أترجم كل ما قاله حتى لا أسبب لها ضيقًا. عندما سألت الدكتور بيار أين تعلم كلمة "أرص" هذه، أفاد أن بواب العقار الذي يسكن فيه ينادي كل أولاده بهذه الكلمة وهو عابس، فاستنتج أنها تفيد الغضب، ثم سألني عن معناها، فأجبته عابثًا:

- لا أبدًا، أنها مثل méchant أي شرير، عادي يعني!

ولأن الدكتور عصمت كانت في سيس الحاجة للدكتور بيبار، فقد وافقت على تولي الدكتور بيار فرانسوا شخصيًا مراجعة ملفات المرضى والموافقة على علاجهم.

بعد أيام طلبت مني الدكتور عصمت إدخال النائب عيلاء إلى الوحدة وتوليه عملية تجميع الحيوانات المنوية من الأزواج، وهي عملية يطلب فيها من الزوج الاستمناء في قارورة معقمة، فاستجبت وأنا كاره لأن الوحدة كانت ملاذي الذي أهرب إليه من جحيم طائري السُنونُو سعدية وعيلاء.

أيام وأبدى الدكتور بيبار إعجابه بالدكتور عيلاء وحماسه في العمل الذي يدفعه إلى الدخول مع الأزواج أثناء عملية تجميع الحيوانات المنوية ونجاحه دائمًا بالعودة بقوارير ممتلئة، قبل أن يعود بعدها بأسبوعين ليقول لي بحيرة وانزعاج أن النتائج تشير إلى نسب نجاح للعلاج هي ضعف أفضل المعدلات العالمية، وتعجبه من نجاح حالات بدت له مستعصية وصعبة، فهدأت من روعه وتضاحكت معه بأنه في أرض المعجزات!

وذات صباح، استدعاني الدكتور بيبار:

- مسيو كريم، أنت ومسيو إيلاء...

ثم بعربيته المهشمة:

- "أنتين مش بس أرص كبير، لا أنتم الولاد بتاع واحد أرص"

هدأت الخواجة وسألته عن سبب غضبه فحكي لي عن واقعتين:

الأولى أنه قد أتت إليه مريضة كنا قد أجرينا لها إخصاباً مساعداً نجح في جعلها حبلى، لكنها اكتشفت لاحقًا في أوراق كان يخفيها زوجها أنه - أي الزوج - قد ولد دون خصيتين[٧٦] مما جعله عقيمًا نهائيًا، وأنه أجرى وهو طفل عملية جراحية لوضع كرتين صناعيتين تعويضيتين للحفاظ على صحته النفسية مع تعويضه هرمونيًا، وهو أمر أخفاه عنها قبل الزواج، وتساءلت المرأة من أين أتينا بالجنين الذي تحمله؟

رغم غرابة الواقعة، أجبته بأن يقينًا هو الإهمال الذي سمح لهذا الزوج المخادع أن يدس شخصًا آخرًا لإعطاء عينة الحيوانات المنوية، لكن ليس بالأمر سوء نية أو تآمر من جانبنا، واقترحت أن تُلزم الأزواج بإبراز ما يثبت شخصيتهم قبل جمع العينات.

تجاهل البروفيسور تبريري، واستطرد يشرح الواقعة الثانية. قال البروفيسور أنه لما ارتاب في نسب نجاح الوحدة المرتفعة بشكل غير طبيعي، قام باستدعاء بعض الحالات التي أجريناها، وطلب منهم إعادة تحليل نسب نشاط وحيوية السائل المنوي. صمت الرجل برهة، ثم دفع إلي بملف ضخم على مكتبه وطلب مني مقارنة نتائج تحليل السائل المنوي القديمة لهؤلاء المرضى بالأخرى الجديدة. تصفحت الملف، ولفت نظري فعلًا التباين الشديد بين نتائج نفس المرضى أثناء إجراء عمليات الإخصاب المساعد ثم حديثًا. رغم الشك الذي كان قد دب في صدري، إلا أنني شرحت للبروفيسور أن هؤلاء المرضى كانوا يخضعون غالبًا

لعلاجات تساعدهم على مضاعفة إنتاجهم من الحيوانات المنوية وتحسين حيويتهم ونشاطهم، بعكس التحاليل الجديدة التي أجروها بعد توقف العلاج. مصمص البروفيسور شفتيه وهز رأسه وقال لي:

- ماذُمت مصممًا على دفن رأسِك في سلة المهملات فإليك هذه الواقعة.

قطعت حديث الرجل وقلت ملاطفًا وأنا أبتسم:

- سيدي هنا نقول ندفن رؤسنا في التراب لا في سلة المهملات.

فأجاب الرجل بنفس الحدة:

- أعلم هذا يا صديقي، لكنكم تقولون أن الرمل طاهر للصلاة، وما يحدث هنا لا علاقة له بالطهارة. استمع لهذه القصة. حكى لي عن حالة كنا قد أجرينا لها إخصاب مساعد وأطفال أنابيب بسبب ضعف حيوانات الزوج المنوية لكبر سنه، فلما ارتاب البروفيسور في النتائج أرسل في استدعاء الزوج وطلب منه إحضار عينة جديدة، فلم يجد بها أي حيوانات منوية مما يعني أنه عقيم عقم نهائي، أي لا ينتج أي حيوانات منوية في سائله المنوي، فلما تبسط إلى الكهل علم منه أنه أصيب بالسرطان مما استدعى علاجه بجرعات مكثفة من العلاج الكيماوي. كثير من العلاجات الكيميائية التي تستخدم في علاج السرطان معلوم أنها تقضي على الخصوية، كان التفسير المنطقي الوحيد هو أننا نتلاعب بقوارير السوائل المنوية للمرضى.

أرسلت في طلب الزوجين، فرفض الزوج ذو الخصيتين الصناعيتين المجيء وحضر الكهل. فلما مَثُلَ بين أيدينا وجدته عجوزًا أسمرًا من

النوبة، من شباب ثورة ١٩١٩ قد نسيه الموت وسقط اسمه سهوًا من قائمة المغادرين للحياة، سألته أن يحكي ما حدث معه في محاولتي جمع الحيوانات المنوية فقال الرجل وهو ينطق الكلمات بمجهود جبار وكأنه يسلم روحه لبارئها:

- الدكتور علاء الله يبارك له أول مرة قال لي خلي عنك يا حاج، المية دي من عندنا، بس لما الخواجة بعت لي ما لقيتش الدكتور علاء.

ثم استرسل يحكي قصته:

- أنا يا بني أصل خلفتي بنات واخواتي منهم لله مستنيين موتي علشان يورثوني، فإجواز بناتي جابولي بت صغيرة أتجوزها يمكن ربنا يرزقني منها بولد يصون ثروتي، بس صحتي ما جبتش، فودوني لكام مركز بتوع عيال أنابيب، بس رفضوني.. وفي الآخر دلونا على الدكتورة عصمت اللي وافقت تعملها لي وحولتني على هنا.

هرعت إلى عيلاء وقبضت عليه من قميصه وسألته عن صحة ما قاله كهل ثورة ١٩١٩ وعن حقيقة التلاعب بعينات ذي الخصيتين الصناعيتين ومرضى آخرين، فأجابني مازحًا:

- يا عم كريم المية كتير والخير ياما، واللي ماعندوش ميّه احنا واجب نساعده والناس لبعضيها.

فلما رأى امتعاضي من مزحته والسباب على طرف لساني أسرع يقول لي بلهجة تحذير:

- أهدى يا نجم، وما تكسرش البيض كله، الليلة دي كلها أوامر

أبلتك عصمت، هي اللي قالت ما فيش عيان يتقال له ما ينفعش.

أسرعت إلى مكتب الدكتور عصمت وقصصت عليها ما كان ومحاولات الكلب عيلاء أن يورطها في هذه الفضيحة، فأجابتني ببرود:

- اهدى يا كركر، كل عيادات الدنيا بتعمل كده.. الخواجة بتاعك ده بس اللي هيعمل علينا الحبه بتوعه.. ده يرفض أغلب العيانين اللي بيجوا للوحدة وهيوقف لنا الشغل واحنا لسه بنقول يا هادي وعايزين نعمل سمعة.. شكله غشيم موت والشغلانة دي عايزة واحد ابن سوق..

ذُهلت لصحة رواية عيلاء، وسَمِعْتُني أقول:

- بس دي مصيبة والخواجة أكيد هيبلغ البوليس والجرايد والناس..

ضحكت الدكتورة عصمت وقالت:

- ولا يقدر يعمل حاجة، الورق كله باسمه وهو اللي ماضي عليه.. أنت سمعت عن قانون ٥ لسنة ٢٠١٠ بتاع زرع الأعضاء [١] ولائحة قانون المهن الطبية [٢]؟ حتى لو الخواجة بتاعك راح للبوليس وعمل هليلة، هو يتحبس سبع سنين، وأنت تدفع ميت ألف جنيه غلشان أنت اللي محضر الحالات.

أيقنت عجزي عن تحدي فساد الدكتور عصمت، فهممت بالخروج عندما بادرتني بصوت مثل نعيق البوم:

- كريم، ما تكسرش البيض كله يا عيني، أنت توقيعك على كل الملفات، وامتحان الماجستير كمان كام شهر يا حبيبي، خليك عاقل.. أنت مالكش دعوة خلاص بأطفال الأنابيب، ترجع

عنبرك من دلوقتي.. ويقولك، بلغ الخواجة بتاعك إننا استغنينا عن خدمات أمه.

لم أدر إلا والخواجة بيير فرانسوا قد اختفى هو والفريق المساعد له مع شروق شمس اليوم التالي، وما هي إلا أيام حتى حل محله الدكتور الهندي "راجيا سنجام" وولداه "براناب" الذي حل محلي في تحضير المرضى لإجادته العربية، و"أنال" الذي حل محل عيلاه، غالبًا لفحولته ومقوماته البارزة جدًا من سرواله الجلدي الضيق.

في المساء جلست إلى البروفيسور عرابي الذي أحزنه أمري فربت على كتفي وقال لي:

- شوف يا كريم بك، السبوبة في شغل الأنابيب دي كبيرة قوي ماحدش يقدر يشدها من بق أصحابها، والعينين متشحتفين على عيل يرفعوا به راسهم أدام إجوازهم ونسايبهم ومعارفهم، وهيدفعوا اللي أدامهم واللي وراهم بس الحكاية تنجح، تنجح إزاي مش مهم، المهم تنجح، واللي هيضمن لهم عيل لو عمل اللي يعمله هم موافقين، يعني كله موافق ومغمض عينيه.

ثم دفع لي بقصاصات اوراق متنوعة من جرائد يحتفظ بها في ملف داخل مكتبه وهو يقول لي:

- على فكرة، مش عندنا بس، ده في العالم كله..

القصاصة الأولى كانت عن قصة الدكتور الأمريكي سيسيل بيران جاكوبسون والفائز بجائزة نوبل عام ١٩٩٢ والذي أدين وحكم عليه عام ١٩٩٣ بالسجن خمس سنوات وغرامة مئة ألف دولار بعد ثبوت

قيامه بتلقيح ٧٥ سيدة بحيواناته المنوية بدلًا من حيوانات الأزواج أو المتبرعين وذلك دون موافقة أو إذن هؤلاء السيدات [٧٧]، وتذكرت أني شاهدت فيلمًا سينمائيًا يحكي قصة هذا الطبيب يدعى

The baby maker: the true story of dr Cecil Jacobson

أما القصاصة الثانية فكانت بتاريخ أحدث وتحكي عن أسطورة أطفال الأنابيب في البرازيل الدكتور روبرت عبد المسيح والذي حكم عليه بالسجن ٢٧٨ عامًا.. بعد أن ثبت قيامه بتلقيح بعض بويضات نساء بحيوانات مختلفة عن حيوانات أزواجهن فولدت هؤلاء النسوة أطفالًا ليسوا بأطفال أزواجهن، والطريف أنه نجح في الفرار إلى لبنان أثناء استئنافه للحكم [٧٨].

٩٪ من سكان العالم مصابون بمشكلة خصوبة [٧٩]، ويلجأ نصفهم لطلب العلاج، ويخضع ١٥٠٠ زوج من كل مليون شخص على أقل التقديرات سنويًا لعملية إخصاب مساعد، تباع لهم بأسعار تتراوح في المتوسط بين ١٤ ألف دولار في أمريكا، ٦ آلاف و٧٥٠ دولار في إنجلترا، وثلاثة آلاف و٥٠٠ دولار في فرنسا لنفس التقنية والعقاقير بحسب متوسط الأسعار طوال العقد الأول من الألفية الثالثة، في سوق يبلغ حجمه بين الخمسة والسبعة مليارات دولار سنويًا ويتخطى العشرة مليارات إذا اضيفت إليه تجارة الأجنة والأمشاج من بويضات وحيوانات منوية.

فهل يستحق الأمر هذا الانحراف؟ نعم، فعملية الإخصاب المساعد التي تباع للمريضة بأسعار باهظة، لا تتكلف في حقيقتها أكثر من ٤٠٪ من هذه التكلفة بينما يذهب الباقي كأرباح لمراكز الخصوبة وشركات

العقاقير المنشطة للتبويض. وقد أثيرت هذه القضية حديثًا في البرلمان البريطاني العريق حين فجر اللورد ونستون خبير الخصوبة العالمي قضية التكاليف المبالغ فيها التي يتكبدها المريض البريطاني (في بريطانيا ٨٤ مركزًا يبلغ حجم أعمالهم سنويًا ٥٠٠ مليون جنيه إسترليني)، وضرب مثالًا في المغالاة في الربح بتخزين الأجنة الذي يدفع فيه المريض رسوم تخزين سنوية تبلغ ٣٢٥ جنيه إسترليني للجنين بينما لا يكلف سائل النيتروجين الذي تخزن فيه الأجنة أكثر من بنسات بسيطة، وضرب مثلًا في التربح اللاأخلاقي بالعقاقير التي تباع للمرضى بتكلفة من ألف إلى ثلاثة آلاف جنيه إسترليني في الوقت الذي لا يتعدى سعرهم الحقيقي أكثر من ٥٠٠ـ٧٠٠ جنيه إسترليني، كما لفت الأنظار إلى تلاعب بعض المراكز البريطانية في نتائجها بإدعاء بلوغها الـ٦٩٪ وهو رقم بعيد تمامًا عن الـ٤٠٪ التي تحققها أفضل مراكز العالم [٨٠].

ولم أُكسِّر البيض، لكن تولى الدكتور عيلاء تكسيره مرغمًا عندما فشل في إقناع أهل زوجة رجل الخصيتين الصناعيتين بأن المعجزات تحدث أحيانًا وأن كرتين اصطناعيتين من السيليكون مملوءتين بسائل مالح يمكنهما أن ينتجا بإذن الله حيوانات منوية مثلهما مثل أي خصيتين طبيعيتين. وأمام الصديق معتز منصور وكيل النيابة اعترف عيلاء تفصيليًا بقصة الخواجة بيار فرانسوا والدكتور عصمت عوض، فحُوِّل الاثنان إلى المحكمة التي برأت الدكتور عصمت من كل التهم لعدم كفاية الأدلة، وحكمت على الدكتور بيار فرانسوا غيابيًا بالسجن بتهمة الإهمال الجسيم، واعتبرتني أنا والدكتور عيلاء مغررًا بنا على يد الخواجة. ولم تمض أشهر بسيطة حتى تم غلق الوحدة بمستشفانا وبيع الأجهزة لتجار الخردة، مع إفتتاح مركز الدكتور عصمت عوض الخاص لأطفال الأنابيب والذي أسمته "مركز

أشكيناز كو الدولي لعلاج العقم وأطفال الأنابيب".

هل يصدر قانون يُلزم مراكز أطفال الأنابيب بإجراء تحليل البصمة الوراثية على كل إنتاجها من الأجنة منعًا للعبث والتحايل أو حتى الخلط غير المقصود للأمشاج والمقدر بأربعة لكل عشرة آلاف حالة، مع تجريم العبث بالأمشاج وتغليظ العقوبة على المخالف؟ لا أظن، فكثير من المرضى يتمنى نجاح العلاج ولو بالخديعة، وتقف قوانين بلادنا العربية المستمدة من الشرائع السماوية بالمرصاد للسحاح بالتبرع بالحيوانات المنوية أو البويضات أو الأجنة طبقًا لقرار دار الإفتاء المصرية [٨١] والكنيسة الأرثوزكسية [٤٧]، وما بين التعاطف مع المرضى وشهوة المال الوفير وحلم الأبوة والأمومة، يغض الجميع الطرف عن هذه الخدعة البسيطة داعين الله ألا ينكشف السر.

القضبان الباردة

رُفع اسمي من قائمة النواب الذين يخدمون في عيادة السجن بناءً على طلب مأمور السجن، وعَلِمتُ أن الدكتور الخلفاوي قد أحجم عن رفع المذكرة التي كتبتُها خشية إفساد علاقته بقيادات مصلحة السجون. وحين نقلت شكوكي لمعتز منصور، أرسل بطريقة غير رسمية في طلب ملف التحقيقات في الجريمة التي حكم فيها بالسجن المؤبد على هويدا زين العابدين أحمد، فوجد أن تقرير الطب الشرعي والمعمل الجنائي قد أفادا بأن بصمات هويدا كانت على السكين التي ذبحت به زوجها وطفلها، والتي عُثِرَ عليها لاحقًا في مخبئها في بيت أسرتها، كما أفادت أختها التوأم - والتي استُبعِدت شهادتها لاحقًا في المحكمة لثبوت إصابتها بإعاقة ذهنية متوسطة بعد التهاب سحائي بالمخ وهي طفلة - بأنها ليلة الحادث فوجئت بشقيقتها تدق باب الشقة التي تعيش فيها الأخت وحدها بعد وفاة الأبوين وملابسها ملوثة بالدماء. كما أفاد تقرير تحريات المباحث بأن هويدا تزوجت قسرًا من زوجها وهو سكيرٌ سيئ السلوك سبق الحكم عليه في قضايا نصب، وأنجبت منه رغم الخلافات الكثيرة بينهما ومحاضر الشرطة المتبادلة، ومنها محضر اتهام بالزنا في حقها تنازل عنه

لاحقًا، وانتهت المحكمة في أسباب حكمها إلى رأي أن هويدا كانت في حالة دفاع عن نفسها بعد أن قطع زوجها، وهو تحت تأثير الخمر، لسانها بالصفة التشريحية الواردة في التقرير، مما جعلها تقتل زوجها بأن ذبحته بعد أن سددت له طعنات نافذه في الصدر، ثم أصابها جنون لحظي من صدمة القتل جعلها تذبح طفلها ذا السنوات الست والذي بُوغتت به يستغيث لمشهد ذبح أبيه. انتهى معتز من قراءة التقرير، فقفزت صورة هويدا إلى ذهني؛ كيف لهذا العصفور الضعيف أن يحمل السكين ويذبح ويقتل، وليس مرة واحدة، بل مرتين، محال أن تطاوعه يده على نحر صغيره الرقيق، ولا حتى في لحظات جنون شيطانية.. الشياطين لا تحل في أجساد الملائكة.. الشياطين لا تحل في جسد هويدا.

١٣- الديك ذو العُرف الكثيث والذيل النجس

يصيب أطباء النساء والتوليد من الثراء ما لا يصيبه أقرانهم من التخصصات غير الجراحية مثل أمراض الباطن والأطفال والجلدية، وهذا يفسر تسابق الطلاب على التخصص في مجال أمراض النساء والتوليد. كما يتيح التعيين في الجامعة مزيدًا من الثراء والشهرة بعد الحصول على لقب أستاذ.

فرج الله البرنس كان نائبًا في قسمنا قبل أن يَمُنَّ الله عليه بالتعين في الجامعة. إجتهد فرج القادم من بيئة بسيطة من إحدى ضواحي مدينتنا في سنوات الدراسة حتى تفوق، وأمكن له التأهل للتعين بالجامعة. بقيت مشكلتان في طريق فرج؛ الأولى الواسطة كي يضمن أن يتم تعيينه ولا تتم إزاحته، والثانية التخلص من سمعة ذيله النجس وشهرته بالعبث مع النساء.

يقول البروفسور عرابي: الطريق المضمون لنيل التعين يكون باختلاط الدم والمصاهرة، ويعني بذلك مصاهرة أحد أساتذة القسم، فقد جرى العرف على أن يُعين أبناء أساتذة القسم وأزواج بناتهم قبل أي مرشح

آخر، لكن فرج ذا الذيل النجس سمعته تسبقه وخلفيته الاجتماعية البسيطة لا تفتح له الابواب، فمن يقبل به زوجًا لابنته؟

لم يكن هناك في قسمنا، سوى الأستاذ الدكتور عبده ابو سنة، أو الشيخ عبده كما كنا نطلق عليه.

الدكتور الشيخ عبده كان يشترك مع فرج ذي الذيل النجس في أن الاثنين أصولهما بسيطة، ويقال أن والدته كانت تفترش سوق مدينتنا لتبيع الجبن الأبيض والسريس وتزوجها خادم مسجد السوق وأنجب منها عبده. وكان أن مات إمام مسجد السوق فتولى والد الدكتور عبده شئون المسجد، وبفطنته استطاع أن يُنَصِب نفسه إمامًا للمصلين وشيخًا للمسجد، وسرعان ما ابتسمت له الأقدار عندما أقر مسئولو الأوقاف تعيينه مقيمًا للشعائر. وفي حجرته التي كانت تعلو سطح المسجد، تفوق الدكتور عبده وحجز لنفسه مكانًا في قسمنا بكارت توصية تحصَّل عليه والده من أحد المصلين من رجال الثورة آن ذاك، كما تفقه في شئون الدين حتى يُعين والده الذي يجهل القراءة والكتابة على الظهور بمظهر عالم الدين وإفتاء الناس في شئونهم، فكان الدكتور عبده يحضر الخطبة لوالده ويُحَفِظه إياها مساء كل خميس حتى يُلقيها الشيخ على مسامع المصلين يوم الجمعة، ثم أهله نبوغه وتفوقه للسفر إلى الاتحاد السوفيتي السابق للحصول على الدكتوراة التي عاد بها وفي ذراعه امرأة قيل أنها أسلمت وتزوجته، وسرعان ما أنجبت له ولدًا بديعاً أخذ من جمالها، وابنة دميمة أخذت من ملامح زوجها. لكن كيف السبيل إلى إقناع الدكتور الشيخ عبده أبو سنة بقبول مصاهرة فرج ذي الذيل النجس؟

تغيب فرج ذو الذيل النجس عن مستشفانا شهرًا ثم ظهر فجأة ذات

صباح وقد نبتت له لحية كثيفة وزبيبة ضخمة تتوسط جبهته، وارتدى سروالاً قصيرًا لا يلامس حذاءه وقميصًا طويلًا، وسار يوزع الشربات والأموال على العاملين في المستشفى الذين تدافعوا لتهنئته بالعودة من الحج. أيام وسمعنا عن خطبة الدكتور فرج ذي الذيل النجس على كريمة الأستاذ الدكتور عبده أبو سنة الدميمة، وتزامن ذلك مع الشروع في إجراءات تعيينه في وظيفة مدرس مساعد بالقسم. انتظم الدكتور فرج في الصلاة في مسجد المستشفى جماعةً، كما انقطع للصوم في أيام الاثنين والخميس من كل أسبوع والإفطار معنا في سكن الأطباء، وأطلق حملةً كبيرةً في القسم للتبرع لصندوق إغاثة المرضى والمحتاجين، وصار يُغدق على المرضى الفقراء بالمعونات والملابس، كما دأب على توزيع شرائط لتسجيلات محاضرات عذاب القبر وأهوال يوم القيامة لبعض مشاهير الدعاة. ورغم مظهر المتدين وسلوك الملتزم، شيءٌ ما كان يجعلني لا أصدق كل هذا التحول.

ذات ليلة، كنت أمر في ردهة الجناح الغربي للمستشفى في طريقي إلى عنبري، عندما لفت انتباهي شبح رجل يقف في نهايتها متسمرًا أمام النافذة المطلة على حجرات المرضى في جناح المستشفى الشرقي. كان عطبٌ قد أصاب المصباح في هذه الرقعة فساد الظلام المكان، إلا من ضوء بسيط يخترق الردهة من النافذة. كانت مواعيد الزيارة قد انتهت، مما يجعل وجود هذا الرجل في هذا التوقيت مخالفة جسيمة. بهدوء اقتربت من الشبح حتى إذا ما أمكنني تبين ملامح وجهه، فوجئت بأنه الدكتور فرج الذي كان مستغرقًا في ما ينظر إليه فلم يشعر بقدومي. مددت عيني أتتبع مسار بصره، فوجدت نافذة إحدى حجرات المرضى مفتوحة على

مصراعيها وقد تمددت امرأة على سرير أسفل النافذة تغط في النوم، وثوبها قد جافى فخذيها وساقيها فتركهم عاريين تمامًا. كانت عينا الدكتور فرج الله مصوبتان نحو المرأة تكادان تلتهمانها، وصوت أنفاسه قد علا وبدا أنه يزدرد ريقه بصعوبة. تحرجت من الموقف، فتراجعت بضعة خطوات متعمدًا، ثم تنحنحت وقلت بهدوء وكأنني قد بلغت للتو موقعي:

- مساء الخير دكتور فرج، أنا كريم...

استدار الرجل مذعورًا، فلما رآني، صار يجول عينيه بين النافذة وبيني، ربما ليكتشف هل رأيت ما يُحدق فيه، قبل أن يسارع ويلتقط ذراعي وهو يبعدني عن النافذة ويقول:

- مساء النور يا سي كريم تعال بعيد عن الضلمة دي..

مضينا في الردهة وهو غارق في الارتباك، فلما تماسك قال لي:

- بارك الله فيك يا كريم، بتمر للاطمئنان على أحوال المستشفى؟ بارك الله فيك، يا ريت بقى تكمل الفضل وتُعفي لحيتك وتلزم صلاة الجماعة وتترك المعاصي علشان ربنا يفتح عليك من أبواب رزقه بعد ما تخلص نيابتك إن شاء الله ويكرمك.. أنت تعلم، في مهنتنا هذه نحتاج للعلم والدين ليفتح علينا الله ابواب الرزق.

ثم شد على يدي وانصرف مسرعًا. عدت لحجرة مكتبي وأنا أحاول أن أفهم ربط الدين بمهنتنا والرزق. لحظات وانضم إلي الدكتور عيلاء فلما سألني عما يشغلني سألته:

- تعتقد يعني إيه يا عيلاء "في مهنتنا هذه نحتاج للعلم والدين ليفتح الله علينا أبواب الرزق"؟

fb.com/Su7er.Elkotob

فسكت لحظات متأملاً ثم قال حكمة المعلم كونفوشيوس(*):

- يعني التعليم بلا تفكير تضييع وقت يا برنس..

فلما رأى الحيرة على وجهي أردف يقول:

- يعني الديك اللي بلا عُرف، ما حدش هيسيبه يجيب له من فرخته كتاكيت يا أمور..

زاد الأمر غموضًا، وكرهت أن أستزيد من حكمة كونفيشيوس، فلذت بالصمت.

في عصر اليوم التالي، كنت قد انتهيت من مناظرة المرضى في عيادة القسم الخارجية وجلست الى مكتبي أُنهي إجراءات دخول المريضات الجدد، حتى إذا ما رفعت رأسي، وجدت إحدى قريبات مريضة مسنة قد أدخلتها عنبري لاستئصال رحمها، تميل بجسدها الأبيض اللين على المكتب كاشفةً عن نهديها الممتلئين وقد أدنت رأسها مني حتى صارت المسافة بين وجهي ووجهها أقل من أن تضع الدكتورة سعدية فيها رأسها، وتقول لي وهي تتشدق بلبانة:

- سا الخير عليك يا دكتور، أنا سماسم بت الحاجة كوكا اللي أنت حجزتها، وعدم المؤاخذة عايزه أستفسر أنت هتعمل لها إيه يا خويا؟

مررت بعيني على الشابة سماسم فوجدتها امرأة ثلاثينية تشي طبقات مساحيق التجميل الكثيفة علي وجهها ببيئتها الشعبية المتدنية، وعطرها

(*) كونفوشيوس - فيلسوف صيني وضع أساس الديانة الكونفوشيوسية (٥٥١ ق.م - ٤٧٩ ق.م).

الرخيص وملابسها الضيقة التي تجسم خصرها ونهديها العاريين بأن جسدها هو ما تتكسب به قُوتَها. تدفق الدم في وجهي خجلاً فخفضت رأسي أنظر إلى ملف المريضة ومضيت أشرح للسيدة سماسم حالة الحاجة كوكا، حتى انتبهت فجأة على صوت طرقعة أتبعتها صرخة مكتومة بدرت عن ست سماسم، ورأيتها تسارع بالوقوف والالتفات خلفها، فإذا بالدكتور فرج الله البرنس واقفٌ خلفها. رسم الدكتور فرج الابتسامة علي وجهه وقال لي موبخاً:

- مش تعرض على الآنسة أن تجلس يا دكتور كريم ولا مافيش نظر ولا رحمة؟ اتفضلي اجلسي يا آنسة.

كان غريبًا الجمع بين نظرة الذئب الجائع في عيني الدكتور فرج وبين لحيته الكثيفة وزبيبة جبهته التي تضخمت حتى شغلت كل جبهته، كما كان غريبًا ألا تخجل الآنسة سماسم على صفع مؤخرتها بيد الدكتور فرج. ورغم رفضي دور القرني في هذا الموقف، خاصة والدكتور فرج لم يصدر له قرار التعيين بعد ولم يتسلم رسميًا منصبه حتى أضع تاج القرون على رأسي وأقول طز كما قالها محجوب عبد الدايم بطل القاهرة ٣٠ لنجيب محفوظ، لكن فضولي أجلمني الصمت، فنزلت على رغبته بلعب دور القرني حتى أرى ماذا سيفعل الديك ذو العرف الكثيث والذيل النجس بالدجاجة الضالة.

يومان وأجرينا الجراحة لحاجة كوكا، وكالمعتاد باتت الآنسة سماسم مع والدتها في العنبر في ليلة الجراحة لترعاها. انتهيت من المرور على العنبر، وآن أوان انصرافي إلى سكن الأطباء، لكن شيئًا ما أبقاني في مكتبي. كان إحساسي يقول لي أن الديك ذا العرف الكثيث والذيل النجس مختبئ في

مكان ما بالمستشفى يتحين الفرصة. نظرت من نافذة المكتب فلم أجد سيارة الدكتور فرج، فاتصلت بالرفيق عم حامد في السويتش وتظاهرت بالسؤال عن الدكتور فرج من بين طلبات أخرى فأفهم الرجل أنه لم ير فضيلته، ورغم انعدام ثقتي في الرفيق عم حامد إلا أن صوته بدا لي صادقًا. اتصلت ببوابة الدخول، فأكد لي فرماوي المعاون أنه لم ير الدكتور فرج منذ غادر بعد صلاة العصر. أسكت الفأر الذي كان يلعب في عبي، واستعذت مما بدا لي كشيطان يوسوس لي بسوء الظن، وانصرفت إلى سكن الأطباء ألتمس الراحة.

كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا عندما اتصلت بي ممرضة العنبر لتخبرني أن الحاجة كوكا قد انتابها قيء شديد اضطُرت معه إلى نقل محاليل لها، فبادرتها على الفور بالسؤال عن الآنسة سماسم فأجابت بعدم اكتراث:

- قالت رايحه تشرب سيجارة من ساعتين وما شفتش وشها من ساعتها.

لا أحد يعلم من دعا السيد العقيد مدير إدارة مباحث الآداب ولا الصديق معتز منصور وكيل النيابة ولا السيد الأستاذ الدكتور خليفة الخلفاوي مدير المستشفى إلى مراسم خروج الدكتور فرج الله البرنس والآنسة سماسم من حجرة مكتب نسيبه الشيخ الدكتور عبده أبو سنة ملفوفين بالملايات البيضاء، بعد أن تم تحريز ثوب يخص المنتقبات يُشك في أن الدكتور فرج قد استخدمه للدخول خلسة إلى المستشفى.

هل سقط الديك ذو العُرف الكثيث والذيل النجس؟ كلا، ففي مهنتنا عُرف الديك الكثيث أهم من طهارة ذيلة لأنه صك العلم والفضيلة.

حُفظ المحضر ضد الدكتور فرج والآنسة سماسم بعد اختفاء الأحراز وتبدل أقوال الشهود من هيئة التمريض، ولم يمض أسبوعان حتى دعينا لحفل زفاف الدكتور فرج الله البرنس على كريمة الأستاذ الدكتور عبده أبو سنة، والذي استمتعنا فيه بفرق الإنشاد الديني والمسابقات والجوائز. وفي الصباح، صدر قرار تعيين الدكتور فرج الله البرنس مدرسًا مساعدًا بقسم أمراض النساء والتوليد بجامعتنا.

التقط البروفيسور عرابي أصبعًا من أصابع ورق الكرنب الملفوف على الأرز واللحم وقال وهو يتأيل من النشوة والحبور من طيب مذاقه(*):

بالتبادي.. يصبح اللص بأوربا مديرًا للنوادي

وبأمريكا، زعيمًا للعصابات وأوكار الفساد

وبأوطاني التي من شرعها قطع الأيادي

يصبح اللص.. زعيمًا للبلاد

فهززت رأسي طربًا من فصاحته وقلت وأنا أعبث بشعيرات عُرفي الكثيث التي تركتها تنمو وتملأ وجهي مؤخرًا استعدادًا لفتح أبواب الرزق:

- صدقت والله يا بروفيسور.

(*) أحمد مطر ـ شاعر عراقي معاصر.

القضبان الباردة

مضت أسابيع ثلاث، وأنا أتردد على مكتب الدكتور خلفاوي، أتابع وصول موافقة مصلحة السجون على نقل هويدا زين العابدين أحمد إلى مستشفانا. كانت حالتها تسوء سريعًا بحسب مصادر صديقي معتز منصور داخل السجن، حتى كان اليوم الذي أبلغتني فيه سكرتيرة الدكتور خلفاوي أن فحص الموجات فوق الصوتية والأشعة المقطعية لهويدا جاء إيجابيًا وتم تشخيصها بورم مرجح أنه خبيث على المبيض الأيسر، لكنها حُوِّلت إلى مستشفى وزارة الصحة التابع لها السجن، صحت في السكرتيرة بجنون أنها ستقضي إن أجرى لها الجراحة غير متخصص، وطلبت منها أن تطلب مأمور السجن. رفضت، انتابتني موجة غضب شديد، فأطحت بشاشة الحاسوب التي أمامها، والملفات التي على المكتب وصرت أضرب بيدي على زجاج المكتب حتى خر منكسرًا. قفز إلى مخيلتي وجه هويدا، ورأيت وَشْوَشَةَ عينيها وهي تفضح الظلم الذي تعيشه، ورأيت شفتيها التي رُسمت عليها الابتسامة عندما رأت عذريتها على وجهي، ورأيت الفزع والجزع الذي انتابها وأنا أغادر الحجرة والسجانتان تكيلان لها اللكمات والركلات. هرعت إلى

سيارة الاسعاف وأسرعت إلى السجن. كان قلبي يخفق طوال الطريق إلى السجن وعرقٌ باردٌ يسيل من جبيني. كان يقيني أن العصفور الرقيق يذبح من جديد...

١٤- الخطة أ.ح.ي.هـ

كما سبق فقد بني مستشفانا في بقعة ساحرة بإطلالة متميزة على كورنيش مدينتنا، وكانت هذه ميزة رائعة حتى عهد قريب. ثم شاءت الأقدار أن يقع اختيار أولي الأمر مالكي البلاد والعباد ـ دون بقية عرصات الأرض ـ على قطعة أرض فضاء ملاصقة لمستشفانا، لإقامة مسرح عالمي لمدينتنا يكون فخرًا للبلاد وتخليدًا لاسم الزعيم والقائد وربان سفينة الوطن. وبطبيعة الحال، يصعب تخيل وجود مستشفى جامعي قبيح كمستشفانا بجوار هذا الصرح الذي سيخلد الزعيم، مما استوجب إصدار قرار بإزالة المستشفى.

والحقيقة أن وجهة نظر أُولي الأمر في إزالة المستشفى الجامعي العريق منطقية جدًا، فمن غير المعقول أن يستأثر مرضانا من معدومي ومنخفضي ومتوسطي الدخل ـ وهم بطبيعة الحال أقلية في بلادنا ـ بهذا الموقع المتفرد على كورنيش المدينة، وبناءً عليه فلا حرج في نقلهم إلى مبنى جديد يقام على الأرض الجديدة بجوار المقابر في أطراف المدينة.

وعلى هذا أصدرت السيدة المصونة إبنة السيد الرئيس وراعية الثقافة والفنون في ذلك الوقت، قرارًا بهدم المستشفى وتسليم أرضه لمسرح

المدينة. انتفض مجلس الجامعة وجمعيات حقوق الإنسان، ورفضوا تمامًا إزالة المستشفى إلا بعد استلام مستشفى الجباية الجامعي الجديد كما أُطلقَ عليها تيمنًا بإطلالتها على المقابر، وأمطروا الصحف بالاستغاثات والنداءات، أتبعوها بنداءات دولية للدول المانحة المتكفلة ببناء المسرح العالمي، فتم وقف قرار الهدم لحين تسليم الجباية.

أما نحن في قسم النساء فكنّا "رجالا" ووقفنا وقفة "رجالٍ"، وبادرنا إلى تنظيم وقفة احتجاجية حاشدة في سكن الأطباء احتشد لها ممثلي الشعب بقضهم وقضيضهم؛ ممدوح الحيوان عامل السكن المتهته ممثلًا عن شباب المستقبل، وعم أحمد عامل السكن المتقاعد والشهير بأحمد مكابي وكبابي(*) ممثلاً عن العمال المتقاعدين، والرفيق عم حامد ملقاط القسم ممثلًا عن البرجوازيين الجدد. وأمام هذه الجماهير الغفيرة وجحافل الشعب العامل تعاهدنا على التصدي لمحاولات الهدم والذود عن مستشفانا. طبعًا رئاسة القسم كانت قد وافقت على قرار الهدم بالإجماع.

وأمام المعضلة الدولية، وعدم الرغبة في إغضاب الدول المانحة، تفتق ذهن أولي الأمر عن إمكانية ادعاء إصابة جزء من المستشفى بالتصدعات وضرورة إخلائه، وبالفعل وُضع المخطط قيد التنفيذ في غفلة من الزمن. كانت البداية بإزالة جناح مستشفانا الشرقي لأنه يحول بين موكب المسؤلين القادمين من ناحية الشرق وبين رؤية المسرح. واستعانت إدارة المسرح بأحد فرسان الباشا محمد علي من أبطال مذبحة المماليك في القلعة لتنفيذ خطة الهدم فوضع الخطة" أ.ح.ي.هـ(**).

(*) مكابي أكواب الفخار المعروفة بالمجات، والكبابي جمع كوباية وهو الكوب.

(**) مصطلح في العلوم العسكرية يشير إلى:إخلاء حاسم يليه هدم.

تقوم الخطه (أ.ح.ي.هـ) على هجوم مفاجيء من ٥٠ عامل على عنابر الجناح المستهدف هدمه لخلع النوافذ والأبواب وإلقائها من أعلى المبنى، ثم نقل الأسرة والمكاتب للعنابر المجاورة، وأثناء ذلك تتقدم آلة هدم (ونش هدم عملاق) لهدم المبنى في نصف ساعة تنسحب بعدها القوات بعد أن تكون قد طردت العدو وأقضت المبنى في أقل من ساعة زمن. وحُددت ساعة الصفر بالثانية بعد ظهر يوم الخميس عشية وقفة عيد الفطر لتحقيق المفاجأة الإستراتيجية، وأُبقيت الخطة سرية حتى عن إدارة المستشفى لتفويت الفرصة على القلل المندسة في تعطيل خطط الهدم.

في ذاك اليوم، كنت أجري عمليات المناظير التشخيصية والتي نحدد بها أسباب العقم وفي بعض الأحيان نعالجه. كان عدد الحالات كبيراً لإقبال المرضى على إنهاء علاجهم قبل حلول إجازة العيد. انتهيت من الحالة الأخيرة في الثالثة عصرًا، واتجهت إلى عنبري الذي يقع في الطابق الثالث، لكن أعاقني عن الوصول إليه أني وجدت زوج الحالة الأخيرة فاتن في انتظاري في الطابق الثاني وقد أعطى ظهره للسلم. سألني عن نتيجة المنظار فبدأت أشرح له:

- فاتن كانت أنابيبها مسدودة لكن مع ضخ الصبغة تحسنت و..... فيه إيه؟

قطع حديثي أن رأيت من وراء كتفي الرجل، الدكتورة سعدية مسعود أسعد السعد تهبط السلم مهرولة وشعرها ـ الذي صبغته حديثاً بلون برتقالي فاتح لون الجزر بعد أن تخلت عن فكرة النقاب ـ مبعثراً في غير ترتيب وهي ترغي وتزبد:

- مش معقول مش معقول مش معقول..

بادرتها بالنداء فتوقفت ونظرت إلي وكأنها تراني لأول مرة، ثم تجاهلتني وعاودت هبوط السلم وهي تقول:

- وإيه العبيط ده كمان.. هي نقصاك.. غرررر.. مش معقول.. هرررر

تجاهلت الأمر وأكملت حديثي مع زوج فاتن:

- آه فمع ضخ الصبغة الأنابيب فتحت وعدت ال.. وإيه ده كمان؟!

على السلم كانت بعض النسوة يهبطن السلم عدوًا بقمصان النوم ومن ورائهن رجال يحملون حقائب وبطاطين. استيقظ طائر القلق في نفسي خشية أن تكون سعدية قد أوهمتهم بوجود قنبلة أو طاعون كما فعلت من قبل مع أهالي المرضى الذين جاؤوا لزيارة مرضاهم..

- ايوة الأنابيب سلكت وعدت الصبغة، إن شاء الله خير، بص عن إذنك دلوقتي لازم أطلع العنبر..

همت بالانصراف فوجدت الدكتور علاء فراولة يهبط السلم بتؤده ويديه في جيبي سرواله وهو يقهقه، فسألته عما يجري فانفجر في نوبة ضحك وهو يقلب كفيه وقال لي:

- ياعم نفض، فقشوا البيض خلاص.. إشطة، يلا بيضك بيضحك.

لم يكن هناك وقتٌ لقاموسه الغريب، فأمسكت بساعده وأنا أقول له:

- طب يلا بينا على العنبر، الجزرة خطيبتك سعدية عندها الحالة والشغل فوق بالهبل، يلا بينا..

تسمر علاء في مكانه وحدق في يدي القابضة على ذراعه ثم رفع

رأسه وقال بصوت منخفض وقد أنذرت أساريره المتقلصة بالشر:

- بوس إيدك علشان هتوحشك قوي..

- نعم؟

فقال وهو واجم:

- يعنى إيدك دي أنت عايزها ولا أخدها أعلقها في سلسلة مفاتيحي؟ ثم جزرة ايه وعنبر إيه وشغل إيه، بقولك فقشوا البيض، هدوا العنبر يعني بالإنجليزي، فينش بالفرنساوي.

وسحب يده وانصرف وهو يكمل القهقهه من حيث توقف..

استأذنت من زوج فاتن ثانية، وأسرعت أطوي الدرج صاعدًا إلى عنبري، لكن ما كدت أصعد بعض الدرجات حتى صكّ سمعي صريرٌ هائل وطرقات وطقطقات طمست من حولها ضجيج المستشفى والمرضى، وارتجت الأرض من تحتي، فتسمرت في مكاني وأغمضت عيني وسرت في جسدي قشعريرة مخيفة، وبدا لي أن زلزالًا عنيفًا ضرب المبنى. فتحت عيني على صوت ضجة في أعلى الدرج فلما رفعت رأسي وجدت رجلًا يبدو من هيئته أنه عامل بناء وقد لقم طرف جلبابه بفمه مشمرًا عن سروال أبيض، ويحمل سيدة غائبة عن الوعي ترتدي ثوب العمليات المعروف بـ"الجاون"(*) مفتوح ظهره كله، ويهبط بها الدرج عدوًا لا يلوي على شيء، فذكرني بالراحل رشدي أباظة في فيلم الزوجة ١٣ وهو يحمل شادية المغشي عليها.

(*) رداء طويل فتحته من الخلف يرتديه المرضى في اثناء العمليات الجراحية بدون غيار داخلي.

استوقفت العتل وصحت فيه:

- إيه ده؟ غطي غطي، مراتك عريانة خالص يا حاج..

فأجاب الرجل وهو يلهث من ثقل ما يحمله:

- لا مش مرتي يا بوي..

عندئذ رفعت المرأة رأسها المتدلي ونظرت للعتل حاملها ثم حولت رأسها وهي ذاهلة نحوي وهي تصرخ بصوت واهن:

- يا ولييييده، وليييييد!

تعقد الأمر فسألت العتل:

- مش مراتك أمال شايلها كده ليه يا أخينا؟ ومين وليد ده؟ بقولك إيه.. سيبها حالًا بدل ما أطلب لك البوليس.

ألقى العتل بالمريضة على الأرض فهوت كجوال أرز.. ووقف يلتقط أنفاسه، لكن فجأة وثب من ورائي زوج فاتن الذي كنت أحدثه عند الدرج، وانقض على العتل الذي فشل في أن يتقيه وقبض على منكبه بقبضة كالمعصرة ودفعه أمامه والعتل يتراجع متقهقرًا، ثم قال وهو يصرخ فيّ:

- أنا وليد جوزها يا دكتور..

ثم صاح في زوجته:

- أنت عريانة كدة ليه يا فاتن؟ ومين الحيوان اللي شايلك ده؟

وأنا أحول بين العتل وبين لكمات وليد زوج فاتن مريضة المنظار، شرح العتل الموقف:

- يا عم حجك عليّ، أني لاجيت المَرَة دي متلجحة وحدها في العنبر والكِل فاتوها (تركوها)، والوابور حيطربح المشتشفي عليها، جُلت ألفحها ألجحها تحت، غلطان أني يا بوي؟

ونجحت الخطة "أ.ح.ي.هـ" نجاحًا مبهرًا، باستثناء بعض الإصابات والكسور بعد المعارك الطاحنة التي نشبت بين عمال الهدم الذين هجموا على العنابر كالتتار وبين أهالي السبايا ـ أقصد المريضات ـ اللاتي طاردهن العمال وهن بلباس النوم أو بدون لباس أصلًا أسفل "جاون" العمليات الكاشف لظهورهن تمامًا، ولم تغرب شمس ذلك اليوم، إلا وجناح مستشفانا الشرقي قد تحول إلى كومة من الأنقاض والذكريات والحكايات وصار أثرًا بعد عين..

في الليل، ذرف البروفيسور عرابي الدمع وهو ينظر من نافذة كشكه إلى كومة التراب التي خلفها مبنى الجناح الشرقي للمستشفى وأنشد يقول(*)

أضم في قلبي أحبائي أنا
والقلب أطلال
أَخْدَعُني
أقولُ: لا زالوا
رَجعَ الصدى يَصفَعُني
يقول: لا.... زالوا

(*) أحمد مطر ـ شاعر عراقي معاصر.

وفي الصباح، مثلت أمام صديقي معتز منصور وكيل النيابة بعد أن اتهمني وليد بالإهمال لعدم علمي بالخطة (أ.ح.ي.هـ) مما تسبب في هتك عرض حَرَمِهِ العارية السيدة فاتن.

القضبان الباردة

على باب السجن، رفض المأمور استقبالي، ورفض السماح لي بالحديث إلى هويدا. دفعت بمبلغ من المال إلى أحد الحراس، فأخبرني بأن هويدا نُقلت فعلًا إلى المستشفى منذ عدة أيام لكن لا يدري أي مستشفى. انطلقت أبحث في مستشفيات مدينتنا دون جدوى. خطر ببالي أن أستعين بمعتز منصور، فأسرعت إليه، وأمام إصراري والغضب اللذين كانا يمتلكان عليّ ناصية أمري، استجاب لرغبتي وأرسل يستعلم رسميًا عن مكان هويدا زين العابدين أحمد. مر يومان والقلق يفترسني ويقض مضجعي، فلما كان اليوم الثالث، هبط عليّ سكينة وسلام أسلماني لنوم عميق. استيقظت وقد تنفس النهار، ونشطت في فحص مرضاي وأنا لا أعرف سببًا لهذه السكينة. وعندما إشْرَبَ قرص الشمس وغرق نصفه في بحر المدينة، هاتفني معتز منصور. أنصت إليه، صمتُ برهةً، شكرته على جهده، واعتذرت له عما سببته له من مشقة وحرج، ثم بهدوء وضعت سماعة الهاتف. التقيت هويدا زين العابدين بعدها كثيرًا، رأيتها في زهر الربيع الذي تتفتح بَتَلاتِهِ بشوقٍ لقطرات الندى العطرة، وسمعتها في شقشقة عصفور هامس على شجرة صفصاف في بستان بجوار بيتي،

ولمحتها غير مرةٍ على شاطيء بحر في نسمة هواء رقيقة تعبث بخصلات شعر ذهبية على رأس طفل جميل..

١٥- فرقة الضفادع البشرية

يقول طاغور(*):

في ابتسامة المرأة: عظمة الحياة وجمالها. وفي عينيها: دهاؤها وعمقها.

بعد هدم العنبر، صرنا نعتمد على الاستيلاء على بعض الأَسِرَة في العنابر التي لم يأت أوان هدمها، لكن قدرتنا الإجمالية على استيعاب مرضى جدد تآكلت بشكل كبير، فزهد الأساتذة في العمل وكثُرت شكوى المرضات، فصرنا نمضي أيامًا لا نجد ما نفعله غير التسكع في طرقات المستشفى نتصيد مظاهر الإهمال الطبي لزملائنا لنشي بهم. وفي أحد الأيام، مال علي الدكتور عيلاء وقال لي هامسًا:

- كلامازو، أنت قربت تخلص النيابة ولازم تبتدي تشوف لك مُكْنَة ترضع منها.

كانت الفكرة نفسها تراودني مذ فترة ليست بالوجيزة، فأنصت إليه فاستطرد يقول:

(*) روبندرونات طاغور - شاعر ومسرحي وروائي بنغالي (١٨٦١-١٩٤١).

- أنا عندي لك عيادة حكاية، شياكة نظافة وعيانين موز موز يا معلم..

كانت البداية عادةً لمن أنهى للتو فترة نيابته تكون في أماكن شعبية فقيرة حتى يبني الطبيب اسمًا ويتعلم أصول العمل الخاص، فبدا كلامه غريبًا لي:

- لا أصلها عيادة صغيرة وصاحبها كان دكتور يوناني كبير في السن مات من كام أسبوع وما لوش عيال هنا في مصر..

اقتنعت بكلامه ورحت أشكره فضحك وقال:

- أي تأريظ يا نجم، خيرك سابق.

وبالفعل حللت محل المرحوم الدكتور ڤوليفورش دافاتزيز.

كانت العيادة في أحد أطراف حي راقي في مدينتنا، وكانت تتميز بديكوراتها الغريبة التي لا تشبه شكل العيادات التقليدية، فحوائطها مطلية باللون الأحمر القاني، وتناثرت عليها لوحات زيتية لنساء عرايا في حدائق وبساتين أو حول ينابيع ماء يلهو حولهن غلمان بأجنحة، ونوافذها أُسدلت عليها ستائر من قماش قرمزي داكن حجبت شمس النهار وغلفتها بعتمة غامضة. حتى المقاعد كانت على شكل نصف كرات عاجية اللون تتوسطها في العمق نقطة كبيرة وردية اللون بدت وكأنها أثداء عذارى. فرحت بعملي الجديد وأقبلت عليه بهمة ونشاط شاكرًا للزميل عيلاء أن أتاح لي هذه الفرصة النادرة، وعاهدت نفسي أن أبذل كل جهدي لأبدأ رحلة الصعود إلى المجد.

وفي اليوم الأول لعملي في العيادة، استقبلت العديد من المرضى وكان

أدانى مثار إعجاب مديرة العيادة مس كاثرين، وهي خمسينية فشلت الشيخوخة في رسم آثارها على وجهها أو جسدها، ولعل أصولها اليونانية كالراحل الدكتور ڤوليفورش هي ما أبقت على جمالها الأوروبي الآخاذ ببياض بشرتها وشعرها المصبوغ بلون الذهب ونهديها اللذين يكشف عنهما رداء التمريض الضيق بأزرار الصدر المفتوحة والمجسم للقدّ الفارع والمنحنيات. كانت مس كاثرين تتحدث العربية بطلاقة شديدة، وهي كما قال لي عنها عيلاء سيدة خبيرة لطيفة مليحة كلها حياة وشقاوة.

في اليوم التالي للعيادة، زارتني سيدة ثلاثينية تدعى لولي، يبدو من ثيابها والمجوهرات التي تغطي جيدها وعطرها الفاخر أنها في يسر من أمرها. كانت شكواها غريبة فتوقفت عندها وأفسحت لها مساحة طويلة من الوقت أنصت إليها.

بعد الولادة الطبيعية، يحدث أحيانًا تهتكات في مجرى الولادة من المهبل والعجان، كما تتهدل عضلات المهبل مما يزيد من حجمه الأصلي، معرضًا اللذة الجنسية للزوج والزوجة للنقصان لافتقاد التلامس في كامل محيط العضو. وكثيرًا ما تُرى هذه الحالات بعد الولادة المتعثرة التي يستخدم فيها الملقط الجراحي المعروف بالجفت في استخراج الوليد من المهبل. في هذه الأحوال يكون الحل إذا فشلت التمارين الرياضية في إعادة هذه العضلات إلى هيئتها الأولى هو التدخل الجراحي.

وللملقط قصة طريفة، فقد اخترعه بيتر شمبرلين في أواخر القرن السادس عشر الميلادي[٨٢]، واعتبر آنذاك سرًا من أسرار عائلته لا يسمح لأحد بالاطلاع عليه، ويتوارثه الذكور من أبناء الاسرة، التي ذاع صيتها بأن أطباءها هم فقط من يملكون الخلاص إن استعصت الولادة

وشارف الجنين والأم على الموت، وبقيَ السر طوال مئة وخمسين عامًا مجهولًا، حتى كُشِف السر وانتشر استخدام ملقط الولادة. الطريف أن ملقط شمبرلين هو ما أسس لتحول الجمهور عن القابلات الإناث إلى أطباء التوليد الذكور لما استقر في وجدان الناس أن الأطباء الذكور هم فقط من يملكون سر ملقط الولادة.

كانت شكوى لُولي أنها وضعت طفلها بالجفت في ولادة متعثرة انتهت بوفاة الطفل وتمزق مهبل المرأة مما اضطر الجراح إلى إجراء كثير من الإصلاحات. كانت لُولي تتحدث والدموع تنهال من عينيها، وهي تجففها بمنديل وردي اللون منقوش عليه حروف اسمها بالتبادل مع قلوب حمراء صغيرة. بعد دقائق، انتقلنا إلى حجرة الكشف، فليا وضعت المصباح بين ساقيها، وجدتها بخلاف ما تحكي تبدو مقبولة جدًا كسيدة لم تعد بتولاً، ولم أجد أثرًا لجراحات إصلاح كبرى للمجرى أو ما يدل على ولادة بجفت. التفت للسيدة وأنا أقيس قطر مهبلها بأصابعي:

- حضرتك يادوب مدخلة صوباعين، وده ممتاز جدا، يعني ده مقياس مقبول للحياة الزوجية.

إرتبكت لُولي وتغير وجهها، لكنها سرعان ما قالت بثبات:

- الولادة كانت بره مصر والدكتور كان فعلًا شاطر قوي.. بس سوري يعني، موضوع صوباعين ده مش نافع لأن جوزي حجمه صغير..

نظرت إليها بدهشة وقلت:

- أقل من صوباعين؟

فحدجتني بنظرة غاضبة وقالت وهي تشير لي بإصبعها:

- أعتقد يمكن يكون صوبع أو أقل..

استنكرت كيف يكون زوجها بالغ ولم يصل حتى إلى قطر أصبع، فسألتها عن عمره وعمله فقالت لي بعصبية:

- جوزي ٣٩ سنة، طوله ١٩٤ سنتيمتر وبيشتغل ضفدع بشري في سلاح بحرية بلد عربي، أنا كنت اتفقت مع المرحوم دكتور داڤانزيز يعمل لي العملية وكان وافق..

هممت أن أتكلم، لكن مس كاثرين تدخلت في الحديث لتقول:

- مافيش مشكلة مدام لُولي، أنت زبوننا، دكتور كريم هيعمل العملية هنا في العيادة، الحساب معايا أنا، بكرة كويس؟

في اليوم التالي، حضرت المريضة إلى العيادة، وسرعان ما تم تخديرها، وأعملت أنا مشرطي وخيوطي لإعادة ظبط مهبلها على مقياس الضفدع البشري، ولمزيد من الإبداع ولإضفاء البهجة والسرور على حياة لُولي وضفدعها، شددت على خيوطي حتى ضاقت مغارتها ليصبح قطرها نصف إصبع لينعم بها الضفدع البشري.. فلما انتهيت من الجراحة، دفعت إلى مس كاثرين بمظروف منتفخ وجدت فيه مبلغًا تجاوز ما تقاضيته من جامعتنا في عام كامل.

مضت ثلاثة أسابيع، وفي الأسبوع الرابع، وجدت مدام لُولي أمامي من جديد، فظننت أنها جاءت للاطمئنان على الجراحة، لكنها فاجأتني بالقول:

- تقريبًا الجراحة فشلت يا دكتور، ممكن نعيدها تاني؟

عندما باعدت لُولي بين ساقيها، وجدت أن الجراحة لم تفشل، لكنها فقط استقبلت قطار أكسبريس تخطت سرعته المئة كيلو في الساعة، فصارت كمن أدخل إصبع موز في فتحة منخاره، فقلت لها مندهشًا:

- هو أنتِ مش قلتِ أن الباشا ضفدع البحرية جوزك صوبع أو أقل؟ ايه الطوربيد اللي انفجر فيكِ ده؟

فرفعت رأسها وقالت بثبات:

- لا طبعًا أنا جوزي طبيعي ثم هو مدفعية مش ضفدع، الظاهر أنت لخبطتني مع حد تاني.

ليس بالإمكان الخلط بين الضفدع والمدفعية، لكن أصول العمل الخاص التي لقنتني اياها مس كاثرين منعتني من تعنيف مريضة تعبث بي، فأجبتها بهدوء:

- حتى لو مش نص صوبع، اللي حصل هنا ده صعب مقارنته مع الوضع اللي كان قبل كده واللي عملنا عليه العملية، أنتِ فاتت فيكي مدرعة يا مدام الحقيقة..

تلعثمت لُولي بعض الشيء ثم قالت:

- لا أصلنا كنا متخانقين فهو كان عنيف قوي المرة دي معايا.

- لا عنيف ايه ده فرتكك...

أرْبَدَّ وجه لُولي وقالت بعصبية:

- يعني مفروض انا عملت العملية علشان تفشل بعد كام اسبوع؟

هممت أن أفتح فمي لأعترض، لكن المس كاثرين أسرعت تقول:

- حبيبتي، دكتور كريم عايز يقول إن جوزك هو اللي كان عنيف مش العملية فشلت.. مافيش مشكلة خالص، بس دي عملية جديدة بأجر كامل.. زي المرة اللي فاتت والحساب برضك معايا.. مافيش مشكلة خالص، أنتِ زبوننا مدام لُولي.. بكرة كويس؟

لكنني رفضت الإذعان وصممتُ على أن أقول شيئًا:

- يا مدام....

وفجأة شعرت بيد مدام كاثرين ترسم على ظهري رقم هو ضعف ما تقاضيته في المرة الأولى، قبل أن تمر يدها على أسفل ظهري وهي تنظر لي وتبتسم، فاستطردت أقول:

- أصل أنا بكرة مشغول، خليها بعد بكرة.

أجريت الجراحة لمدام لُولي، وهذه المرة، قصدت أن أُشدد على خيوطي أكثر لأبني سدًا منيعًا يعجز المدفعجي عن دكه في المرة القادمة.

مر أسبوعان، وفي الأسبوع الثالث، وجدت صديقي معتز منصور يتصل بي:

- كريم، أنت بتشتغل في عيادة كاثرين بتاعت دكتور اسمه ديڤانزيز أو حاجة كده؟

ارتبكت وتلعثمت.. لم أكن قد صرحت لمعتز بعملي هناك حتى لا أضعه في موقف حرج، فلوائح الجامعة تمنع الأطباء المقيمين من العمل الخاص قبل الانتهاء من سنوات النيابة، فقلت له:

- آه يا زيزو، بص أنا ما قلتش لك علشان ما حطكش في موقف

محرج والله مش أكتر.

فصاح في معتز:

- بخرب بيت أهلك يا حيوان، ما لقيتش غير عيادة كاثرين؟.. واله، سيب اللي في إيدك، وتعال دلوقتي على مكتبي حالًا قبل ما رئيس مباحث الآداب يوصلّك ويسحبك على الإدارة، وأنا هأحاول أصفي الموضوع.

أُسقط في يدي، ولم أعرف عما يتحدث معتز، فاستطرد يقول:

- يا بني آدم، فيه بلاغ اتقدم من عقيد جيش في دولة عربية بيتهم زوجته اسمها ليلى بالزنا مع أفراد من الجيش العربي ده، البت كانت هربت على مصر لما جوزها اكتشف الملعوب بس اتقبض عليها، وضبطوا معها عقدين جواز عرفي كلهم مكتوب فيهم أنها بكر لم يسبق لها الزواج وبمهر كبير قوي.

سألت معتز:

- جوزها في سلاح إيه في الجيش؟

زفر معتز زفرة قوية كادت تلفح وجهي في الهاتف:

- فارقه إيه مع أهلك، جوزها بتاع مدفعية يا سيدي.. لما جات لك أول مرة كانت اتعرفت على جدع تاني في الجيش واتفقت معاه على جواز عرفي بعد ما فهمته إنها عذراء ولفت منه مهر كبير، ولما رجعت لك يا مقطف تقيفها تاني كانت خافت جوزها المدفعجي يشك فيها لما يلاقيها وسعت من الثور اللي خانته معاه.. المهم تعال بسرعة.

ازدرت ريقي بصعوبة وسألته:

- طيب وأنا مالي أنا؟

فإنفجر في صائحًا:

- ما هو المتهمة أقرت إنها عملت ترقيع غشاء البكارة في عيادة كاثرين مرتين، وإنك رقعتها آخر مرة دي يا حمار، أنت ما تعرفش أن دي عيادة مشبوهة؟ أنت مش عارف يعني إيه داڤاتزيز باليوناني؟

فصحت في معتز:

- يعني أنت شايف أمي اسمها مارجريت يا معتز، وأنا إيش عرفني؟

- يا بني داڤاتزيز دي باليوناني يعني قواد.. كاتك نيلة، المهم، اهرب بسرعة وتعال قابلني في المكتب قبل ما تتفضح.

فاستغثت به:

- معتز، طيب ما تكلم بتوع المباحث ما يجوش.

فصاح بي من جديد:

- يا ما شاء الله، لا تصدق فكرة؟ يعني هو لو كان لي عليهم كلام يا بني آدم كنت قلت لك تعال مكتبي؟ أساسًا الواد بتاع المباحث عيل شايف نفسه ومقرف، هلبس جيلة مع أمه علشان خاطر جنابك..

لماذا خطر على بالي أن أسأل معتز سؤالًا غريبًا:

- معتز هم جوازها الاتنين اللي على جوزها في سلاح إيه في الجيش؟

التقط البروفيسور عرابي عوده ورفع عقيرته بالشعر على خلفية الدندنة يقول(*)

يا صورة أبدع تكوينها في مطلع الفجر إله الفنون

ونغمة من بعض ألحانها همس الليالي وارتعاش الغصون

ونفحة لله عطرية ندية حيّا بها البائسين

وزهرة أخشى على حسنها من خطرة الفكر ونجوى العيون

لا تخدعيني إنني عالم بما تبينين وما تكتمين

أرى على خديك فيما أرى بألف لون قُبَلَ العاشقين

من قُبلة خائنة مرة وقبلة وادعة في الجبين

وقبلة حمراء مثل اللظى وقبلة بيضاء مثل اليقين

تأبين إلا محو آياتها وهنّ يا ليلاي لا يمّحين

ثم وضع عرابي العود ومص أرجيلته، ليطلق حلقات من الدخان في الهواء ويقول مقهقهًا:

- كلهم ضفادع يا كيمو؟ الولية دي شكلها أخذت فرقة ضفادع بشرية على جوزها بتاع المدفعية، والظاهر يا بطل أنك شاركت في عمليات الترقيع لإزالة آثار العدوان.

(*) محمد سليمان الأحمد الشهير ببدوي الجبل - شاعر سوري (١٩٠٠ - ١٩٨١).

القضبان الباردة

في الصباح مر علي معتز منصور، فلما صعدت إلى جواره في السيارة ناولني تقرير الصفة التشريحية لهويدا زين العابدين أحمد، وفيه أن سبب الوفاة هو هبوط حاد نتيجة نزيف حاد أثناء جراحة استئصال ورم متقدم على المبيض، ومذكور فيه في خانة فحص حالة البكارة: أن المريضة مفضوض بكارتها..

تذكرت السجانة ورئيستها وغلظتها، رأيتهن يتكاتفن على العصفورة الصغيرة ويأخذن عذريتها التي رأيتها بعيني. قرأ معتز عيني وقال موافقًا:

- ممكن، اصبر هاوريك حاجة.

ترجلنا من السيارة أمام إحدى البنايات.. وصعدنا إلى الدور الرابع، وطرق معتز باب إحدى الشقق، فانتفتح الباب عن هويدا زين العابدين أحمد، لكن ببدن ممتلئ ووجه عبوس.

بدت عني صيحة دهشة. شد معتز على ذراعي لأصمت وهو يعتذر للسيدة بحجة أنه أخطأ في الشقة، وهبطنا إلى أسفل العقار. بعد قليل، رأينا المرأة تخرج مسرعة من العقار وبيدها حقيبة سفر صغيرة. تحركت

لألحق بها، لكن امتدت يد معتز تقبض على ذراعي وهو يقول:

- ما لناش فيه، الملف على مكتب المحامي العام..

تسمرت مكاني أرتجف من الغضب وأنظر لمعتز مستفهما فقال لي:

- اللي أنت شفتها في السجن توأمها، اسمها هدى.. جالها التهاب سحائي وهي صغيرة عملها إعاقة ذهنية، أبوها وأمها ماتوا في حادث والبنتين صغيرين، فهويدا حبستها في البيت عمرها كله. لما حصل اللي حصل بين هويدا وبين جوزها، هويدا عملت نفسها هدى، ومسّكت المرحومة هدى سكينة الجريمة علشان بصماتها تبقي عليها، وشيلتها القضية.. ثم أطرق وقال:

- اتأخرنا، بس هي ارتاحت.

شعرت بقلبي ينقبض، وجاهدت دموعًا ملأت مقلتي، فأمسك بذراعي وقفلنا عائدين إلى السيارة وهو يقول:

- كافيه "الخان" في آخر الشارع، تعال نروح نشرب موكاتشينو.. بقولك ابقى وريني موضوع الغشاء ده الله يكرمك، باينه مهم في الشغلانة دي.

وانتهت سنوات التدريب الجامعي، فخلعت ثوب الطبيب المقيم وارتديت ثوب أخصائي أمراض النساء والتوليد، وعبرت بوابة المستشفى إلى عوالم أخرى، عوالم أمراض النساء والتوليد حول الأرض، التي فاجأتني، ولا تزال تفاجئني كل يوم بعشرات القصص والحكايات في عالم السحر والغموض والخيال.

وما بين ولوجي بوابة المستشفى في بداية التدريب، والخروج منها بعد نهايته، كانت عيني تتجول في أروقة نفسي أنظر ما يكون من أمرها في هذه الرحلة التي قُدرت لي، والتي قابلت فيها الصالح والطالح، عرفت أشرارًا وأبرارًا، وصاحبت ملائكة وشياطين، فنَبَتُّ ولزمتُ، وتبدلت وتغيرت، وتركتُ فغنمتُ، وأخذتُ فخسرتُ، وألمتُ وتألمت، وسعدت وفرحت، وحزنت وتحسرت، لكنني تعلمت وخبرت.

"ووسط سحب الدخان الأزرق، رأيت المشاعل محمولة بيد عشرات المرضى بثياب بيضاء قد خرجوا بقضهم وقضيضهم وتحولقوا حولي وهم يحملقون في، فجلعت أنظر إليهم فزعًا فرحًا، حتى تقدم مني فارس بثوب أسود يلثم وجهه بوشاح أبيض، فشق صدري وانتزع قلبي من بين ضلوعي، ثم أخرج من صندوق خشبي بحوزته قلوب ذئب وصقر وأرنب وعصفور، فمد يده ليلتقط قلب.. لم أعرف أبدًا أي قلب قد وضعه في صدري، فقد فُتح باب حجرة البروفيسور عرابي فجأة وأطل منه أحد العمال، وطار الدخان الأزرق"

هل تبينتَ أي قلب وضعه الفارس الأبيض الذي شق قلبي في أول جلسة دخان مع البروفيسور عرابي؟

أبتاه لا تغضب إذا ما قلت شيئًا من عتاب

أبتاه قد علمتني حب التراب

كيف الحياة أعيشها رغم الصعاب

كيف الشباب يشدني نحو السحاب

حاسبت نفسي عمرها

حتى يئست من الحساب

وضميري المسكين مات من العذاب

أبتاه

مازال في قلبي عتاب

لم لم تعلمني الحياة مع الذئاب؟ (*)

(*) فاروق جويدة ـ شاعر مصري.

الختام

إلى هنا تنتهي قصة الدكتور كريم رأفت وسنوات عمله كطبيب مقيم بقسم أمراض النساء والتوليد، وهي كما تقدم حكايات من خيال المؤلف.

في كل لحظة في أحد مستشفيات بلادنا، هناك كريم رأفت.. وبصحبته سعدية مسعود أسعد السعد وهبة البيلي وكعبورة بك وعيلاء فراولة ووفاء مخلص وليلى راجح واللذوذ العشول، والبروفيسور عرابي وعم ألفونسو والأسطي حراجي وممدوح الحيوان، ومس مريان ونهى عبد الرسول وفاطمة إدريس وسناء، والست غزالة وحيدة وهايدي وزبيدة وسماسم ومها الصيدلانية وسميرة وهدى وتوتو الأمور وفلوة ومهجة القلوب وهويدا وست ضارة، والأساتذة: سامي عبد الرازق واحمد اسماعيل وسراج نور الدين وخليفة خلفاوي ومحمود الأبيض وعمر عبد الجليل وعبد الاحد الأسيوطي، وفادي جرجس أبسخرون وعمر ومريم السوهاجي، ثم هناك مس سونيا وصلاح المعاون والدكتورة عصمت عوض والدكتورة تسنيم عبد الوارث والرفيق عم حامد والدكتور فرج الله البرنس والطبيب متولي ومس كاثرين والدكتور عزيز الليثي والطلاب أيمن وآسر وآمال العشري.

ولهذا نحتاج لسيزيريّن..

تنفق الحكومات العربية بين ٢.٤ و٦٪ من الناتج المحلي الإجمالي على الصحة وهو ما يعادل ما بين ٢٥ و٨٧١ دولار للفرد الواحد[٨٣]. بصَمتِكَ على هذه الميزانيات الهزيلة التي تنفقها حكومتك على علاجك وعلى تدريب الأطباء المعالجين لك، فإنك تُعامل معاملة لا تليق بسليل حضارة العلم ونبت أرض المعجزات، وتبيح لهم العبث بك، بل أنك تُعابث نفسك بنفسك.

ولهذا نحتاج لسيزيريّن..

المرأة في مجتمعنا تعامل معاملة، لا تليق بقداسة الأنثى التي صانها أجدادنا وكرمها ديننا، معاملةً تُخرج من صلبنا أجيالًا تتنفس الفساد والجهل، لأننا ننزع عن المرأة أجمل ما وهبها الله إياه، ذكاءها الانثوي الفطري، الذي لو استثمرته البشرية، لما أطل علينا عَوارُ نفوسٍ مجاذيبِ الزمان، من حكامنا ووزراء سلاطيننا وكهنة فراعنتنا.

ولهذا نحتاج لسيزيريّن..

أما حظ أهل الطب من قصة الدكتور كريم رأفت، فهو رصد كيف يُدنس ثوب الإنسان - أي إنسان - بالأدران إن هو وُضع في منظومة فاسدة معتلة.. منظومة مبادؤها مطاطية هلامية، وقيمُها ضبابية ظلامية، تتبدل وتتغير حسب الظروف والمستجدات.. منظومة تتغلف بغلاف الشرف والأمانة والتدين، والسوس ينخر في جذورها... وكيف يهجر رسل الشفاء من رب العالمين، رسالتهم بضغط من هذه المنظومة الفاسدة، التي تتبدل الحق بالباطل والطيب بالخبيث.

ولهذا نحتاج لسيزيريّن..

لم أقصد أن أرفه عنك أو أنتزع منك الضحكات أو القهقهات، ولا أن أسطر هزلًا يعبث بخيال القارئ بقصص ماجنة، بل قصدت إلى مكاشفتك بالمغضوض الطرف عنه في ثقافتنا الصحية العربية، من فساد وجهل، وقصور وإهمال، وأفكار بالية وقيم عقيمة، قصدت أن أنبهك إلى أن غَدِكَ ولادته متعثرة، يلتف الفساد حول عنقه كأنشوطةٍ يسحقه، وهو يرفع يده بوهن يستغيث، وسبيل الخروج تام الإيصاد عليه، والكل من حولك لاهٍ غافلٍ، يتسامرون ويتضاحكون، وغدك يحتضر في العتمة وحده، فهل ستهب لنجدته وتصيح بأعلى صوتك:

- سيزيريّن يا ولاد الكلب..

خالد ذهني

مراجع الكتاب

1. El-Zanaty, Fatma and Ann Way. 2009. Egypt Demographic and Health Survey 2008. Cairo, Egypt: Ministry of Health, El-Zanaty and Associates, and Macro International (Accessed December 10, 2009.
2. U.S. National Library of Medicine: Cesarean Section - A Brief History.
3. Case of successful Extirpation of a Fibrous Tumour of the peritoneal surface of the Uterus by the large peritoneal section. American Journal of the Medical Sciences (1845) 18:309-335.
4. Nilo Bozini; Edmund C Baracat. The history of Myomectomy. The Medical School of University of São Paulo Clinics (2007)62 (3):209-210.
5. De Costa, Caroline M. «James Marion Sims: some speculations and a new position.» Medical journal of Australia (2003)178 (12): 660-663.
6. مجموعة قوانين الاحوال الشخصية المصري
7. الفقه على المذاهب الاربعة - عبد الرحمن الجزيرى - طبعة المكتبة العصرية - بيروت - صفحة ١٠٦١
8. Elnashar, A., and R. Abdelhady. «The impact of female genital cutting on health of newly married women.» International Journal of Gynecology & Obstetrics (2007)97(3):238-244.
9. بحث دار الافتاء المصرية في الختان - موقع دار الافتاء المصرية وكتاب فتاوي دار الافتاء المصرية - المجلد التاسع "الختان" ص ٣١١٩
10. مطبوعات منظمة الصحة العالمية - تشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية - صحيفة وقائع رقم ٢٤١ - فبراير ٢٠١٢ ومؤشرات المجلس القومي للصحة عن الصحة الانجابية - المسح الصحي لمصر ٢٠٠٨
11. (موقع الشيخ يوسف القرضاوى http://www.qaradawi.net/fatawaahkam/30/1691.html).
12. Ottley, Drewry, and John Hunter. The life of John Hunter. Haswell, Barrington, and Haswell, 1835.
13. William Pancoast." *Encyclopædia Britannica. Encyclopædia Britannica Online Academic Edition.* Encyclopædia Britannica Inc., 2013. Web. 17 Apr. 2013.

14. دارسات المركز القومى للدراسات الاجتماعية والجنائية (دكتور أحمد العبدى، دكتورة فادية ابو شبيهة والدكتورة ماجدة عبد الغنى)

15. Nawal H. Ammar. Beyond the Shadows: Domestic Spousal Violence in a "Democratizing" Egypt Trauma Violence Abuse October 2006 7: 244-259.

16. Raoul Palmer, World War II, and Transabdominal Coelioscopy. Laparoscopy Extends into Gynecology. Journal of the Society of Laparoendoscopic Surgeons. (1997) Jul-Sep; 1(3): 289–292.

17. برنامج الأمم المتحدة الإنمائى - تقرير تحديات التنمية فى الدول العربية ـ ٢٠١١

18. Hornsby JA,Schmidt RE.The Modern Hospital:Its Inspiration:Its Architecture: Its Equipment: Its Operation. Philadelphia, PA: WB Saunders Company; 1913.

19. Dan W. Blumhagen; The Doctor's White CoatThe Image of the Physician in Modern America. Annals of Internal Medicine. 1979 Jul;91(1):111-116.

20. Education in Egypt – Judith Cochran – Routledge edition 1986

21. National Survey of Sexual Health and Behavior (NSSHB). Findings from the National Survey of Sexual Health and Behavior, Centre for Sexual Health Promotion, Indiana University. Journal of Sexual Medicine, Vol. 7, Supplement 5.

22. Abdelaziz, A. «Sexual Knowledge, Attitude and Behavior Among Egyptian and Jordanian Married Women. Transcultural Study.» Current Psychiatry [Egypt] 16.4 (2009).

23. Hirsh A. Infertility in Jewish couples, biblical and rabbinic law. Human fertility 1998 1:14-19.

24. The Ambulance: The story of Emergency Transportation of Sick and Wounded through the centuries. Katherine Traver Barkley. Exposition press of florida 1st edition June 1978.

25. مختصر تاريخ الطب العربى - كمال السامرائى - الجزء الاول

26. Youssef H. The history of condom. Journal of the royal society of medicine. (1993) 86 (4):226-228.

27. United nation population fund UNFPA , Egypt bureau report.

28. Freud, S. (1957). On narcissism: An introduction. In J. Strachey (Ed. & Trans.), *The standard edition of the complete psychological works of Sigmund Freud* (Vol. 14,pp. 73–102). London, England: Hogarth Press. (Original work published 1914).

29. لائحة آداب المهنة الصادرة بقرارروزير الصحة والسكان رقم ٢٣٨ لسنة ٢٠٠٣ بتاريخ ٥ سبتمبر ٢٠٠٣

30. قانون المسئولية الطبية مصر - جريدة اليوم السابع الاربعاء ١٤ ابريل ٢٠١٠

31. Guilhou, Nadine. "Myth of the Heavenly Cow." UCLA Encyclopedia of Egyptology 1.1 (2010).

32. Lees AJ, Georges Gilles de la Tourette: The man and his times. Revista de Neurologia (Paris) (1986)142:808-816.

33. Robertson, JG. An excess of phobias and manias. Senior Scribe publications 2003.

34. Kirkup, J. The evolution of Surgical instruments, Novata, CA:Norman, 2006.

35. United nation population fund UNFPA , Egypt bureau report. 2008

36. محاورات أفلاطون - المجلد الاول: الجمهورية - دار الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت ١٩٩٤.

37. كتاب قانون الايمان للرسل: الديداكية-القصص تادرس يعقوب ملطي-"٢٣" الوصية الثانية للتعليم"

38. البابا شنودة الثالث: كتاب سنوات مع أسئلة الناس الجزء ٩ صفحة ٢١ سؤال ٦ «إجهاض المشوهين والمسوخين».

39. كتاب: قرارات المجمع الفقهي الاسلامي بمكة المكرمة - قرارات الدورة الثانية عشرة المنعقدة يوم السبت ١٥ رجب حتى ٢٢ رجب ١٤١٠ القرار الرابع» بشأن موضوع أسقاط الجنين المشوه خلقياً» ص ٢٧٧.

40. فتوي فضيلة الاستاذ الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية رقم مسلسل ٢٨٧ بتاريخ ٢٠ يونيو ٢٠٠٥ في الرد على المطلب رقم ١٥٨٠ لسنة ٢٠٠٥ م

41. قانون العقوبات المصري - الموسوعة الجنائية الحديثة - المستشار أيهاب عبد المطلب طبعة المركز القومي للاصدارات القانونية ٢٠٠٩

42. الكتاب المقدس - العهد القديم - سفر التثنية - إصحاح ٢٥ (٥-٦).

43. Rabbi Michael Gold: And Hannah Wept; Infertility, Adoption, and the Jewish Couple (Philadelphia: The Jewish Publication Society, 1988)

44. جريدة الجمهورية المصرية " التبني يثير جدلاً داخل الاوساط المسيحية" بقلم سامح محروس - ٢٤ يونيو ٢٠١٠

45. بطريركية الأقباط الأرثوذكس - المجلس الملي العام - لائحة الأحوال الشخصية للأقباط الأرثوذكسيين – ١ بنشنس سنة ١٦٥٤ الموافق ٩ مايو ١٩٣٨.

46. طعن محكمة النقض رقم ٨ لسنة ١٩٦٣ أحوال شخصية - جلسة ١٥ فبراير ١٩٩٤

47. البابا شنودة الثالث: كتاب سنوات مع أسئلة الناس الجزء ٩صفحة ١٣ سؤال ٤ "الهندسة الوراثية" وصفحة ٧١ سؤال ٤٣ " أطفال الانابيب"

48. كتاب: قرارات المجمع الفقهي الاسلامي بمكة المكرمة - قرارات الدورة الثامنة المنعقدة يوم ٢٨ ربيع اخر حتى ٧ جمادي الاولى ١٤٠٥ القرار الثاني "بشأن التلقيح الصناعي وأطفال الانابيب" ص ١٦١.

49. Cohen, Cynthia B. Protestant perspectives on the uses of the new reproductive technologies. Fordham Urb. LJ 30 (2002):135.

50. Klein, Joshua U. "Religious Views: The Impact of Traditional Theological Opinion on the Practice of Third-Party Reproduction." Principles of Oocyte and Embryo Donation. Springer London, (2013) 383-394.

51. Inhorn, Marcia C., and Soraya Tremayne. Islam and Assisted Reproductive Technologies: Sunni and Shia Perspectives. Vol. 23. Berghahn Books, 2012.

52. Abbasi-Shavazi, Mohamed Jala, et al. The Iranian ART revolution: infertility, assisted reproductive and third party donation in the Islamic Republic of Iran. The journal of Middle East Women's Studies (2008) 4(2):1-28.

53. Loe, Meika. The Rise Of The Viagra: How the Little Blue Pill Changed Sex in America. NYU Press, 2004.

54. Christen, Arden G., and Elbert D. Glover. "History of smokeless tobacco use in the United States". Health Education (1987)18(3):6-13.

55. Duby, Georges, and Michelle Perrot. A History of Women: From Ancient Goddesses to Christian Saints. Belknap Press, 1994.

56. Benjamin, Harry, and Albert Ellis. "An objective examination of prostitution." International journal of Sexology (1954).

57. National Institute for Health and Clinical Excellence (NICE). Caesarean section. London (UK): National Institute for Health and Clinical Excellence (NICE); 2011 Nov. 57 (Clinical guideline; no. 132).

58. Bullough, Vern L. "A Brief note on rubber technology and contraception: the diaphragm and the condom." Technology and Culture (1981)22(1):104-111.

59. Hon, Edward H., and O. W. Hess. "Instrumentation of fetal electrocardiography." Science (1957) 125 (3246): 553-554.

60. Martan, Jan, and Benjamin A. Shepherd. "The role of the copulatory plug in reproduction of the guinea pig." Journal of Experimental Zoology (1976)196(1): 79-83.

61. Gomes, Cristina M., and Christophe Boesch. "Wild chimpanzees exchange meat for sex on a long-term basis." PLoS One (2009) 4(4): e5116.

62. Rohrlich, Ruby. "State formation in Sumer and the subjugation of women." Feminist Studies (1980) 6(1): 76-102.

63. Canadian Task Force on Preventive Health Care. Recommendations on screening for cervical cancer. Canadian Medical association Journal CMAJ (2013)185:35-45.

64. Smith, R. A., Brooks, D., Cokkinides, V., Saslow, D. and Brawley. Cancer screening in the United States, 2013. CA: A Cancer Journal for Clinicians (2013)63: 87–105.

65. Wender, R., Fontham, E. T. H., Barrera, E., Colditz, G. A., Church, T. R., Ettinger, D. S., Etzioni, R., Flowers, C. R., Scott Gazelle, G., Kelsey, D. K., LaMonte, S. J., Michaelson, J. S., Oeffinger, K. C., Shih, Y.-C. T., Sullivan, D. C., Travis, W., Walter, L., Wolf, A. M. D., Brawley, O. W. and Smith, R. A. American Cancer Society lung cancer screening guidelines. CA: A Cancer Journal for Clinician (2013)63: 106–117.

66. أسئلة الفتاوى بدار الافتاء المصرية في الفتوى المسجلة برقم ٣٢٧ لسنة ٢٠٠٨ وكتاب فتاوي دار الافتاء المصرية - المجلد التاسع (١٠٦٢) "الولادة بواسطة الطبيب" ص ٢٤٨٩- ٢٤٩٠.

67. قرارات مجلس مجمع الفقهي الاسلامي - قرارات المؤتمر الثامن بندر سيري بيجوان بروناي دار السلام المنعقد من ١-٧ محرم ١٤١٤ هجريا: موضوع مداوة الرجل للمرأة , مجلة المجمع (ع٨، ج١، ص٤٩)

68. إدارة الدعوة والارشاد الديني بوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بدولة قطر في فتواها رقم ٧٧٦٤

69. Valla, Jeffrey M., Stephen J. Ceci, and Wendy M. Williams. «The accuracy of inferences about criminality based on facial appearance.» Journal of Social, Evolutionary, and Cultural Psychology (2011)5(1): 66-91.

70. جريدة الشرق الاوسط اللندنية - عدد ٩٢٨٨ بتاريخ الخميس ١٥ سبتمبر ٢٠٠٥

71. كتاب فتاوي دار الافتاء المصرية - المجلد الخامس (٨٢٨) "الزواج العرفي شرعاً وقانوناً" ص ١٨٨٥-١٨٨٦

72. Giangrande, P. L. F. The history of blood transfusion. British Journal of Haematology (2000)110: 758–767

73. Thomas, Herbert, and Robert Wyatt. "Ectopic pregnancy." Obstetrical & Gynecological Survey (1965)20 (3): 481-483.

74. Brinsden, Peter R., and Peter R. Brinsden. "Thirty years of IVF: The legacy of Patrick Steptoe and Robert Edwards." Human Fertility (2009)12(3): 137-143.

75. Martin HJ. Roberts Edwards: The path to IVF. Reproduction biomedical online (2011) 23 (2): 245-262.

76. Josso, Nathalie, and Marie-Louise Briard. «Embryonic testicular regression syndrome: variable phenotypic expression in siblings.» The Journal of pediatrics (1980)97(2): 200-204.

77. Justia > US Law > US Case Law > US Federal Case Law > US Courts of Appeals Cases > F.3d > Volume 4 >4 F.3d 987: United States of America, Plaintiff-appellee, v. Cecil B. Jacobson, Jr., M.d., Defendant-appellant – Decided 3 September 1993.

78. Robin Yapp. Pele fertility doctor deceived IVF parents. The Telegraph/ world/South America.16 may 2011.

79. Connolly, Mark P., Stijn Hoorens, and Georgina M. Chambers. "The costs and consequences of assisted reproductive technology: an economic perspective." Human Reproduction Update (2010) 16(6): 603-613.

80. House of Lords. Hansard volume (House of Lords debates) volume 727- May 9,2011, column 693-695.

81. كتاب فتاوي دار الافتاء المصرية - المجلد العشرون (٣٣٤٥) "التلقيح الصناعي" ص ٧٧٦٦

82. Dunn, Peter M. «The Chamberlen family (1560–1728) and obstetric forceps.» Archives of Disease in Childhood-Fetal and Neonatal Edition (1999)81(3): F232-F234.

83. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - سلسلة تقارير التنمية الانسانية العربية - ٢٠٠٩ المجلد الخامس

حكايات عربية في مونتريال

في البدء.. كانت الغربة ووجع البعاد عن أوطاننا، وحنينا الدائم لثقافتنا الأم.. فوجوهنا العربية هي وشم شخصيتنا التي نفتخر به في البلاد البعيدة. ثم كان النداء ذات مساء في أحد مسارح مدينة مونتريال الكندية الذي كان يستضيف كاتبًا عربيًا مشهورًا، من فتاة ثلاثينية بشعر كثيف شديد السواد، وعينين يشع منهما ألق ووهج، عرّفت نفسها بإسم: سماح صادق، قامت تدعو محبي لغة الضاد إلى ملتقى أسبوعي يسبحون فيه بين الأحرف والكلمات والسطور، وسرعان ما انجذبت أرواحنا إلى الغوص في بحور عالم الأجداد، الذي نقلنا معه إلى سحر الكلمات وثراء التجارب الإنسانية، لتسطر أقلامنا أدبًا، مداده من أرض بلادنا البعيدة، وريشته تجارب شعوب الدنيا كلها، فجاءت حكاياتنا في ثوب جد مختلف، نحاول فيه أن نعيد اكتشاف أنفسنا وبلادنا، وعالمنا الذي يحتوي أجسادنا المكوية بنيران عشقنا الدائم لأوطاننا التي لم تغادرنا أبدًا..

بين تلك الليلة واليوم، مضت ليالي وجرت أيام، وجلستنا الأسبوعية ليست فقط جلسة أصدقاء يجمعهم حب وهموم مشتركة، أنها أيضًا خلية إبداع، وساحة نقد لكل ما يكتب بلغة الضاد أو يُنقل إليها من الأدب العالمي ويتناول الهم الإنساني على اختلاف أشكاله. هذا الكتاب هو واحد من إبداعات المجموعة، آمل أن يسهم في تقديم أدب عربي حديث فيه عبق عراقة وأصالة وطننا العربي الكبير، وثراء تجارب إنسانيتنا للأدب الإنساني.

لكل أعضاء حكايات عربية بمونتريال اتقدم بوافر الشكر لدعمكم وتشجيعكم لهذا العمل خلال مراحل خروجه الي النور.. وأخص بوافر العرفان والامتنان السيدات: فكرية فريد، ميادة عيسى ونجوى حمدي لتصديهن لمهمة المراجعة اللغوية للنص.. كما أتقدم بالشكر للأصدقاء الاساتذة بالترتيب الأبجدي: اسامة علام، إلهام بكريم، بان القزويني، سامي حنا، سباح صادق، شريف رفعت، عبد الفتاح الصواف، عزة البكري، محمد المنسي قنديل، محمد عنتر علي ملاحظاتهم القيمة علي العمل.

للتواصل مع الكاتب:
Khaled.Zohni@mail.mcgill.ca

الفهرس

تمهيد ١٣
في وقت ما قبل البداية ١٧

الفصل الأول ٢٧

صلاح المعاون ٤٢
زبيدة ٥٢
في ظلمات القنوط ٥٩
هكذا تحدث كونفوشيوس ٦٨
الإسباكيولام ٧٨
فلوة ٨٤
الطهارة سوداني ٩٣
المدعو «الشيخ» عبد الجليل ١٠١
حكاية الدكتورة مها ١٠٨
في حضرة الجهل ١٢٥
اسمها الدكتورة هبة البيلي ١٣٥
مئة يوم من العذاب ١٤٦
توتو بك الأمور ١٥٩
تحت الحصار ١٦٩

حميدة وهايدي ١٧٧

الفصل الثاني ١٨٧

فؤاد بك الصباغ ١٩١
سعدية مسعود أسعد السعد ٢٠١
الصفقة ٢١٣
حدثني عن التعقيم: الاسطي حراجي ٢٢٢
محمود الهادي ٢٣٢
قانون بليل في الإجهاض ٢٤٠
حكاية وردة ٢٥٠
يحدث في ليلة الدخلة ٢٦٠
عسل الزناجرة ٢٦٨
وعاء الخطيئة ٢٧٥
شيرزاد ٢٨٥
عزيزي الوغد ٢٩٩
مهجة القلوب ٣١٤
عذراء القطار ٣٢٥
القندلة ٣٤٢

الفصل الثالث ٣٥٣

عيلاء فراولة ٣٥٩
القاهرة ٢٠٠٠ ..... ٣٧٥

الاستاذ الدكتور عصمت عوض ٣٨٦
كريم تويوتا ٣٩٤
في دار الهجرة للولادة ٤١٠
مهرجان الامتحانات الجامعية ٤٢٠
الحب في زمن الإمتياز ٤٤٠
الجواز عرفي ٤٥٥
وقالت المرأة: شج بطني ٤٦٥
الإشترفتاحي ٤٧٨
حديث البحث العلمي ٤٩١
طفلك في الأنبوب ٥٠٠
الديك ذو العرف الكثيث والذيل النجس ٥١٦
الخطة أ.ح.ي.هـ ٥٢٦
فرقة الضفادع البشرية ٥٣٦

الختام ٥٥١
مراجع الكتاب ٥٥٥

ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/

هذه الرواية أسرتني على امتداد أربعة أسابيع، كان يمكنني قراءة صفحاتها الخمسمائة وستين في ثلاثة أيام أو أربعة، لكنني ما أن اكتشفت مفاجآتها المبهجة وعميقة البساطة، حتى قررت أن يمتد استمتاعي بها أطول وقت ممكن، فكنت أقرأ منها مساءً قسطاً محدوداً لا أتجاوزه، يجعلني أقهقه بصوت مرتفع، فأثير غيرة من حولي، يريدون أن يضحكوا معي، ولم يكن ذلك ممكناً، فمتعة قراءة الأدب، كما تأليفه، تظل عملاً فردياً، وفتونها وشجونها تظل فردية أيضاً، لكنها فردية مشعة كما الضوء في النهاية، تُنير ويمتد نورها إلى أبعد كثيراً من مصدرها، لقد كانت متعةً نفسية ومعرفية وجمالية، آثرت أن أستبقيها معي أطول وقت ممكن، لكنها كما كل شيء في عالمنا البشري، لابد له من نهاية، والنهايات تنطوي حتماً على شجن، لكن الشجن هذه المرة كان يُضحك، ضحكاً مجلجلاً كريح منفعلة تُطير هشاش الأرض، لتعيدها للإنسان عفية نقية كما ولدته غض، خرج بابداع مشرط جراح فنان لعوب وماهر، من قرارة الرحم والجرح إلى وجود جديد، بعملية قيصرية: سيزيريون!

د.محمد المخزنجي

خالد ذهني طبيب و كاتب، من مواليد الاسكندرية ج.م.ع عام 1971، حصل علي بكالوريوس في الطب والجراحة و ماجستير في أمراض النساء والتوليد من جامعة الاسكندرية بمصر، ثم علي دكتوراة في علاج العقم بالخلايا الجذعية من جامعة ميجيل بكندا، وصدرت له مجموعة قصصية عام 2011 بعنوان من العين السخنة الي ميدان التحرير: البحث عن ثورة

الغلاف: مي مجدي

المصري للنشر والتوزيع
حكايات عربية في مرتفع ال